رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

جمادى الأولى ١٣٧٣ هـ
يناير ١٩٥٤ م

السنة السادسة
العدد الأول

إن هذه أمتكم أمة واحدة
وأنا ربكم فاعبدون

«قرآن كريم»





رسالة الإسلام

مجلّة اسلامية عالمية

تصدرها دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تنشر الطبعة الثانية بإذن خاص من

المهندس القمى نجل المغفور له العلامة القمى، السكرتير العام

لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تصدّى لنشرها

مجمع البحوث الاسلامية للآستانة الرضوية المقدّسة

و

مجمع التقريب بين المذاهب الاسلامية

١٤١١هـ/ ١٩٩١م

الأمور الفنّية والطبع

مؤسسة الطبع والنشر فى الآستانة الرضوية المقدّسة

بسم الله الرحمن الرحيم

خواطر من الذاكرة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم

وكيل جماعة التقريب

بهذا العدد تدخل «رسالة الإسلام» فى عامها السادس على بركة الله تعالى ، وقد بعث إليها فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم – حفظه الله – بهذه الكلمة تحية وتهنئة لها ، وفيها من النصح والتوجيه ما نرجو أن يهدى الله إليه ، وينفع به . [التحرير]

الحمد لله الذى أتم علينا نعمته وارتضى لنا الإسلام دينا ، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذى أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وعلى سائر أنبياء الله ورسله ، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

أما بعد ، فإنى أبعث بتحيتى وتهنئتى إلى مجلة « رسالة الإسلام » الغراء ، وهى على أبواب عامها السادس ، وأسأل الله لها تمام التوفيق ، واطراد النجاح ، وأن يُمد القائمين عليها بعونه ، ويؤيدهم بنصره ، ويؤتيهم من لدنه رحمة ، ويهيء لهم من أمرهم رشدا ، إنه تعالى ولى الصابرين ، وإن رحمته قريب من المحسنين .

* * *

وأنتهز هذه الفرصة فأدلى من ذاكرتى ببعض الخواطر التى تعرض لى أحيانا ، مما لعله يفيد المجلة كتابها وقراءها إن شاء الله تعالى :

١ — فمن ذلك أن الناس يذمون التعصب للرأى ، ويرونه ضاراً بالعلم منافيا لما ينبغى أن يكون بين أهله من سماحة ، وقد يصل بهم الأمر إلى أن يقيسوا رقى الأمم والجماعات بمقياس يرجع إليه ، فإذا وجدوا التعصب سائداً فى قوم وصفوهم بالتأخر الفكرى ، أو بالقصور ، أو بالتزمت ، أو بضيق الأفق ، إلى غير ذلك من العبارات الدالة على الجمود أو لوازم الجمود ، وعلى العكس من ذلك نراهم يصفون المتسامحين ، فهم عندهم أقوى عقولا ، وأهدى سبيلا ، وأصلح للحياة الاجتماعية الراقية .

وإطلاق القول على هذا النحو مجانب للصواب ، فإن « التعصب » إن أريد به عدم قبول الحق عند ظهور الدليل بناء على ميل المرء لعصبته ، وجِدّه فى نصرتهم ؛ فهو مذموم منهى عنه فى الإسلام ، ويطلق عليه لفظ « العصبية » وقد نعى الله على أهل الجاهلية فى غير آية من كتابه الكريم ، تمسكهم بها ، ومن ذلك قوله جل شأنه « أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون . بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مُترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » (١) .

وفى الحديث الشريف (ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل عصبية ، وليس منا من مات على عصبية) (٢)

وشبيه بهذا الذى كان يفعله أهل الجاهلية تعصب بعض المقلدين لمذاهب أئمتهم وإن وقفوا على ضعفها أو بطلانها ، وفى ذلك يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام « ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه

---

(١) سورة الزخرف ٢١ — ٢٥

(٢) رواه أبو داود عن جبير بن مطعم ، كما فى الجامع الصغير .

بحيث لا يجد لضعفه مَدْفعا ، وهو مع ذلك يقلده فيه ، ويترك من شهد له الكتاب والسنة ، ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلَّده » .

وقد أفاض العلماء فى فساد هذه الطريقة وبيان مجافاتها للصواب ، وتأبيها عن الحق ، ومن القواعد التى يقررها الشرع والعقل أن (الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل) .

وإن كان المراد بالتعصب الغيرة على مايراه المرء حقا ، وبذلَ الجهد فى الدفاع عنه ، وعدم التسامح فيه ، فذلك محمود ، بل واجب بالشرع والعقل ، فانه لا بد للحق من مستمسك به ، مدافع عنه ، ولو ساغ أن يتطابق الناس جميعا على التسامح فى شأن الحق ، والفتور عنه ، لبطل الحق ، وعُمِّى على الناس وجهه ، والتبس بالباطل فى كثير من الشئون .

ولهذا لا يصلح مجتمع يخلو من المستمسكين بالحق ، المدافعين عنه ، الذين لا يترخصون فيه ولا يتسامحون ، وإن جميع الدعوات الصالحة الخيِّرة ما رسخت أصولها ، ولا تَمَقَّتْ فروعها ، إلا باستمساك أهلها بها ، وصدقهم فى النضال عنها ، لأنهم آمنوا بها إيمانا ثابتا لا يتزلزل ، ولولا هذا الإيمان الصادق القوى المتماسك لماتت ـ والعياذ بالله ـ دعوة الإسلام فى مهدها ، ولفسد المجتمع الإسلامى من أول الأمر بما يسميه المتحللون مساهلة أو مياسرة ، ونسميه نحن انحلالا أو اضمحلالا .

وقد أمر الله المؤمنين بأن يكونوا أقوياء فى الحق « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ومدح الذين « يمسّكون بالكتاب » ولعل هذه الصيغة إنما اختيرت للتعبير عن معنى القوة فى الأخذ ، وهو ما صُرح به فى مثل قوله تعالى لنبيه يحيى : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » ولنبيه موسى : « فخذها بقوة » ، كما أمر المؤمنين بأن يكونوا « قوّامين لله » والقوّام بالشىء غير القائم به إذ هو مبالغة فى القيام تقتضى القوة فى الاستمساك والتشبث ، وذلك كله ينافى التراخى عن الحق ، والمساهلة فيه .

هذا والناس إنما يفقدون الحماسة للحق ، والحرارة فى الدفاع عنه ، لواحد من أمرين : إما جهل به يصرفهم عنه ، فهم لم يذوقوا حلاوته ، ولم يباشروا بشاشته ، فأنىّ لهم أن يعبأوا به فضلا عن أن يغاروا عليه ، وإما شُغل بغيره يملأ القلب ، ولا يترك مجالا للنضال عن الحق ، والكفاح فى سبيله ، وأولئك هم الذين يعرفون الحق ويشغلهم عنه ما آثروه من أنفسهم ومصالحهم ، فهم يتظاهرون بأن تركهم مناصرةَ الحق إنما هو لتركهم التعصب ، وكراهيتهم التزمت والتشدد ، والله يعلم أن ذلك منهم نكول ونكوص وإيثار لعاجل الدنيا على آجل الآخرة ، وأشد ما تصاب به الأمم فى علمائها وأهل الرأى فيها ، هو التحايل للخروج من تبعات الكتمان بالتأويل والتضليل .

بهذا يتبين أن التعصب ليس مذموماً كله ، وأن اتخاذ أمره مقياساً للرقى أو الانحطاط يجب أن يتلقى بحذر ، ويقدّر بقدر .

ألا وإن دعوة التقريب لدعوة إلى الأخذ بمحموده والانتهاء عن مذمومه ، وإنها لدعوة الإسلام .

* * *

٢ — ومن ذلك أن بعض الكاتبين فى الدفاع عن الإسلام ، يسلكون سبيلا لا أرى لهم أن يسلكوها لما فيها من الخطر ، وإن استتر . وأقصد بهم الذين يحاورون مفكرى الغرب فيما يرونه خيراً للمجتمع أو شراً ، ثم يحاولون أن يبرئوا شريعة الإسلام من هذا الشر ، أو يضيفوا إليها الأمر بذلك الخير .

مثال ذلك : تعدد الزوجات ، فإنهم يأخذون عن الغرب مجافاته للمجتمعات الراقية ، وإفضاءه إلى ألوان من الكوارث تجعله أمراً ضاراً بالناس ، ثم يدافعون عن الإسلام بأنه يمنع تعدد الزوجات بقوله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » مع قوله جل شأنه : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .

وليس هذا حقاً ، فإن الإسلام أباح التعدد لحكم جليلة ، ومنافع للمجتمع يدركها المنصفون ، فمن الخير أن نشرح وجهة الإسلام فى هذه الإباحة ، لا أن

نشكرها ونمارى فيها ، ولنعلم أن الله تعالى لم يشرع لنا حكما إلا كان مطابقاً للحكمة والمصلحة والرحمة ، فإلى بيان ذلك فلتتجه الأفكار والأقلام .

وقد كان من آثار اغترارنا بما يراه أهل الغرب أن وفدت علينا وافدات كثيرة عن هذه الطريق ، فصار فينا من يطالب بقصر الدين على ما يسمونه النواحى الروحية أو الخلقية أو التهذيبية أو نحو ذلك ، وألا ندخل به فى النظم والمسائل العملية ، وغفلوا عن الفرق بين شريعة الإسلام وغيرها ، فإذا كان غيرنا لم يجد فيما عنده مناهج الإصلاح وتنظيم المجتمع ، فلا يجوز أن ينسحب ذلك علينا وفى شريعتنا كل مقتضيات الحياة الصالحة الراشدة .

وكذلك صار فينا من يستحسن إطلاق حرية المرأة دون التفات إلى ما يجوز من ذلك فى شريعتنا وما لا يجوز ، ودون دراسة بصيرة منصفة لوجهة نظر الشريعة الإسلامية فى صون المرأة والمحافظة على كرامتها وآدابها ، ووقاية المجتمع من شرور الانحلال والفتنة إذا ترك الحبل على الغارب للنساء والرجال فى المجتمعات ، ومثل هذا استحسان تسوية المرأة بالرجل فى الميراث ، واستحسان بعض المعاملات الربوية ، ومحاولة إيجاد منفذ للقول بإباحتها شرعا ، وإغراء بعض أهل العلم باسم التجديد والجرأة الفكرية وإظهار الإسلام بمظهر المطاوعة للتقدم على الوجه الذى يزعمون - إغراؤهم باقتحام حصون التشريع تلبية لهذه الأهواء الباطلة .

وقاعدة الإسلام التى لا يجوز الخروج عنها لمؤمن ، أن ننظر فيما يعرض لنا من مسائل وأحكام ، فما كان فى كتاب الله تعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أخذنا به ، وعملنا على بيان حكمته وما فيه من المصلحة ، ليقتنع به من يظنون أنه مخالف للعصر ، أو غير صالح للمجتمع الحديث كما يقولون ، فإن لم نجد طبقنا أصول الإسلام فى النظر وتحرى المصلحة مستعينين بآراء من سبقنا من سلفنا الصالح ، وأئمتنا الأعلام ، دون أن نتقيد إلا بما صح سنده ، ورجح دليله .

أما أن نعتنق الرأى لأن شعباً من الشعوب اعتنقه ، أو مفكراً من مفكرى

الشرق أو الغرب دعا إليه ، ثم نلتمس له وجهاً فى الإسلام ، أو نأطِرَ الأدلة الشرعية عليه أَطْراً ، فليس ذلك سواء السبيل .

* * *

٣ — وأمر ثالث يحضرنى الآن وأحب أن أنبه إليه ، ذلك أنى سمعت أن بعض أهل العلم كان يحث الناس فى بعض الجمعيات الإسلامية ، على الاهتمام بالثقافة الدينية ، والعناية بتربية جيل يفهم الدين والشريعة حق الفهم ، ويؤمن بهما على بصيرة حق الإيمان ، وأن نصلح مناهجنا وطرق دراستنا لهذه الثقافة الإسلامية إصلاحا يتفق وهذا الاهتمام ، فإن الإدراك الصحيح هو أقرب وسيلة إلى الإيمان القوى ، وإن الإيمان القوى هو أكبر مدد للروح المعنوى .

سمعت أن بعض أهل العلم كان يكلم الناس بهذا ، فقال قائل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حارب وجاهد بقوم لم يكونوا يعرفون من الإسلام إلا شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وكان العربى البدوى يدخل الإسلام بهذه الكلمة ، ثم يصبح جندياً محاربا يجاهد فى سبيل الله ، دون أن يعرف ما قاله مالك أو أبو حنيفة أو غيرهما فى الحيرة بالحيض من النساء ، أو فيمن ولدت بالمشرق وزوجها غائب عنها أكثر من مدة الحمل فى المغرب ، ولا فى زواج تم بين إنسى وجنية ، أو جنى وأنسية ، إلى غير ذلك من المسائل التى يشتغل بها أهل العلم الآن ، والناس فى جهاد لطرد الاستعمار ، ومقاومة المبادىء الهدامة ، والمذاهب الاقتصادية الخطرة ... الخ .

هذا ما يقوله بعض الموجهين للشباب ، وهم فيه مغالطون ، فما كانت الثقافة الإسلامية والتعاليم الإسلامية بخافية عن الأمة فى مجموعها على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وما كانت الأمة متمثلة فقط فى هذا الأعرابى البدوى الذى لا يعرف إلا الشهادتين ، ولكن كان فيها رجال من فحول الفكر والرأى ، وعباقرة السياسة والحرب على علم وبصيرة وإيمان ، ولم يقل أحد إن النبى وأصحابه أعرضوا عن إعداد العدة ، وتهيئة الأمة بالوسائل المادية ، إلى جانب

الروح المعنوى ، بل كانوا يعلمون أبناءهم الرماية والسباحة ، ويعودونهم الجرى والسبق وركوب الخيل ، وهذه كانت يومئذ هى علوم القوة ووسائل الجهاد ، ولو كان فى زمن الرسول طائرات لعلموهم الطيران صناعة وركوبا ، ولو كان فى زمنهم قفز من الطائرات لعلموهم كيف يقفزون ، وإنّ جهلنا بديننا هو الذى جعلنا نظن أن علمه قاصر على الأحكام الخاصة ، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وسبيل القوة هو المشاركة فى العلم فلا يجوز للمسلمين أن يهملوا علما من شأنه أن يزيد قوتهم ، ويؤمنهم شر أعدائهم ، وإلا كانوا مخالفين لهذه الآية .

فهذا واجب على الأمة ، ولكنه لا ينافى اشتغال فريق من أبنائها بالعلوم الشرعية ، والأحكام الفقهية ، فإن فقه الإسلام ماهوإلا منهاجه وشرعته فى الحياة « ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ولا يعيب المشتغلين به أن يتعمقوا فى دراسته إنما العيب فى أن يقصروا فيه ، ويكلّوا عنه ، وفى أن تكتفى الأمة بالعلوم النظرية دون العلوم العملية .

والله تعالى هو المسئول أن يهدينا سواء السبيل ، وأن يجنبنا الجدل العقيم ، فانه « ما ضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل » .

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب » ؟

تفسير القرآن الكريم

سورة المائدة

— ٦ —

عود على بدء فى نداءات السورة : الوفاء بالعقود أصل من أصول الاجتماع — المقومات المادية والمعنوية للأمة — الصلاة والتطهر شعيرتان من شعائر الإسلام — ميثاق الإيمان يقتضى المؤمنين أن يكونوا « قوامين لله » : على « القوامية لله » تبنى عظمة الأمة — القسط صمام الأمن فى كل مجتمع — العدل ميزان لا يتأثر بالحب ولا بالشنآن — البغض فى الله لا يبرر الانحراف عن العدل — سوابق الفضل والإحسان ، مدد للإيمان — لا سبيل للفلاح إلا ابتغاء الوسيلة إلى الله

آيات النهى عن موالاة المؤمنين للكافرين فى هذه السورة — لا موالاة للأعداء ، ولكن بر وقسط ولو سلف منهم الإيذاء — العداوات ليست دائمة .

استطراد للعبرة : المسلمون أولى بالبر والقسط فيما بينهم — جناية التعصب على الأخوة الإسلامية .

لا ولاية بين الحق والباطل — لا رابطة بين منافق ومنافق — دلالة التعبير بلفظ : « الاتخاذ » .

بواعث اتخاذ الكافرين أولياء : ملاحظة المصالح الخاصة — قصة حاطب بن أبى بلتعة — لماذا لم يحكم عليه الرسول بالكفر — عبرة المؤمنين من هذه القصة — مصانعة الأعداء لاحتمال تغلبهم — ابتغاء العزة والسلطان عندهم — اتقاء شرهم .

عود على بدء فى نداءات السورة :

تقدم الكلام عن ست آيات من الآيات التى جاءت فى سورة المائدة مبدوءة بنداء المؤمنين ، ونتكلم اليوم عن ثلاث أخرى من هذه الآيات موضوعها :

تحريم اتخاذ المؤمنين أولياء من أعدائهم ، ينصرونهم أو يستنصرون بهم على قومهم ، وبيان أن تولى المؤمن للكافر مناف لعقد الإيمان ، مخرج من ربقته .

وقبل أن نتكلم عن هذه الآيات نذكر أن جميع ما جاء فى هذه السورة من الآيات المبدوءة بنداء المؤمنين ، قد تضمن موضوعات هامة لها قيمتها فى تكوين الأمة تكوينا قويا صالحاً فى دينها وشعائرها وأسس حكمها ومعاملتها لمخالفيها ، ولكى نبين ذلك ، ونربط به حديث اليوم ، نعود إلى النداءات السابقة لنعرضها عرضاً يسيراً ، ونستذكر موضوعاتها التى تحدثت عنها :

فالنداء الأول : وهو قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » هو أعمها وأشملها ، وهو بمثابة العنوان لكل ماجاء بعده من النداءات التى هى فى الواقع تفصيل لإجماله ، وتفريع على قاعدته وأصله .

الوفاء بالعقود أصل من أصول الاجتماع :

والوفاء بالعقود أصل من أصول الاجتماع ، وركن من أركان الحضارة الراقية المهذبة التى تنشد الاستقرار والطمأنينة ، فلا غرو أن يكون له هذه الأهمية فى التشريع الإسلامى ، وأن تبدأ به السورة التى كانت من أواخر ما نزل من القرآن ، والتى أتمت على المسلمين قواعد المجتمع الصالح الرشيد ، حتى جاء فيها قوله تعالى : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

المقوّمات المادية والمعنوية للأمة :

وقد أتبع هذا الأمر الإجمالى ببيان ما أحل الله للمؤمنين من الطيبات ، وما حرم عليهم من الخبائث ، فى الطعام والصيد والنساء ، وجاء النص فى هذا البيان على حل طعام أهل الكتاب ، وحل التزوج من نسائهم قطعاً لما عسى أن يقوم بالأذهان من حرمة ذلك « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » .

ولا شك أن طبيعة الاجتماع البشرى تفرض تنظيم هذه الناحية التى يتهيأ بها للناس أن يعرفوا الأساس فيما لهم أن يتناولوه أو يمتنعوا عنه مما يقيم بنيتهم ، ويلبى نداء طبيعتهم ، ويحفظ حياتهم .

والنداء الثانى ، وهو قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » الخ هو أمر للأمة بأن تحتفظ بمظهرها وبميزاتها وما جرى فيها مجرى الخصائص ، فلا تنتهك شيئاً من ذلك ، ولا تتهاون فيه ، فإن تهاون الأمة فى شعائرها ، وتفريطها فى الطابع الذى تمتاز به ، من شأنه أن يدفعها إلى التحلل ، ويفضى بها إلى الانهيار ، ويظهرها أمام الأمم الأخرى بمظهر الهازل المستهتر الذى لا يتورع أن يهدم بيده أساس بيته ونظام عيشه ، كما أن من شأنه أن يسقط هيبتها ، ويهون من عظمتها ، ويُجرّىء عليها غيرها ، ولذلك نرى الأمم إن تهاونت فى شىء مما يتصل بها فلن تتهاون فيما يعد شعاراً لها ، ومظهراً من مظاهر كرامتها وعزتها ، وربما قامت الحرب الضروس من أجل راية أهينت ، أو شارة احتقرت ، أو نحو ذلك مما له مساس بكرامة الأمة ، واعتداء على هيبتها .

ومما ينبغى أن نلتفت إليه أن هذين النداءين قد جاءا فى السورة متداخلين مندمجين اندماجا ربما أوحى بأنه لا انفصال بين ما هو من مقومات الأمة فى حياتها المادية ، وما هو من مقوماتها فى حياتها المعنوية ، فالشعار والمظهر ، كالمأكل والمشرب وسائر ضروريات الطبيعة ، كل ذلك لابد منه فى حياة الاستقرار والطمأنينة .

ومما ينبغى أن نلتفت إليه أيضاً أن الله ـ جلت حكمته ـ قد أكد فى تضاعيف هذين النداءين ، وجوب احترام الشعائر ، والوفاء لها ، بالنهى عن الانسياق وراء بواعث الرغبة البشرية فى الانتقام متى تعارض ذلك مع الوفاء لشعيرة من الشعائر ، كشعيرة تأمين الشهر الحرام ، والبيت الحرام ، وذلك قوله تعالى : « ولا يَجْرِمَنَّكم شنآن قوم أنْ صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

الصلاة والتطهر شعيرتان من شعائر الإسلام :

والنداء الثالث ، وهو قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم » الخ ، هو تنظيم للوسيلة إلى أهم عبادة كلفها الله المؤمنين ، وهي الصلاة ، والوسيلة إليها هي التطهر ، والصلاة شعيرة من شعائر الإسلام ، من أقامها فقد أقامه ، ومن هدمها فقد هدمه ، ووسيلتها التي فرضها الإسلام على هذا النحو في الغسل والوضوء والتيمم لا توجد عند غير المسلمين ، فهي أيضاً من المظاهر المميزة للأمة الإسلامية ، وهي من العقود التي يأمر الله عباده بالوفاء له بها ، ويحذرهم من استثقالها ، ويذكرهم في شأنها بنعمته عليهم ، وميثاقه الذي واثقهم به « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون . واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ، واتقوا الله ، إن الله عليم بذات الصدور » .

والنداء الرابع هو قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله أن الله خبير بما تعملون » .

ونحب أن نخص هذا النداء بكلمة فيها شيء من البسط لبيان أهميته في تقوية كيان الأمة ، وضرورته في حفظ سياجها .

ميثاق الإيمان يقتضي المؤمنين أن يكونوا « قوامين لله » :

وأول ما ننبه إليه في ذلك أنه جاء كسائر النداءات الأخرى ، تفصيلا لعقد من العقود التي أمر المؤمنون بالوفاء بها في أول هذه السورة ، فميثاق الإيمان الذي واثق الله به المؤمنين ، يقتضي أن يكونوا « قوامين لله » .

على (القوامية لله) تبنى عظمة الأمة :

والقَوّام : هو المبالغ في القيام بالشيء ، المضطلع به اضطلاعا قويا ، فهو شديد الحرص عليه ، شديد الوفاء له ، شديد الغيرة على تمامه وصلاحه .

إن الناس قد يشتغلون بألوان من الأعمال ، ويهتمون بكثير من الشئون ،

ويقومون بهذا وذاك قياما معتاداً مألوفا لا يكلفهم انبعاثا خاصا ، ولا يدفعهم إلى بذل جهود فوق العادة فى سبيل تجويد أعمالهم واتقانها ، ولكننا نصادف فى الأمم ، وفى البيئات العامة أو الخاصة ، أفراداً يكون اهتمامهم بأعمالهم وما أسند اليهم ، أو ما أخذوا أنفسهم بالقيام به ، اهتماما على نحو فريد له شأن يلفت النظر ، ويثير الإعجاب ، ويبشر بالخير والصلاح . إن أمثال هؤلاء يَفْنَون فى أعمالهم فناء كلياً ، ولا يدخرون فى سبيل إصلاحها وإتمامها سعياً ولا جهدا ، ويغارون عليها غيرة شديدة تبعث فيهم نشاطا عجيبا ، وجلداً غريبا ، وصبراً يصبح مضرب الأمثال ، ترى الواحد منهم لا همَّ له إلا أن يحقق النجاح لما اضطلع به من شأن ، ولا شيء فى نظره يمكن أن يلويه عن ذلك أو يصده ، فلا هو بالحريص على غنى أو مجد يناله ، ولا هو بالضعيف عن عقبات أو صعاب تعترضه ، ولا هو بالناكص على عقبيه إذا طال عليه الأمد ، أو تعقدت بين يديه العقد .

هذا هو « القوّام » بالشيء ، وهذا هو الذى يطلب الله إلى المؤمنين أن يكونوه له ، فهو يريدهم أن يكونوا « قوامين لله » مضطلعين بأمره على نحو قوى ظاهر القوة ، لا أن يكونوا صوراً ضعيفة هزيلة ، يرضَوْن بأيسر الأمور ، وأدنى الآمال ، ولا يبذلون أكرم الجهود ، ويتلمسون المعاذير عن ضعفهم وتخاذلهم ، وهذا لون من التربية للشعوب ، والعمل على إيجاد رأى عام قوى فيها ، كما يقول علماء الاجتماع ، يكون مهيباً محترماً ، يوجه إلى الخير العام الذى يصوره هذا التعبير البليغ الجامع : « كونوا قوامين لله » فكل الناس مطالبون بأن يكونوا على هذه الصفة ، ذوى شخصيات قوية ، مضطلعة بما تضطلع به فى ثبات وعزم وشجاعة ، واضطلاعها بذلك لله ، فهو قصدها ، وهو باعثها ، وهو ملهمها ، وهو غايتها ، عندئذ يكون الحاكم « قوّاماً لله » والمحكوم « قواماً لله » والناصح « قواما لله » والمنتصح « قواما لله » ، ومثل ذلك كل عامل فيما خوّله الله ، وعندئذ تكون الأمة بناء قويا ، من لبنات قوية ، وتكون فى حصانة من أن تهضم أو تهدم أو تهزم أو تُظلم أو تهمل .

القسط صمام الأمن فى كل مجتمع :

هكذا يأمرنا الله تعالى أول أمر فى هذا النداء ، ثم يأمرنا بعد ذلك بالأمر الثانى ، وهو قوله عز وجل : « شهداء بالقسط » ، والقسط هو العدل ، وهو صمام الأمن فى كل مجتمع ، والشهادة به إظهاره للحاكم ليحكم به ، وإظهاره من الحاكم بالحكم ، فالحكام مطالبون بأن يكونوا شهداء بالقسط ، على معنى أن يظهروه ويؤيدوه ويحكموا به ، والناس مطالبون بأن يكونوا شهداء بالقسط على معنى أن يُدْلوا به إلى من وَلوْه حكمَهم ، وأن يظهروه عليه ، ويؤيدوه فيه ، ويرضوا به ولا يخرجوا عليه ، والقسط فى الحكم والشهادة هو أساس الاستقرار والطمأنينة فى كل مجتمع ، فما دام ميزانه صادقا ، والأيدى التى تمسك به أمينة حفيظة ؛ فالمجتمع بخير وسعادة ، أما إذا اختل ميزانه ، أو اعتل من وكل إليه أمره ، فهنا الشقاء كل الشقاء ، وهنا التزعزع أشد التزعزع ، وهنا ضياع الثقة بين الناس بعضهم وبعض ، وبين الحاكمين والمحكومين ، وهنا تربص كل فريق بصاحبه ، وتحيُّن الفرص للإيقاع به ، وهنا ـ لذلك كله ـ ضعف الأمة ، وطمع أعدائها فيها ، ثم انقضاضهم عليها ، ثم استعبادهم لها « وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

العدل ميزان ، لا يتأثر بالحب ولا بالشنآن :

ثم يقول الله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » فينهى بذلك للمرة الثانية فى هذه السورة عن ملاحظة عوامل الكراهية والشنآن ، التى من شأنها أن تلوّن العدل بغير لونه ، وأن تحمل على التحيف وإضاعة الحق ، وذلك هو الإخلال بالعدل عن طريق الاجحاف بصاحب الحق ، والحيلولة بينه وبين الوصول إلى حقه .

وقد جاء المعنى المقابل لهذا فى سورة النساء حيث يقول الله جل شأنه : « ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » فهو نهى عن ملاحظة عوامل التعصب

للنفس ، أو التحيز للقرابة ، مما يبعث على تلوين العدل بغير لونه ، وإعطاء المشهود له ما لا يستحقه ، وذلك هو الإخلال بالعدل عن طريق محاباة النفس ، أو من تميل إليه النفس .

البغض فى الله لا يبرر الانحراف عن العدل :

ومما ينبغى أن نلتفت إليه أن الآية التى نحن بصددها من سورة المائدة ، تختم بالأمر بالعدل ، وبيان أنه هو الأقرب للتقوى ، أى من ملاحظة دواعى الكراهية والشنآن ، وكأنها بذلك تشير حتى إلى الحالات التى يكون فيها الشنآن لله ، لا لغرض شخصى أو دنيوى ، فالمكروهون حتى لمثل هذا الغرض الشريف ، الذين تقر الشريعة بغضهم ، بل تأمر به ، يجب أن يتمتعوا مع هذه الكراهية بالعدل وإيفاء الحق ، فلو أننا وازنا بين المصلحة فى إقامة العدل لهم ، كما يقام لسائر الناس ، وبين ما يتوهم من المصلحة فى ظلمهم ، والحيف عليهم ، انتقاماً منهم ، وضغطاً عليهم بحجة أنهم أعداء الله ، والخارجون على أمره ، والمفسدون فى أرضه ، لوجدنا المصلحة الأولى أحق بالاعتبار ، وأشبه بالسمو الذى يريده الله لبنى الإنسان وأقرب لتقوى الله ، وأدنى إلى تحقيق مرضاته ، أما المصلحة الأخرى فليست بجانب هذه إلا وهما يخيله الشيطان ليفسد به العدل على المؤمنين ، ويدس به عليهم ، كيداً لهم وخداعا ، وإيقاعا بهم وبمجتمعهم ، على أن أمر الكراهية والشنآن غير منضبط ، فكثيراً ما يظن الإنسان أنه يكره امرأً لا يكرهه إلا فى الله ، والواقع أنه يكرهه كراهة شخصية لسبب من الأسباب بدا له أو خفى عليه ، وليس من الحكمة أن تعلق العدالة بهذه العاطفة المتأرجحة غير المنضبطة ، وإنما الحكمة كل الحكمة تقضى بأن تكون العدالة حرة مطلقة الحرية ، محايدة لا تعرف المحاباة ولا الكراهية ، ولذلك يمثلونها فى هذا العصر شخصاً معصوب العينين ، حتى لا يرى ما يتأثر به ، وفى يده ميزان مستقيم ، وتالله إن هذه لهى عدالة الإسلام التى يأمر بها القرآن ، ولا يرضى إلا بها رب القرآن ، والتى لا تعرف عدواً ولا صديقا ، ولا قريباً ولا بعيداً ، والتى تضع أمام الناس هذه الحقيقة الصادقة ، إذ تثبت ميزان العدالة فى أيدى الممسكين به ، وتخوفهم من أن يلتووا فيه ، أو يعتدوا على

قدسيته ، مع علم الله بهم ، وخبرته التامة بأعمالهم ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

سوابق الفضل والإحسان ، خير مدد للإيمان :

والنداء الخامس هو قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم ، واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » وقد تقدم بيان المقصود منه ، فى العدد الماضى ، حيث أنجى الله رسوله والمؤمنين من كيد عدوهم ومؤامراتهم عليهم ، وسوابق الفضل والإحسان خير مدد للإيمان وحسن التوكل ، وفى هذا التذكير تقوية لقلوبهم ، وبشارة بنصرهم وتأييدهم ، ما داموا على ربهم دون سواه معتمدين ، وصرف لهم عما عسى أن يراودهم من التعويل على غيره ، والتماس الأمن والطمأنينة من سواه ، وهو بهذا تمهيد لآيات النهى عن اتخاذ أعداء الله أولياء ، كأنه يقول لهم : ان شأنى معكم أن أحفظكم وأدرأ الشر عنكم ، ولا أمكن عدوكم منكم ، لأنكم أوليائى ، وأنا وليكم ، فلا تركنوا إلى غيرى ، ولا تتولوا سواى ، ولا تطلبوا الأمن والسلامة إلا من طريقى .

لا سبيل للفلاح إلا ابتغاء الوسيلة إلى الله :

وكذلك النداء السادس : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون » فهو إيذان بأن ابتغاء الوسيلة إلى غيره ، ومن بينها اتخاذ أعداء الله أولياء ، لا يجدى صاحبه نفعاً ، ولا يكسبه نصراً ولا أمنا ، وإنما يكسبه ذلك أن يكون الله وليه ، وأن يجاهد فى سبيله ، فذلك هو الذى يرجى فلاحه ، وينتظر نجاحه .

ولا شك أن هذا مبدأ من أقوى المبادىء التى تصلح عليها الأمم ، وتستقيم بها العقول ، وتشحذ العزائم والهمم ، إذ يؤمن كل امرىء بأن الفلاح لا سبيل إليه إلا ابتغاء الوسيلة إلى الله ، والجهاد فى سبيل الله ، فإذا ابتغى الناس الوسيلة إلى الله أرضوه بطاعته فى أمره ونهيه ، وإذا جاهدوا فى سبيله قمعوا الباطل ، ونصروا الحق ، وأقروا فى مجتمعهم الخير ، ونفوا عنه الفساد والشر .

آيات النهى عن موالاة المؤمنين للكافرين فى هذه السورة :

بعد هذا تجىء الآيات التى تنهى المؤمنين عن اتخاذ أعداء الله أولياء ، وهى نداءات ثلاثة :

أولها : فى تقرير هذا النهى ، وبيان أن واقع الطبيعة والفطرة تقتضيه ، وأن مجاوزة هذا الواقع ظلم لا يرضاه الله ، ولا يهدى أصحابه ، ثم فى تصوير اندفاع مرضى القلوب إلى ارتكاب هذا الظلم ، وما يتعللون به من المعاذير لتبرير فعلهم وما يرجى من تطور الأمور تطوراً يفضى بهم إلى الندم والحسرة ، ويفضى بالمؤمنين إلى الشماتة بهم ، والسخرية منهم ، وذلك هو قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ، ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم؟ حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » .

النداء الثانى من هذه النداءات الثلاثة - وهو الثامن من نداءات السورة - فى أن الله تعالى مستغن عمن يرتد عن دينه ، وأن يضره ذلك شيئاً ، وسوف يأتى بدل من يرتد بقوم تتحقق فيهم صفات الإيمان الصحيح ، والجهاد الصادق ، وقد ألحق بهذا النداء آيتان أخريان تقرران أن المؤمنين ليس لهم من ولى إلا الله ورسوله وإخوانهم فى الإيمان والتزام أحكامه ، وأن عاقبة الذين يتولون الله ورسوله والذين آمنوا هى الفلاح والغلب ، لأنهم حزب الله ، وذلك هو قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

النداء الثالث : وهو السابع من نداءات السورة - يكرر النهى عن اتخاذ الأعداء أولياء ، ولكنه يذكر هؤلاء الأعداء بأوصافهم التى استحقوا بها هذا النهى عن ولائهم ، ويجمع فى ذلك بين الذين أوتوا الكتاب والكفار من كل من اتخذ الدين هزوا ولعبا ، واتخذ نداء المؤمنين إلى الصلاة التى هى مظهره وشعاره هزواً ولعبا ، وذلك قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

هذه هى النداءات الثلاثة التى جاءت فى سورة المائدة متضمنة النهى عن موالاة المؤمنين لغيرهم من أهل الكتاب ومن الكفار .

لا موالاة للأعداء ، ولكن بر وقسط وإن سلف منهم الإيذاء :

وينبغى أن يذكر القارىء أن هناك فرقا بين « الولاية » التى هى النصرة والمعاونة على تحقيق غرض مشترك ، بحيث يؤمن كل من « الوليين » أن لصاحبه عليه حقا هو مطالب بأدائه عن باعث قلبى ، وبين البر والقسط اللذين يجب أن يسودا المجتمع وتقوم عليهما العلاقة بين المواطنين ، وإن لم تجمعهما فكرة ، أو تؤاخ بينهما عقيدة ، ولذلك وقف القرآن من كل واحدة من هاتين العلاقتين موقفا يناسبها ، فهو ينهى المؤمنين أشد النهى عن اتخاذ المخالفين لهم من أهل الكتاب والمشركين « أولياء » يرتبطون بهم ارتباط المتناصرين بعضهم ببعض ، وذلك بأن يستعينوا بهم على المؤمنين ، ويعينوهم عليهم ، بينما يبيح للمؤمنين أن يعاملوا مخالفيهم فى الدين معاملة أساسها البر والرحمة والقسط ، ما دام لم يصدر منهم إيذاء لهم ، ولا تحريض عليهم ، ولا محاولة لفتنتهم عن دينهم « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » بل هو يذهب إلى أبعد من هذا فى التسامح ، فيبيح للمسلم أن يتخذ البر والقسط أساسا للتعامل بينه وبين مخالفه الذى آذاه ، بشرط ألا يصل الأمر بينهما إلى حد « الولاية »

والنصرة ، ويدل على ذلك قوله تعالى بعد الآية المتقدمة « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » فقد صرحت هذه الآية بأن المنهى عنه ـ فى شأن هؤلاء ـ هو اتخاذهم أولياء ، لا مجرد البر بهم ، والقسط إليهم .

العداوات ليست دائمة :

وقبل هاتين الآيتين يقول جل شأنه : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم » وفى هذا إيحاء بأن العداوات ليست دائمة ، وأن القلوب تتغير وتتحول ، وأن الرفق والإحسان قد يكونان سبيلا إلى إصلاح النفوس ، وتقريب القلوب ، وقد حدث فعلا فى تاريخ المسلمين أن كثيراً ممن كانوا أعداء لهم ، وحرباً عليهم قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وأبلوا فى الدفاع عن الدين بلاء حسنا ، فالله تعالى لا يرضى بأن يتخذ المؤمن مخالفه فى الدين ولياً ومناصراً ، ولكنه مع ذلك يعطى هذا المخالف حقه فى علاقات المعاشرة والمواطنة التى تقوم على البر والرحمة والقسط ، وكلا الأمرين هو غاية الحكمة والدستور الطبيعى للإنسانية فى كمال وعيها ، وكمال رقيها وسموها .

استطراد للعبرة : المسلمون أولى بالبر والقسط فيما بينهم :

ويحسن بنا أن نقف هنا وقفة يسيرة مستطردين إلى معنى يهمنا فى هذا المقام فنقول : إذا كانت سماحة الإسلام قد وصلت إلى حد أن أباحت للمسلمين البر بأعدائهم ومخالفيهم فى الدين ، وأن يقسطوا إليهم ، ويعدلوا فى شئونهم ، وإذا كان القرآن الكريم قد نهى المؤمنين عن ملاحظة عوامل الشنآن فى معاملتهم لأعدائهم وقال لهم : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ثم قال لهم : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » ؛ أفلا يذكر المسلمون أن علاقتهم فيما بينهم أولى بهذه السماحة ، وأجدر بأن تبنى على أساس البر والرحمة والقسط ، فلا تحملهم النزعات الطائفية أو المذهبية على تناسى ما بينهم من أخوة الإسلام ، والتراحم الذى لم يحرم القرآن منه حتى أعداء الإسلام ؟ .

جناية التعصب على الأخوة الإسلامية :

إن عهود الخلاف البغيض ، والعصبية الطائشة ، قد أفضت بالمسلمين بعضهم مع بعض إلى موقف كانوا فيه أسوأ حالا من موقف أعدائهم ، فهؤلاء يعاملون بالبر والقسط ، وأولئك يعاملون بالعنف والتسفيه ، بل يتهم بعضهم بعضا بالكفر والمروق ، وقد نبت هذا المعنى أول ما نبت فى بيئة الخوارج ، فهم الذين كانوا ينظرون هذه النظرة القاسية إلى مخالفيهم فى الرأى من المسلمين ، فإذا وقع فى أيديهم كتابى تركوه وشأنه ولم يعرضوا له بسوء وأبلغوه مأمنه ، أما إذا وقع لهم مسلم من مخالفيهم فإنهم يستحلون دمه ، لأنه فى زعمهم كفر بعد إيمانه ، ولذلك كان بعض المسلمين إذا ألقت به المقادير بينهم لم يجد وسيلة إلى التخلص من شرهم ، والإفلات من أيديهم ، إلا أن يكنى عن دينه ، فيقول : أنا من أهل الكتاب ، وعندئذ يطلقونه ويحمونه .

فهذا الذى يرويه التاريخ عن الخوارج وتعصبهم على أهل القبلة الإسلامية ، واعتبارهم الاختلاف فى الرأى مروقا من الدين ، قد سرى إلى المسلمين فى كثير من عصور التاريخ الإسلامى ، وشمل كثيراً من الأقطار الإسلامية ، وكان المسلم يخاصم أخاه المسلم ويقاطعه ، بل يظلمه ويهضمه ويُسْلِمه لمجرد أنه يخالفه فى مذهبه أو ينتسب إلى طائفة غير طائفته ، وهكذا بعد أن كان المسلمون فى موقف يتلقون فيه أمر ربهم بالإحسان إلى أعدائهم ، والبر بخصومهم ، والعدل معهم ، أصبحوا فى موقف يذكرون فيه بأخوة الإسلام ، وتراحم الإيمان ، وأصبح بعضهم يلتمس العَدل والنصَفة فى معرفة رأيه ، والوقوف به عند حده دون تأويله تأويلا سيئا ، وتحميله ما لا يحتمل من وجوه الكفر والمروق ونحوها - أقول : أصبح بعضهم يلتمس ذلك من بعض فلا يجده ولا يصل إليه ، كأنه مع أخيه أدنى حالا من الكتابى أو المشرك مع المسلم .

يجب أن يزول هذا إلى غير رجعة ، يجب أن يتسامى أهل الإسلام عن هذا الحضيض ، حضيض الخلاف والقطيعة والإنصات إلى النزعات المفرقة المبددة للجهود ، الصارفة عن النافع من الأعمال الصالحة ، والعلوم الصحيحة .

ونعود بعد هذا إلى موضوعنا فى دراسة النهى عن اتخاذ الكافرين أولياء، فنقول :

لا ولاية بين الحق والباطل :

إذا توافق جماعة على أمر ، فكان نظرهم إليه واحداً ، وحظهم منه واحداً ، فالفطرة تقضى بأن يكونوا فيه نصراء ، بعضهم أولياء بعض ، وذلك يتصور بين المؤمنين والمؤمنين ، ويتصور بين الكافرين والكافرين ، ولكنه لا يتصور بين مؤمن وكافر ، ولا يتصور بين منافق ومنافق ، ولذلك أثبت الله الولاية للمؤمنين بعضهم مع بعض ، فقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » وأثبتها للكافرين بعضهم مع بعض فقال : « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » وهو نفس التعبير الذى جاء فى آيتنا التى نحن بصددها : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض » أما ولاية المؤمن للكافر فقد نفى الله أن تكون ، وذلك حيث يقول : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » يعنى أن الإيمان وتولى الكافر متنافيان ، فلا يمكن أن يجتمعا ، ولا يعقل أن المؤمن من حيث هو مؤمن يوالى الكافر من حيث هو كافر ، وكل آيات القرآن متضافرة على هذا ، ففى سورة التوبة : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » والشاهد فى قوله : « فأولئك هم الظالمون » والآية تدل على أن هذا النهى الحاسم لا يتأثر بأية رابطة حتى رابطة الأبوة والأخوة ، وهى الرابطة النسبية : رابطة اللحم والدم ، وفى سورة المائدة : « ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ، حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » والإشارة إلى الذين يتولون الكافرين .

لا رابطة بين منافق ومنافق :

ولم يثبت الله سبحانه وتعالى « الولاية » بين المنافقين بعضهم مع بعض ، لكن قال « والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض » والتعبير بلفظ (من) يفيد معنى التشابه ، ولا يفيد معنى التناصر والولاية ، إذ لا رابطة قلبية بين منافق ومنافق ،

فكل منهما يريد أن يصل من طريق النفاق إلى ما يبتغيه دون أن تساوره فكرة الانتصار لشيء، لأنه غير مؤمن بشيء .

وبعبارة أخرى : كل من المؤمن والكافر ذو عقيدة ، وقلبه ممتلىء بها على صحتها أو فسادها فى الواقع ، فمعنى موالاة أحدهما للآخر أن أحدهما أخلى قلبه من عقيدته وأحل محلها عقيدة الآخر فعمل لها ، وترسمها ، وحرص على تقوية أمرها وتأييدها ، فإن وقع ذلك من المؤمن فقد كفر ، وإن وقع ذلك من الكافر فقد آمن ، فالولاية بمعناها الواقعى الصحيح لا تقع إلا بين اثنين مشتركين فى معنى واحد ، إيمانا كان أو كفرا ، أما المنافق فإن قلبه خلاء ، لا عقيدة تعمره ، وإن كان تكييف أمره ، من حيث إنه ترك الإسلام : أنه كافر .

دلالة التعبير بلفظ « الاتخاذ » :

يرد بعد هذا سؤال : لم نهى الله اذن عن اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء ، ما دام الولاء والتناصر لا يمكن أن يكون بين مؤمن وكافر ؟

والجواب : أن التعبير فى هذه الآية وغيرها بقوله « لا تتخذوا » فيه إشعار بأن العلاقة بين المسلمين والكفار لا يمكن أن ترقى إلى درجة الولاية الحقيقية الطبيعية ، وإنما هى من باب « الاتخاذ » والاصطناع ، وذلك أن هناك فرقا بين أن تقول : فلان صديق فلان ، وأن تقول : اتخذه صديقا ، فالأول مفيد أن الصداقة بينهما حقيقة طبيعية ، والثانى دال على أنها تعتمد التكلف والتصنع ، وقد جاء لفظ « الاتخاذ » فى القرآن الكريم غالبا فيما ليس الشأن فيه أن يكون ، مثل « ما اتخذ الله من ولد » ، « إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب » « إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » ، « اتخذوا أيمانهم جنة » ، « اتخذوا دينهم لهوا » ، « اتخذوا الشياطين أولياء » ، ولا يخرج عن ذلك ما جاء فى قوله تعالى « واتخذ الله إبراهيم خليلا » فإن شأن الألوهية عدم الخلة على الحقيقة ، وإنما هو اتخاذ ، أى اصطفاء واختصاص بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله .

فالقرآن ينهى المؤمنين عن إيجاد هذه العلاقة بينهم وبين الكافرين ، بأن

يتخذوهم أولياء يلقون إليهم بالمودة ، كما جاء فى سورة الممتحنة « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة » ، أما الولاية الحقيقية فنفية بالطبع ، ليست مما ينهى عنه ، لأن المؤمن الذى استقر الإيمان فى قلبه حقاً وصدقا ، لا يمكن أن يجتمع فى قلبه مع الإيمان ولاء لكافر عدو لدينه ، كما قررنا .

بواعث اتخاذ الكافرين أولياء : ملاحظة المصالح الخاصة :

وقد بين لنا القرآن الكريم البواعث التى تبعث على اتخاذ الكافرين أولياء ، وأنها ترجع إلى ضعف فى النفوس ، ونقص فى الإيمان :

١ — فمن ذلك أن يلاحظ المرء مصلحة لأهله ورحمه ، فيجامل مخالفيه فى العقيدة إلى حد أن يكون لهم ولياً ونصيرا على إخوانه وموافقيه ، حفظا لمصالح أهله ورحمه .

قصة حاطب بن أبى بلتعة :

وقد روى أن آيات « الممتحنة » نزلت فى شأن حاطب بن أبى بلتعة ، وهو رجل من المهاجرين شهد بدرا ، وكان له بمكة أولاد ومال ، فلما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة ، أراد حاطب أن يتخذ فى قريش يداً يحمون بها قرابته وماله ، فكتب إليهم كتاباً يخبرهم فيه بما اعتزمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسله مع ظعينة كانت بالمدينة وقصدت إلى مكة ، فأطلع الله رسوله على ذلك ، فأرسل علياً والزبير والمقداد ، فأدركوها فى الطريق ، وأخذوا منها الكتاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ياحاطب ، ما هذا ؟) قال : (لا تعجل علىّ إنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ، ولم أكن من أنفسهم - يعنى أنه لا نسب له فيهم ، لأنه إنما كان حليفاً لعثمان - وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن اتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنه صدقكم) فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنه شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم .

لماذا لم يحكم عليه الرسول بالكفر :

وهكذا اعتبر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ضعفا فيه ، ولم يعتبره كفرا ولا ارتداداً يقتضى ضرب عنقه ، وذلك لأنه صدّقه حين قال ما قال ومن بينه : (وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام) فهى زلة منه ، تكييفها الصحيح : أنه اتخذ الكافرين أولياء فأفضى إليهم بسر المؤمنين التماساً لمصلحة خاصة له ، وهو ذنب عظيم ، ولكنه لم يصل إلى الكفر والارتداد ، لأن الكفر إنما يكون (بالتولى) أى بوقوع الولاية الحقيقية لا بالاتخاذ الذى هو الاصطناع والتكلف ، وهو محل النهى ، ولما كان هذا الرجل قد شهد بدرا ـ وما أدراك بمن شهدوا بدراً ـ فقد غفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم جنايته ، لما غمرها من سابقة الإحسان ، ولا سيما وقد بدت توبته وأسفه وبالغ اعتذاره وكشفه عن حقيقة نفسه ، دون مواربة ولا استخفاء .

عبرة المؤمنين من هذه القصة :

وينبغى أن نتعلم من هذا الموقف الذى كاد يودى برجل من أصحاب بدر ، لولا سابقته وما وقر فى قلب النبى من صدقه وتوبته ـ ينبغى أن نتعلم من هذا أن المؤمن يجب أن يكون واثقاً بالله ، متوكلا عليه ، وأن يؤدى ما فرضه الله عليه ، وينتهى عما نهاه عنه ، غير ناظر إلى عواقب ما يفعل أو يترك ، فإنه إذا كان مبتغياً بفعله وتركه وجه الله ، كان الله حسبه ، وإذا دار فيما يفعل أو يترك حول أوهامه فى نفسه أو ولده أو رحمه اضطرب وأغضب ربه ولم ينفعه ماقدر ، وفى هذا تقول سورة الممتحنة « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير » .

وفى هذا إيحاء بخطأ الذين يخرجون عن حدودهم وما أمرهم الله به ، خوفاً على أهليهم وأولادهم ، فتراهم يرتكبون الأوزار ، ويغضّون عن مرتكبيها ، مصانعة لعيشهم ، واحتفاظا بوظائفهم أو مراكزهم فى المجتمع ، وضنا بأولادهم أو أقربائهم أن يصيروا إلى فقر بعد الغنى ، أو ذل بعد العز ، أو تقشف بعد النعيم

وهؤلاء فى الحقيقة موازنون بين رضا الله ورضا أنفسهم وأهليهم وشهواتهم ، فيؤثرون ذلك على الله ، وبئس ما يصنعون .

مصانعة الأعداء لاحتمال تغلبهم :

٢ — ومن ذلك أن ينظر المرء إلى عدوه نظرة الخوف من تغلبه عليه ، وهذا هو المذكور بقوله تعالى : « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة » . وهو شأن كثير ممن تبتلى بهم دعوات الإصلاح والخير : فى قلوبهم دائماً فزع ، ينظرون إلى غدهم متوجسين منه شراً ، ولا يستطيعون أن يواجهوا أهل الباطل أقوياء ثابتين ، وإنما يقفون أمامهم متزلزلين خائفين ، وإن ضرر هؤلاء على أصحاب الإصلاح لشديد ، بل هم أشد من الأعداء السافرين ، وقد دلت التجربة الصادقة على أنه لاصلاح لأمر إلا إذا كان الدعاة إليه والقائمون عليه مؤمنين به ، حاسمين فى موالاة أوليائه ، ومجافاة أعدائه ، أما التوسط فى هذا فلا خير فيه ، بل هو الشر كل الشر .

ابتغاء العزة والسلطان عندهم :

٣ — ومن ذلك أن يبتغى المرء بموالاة عدوه شيئاً من العزة والسلطان والجاه ، فتراه يتشبث بأهدابه ، ويترخص فى مجاملته وموالاته وهو يعلم أنه عدو الله ، ولعله لا يبذل مثل هذه المجاملة والموالاة لأصحابه ، ويعلل هذا وذاك بأنه كياسة ولباقة ومداراة واتقاء لقالة السوء ، وما هو فى الحقيقة إلا ضعف وكلال وسوء تصرف ، وقد ذكر هذا فى قوله تعالى : « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعا » .

هذه ، غالباً ، هى الأسباب التى تبعث على مصانعة الكافرين واتخاذهم أولياء ، كما يشير إليها القرآن الكريم .

اتقاء شرهم :

وهناك موضع يحتاج إلى بعض الإيضاح ، وهو ما استثناه القرآن الكريم فى قول الله جل ذكره : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين

ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » .

ويرى المفسرون أن الاستثناء فى هذه الآية معناه أن ترك موالاة الكافرين حتم على المؤمنين فى كل حال إلا فى حال الخوف من شىء يتقونه ، ويمثل « البغوى » لذلك فى تفسيره بأن يكون الكفار غالبين ظاهرين ، أو يكون المؤمن فى قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان ، وقلبه مطمئن بالإيمان دفعاً عن نفسه من غير أن يستحل دما حراما أو مالا حراما ، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين ، وفى ذلك يقول صاحب الكشاف : « والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة ، والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع » .

أقول : أما المحالفة والمناصرة بين المؤمنين والكافرين ، فإن كانت على مصلحة مشتركة وليس فيها ضرر بالمسلمين ، ولا تأييد للكافرين فى دينهم ، ولكن على أن يكون لكل من الفريقين دينه ، فلا مانع من ذلك ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم محالفا لخزاعة من المشركين ، وقد صالح يهود المدينة ، وكتب بينه وبينهم كتاب أمن ، ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم ، وفى أمن على دمائهم وأموالهم ، ومما جاء فى عهده إليهم « وإنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ... وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم أو أثم . . . الخ » ويجب على المسلمين فى مثل هذه الحالة أن يفوا لهم ما وفوا لهم ، وأن ينبذوا إليهم على سواء إن خافوا خيانتهم ، كما هى قاعدة العهود فى الإسلام ، ولا يتوقف ذلك على حالة الخوف من المؤمنين ، والغلبة من الكافرين ، بل يجوز فى كل الحالات ، ولا يدخل فى نطاق ما نهى المؤمنون عنه ، فلم ينه الله تعالى إلا عن الموالاة فى الدين ، بأن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ينصرونهم فى دينهم أو ينتصرون بهم على قومهم ، متجاوزين ولاءهم للمؤمنين ، وهو ما عبرت عنه

هذه الآية إذ تقول : « من دون المؤمنين » أما ما وراء ذلك من التعامل والتعاون فى التجارة والصناعة والبحث والكشف والاقتصاد ونحو ذلك ، حتى الشئون السياسية والعسكرية التى يكون للمؤمنين فيها مصلحة ، وليس على أحد منهم فيها ضرر ، ولو كانوا من غير دولتهم ، فلا بأس به ، ولا مانع منه ، فإنه حينئذ للمؤمنين لا عليهم .

وإن كان المراد بما قاله هؤلاء المفسرون الذين نقلنا كلامهم أن المؤمنين فى حالة ضعفهم وخوفهم يقفون من الكافرين موقف الولى والنصير فى الظاهر ، فليس هذا داخلا فى عموم النهى الذى صدرت به الآية حتى يستثنى من هذا العموم ، فإن المنهى عنه هو اتخاذهم أولياء ونصراء من دون المؤمنين ، فكيف نفهم أن يستثنى من ذلك حالة الضعف والخوف ، فيكون المراد أنه يجوز لكم حينئذ أن تتخذوهم أولياء من دون المؤمنين .

والظاهر أن الاستثناء فى هذه الآية منقطع ، والتقدير : لكن إن تتقوا منهم تقاة فذلك لكم ، وليس فى هذا أن نواليهم ونناصرهم من دون المؤمنين ، وإنما فيه أن ننزل فى حالة الخوف على مقتضى القوة بقدر ما نتقى به الضرر ، مع أخذ الحذر من الله ، واتقاء أن يعلم فينا سوءا أو نية باطلة ، وهذا هو حكم الفطرة ، وما تمليه الحكمة ، وما كان الله ليكلف المؤمنين فى حال خوفهم بأن يستمسكوا بما لا يستطيعون الاستمساك به ، وأن يضحوا بأنفسهم ومصالحهم تضحية لا ثمرة فيها ، ولا رجاء منها .

* * *

هذا ما اتسع المجال لكتابته فى هذا العدد عن هذه النداءات الثلاثة : السابع والثامن والتاسع ، من نداءات سورة المائدة ، وإلى العدد الآتى لعلنا نستطيع أن نلم فيه بما بقى من أطراف هذا الموضوع الهام ، إن شاء الله تعالى .

وربنا المستعان وبه التوفيق ؟

الديموقراطية الصحيحة

لحضرة الاستاذ الجليل محمد على علوبه

رئيس جماعة التقريب

— ٣ —

الديمقراطية والإسلام :

ظهر الإسلام فى بقعة جرداء ، وفى بلد ما كان الناس يعرفون فيه سوى الغزو والتناحر والخمر والميسر وعبادة الأوثان ، وكانت الأمية هى السائدة فى هذا الشعب شأنها فى كل شعب يسيطر فيه القوى على الضعيف ، وكان الحق للقوة القبلية ، وبالجملة كان هذا الركن من العالم مباءة شر وشقاء وحروب وتقاتل ومنبع رذائل .

فى هذه الظلمات ظهر نور الإسلام ، والمتتبع لأوامر الوحى الذى هبط على الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه يعلم أن الدين الإسلامى بدأ بتطهير النفوس من الرجس ، وتكريم الإنسان كإنسان له منزلته وكرامته جاعلا أساس العقيدة وحدانية الله جل شأنه ، وأن نبيه محمداً ما هو إلا عبد لله ، بعثه الله رحمة للعالمين .

توالى نزول الوحى على هذا الرسول الأمين ـ لإرشاد الناس وتطهير النفوس من الأدران والجهالات والمعتقدات الفاسدة ، وغرس العقيدة الصحيحة ـ طول إقامة الرسول الكريم فى مكة ، فلما استقر الدين وتركزت مبادئه فى قلوب من آمنوا به وهاجر رسول الله إلى المدينة ؛ أخذ الوحى ينزل بالأنظمة والتوجيهات الواردة فى كتاب الله ، ولم يزل التشريع يتدرج حتى أتمه الله وأعلن القرآن الكريم هذا التمام بقوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

ويكفى لتأييد ما نقول أن ترجع إلى الآيات المكية وأن تقارنها بالآيات المدنية لترى كيف عنى القرآن قبل أن يبنى الإسلام ذلك البناء التشريعى الشامخ بتطهير النفس وإرسائها فى جانب العقيدة والخلق على أسس صالحة حتى يكون العمل فى نظم الحياة الدنيا قائما على أساس سليم .

* * *

أما هذه المبادىء الأولى التى قام عليها الإسلام لتطهير النفوس من أدران الأزمنة الغابرة ومفاسدها فكثيرة نجتزىء منها بما يأتى :

(١) وحدانية الله جل شأنه فهو الإله الذى يستحق وحده أن يعبد لأنه الخالق البارىء الذى يعلم السر والعلن .

(٢) أن نبيه ورسوله الذى يتلقى الوحى عنه ما هو إلا عبد له كسائر أنبياء الله ورسله وسائر الناس .

(٣) أن دين الإسلام ليس خاصاً ببقعة أو شعب من الشعوب ، وإنما هو دعوة إلهية وعقيدة عامة عالمية لتطهير نفوس الناس كافة .

(٤) أن الله جل شأنه كرّم بنى آدم ، وسوّى بينهم ، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وليس فى الدين طبقات ، وقد أقام الإسلام فكرة التعاون بين الناس على أساس متين من الفضيلة والإيثار ورعاية الرحم الإنسانية لخيرهم جميعاً « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

(٥) دستور الإسلام هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله ، وأقول الصحيحة الثابتة ، لأن كثيراً من الأحاديث قد وضعها أعداء الإسلام ودسوها على المسلمين ، وقد تجرد العلماء لبيان ما صح وما لم يصح بعد تمحيصها ومراجعة سندها ، ووضعوا لذلك قواعد تشهد بفضلهم وغيرتهم على الدين ودقتهم فى البحث ، وذلك كله مبسوط فى مؤلفاتهم الكثيرة ويمكن الرجوع إليها .

(٦) ليس لمخلوق فى دين الإسلام بعد الرسول أن يدعى أنه ظل الله فى

أرضه أو أن يتحدث باعتباره مصدر الإسلام ، إنما مصدر الإسلام هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، فلا تلتمس غفرانا من غير الله ، ولا ترج غير الله ، ولا تنتظر ثوابا أو أجراً من غير الله ، فلا واسطة بينك وبين الله المطلع على سريرتك ونيتك « إنما الأعمال بالنيات » « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » .

(٧) ليس فى الإسلام اكليروس ، ولكل مسلم أن يعتقد أنه حر يلتمس التوجيه من كتاب الله وسنة رسوله ، وإذا غُمّ عليه أمر فعليه أن يلجأ إلى من هو أفقه منه وأقدر على فهم الكتاب والسنة « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » .

(٨) ليس فى الإسلام مبدأ (الاعتراف) عن الخطايا لأحد من البشر ، وليس فيه طلب الغفران من أحد ، ولا تقديم القربان لضمان دخول الجنة . وإنما القاعدة الأساسية فى الإسلام لمن أراد أن يتخلص من ذنبه ، هى الندم على ما فرط ، وطلب المغفرة من الخالق دون التجاء لأحد سواه .

(٩) لا رهبانية فى الإسلام ، فالدين لا يعرف الحرمان من الزواج ، بل يحض أتباعه على التزاوج والتناسل أخذاً بسنة الطبيعة البشرية ، ولأن المسلم فى حياته لا يعرف الكهانة والكهنوت ، وإنما هو إنسان يمضى فى الحياة الدنيا ويسعى فى مناكبها مسترشداً بما أوحى ربه من الجمع بين العلم والعمل والجد لنصرة دينه والانتفاع بدنياه تحت نظام دستور الله .

هذه بعض قواعد دين الإسلام ، وسنأتى على ذكر أحكام أخرى فى الموضع الذى يحسن أن تكون فيه .

* * *

شخصية الرسول :

وقبل أن نشير إلى نظام الحكم فى الإسلام ونقارنة بالديمقراطيات ، نرى لزاما علينا أن نتكلم بوجازة عن شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يتصل بموضوعنا الذى نعالجه .

هل هو حاكم فرد ـ أى (أتوقراطى) بالمعنى السابق ذكره ؟ أو هو (دكتاتور) ينفرد بالأمر دون رقيب أو حسيب ؟ وهل هو (ديموقراطى) بالمعنى الذى نفهمه مما أسلفنا ، أو (ديماجوجى) أو هو غير ذلك مما قد يرد على الخاطر ؟ .

إنه عليه الصلاة والسلام ليس هذا ولا ذاك ، إنما هو رسول اجتباه ربه ليبلغ رسالته ، وأوحى إليه دستوراً هو القرآن الكريم ، وائتمنه على تنفيذ أوامر هذا الدستور ونواهيه ؛ يرعى هذه الأمة فى حياته بتنفيذ ما ورد فى الكتاب الكريم ويترك لهم بعده هذا الدستور على المنهج الوارد به وبما فسره به ، صلوات الله عليه من طرائق التفسير والتنفيذ .

عظم شأن رسول الله بين المسلمين وبهرت عظمته نفوسهم ، وساعد على ذلك ماضيه الطاهر ، وشهرته بالأمانة ، وحسن سيرته ، وسمو أخلاقه ، فنزل الوحى يحذر الناس من أن يتجاوزوا به مركزه عند الله وعند الناس : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ أنما إلهكم إله واحد » « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » « إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر » .

لكن عظمة الرسول الكريم بائتمانه على الوحى وبشخصيته كانت كبيرة تتزايد بمرور الزمن ، حتى كان المسلمون يقفون لمقدمه إجلالا واحتراما ، فكان ينهاهم عن ذلك ، ويقول لهم : (لا تعظمونى كما يعظم الفرس ملوكهم) .

توالت الأيام وعظمت قوة الرسول ، وفى هذا إغراء للنفوس الصغيرة بالسطوة وقوة الجاه والعظمة ، فلم تزحزح هذه المغريات تلك النفس العظيمة عما رسم لها من تبليغ رسالة الله للناس على النحو الذى أراده الله ، وقد ظنوا أن العظمة تغرى بعض النفوس بابتغاء السلطة الفردية ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم واجههم بقوله : (لست ملكا ولا جبارا وإنما أنا ابن امرأة من مكة كانت تأكل القديد) وذكرهم بقوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » .

فانظر : لقد كان للنبى أن يفاخر بأبيه وجده وأنه من قريش ، بل من سادة قريش ، أولئك الذين لهم مركزهم المعروف ، ولكنه يغضى عن مباهاته بآبائه

وينتسب إلى أم فقيرة ، والعرب لا يفاخرون بنسبتهم إلى النساء ، لكن بنسبهم لأصلابهم ورجالهم فكيف لا يفاخر بهذا كله ؟ ألم يكن ذلك لقهر النفس وإعلان قومه أن لا هدف له سوى رفع شأن الأمة وهدايتها إلى الطريق القويم غاضا الطرف عن شخصه وذاته ؟ أليس فى هذا الصنيع معنى سام يجعل المرء يفنى فى مبدئه دون أن يحوم حول نفسه ؟ .

ثم انظر : كيف كان الوحى له هاديا ومرشداً إذ قام عليه الصلاة والسلام يدعو إلى الله رجلا من كبار مشركى قريش ، وبينما هو كذلك مر عليه رجل ضرير مسلم يسترشده فى أمر من الأمور الدينية ، وعطل بذلك محادثة الرسول مع المشرك الكبير ، فغضب الرسول على الضرير المسلم ولم يكلمه وولى وجهه عنه ، فلم يلبث أن نزل عليه الوحى معاتباً له على ما عامل به هذا الضرير رغم أن مركزه الاجتماعى أقل كثيراً من ذلك المشرك الكبير : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى » فكان هذا الضرير إذا مرّ بعد ذلك بالمسجد حياه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى) .

تلك هى تعاليم الإسلام التى توحى بأنْ لا عظمة للعظيم إلا بتواضعه وتكريمه للفقير ، ومساواته الضعيف بالقوى ، وهناك ما هو أقوى من ذلك وأدلّ على عظمة هذا الرسول وحبه للأمة وللعدل والمساواة كحادثة الرجل الذى طلب منه صلى الله عليه وسلم أن يُقصّه من نفسه لضربة ضربه إياها ، فأذن له بأن يقتص منه ، وكشف له عن صدره ، فلم يسع الأعرابى أمام هذا المظهر السامى إلا أن يترامى على صدر الرسول يقبله ويبكى .

فمن من الحاكمين يصل إلى هذه المعانى السامية التى تتضاءل أمامها معانى الديموقراطية الحديثة ؟ .

إن سيرة رسول الله وصفاته هى سنة من السنن الإسلامية يجب أن يأخذ بها المسلمون لتكون نبراساً لهم فيما يكون عليه ولى الأمر من صفات حتى يحقق المثل الصالح للمحكومين ، وقد دلنا التاريخ على أن الحاكمين إذا انحرفوا عن جادة الحق ، ولم يكونوا المثل الصالح لطهارة النفس وحسن السيرة والتضحية فى سبيل منفعة الشعب ، كان ذلك مضيعة للأمم وسببا فى انهيار الشعوب وممالكها .

قد يتصور من ولى الأمر أن يشتد على نفسه ، ولكنه فى العادة قد يضعف أمام ذويه ، وينحرف مرغما بحكم العاطفة الطبيعية ارضاء لأهله أو بنيه ، ولكن رسول الله قد نهانا عن الانقياد لهذا الضعف الإنسانى بأمثلة هى أيضا سنة فى الإسلام يجب أن يعيها المسلم ، فقد اقترفت سيدة من قريش هى فاطمة المخزومية جريمة السرقة واعترفت بما اقترفته ، ولم يكن لها مايبرر اقتراف هذا الجرم ، وكان على الرسول أن ينفذ فيها حكم الله رغم مكانتها فى قريش ، فأتى إليه الناس يلتمسون العفو عنها ، لكن الرسول الأمين أجابهم بقوله : « إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

وقد يشتد المرء على نفسه ، ويشتد على بنيه فى تنفيذ الحق والعدل ، ولكنه قد يضعف أمام زوجته لما يكنه عادة لها من دواعى الحب والإشفاق ، وهنا أيضا ظهرت قوة الأمين فى تنفيذ دستور الله غير مراع دواعى قلبه حتى يكون ماعمله سنة للناس أيضا ، فلقد فطن زوجات الرسول إلى مكانته فى القلوب وسلطانه على النفوس ، وأن أموال المسلمين بين يديه وتحت أمره فى الحدود التى رسمها له الله ، ورأين وهن بهذه المكانة أن يتميزن عن غيرهن من النساء فى المعيشة والزينة ، فطلبن من الرسول ذلك وألححن فيه ، فنزل قوله تعالى : « يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » .

ومعنى هذا صراحة أن زوجاته إما أن يكن كباقى زوجات المسلمين فى العيش وفى المحافظة على أموال الأمة : لابذخ ولا زخرف ولا ترف ، وإما الطلاق بالحسنى.

هذا هو النظام الذى يجب أن يسير عليه الحاكم حتى تستقيم أحوال المحكومين فلا محاباة لشخصه ، ولا محاباة لبنيه ، ولا محاباة لزوجته وذويه ، وتلك هى سنة الإسلام وما يجب أن يكون عليه الحاكم فى بلاد الإسلام ، بل هى سنة كل حاكم إذا أراد خيراً لأمته ورفعة لدولته ، وهذا هو الأساس فى الإسلام وفى كل دولة قبل أن تفكر فيما يسمونه بالديمقراطية ، لأن نظمها لا تجدى نفعاً إلا إذا كانت قائمة على طهارة النفس ، تلك الطهارة التى يجب أن تكون مقدمة على الدساتير وبغيرها لا يقوم نظام للحكم سديد مهما اشتدت الدساتير وقويت .

* * *

نظام الحكم فى الإسلام :

بعد الذى قلناه وجب علينا أن نبحث فى نظام الحكم فى الإسلام ، ولقد قلنا إن رسول الله لم يرد أن يكون ملكا أو ديكتاتوراً ، وأعلن أنه فرد من عامة المسلمين اصطفاه ربه وأوحى إليه بدستور الإسلام وهو القرآن ، يقوم على تنفيذه بأمانة وصدق ، ولا شىء غير ذلك ، وإذا لم يكن النبى الكريم ملكا ولا جباراً فوضعه إذن غير تلك الأوضاع التى ابتكرها اليونان وغيرهم ، وإذا جاز لمسلم أن يقول بوجوب وجود حاكم للمسلمين على غرار ما يقوم به رسول الله ، فأى وصف يوصف به هذا الحاكم أو ولى الأمر أو المنفذ لأوامر الله ودستور الله . صف هذا الحاكم بما شئت من مسميات ، فلقد دعا المسلمون أبا بكر الصديق باسم خليفة رسول الله ، ولقبوا عمر بن الخطاب بلقب أمير المؤمنين ، وكلا اللقبين لم يكن تنفيذا لنص فى الإسلام ، فتسمية الحاكمين بلقب ملك أو خليفة أو سلطان أو قيصر أو امبراطور أو شاه أو غير ذلك من الألقاب هى تسمية بشرية ، والمسلمون أحرار فيها على شريطة أن يفهموا أن فوق الناس جميعاً : الملك الخالق وهو الله سبحانه وتعالى .

قام أبو بكر الصديق وسمى بالخليفة ، فماذا كان شأنه مع الرعية ؟ قام خطيباً يلقى على الناس عهداً ، وذلك هو الأمر الذى يقوم به الحكام فى هذه الأوقات على النحو الذى يرتئيه الناس فى عصرنا الحاضر: أصبح حاكما دستورياً عن طريق الانتخاب ، وله دستور قائم هو كتاب الله وسنة رسوله ، فلتكن خطبته خطبة عرش أو خطبة رياسة كما يسمونها فى الأزمنة الحاضرة ، فماذا قال ؟ قال للشعب :

« أيها الناس : قد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن رأيتمونى على حق فأعينونى وإن رأيتمونى على باطل فسددونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم . فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا إن القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه والضعيف قوى حتى آخذ الحق له ، أقول قولى وأستغفر الله لى ولكم » أىّ شىء أجل من هذه الخطبة لحاكم دستورى ؟ لقد جمعت فأوعت ، وإذا كانت خطب العرش أو الرياسة فى الأوقات الحاضرة تعنى بالتفصيل وبما ينويه الحاكم من أعمال الوزارات المختلفة ، فما ذلك إلا لأن الأمور قد تشعبت والالتزامات قد تعددت وجاز للناس أن يقولوا ما شاءوا فى تلك الخطب ، لكنها لا تخرج فى الواقع عما تضمنه خطاب أبو بكر الصديق من ضرورة قيام حكومة دستورية تستند على انتخاب حر ، وأن تكون الأمة مصدر السلطات ، وأن الحاكم يجب أن يخضع لإرادة الأمة ، وإلا وجب عليه ترك الحكم .

* * *

مات أبو بكر الصديق وديمقراطية حكمه كما علمت ، وهى مستمدة من ديمقراطية رسول الله التى عرفت أنها مستمدة من كتاب الله جل شأنه ، فكان على المسلمين أن ينتخبوا حاكما أو خليفة أو راعياً لهم كما انتخبوا من قبل أبا بكر ببيعة السقيفة ، وقد اتفقوا فاختاروا عمر بن الخطاب بوصية من أبى بكر .

كان عمر شديداً من يوم نشأته مهيباً ، لكنه وقد هذبه الإسلام ، ألان نفسه وأخضعه أصبح ديمقراطياً يلائم بين الشدة والعدل والديمقراطية ، فقام بين الناس خطيبا يقول لهم : « من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه » فأجابه رجل من السامعين

والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فقال عمر : الحمد لله الذى أوجد فى أمة محمد من يقوّم اعوجاج عمر بالسيف » .

وخطب عمر الناس مرة فى موضوع المهور التى كان يغالى فيها الجاهليون ، وأمر بعدم المغالاة فيها ، فوقفت امرأة تعارضه ، وتحتج بقوله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » فلم يكن من عمر إلا أن رجع عن رأيه قائلا « أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

هذا هو عمر وتلك هى ديموقراطية حكمه وخضوعه لدستورربه ، وإن الإنسان ليرى فى حكم هذا الخليفة ما يعد تطبيقاً بصيراً لدستور الإسلام فى كثير من شئون الحكم .

فمن ذلك أنه منع كبار الصحابة من الخروج من المدينة المنورة حتى لا ينبثوا فى الأقاليم فيلتف الناس حولهم لما لهم من مكانة فى النفوس ، وصحبة لرسول الله ، فتتعدد الزعامات وتضعف بذلك وحدة الحكم الإسلامى ، بهذا منع ماعساه أن يكون من تفرق المسلمين شيعا وأحزابا بتفرق القادة والرؤساء .

ومن ذلك أنه كان يراقب الولاة فيحصر ما كان يملكه الوالى قبل تعيينه ، وما يملكه بعد ذلك حتى إذا رأى ثروة للوالى ليست مستمدة من أصل شريف معروف حاسبه وسأله « من أين لك هذا » وأضاف الثروة المشتبه فيها إلى بيت المال ، وهذا هو الوضع الحاضر فيما تعمله الحكومات من محاسبة الحاكمين على ما اقتنوه من ثروة غير مشروعة .

وكان فى كل أدواره يمنع الولاة من الاتجار، ويلزمهم ألا يقوموا إلا بأعمال الحكم والإدارة ، وألا يقتاتوا إلا بما قرره لهم من أجر ، وتلك هى القاعدة التى وضعها عمر للأجيال التالية لمنع استغلال النفوذ .

ولقد كان يؤمن بأن الحاكم يجب عليه قبل أن يكون شديداً على الولاة وغيرهم ، أن يكون فى نفسه مثلا صالحا يقتدى به ، لهذا كان متقشفا ، على شظف من العيش يجوع إذا جاعت أمته ، ويكتفى بأكل الشعير والزيت ، ولقد جاع مرة فقرقرت بطنه فقال (قرقرى ما شئت فوالله لا أشبعك والأمة جائعة) .

ومن أعماله التى تفسر بها أحكام الشرع ، أنه منع أخذ الخراج عام المجاعة ولم يحد فيه حد السرقة .

ومر يوما فى بعض الأسواق فرأى رجلا يمشى فى السوق منكساً رأسه مسرفا فى تواضعه ، مظهراً تنسكه فرأى أن هـذا مناف لما أقر به الدين من أن يكون المسلم شهما بادى العزة ، فنهره بقوله : (ارفع رأسك انك تميت الدين أماتك الله) .

* * *

حضرت الوفاة عمر وسأله المسلمون عمن يخلفه ، وطلبوا إليه أن يوصى لابنه عبد الله فرفض لأسباب منها أن الامارة عبء ، فهى تكليف لا تشريف وأنه قد خشى أن يكون فى حكمه قد انحرف عن جادة الحق ، فلا يريد أن يعرض أحداً من بنيه لما يخشاه على نفسه ، ومنها أن الإمارة ليست وراثية ، فلا يصح أن تنقلب ملكا عضوضا ، ومنها أن الرياسة والحكم يجب أن يكون للشعب بالبيعة أى بالانتخاب ، فلهذا لم يوص باختيار أحد معين ، وترك الأمر للمسلمين ينتخبون من شاءوا ، ولكنه رشح ستة من كبار الصحابة منهم عثمان وعلى ، وعهد اليهم أن يرشحوا من بينهم من يرونه أهلا للخلافة ، على أن يبايعه الشعب إن شاء ، فرشحوا عثمان ، فبايعه الناس .

قام عثمان بالخلافة ، ثم انتهى الأمر بقتله لا من فرد غاضب ، كذلك المارق أبى لؤلؤة الذى اعتدى على حياة عمر بن الخطاب حقداً وضغينة ، فكان اعتداء فرديا ، لكن الاعتداء على عثمان كان من فريق من المسلمين ثاروا عليه لأنه حابى بعض أقاربه ، ورأوا فى هذا العمل خروجا على دستور الإسلام ، ومخالفة لما سار عليه الرسول الكريم وأبو بكر وعمر ، ولم يشفع له أنه كان من كبار الصحابة وممن أدوا للإسلام خدمات جليلة ، فنزل من ماله بالكثير لخدمة دينه ، وجمع المصحف الشريف ، كل ذلك وغيره لم يمنع الناس من الثورة عليه وقتله لسبب واحد هو ما اعتبروه من المحاباة ، فى تعيين الولاة والحاكمين ، وفى توزيع مال الأمة على بعض الأقارب والأصهار ، فكانت هذه الأعمال مع الأسف أول ثلمة

فى صرح نظام الحكم الإسلامى ، وأكبر نكبة أصابت المسلمين ، فلقد كانت نكبة امتد أثرها الفادح إلى النزاع على الخلافة من بعده بين الإمام على رضى الله عنه ذلك الإمام المظيم الطاهر ومعاوية بن أبى سفيان ، وقد وصل الخلاف إلى تدخل عائشة رضى الله عنها ، وكانت الطامة الكبرى فقام النزاع المسلح وتفرق المسلمون شيعاً وأحزابا ، وتبلبلت الأفكار ، وقاسى الإمام على من هول هذه الفتنة ما قاسى ، فتنة لم تصبه فى شخصه وذريته فحسب ، وإنما كانت فتنة أصابت الإسلام فى صميمه .

وليعلم من هذه العبرة من لا يعلم أن المحاباة من الحاكمين من أقوى الأسباب لإثارة النفوس ودفع الناس إلى الثورات وتحطيم الأمم وقتل الأبرياء مع غير الأبرياء « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

* * *

استقلال القضاء :

اسلفنا فيما سبق معنى الديمقراطية فى الإسلام ، فهى قائمة على نزاهة الحاكمين ليكونوا مثلا صالحاً وعلى أن ولى الأمر فيهم يختار بالبيعة ، وأن الأمة تراقب أعماله وألا طاعة عليها له إذا خرج على نصوص الدستور الإسلامى وتنكر لها ، والأمة رقيبة على ذلك كله ، وألا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وقد رأينا مما سبق كيف يناقش المحكومون الحاكمين ويراقبونهم ، وكيف كان الحاكمون يخضعون لرأى الشعب بل يحضونه على أن ينقد ويهدد ، ويكفى أن تعلم أن عمر بن الخطاب كان يحض أمته على مراقبته ، وقد قال للشعب فى إحدى خطبه : « لا خير فيكم ما لم تقولوا ، ولا خير فىّ مالم أسمع » .

وهاك مثلا واحداً يشعرك بما كان للقاضى من حصانة واستقلال واحترام . كان على رضى الله عنه أميراً للمؤمنين ، ورأى فى تطوافه يهودياً يحمل جوشنا أى درعا ، وكان هذا الدرع ملكا لعلى ضاع منه ، وطلب الخليفة من اليهودى أن يرد إليه الدرع فرفض مدعيا أنه له ، فلم يجد الخليفة وسيلة سوى الالتجاء إلى القاضى شريح ، ذلك القاضى الكبير الذى مارس القضاء من أيام عمر ، وقف

الخصمان أمامه كل يدلى بحجته : الخليفة يدعى واليهودى ينكر ، طلب القاضى من الخليفة شهوداً على ملكيته للدرع رغم كونه خليفة ، وأخذا بقاعدة « البينة على من ادعى » فأجاب الخليفة بأن لا شهود له فحكم القاضى لليهودى بالدرع ، وبينما الخصمان خارجان من مجلس القضاء عرض اليهودى على الخليفة أن يأخذ درعه فرفض احتراماً لحكم القاضى ، وعندئذ أجابه اليهودى بقوله : « أنتم لستم من البشر ، ولكنكم ملائكة» واعتنق الإسلام لوقته .

انظر الفارق بين قوة القضاء فى ذلك الوقت ومنزلته فى النفوس ، وخضوع الخليفة له وهو الحاكم الأعلى إذ يلجأ إلى القاضى للفصل فى خصومة شخصية بينه وبين أحد أفراد الرعية ولو كان غير مسلم ومن أعداء المسلمين ، حقاً أن العدل أساس الملك ، وأن الظلم مضيعة له .

* * *

موازنة بين الديمقراطيات :

أخذ المؤلفون والفلاسفة على الديمقرطيتين اليونانية والرومانية أنهما ديمقراطيتان لا عموم لها ، ففيهما كما قلنا عدم احترام المرأة ، وإباحة الاسترقاق ، والغزو والفتح والاستعمار وإيجاد الطبقات ، كما أنحوا باللائمة على ديمقراطية الثورة الفرنسية ، قائلين إن الثورة الفرنسية التى قامت سنة ١٧٨٩ م ، وحطمت الأغلال ، وأعلنت حقوق الإنسان فى الحرية والإخاء والمساواة أصبحت اليوم ناقصة لتطور الزمن وظهور مشاكل اقتصادية واجتماعية لم تكن تعرفها .

وإنى أود أن أبسط هذه المآخذ جميعها ، وما يقابلها من النظم الإسلامية الواردة فى كتاب الله وسنة رسوله فأقول :

حقوق الإنسان :

قرر الدين الإسلامى تكريم بنى آدم والتسوية بين جميع أفراده بالنصوص التى ذكرها من كتاب الله ، وأتى نبيه الكريم ـ تأييداً لما أودعه الله قرآنه ـ بهذا المبدأ حيث يقول فى خطبة حجة الوداع « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم

واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت اللهم فاشهد . ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

إذن ، فقد نادى الإسلام بالحرية والمساواة والإخاء قبل أن تنادى بها الثورة الفرنسية باثنى عشرقرنا . ولم يكن المسلمون فى عملهم هذا إلا رافعين لشأن الانسانية جمعاء ، فلم يبقوا على نظام الطبقات الذى كان فى اليونان وفى الرومان وفى بلاد الفرس والهند وفى مصر وفى جزيرة العرب نفسها ، بل جعلوا الناس إخوانا متساوين فى الحقوق والواجبات ، لا فرق بينهم بالألوان ولا بالأصول ولا بالأجناس ولا بالأنساب ولا بالأديان ، الكل تحت حكم واحد هو حكم الله .

فأين هذا مما نراه الآن فى بلاد المدنية والحضارة وفى القرن العشرين ، من التفرقة بين الأجناس ، وبين الملونين وغير الملونين ؟

حرية المرأة :

لم يكن للمرأة حرية أيام اليونان والرومان ، كما لم تكن لها حرية فى جزيرة العرب أيام الجاهلية ، فكان الجاهليون يئدون البنات ، وقد نزلت فى ذلك آيات كريمة ، منها قوله تعالى « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب » . « وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » . فمنع الإسلام بذلك تلك الوحشية التى كان يرتكبها الجاهليون فى بلاد العرب .

ولم يكتف الإسلام بأن أعطى للمرأة حرية أكثر من حريتها فى بلاد اليونان والرومان ، بل أسدى إليها أكثر مما تمنحه إياها البلاد المتحضرة فى وقتنا هذا . ذلك أن الإسلام أعطى للمرأة شخصية محترمة ، فلها حق الملكية المستقلة عن ملكية زوجها تتصرف فيها كما تشاء من تأجير وبيع وشراء وهبة ووصية ، ولها أن توكل من تشاء غير زوجها وبلا التجاء إلى إقرار منه ولها أن تخاصم بنفسها أمام القضاء ،

فهى إنسان كامل لا يربطها بزوجها سوى رباط الزوجية والخضوع لقواعد الفضيلة والأخلاق التى أمر بها الإسلام، والتى ترتضيها الأخلاق الكريمة، فأين هذا مما نراه الآن فى البلاد المتحضرة ؟.

الفتح والاسترقاق :

موضوعان متصلان أحدهما بالآخر، فالاسترق فى كثير من الأحيان كان نتيجة الغزو والفتح ، وكان الفاتحون يأخذون الأسرى فى الحروب كأرقاء ، ثم كانوا يغيرون فى بعض الأحايين ليلتقطوا أسرى يبيعونهم فى الأسواق ، ولو لم يكن هناك حروب بين دولة ودولة ، لهذا ترانا مضطرين إلى البحث فى موضوع الفتح والاسترقاق تحت باب واحد .

كان الاسترقاق شائعاً فى الأزمنة الغابرة ، كما كان الغزو والفتح، ويدلنا التاريخ على أن الأمم القديمة كان ديدنها أن تغير على ما جاورها من الأمم الأخرى وكان الناس فى تلك الأزمنة أفراداً وحكومات يحبذون هذين العملين ويعتبرونهما تجارة وبطولة معاً ، فكان الرق والغزو فى بلاد فارس والهند والصين، وفى بلاد اليونان والرومان وغيرها فى أوربا وفى مصر القديمة والسودان ، وبالجملة كانت الفوضى والاعتداءات شائعة فى بلاد العالم القديمة .

ويحكى لنا التاريخ أن الغزو والاسترقاق كانا شائعين أيام الديموقراطيتين اليونانية والرومانية، حتى أن أرسطو وهو المعلم الأول الذى يتفق مع المفكرين فى ضرورة تطبيق العدل بين الناس ، يرى أن الرق أمر طبيعى، وأن بعض الناس خلقوا ليكونوا أرقاء تحت سيطرة سادتهم المواطنين الأثينيين ، وكان الأرقاء يباعون فى الأسواق علنا رجالا ونساء كما كانوا يباعون فى بلاد الرومان .

وكان للسيد سواء فى أوروبا أو فى آسيا أو فى غيرهما حق السجن والجلد والتعذيب، بل والقتل أحيانا : يزاولون هذه الحقوق ضد عبيدهم ، ويسخرونهم فى أشق الأعمال وأحقرها .

ولقد وصل الأمر فى شرائع بعض الأمم مثل بلاد الرومان ، إلى حد أن قوانينها تجعل للدائن الحق فى حبس مدينه الحر وإسقاط حريته إذا لم يدفع الدين المطلوب منه ، وأن يسخر هذا الحر المدين فى خدمة دائنه حتى يستوفى دينه .

ولم تمنع شريعة اليهود حق الفتح والاسترقاق ، بل قتل الأمم التى لم تعلن خضوعها رجالا ونساء وأطفالا ، وأباحت نظم اليهود تخريب البلاد التى لا ترضى بحكمهم ، وأخذهم أسرى أو قتلهم . وإذا أردت زيادة الإيضاح فعليك أن ترجع إلى الاصحاح العشرين من سفر التثنية ، وإلى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الخروج ، وإلى كتاب مدينة العرب للعالم الكبير جوستاف لوبون ، وكتاب الرق فى الاسلام للمرحوم أحمد شفيق باشا .

أما الدين المسيحى فإنه وقد ظهر فى فلسطين وكانت تحت سيطرة الدولة الرومانية ، وكانت لها شرائع وقوانين ، فانه لم يتعرض لنظم الحكم ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يهدف فى كل أقواله وعظاته إلى تطهير النفس والحث على مكارم الأخلاق ، وكان على أتباعه أن يدعو ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فكان سيدنا عيسى عليه السلام ينادى بقاعدته الذهبية الواردة فى الكتاب المقدس (ماذا يستفيد الانسان إذا ربح العالم كله وخسر نفسه) كل هذا وغيره من وصايا السيد المسيح يدلنا على أن الإدارة ونظام الحكم كانا متروكين لحكومة الرومان وقيصرها ، وأن الدين المسيحى يرمى إلى تطهير النفوس من أدران الشر . دون تعرض للتفاصيل .

لكن أتباعه قد نحوا نحواً آخر ، فلم تقم طائفة مسيحية تحرم الاسترقاق ، ولم نعثر فى كلام القديسين بولس وبطرس وتوما على ما يحول دون الاسترقاق ، بل كان بعضهم يوصى الرقيق بطاعة سيده . انظر هنا أيضا كتاب جوستاف لوبون فى مدنية العرب ، وبالجملة كان دين السيد المسيح يوصى بالزهد والرحمة والأخوة والمحبة ، ولم يتعرض لأكثر من هذا .

انتهت العصور القديمة كما انتهت العصور الوسطى بما فيها من بطش وقسوة

وظلم ، حتى أتت الحكومات المتحضرة ، ويكفيك أن تعلم أنه صدر فى فرنسا سنة ١٦٥٨ م قانون يدعى بالقانون الأسود يبيح الرق واصطياد الزنوج ، واستمر هذا القانون إلى سنة ١٨٤٨ م ، ثم كانت انجلترا تبيح الاسترقاق أيضا ، ولطالما أخذ الزنوج من مساكنهم ومن أحضان أمهاتهم ، ليكونوا أرقاء مستعبدين ينقلونهم من بلادهم إلى المستعمرات النائية ، وأهمها المستعمرات الامريكية الشمالية والجنوبية ، ودليلنا ما نراه الآن فى الامريكيتين من هذا العدد الوفير من الزنوج الذين أخذوا من افريقيا واستوطنوا الامريكيتين قهراً وظلما ، واستمر الاسترقاق الانجليزى يفعل ما يشاء حتى القرن التاسع عشر ، وبحسبي أن أرجع القارىء إلى ماسطرته دائرة المعارف البريطانية ودائرة المعارف الفرنسية تحت باب الاسترقاق.

ثم استمر هذا النوع من الاسترقاق تحت ستار المدنية الحديثة فيما نراه أمام أعيننا الآن فى المستعمرات البريطانية والفرنسية ، وفى معاملة الملونين فى أمريكا وافريقيا الجنوبية : تردد الصحف صداها فى أيامنا الحاضرة ، عهد المدنية وحضارة القرن العشرين .

الرق فى الإسلام :

أتى الإسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى ، وحول جزيرة العرب أمم قد انغمست فى الغزو والفتح والاسترقاق ، وكانت بلاد الحجاز كغيرها من أشد بلاد العالم ظلما وقسوة وجهالة ، جعلت الغزو والاسترقاق ديدنها والرقيق أساس عمرانها فى فلاحة الأرض والأعمال الشاقة ، وكان السادة يعاملون الأرقاء كما كان سادة البلاد المحيطة بهم يعاملون رقيقهم ، وأصبح الاسترقاق جزءاً من حياتهم .

أتى الإسلام قائما على رسالة النبي وحده ، ثم التف حوله نفر قليل مهدد بالتعذيب والقتل ، وكان على النبي أن ينشر رسالته والخوف يحيط بأتباعه من كل جانب ، وما كان له إلا أن ينشر وحدانية الله حتى يقلع المشركون عن عبادة الأوثان ، وتلك رسالة روحية قائمة على العقل وحسن التقدير ، وما كان فى مقدوره أن يصادمهم فينهاهم عما درجوا عليه وتغلغل فى نفوسهم ويحملهم على أن يتركوا عبيدهم ، ويتركوا

مصالحهم فى دنياهم ، ولو أنه فعل لقامت الفتنة وتعطلت رسالة الله فى هذه الأقوام القساة ، ويكفيك أن تعلم ما كان عليه هؤلاء الناس من قسوة فى القلوب وتهافت على مصالح الدنيا ، وما كانوا عليه من غزو ونهب وسلب ، وما عكفوا عليه من أخلاق ممقوتة ، بل أن تعلم أن بعض هؤلاء الناس - وكانوا اقتنعوا بصحة الإسلام ووحدانية الله وأصبحوا مسلمين - لما علموا باستمرار فرض الزكاة عليهم بعد وفاة النبى ، رجعوا إلى شركهم وتركوا دينهم الذى ارتضوه ، وأوجدوا بذلك تلك الفتنة التى سميت حروب الردة ، ومتى كان هذا الشعب حديث عهد بالشرك والتمرد على النظم إلى هذا الحد ، فإن من الواجب عقلا التدرج فى تهذيب النفوس القاسية لتقلع عما ورثته من تقاليد وعادات رسخت فى نفوسهم ، وأصبحت قطعة من وجودهم .

ثم إن الإسلام قائم على الدعوة بالحسنى وعلى النصح والرشاد ، مع الاحتفاظ بالحرية الكاملة وعدم الاعتداء على أحد لا يعتدى على المسلمين « وقاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

لهذا كله كانت الدعوة للإسلام سلمية ، وبعد أن اقتنع العرب وأسلموا لله ورسوله كان على النبى عليه الصلاة والسلام - ودين الله دين عالمى - أن يسعى إلى نشره فى أنحاء العالم ، فكتب إلى ملوك البلاد المجاورة وحاكميها أن يدخلوا فى دين الله ، فإذا أسلموا وشعوبهم ، بقيت لهم ممالكهم . فالنبى لم يكن فاتحاً ولا حاكما ، ولا ينبغى أن يكون ملكا لأية أمة حتى لموطنه بلاد العرب ، فهو رسول ليس غير ، اختاره ربه لتبليغ رسالته لتكون دستوراً للعالم كله ، فرسول الله لا يريد سوى تطهير النفوس ، وجعل الناس أمة واحدة كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

ولكن هؤلاء الملوك الحاكمين رفضوا ما عرضه عليهم رسول الله بأنفة وكبرياء بل وباستهزاء ، وأقاموا بين ممالكهم وبين الرسول ودينه ستاراً حديدياً

حتى يمنعوا تسرب العقيـدة إلى شعوبهم ولم يكتفوا بذلك بل خاصموه وناوشوه وأخذوا فى الاعتداء على بلاده حتى يخنقوا هذا الدين فى مهده ، فـكان لزاماً على الرسول ـ ودينه دين عالمى كما أسلفنا ـ أن يمنع الأذى ، وأن يخير غير المسلمين فى أحد أمور ثلاثة : إما اعتناق الإسلام فتـكون لهم الحرية الـكاملة والاستقلال الـكامل ، وإما دفع جزية مع بقائهم على دينهم فيصبحون فى أمن وسلام ، والجزية ليست سوى نفقات تحمّـل المسلمين الدفاع عنهم وصد أى عـدوان على بلادهم ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك كانت الحرب ، وهى حرب لا مناص منها بسبب تعدد الحوادث والاعتداءات من دولتين كانتا متاخمتين لبلاد العرب ، وهما : دولة الرومان الشرقية المعبر عنها بدولة الروم ، ودولة الفرس ، وقد كانتا منغمستين فى المظالم والاستبداد والاسترقاق والفوضى ، وكانتا مع ذلك تبغيان القضاء على العقيدة الإسلامية ، والشر لا يطيق بقاء الخير بجواره .

هكذا كانت أسباب الحروب الإسلامية الأولى فى عهد تطبيق قواعد الإسلام تطبيقا صحيحاً فلم تـكن الحروب غزواً أو طمعاً فى ملك أو سلطان ، وإنمـا هى رسالة لعقيدة يجب أن تسود العالم بالحسنى والموعظة الحسنة .

* * *

ولنرجع بعد ذلك إلى النقطة الثانية وهى الرق فى الإسلام ، فنقول إن الدين الإسلامى يمنع بصفة قاطعة النخاسة والاسترقاق بالمعنى الذى يفهمه الناس سواء فى العصور القديمة أو الحديثة ، الإسلام يمنع بتـاتا اصطياد الزنوج أو غيرهم على النحو الذى درج عليه الناس قديماً وحديثا ، فلا يعمل ما عمله اليونان والرومان وغيرهم ، ولا يجيز ما عملته وتعمله الأمم الحديثة المستعمرة .

لا يجيز الاسلام استرقاق أى انسان عن هذا الطريق ، مهما يكن لونه ومهما تـكن عقيدته مسلما كان أو غير مسلم ، فالحرية مكفولة للجميع ، وحرية الأديان للجميع . بشرط عدم محاربة الدعوة إلى الاسلام ، وإنمـا يبيح الاسلام الرق فى حالة واحدة : فى حالة حرب عدوانية من عدو بعد انذاره بقيام الحرب ضده

فالاسلام لا يبدأ بالعدوان ، ولا يقوم به إلا بعد إنذار لمن بدأ به أو خان العهد أى خان المعاهدة المبرمة بينه وبين المسلمين .

هذا شأن المسلمين فى حروبهم ، والأسرى المحاربون هم الأرقاء ، ولا يوجد فى الإسلام رق إلا بهذا السبب ، فلا نخاسة ولا غزو ولا نهب ولا اختطاف لصغير أو كبير . ولا تسخير للاستعمار كما تفعل الأمم المتحضرة .

ولم يبح الإســـلام مع ذلك للمسلمين أن يعاملوا أرقاءهم كما كان الأقدمون والمحدثون يعاملونهم ، بل حض على حسن معاملتهم ، كما أوجد أسبابا عدة لعتق الأرقاء وما ذلك إلا لاعتباره الرق حالة مكروهة ، فهو يعمل على إزالتها .

فمن ذلك ما ورد فى القرآن الكريم « وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجـار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » . ومن ذلك قول الرسول عليه السلام : « هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فان كلفتموهم فاعينوهم عليه » . « فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ولا ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم أياهم ، ولو شاء لملكهم إياكم) ومن آخر وصاياه : (الصلاة ، وما ملكت أيمانكم) .

ومن ذلك الحديث الشريف (من لطم مملوكا أو ضربه فكفارته عتقه) ومن ذلك رأى أبى حنيفة فى أن الحر يقتل فى العبد ، ومن ذلك الحديث الكريم (لا يقل أحدكم عبدى . أمتى ، وليقل فتاى وفتاتى وغلامى) ومن ذلك أن علياً كرم الله وجهه قال (إنى لأخجل من نفسى إذا استعبدت رجلا يقول ربى) .

* * *

الحض على عتق الأرقاء :

وسعى الإسلام فى تسهيل عتق الرقيق فمن ذلك الحديث السابق ذكره (من لطم مملوكا أو ضربه فكفارته عتقه) ومن ذلك حق المكاتبة وهو أن يكاتب الرقيق

سيده على مبلغ من المال يدفعه فوراً أو على أقساط فيشترى الرقيق بذلك حريته « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً » . ويتاح للعبد أن يجمع ما لا يشترى به حريته .

ومن ذلك أن النبي عليه السلام اتفق مع أسرى بدر على أن يشترى الرجل منهم حريته بتعليم القراءة والكتابة لعشرة من المسلمين .

ومن ذلك أن الأمة إذا ولدت من سيدها ولدا فليس له أن يتصرف فيها بهبة أو بيع ، وبوفاته تصبح حرة بلا مقابل ولو كان المتوفى مدينا ، وولدها منه يولد حراً .

ومن ذلك أنه يكفى فى الإسلام لعتق الرقيق أن ينطق به السيد ولو كان مازحا أو مكرها أو فاقدا لرشده بفعل خمر أو غيرها .

ومن ذلك تخصيص سهم من مال الزكاة لمساعدة الرقيق فى شراء حريته « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل »

ومن ذلك أن كفارة القتل الخطأ عتق رقبة « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله » وكذلك كفارة الافطار فى رمضان وكفارة الظهار ... الخ .

* * *

وقد علمت مما سبق أن الرق فى الاسلام لم يكن إلا فى أسرى الحروب التى يثيرها المعتدون على المسلمين أو التى تسببها خيانة العهود ومعاهدات الصلح ، وأن الحرية مع ذلك كانت ذات أبواب كثيرة مفتوحة على مصاريعها حيث يسترد الأسير حريته للأسباب الكثيرة التى ذكرناها ، فأين هذا من حالة الاسترقاق فى الازمنة الغابرة ، وأين هذا من الحالة الراهنة بين الأمم المتحضرة ، وكيف تعامل هذه الأمم أسراها فى الوقت الحاضر بالمعاملة السيئة من اهانات وحبس فى المعسكرات وأشغال شاقة وتعذيب وقتل بالغازات الخانقة وبغيرها . وبينما

الإسلام يقرر أن العبد متى استرد حريته أصبح مواطناً وأخا له كافة الحقوق الوطنية والأخوية ، وهذا صهيب المولى الفارسى يكلفه عمر بأن يؤم المسلمين فى الصلاة وفيهم كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار . ولا تنس بلالا الحبشى مؤذن رسول الله وقد أصبح من كبار الصحابة وله منزلته بينهم ، ولا تنس أيضاً المولى زيد بن حارثة وهو الذى قاد جيشاً أيام رسول الله ، ثم خلفه ابنه أسامة ابن زيد الذى عينه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائداً للجيش ، وكان تحت إمرته كبار الصحابة .

ولقد وصل الأمر فى شأن الموالى إلى أن عمر بن الخطاب عند ما كلف عمرو ابن العاص فتح مصر بعث هذا وفداً إلى المقوقس برياسة الزنجى عبادة بن الصامت ولما رآهم المقوقس أنكر أن يرأسهم هذا الزنجى بسواد بشرته ، فأجابه الوفد بأنه « وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعا وأفضلنا سابقة ورأياً وعلماً ، وليس ينكر السواد فينا » .

هكذا كان شأن الإسلام فى معاملة الموالى والعبيد .

وبهذه المناسبة ولما قلناه من أن الإسلام ليس دين اعتداء وفتح وغزو ، نقول إن فتح مصر لم يكن اعتداء ، بل كان نتيجة اتفاق ومداولات بين قبط مصر وبين المسلمين لما حاق بالقبط من ظلم واضطهاد وقع عليهم من الحكام السابقين من دولة الرومان ، حتى رضى البطريرك الأكبر وهو المقوقس أن يحل عدل الإسلام محل ظلم الرومان .

وكان فتح فلسطين من قبل باتفاق بين شعبها ضد المظالم الرومانية ، ولما دخل عمر نفاذاً لرغبة البطريرك « صوفرنيوس » ليتسلم الخليفة بنفسه مفتاح بيت المقدس وكانت تسمى « إيلياء » ودخل كنيسة القيامة وحل وقت الصلاة وهو بداخلها هم بالخروج ليؤدى الصلاة خارجها ، وعند ما قال له البطريرك إن دينكم لا يمنع الصلاة فى الكنيسة أجابه عمر بأنه يخشى إن صلى فى الكنيسة أن يعتقد الجهال من المسلمين أنها أصبحت مسجداً ، ثم غادرها وأدى الصلاة خارجها ، وأعطى أهل القدس عهداً هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرَهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصُلُبهم فأنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصُلُبهم حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض ، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله . وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصَد حصادهم . وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية » .

* * *

أما بعد : فهذه نظم الإسلام ، وتلك أحكامه ومبادئه ، فإن كان للديمقراطية الصحيحة فخر ، فقد استوفى الإسلام فخرها قبل أن يعرفها أهلها ، وإن كان لها عيوب فقد تبرأ الاسلام من عيوبها ، وأذهب عن الناس آصارها ؟

الطوائف الإسلامية في العراق

لحضرة صاحب السماحة آية الله الخالصي

من كبار علماء العراق

لمعرفة الطوائف الإسلامية فى العراق ينبغى استحضار أمرين فى الذهن ، ولو على سبيل الإجمال .

حوادث التاريخ الإسلامى :

الأول : الحوادث الى جرت فيه منذ الفتح الإسلامى إلى هذا اليوم كحرب البصرة ، وصفين والنهروان وشهادة أمير المؤمنين على عليه السلام فى مسجد الكوفة فى اليوم الذى قصد فيه اغتيال عمرو بن العاص فى مصر ومعاوية فى الشام وكحوادث خلع الحسن بن على واستيلاء معاوية على الكوفة ، وإمارة زياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة ، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية ، وحادثة كربلاء ، وشهادة الحسين وما تعقبها من ثورة التوابين ، وقيام المختار باسم أخـــذ ثأر الحسين ، واستيلاء مصعب بن الزبير على الكوفة وقتل المختار ، وتغلب عبد الملك بن مروان وقتل مصعب ، وامارة الحجاج بن يوسف الثقفى ، وفتنة الأزارقة والخوارج ويزيد بن المهلب ، وقتله يوم العقر ، وقتل سعيد بن جُبير ، وفتن البصرة والكوفة التى سفكت فيها دماء عشرات الألوف من العراقيين ، ورواج سوق الأدب ، وقيام الشعراء مثل الكميت والفرزدق والحميرى ضد بنى أمية ، وقتل موسى ابن نصير وقتيبة بن مسلم وزيد بن على ويحيى بن زيد ، وانتهاء حكم بنى أمية على العراق ، وقيام الدولة العباسية ، وحروب الحسنيين والفتن المتوالية فى العراق أيام تلك الدولة إلى انقراضها فى وزارة ابن العلقمى على يد هولاكو ومعاونة نصير الدين الطوسى ، وتوالى الاضطرابات إلى زمن العثمانيين ، والفتن التى حدثت لهم مع تيمورلنك والصفوية والقاجاريين إلى زمان الحرب العالمية الأولى .

هذه الحوادث التى دامت أكثر من ألف وثلاث مائة سنة ، وكانت الطائفية هى العامل الأساسى فيها ، وكان العراق يضطرم بنيرانها ، وهى التى أوجدت جواً مشحوناً بالعداوة والبغضاء بين طوائف المسلمين فى العراق ، وإذا استحضرت فى الذهن هذه الحوادث تعرف ما كان عليه العراق عند نشوب الحرب العالمية الأولى ، وتعرف الأسباب التى حدت برؤساء المفكرين إلى توحيد كلمة المسلمين فى العراق ، وشن حرب على النزعات الطائفية حتى تبيد .

المراكز الدينية فى العراق :

الأمر الثانى الذى ينبغى استحضاره لمعرفة الطوائف فى العراق هو وضع المراكز الدينية فى العراق . الذى نشأ من جراء تلك الحوادث المؤلمة ، فى العراق قبر على وولده الحسين ، وموسى بن جعفر ، ومحمد بن على الرضا ، وعلى بن محمد الهادى ، والحسن بن على العسكرى ، وهؤلاء من أولاد الحسين ، ومن الأئمة الاثنى عشر الذين يرجع إليهم الشيعة فى الأحكام الدينية ويعتبرونهم رواة عن جدهم الرسول ما استودعوه من علم الدين بواسطة جدهم على وجدتهم فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، ويزورهم فى كل سنة ملايين من الشيعة من جميع أقطار العالم ، لما رووه من متواتر الأحاديث فى استحباب زيارة قبورهم ومحال قبورهم من مدن العراق الكبرى ، وهى النجف وكربلاء والكاظمية ، ولا يسكن هذه البلاد الثلاثة غير الشيعة ، وسامراء ويغلب على سكنتها أهل السنة وجميعهم سدنة قبرى الإمامين على الهادى والحسن العسكرى ، وهم من السادة الكرام المنتسبين إلى الحسين بن على عليهما السلام ، وفى العراق قبور كثيرة لزعماء الشيعة تزار كقبر محمد بن على الهادى وقبر عثمان بن سعيد العمرى وابن محمد ابن عثمان الخلانى وحسين بن روح النوبختى وعلى السمرى ومحمد بن يعقوب الكلينى والشيخ المفيد محمد بن النعمان والسيد المرتضى وأخيه الرضى والشيخ الطوسى محمد ابن الحسن ، وغيرهم من أعلام الشيعة .

وفى العراق مدارس كثيرة لتحصيل العلوم الدينية يؤمها من جميع الأقطار - من الصين إلى سورية وما بينهما من بلاد الهند والأفغان وإيران والتبت وبرما -

خلق كثير يتراوح عـددهم بين ستة آلاف وخمسة وعشرين ألفا من الطلاب ، وقبل الانقلاب الشيوعى كان يؤمها من بلاد القوقاز والتركستان وغيرها من البلاد التى دار عليها السور الحديدى مئات من طلاب العلوم الدينية ، والآن لم يبق منهم أحد إلا من ترك وطنه واستوطن العراق من أهالى بادكوبه وكنجة وإيران ولنكران وعشق آباد وبخارا وسمرقند وغيرها ، وأكثر مجتهدى الشيعة يقيمون فى العراق ولهم الكلمة فى إيران والهند وباكستان وسورية ولبنان والبحرين ومسقط وغيرها .

المراكز الدينية لأهل السنة :

وفى العراق قبر الإمام أبى حنيفة وصاحبه الإمام أبى يوسف وقبر الإمام أحمد بن حنبل ، وكانت لهم مدارس دينية فى عهد الدولة العثمانية فى جميع بلاد العراق ولاسيما فى بغداد ، أما الآن فقد انحصرت فى كلية الشريعة فى الأعظمية التى تقوم على نفقتها إدارة الأوقاف ، وتؤدى هذه الإدارة رواتب لمدرسين فى المساجد .

مراكز الصوفيـة فى العراق :

وفى العراق مراكز للصوفية كلها من مراكز أهل السنة ، إذ لا يوجد صوفى شيعى فى العراق ، وهذه المراكز فى المساجد والتكايا حول قبر الشيخ عبد القادر الكيلانى ، وقبر بشر الحافى ، وقبر جنيد البغدادى ، وقبر معروف الكرخى ، وقبر الشبلى ، وقبر على بن اسماعيل بن جعفر الصادق المعروف بسيدى السلطان على ، وقبر محمد الفضل بن اسماعيل المذكور ، وفى بغداد حى يعرف باسمه (محلة الفضل) وقبر الشيخ عمر ، وقبر السيدة نفيسة ، وهى غير السيدة نفيسة المدفونة فى القاهرة ، وقبر السيد أحمد الرفاعى ، وتكية النقشبندى فى بيارة شمال العراق وتكايا القادرية فى كركوك وأربيل ، وتكية البرزنجى فى السليمانية ، وغيرها من تكايا ، وأغلب هذه المراكز تديرها مديرية الأوقاف ، ومما يجدر ذكره هنا أن المراكز الدينية الشيعية لا ترتبط بالحكومة ولا بإدارة الأوقاف ، فهى تنفق مما يصلها من التبرعات والحقوق الشرعية كالزكاة والأخماس والنذور .

نسبة الشيعة لأهل السنة في العراق :

لم تعرف بالضبط نسبة الشيعة إلى أهل السنة في العراق ، لأن إدارة النفوس لا تذكر أوراق الجنسية المذهب ، وتكتفي بذكر كلمة مسلم ، وهذا من المستحسن ولا حاجة إلى التفرقة بين المسلمين بذكر نسبة بعض الطوائف إلى بعض ، ولكن لما كان موضوع بحثنا هو التوحيد بين الطوائف ، فلا ضير في ذكر عدد أفرادها ، وإذا لم تقم إدارة النفوس بذلك ، فيمكن الوقوف عليه ولو إجمالا من طريق آخر وهو تعداد الألوية الشيعية والسنية ، وإليك ذكرها : لواء كربلاء ، والديوانية ، والحلة ، والمنتفك ، والعمارة ، والكوت شيعية محضة ، ولواء السليمانية واربيل سنية محضة على المذهب الشافعي ، ولواء الموصل تغلب عليه السنية على المذهبين الشافعي والحنفي ، ولواء كركوك يكثر فيه أهل السنة على المذهب الشافعي والباقي من الشيعة . ولواء ديالى يغلب فيه الشيعة ، وأهل السنة فيه على المذهب الحنفي ، ولواء بغداد والبصرة يغلب فيه الشيعة ، وأهل السنة فيهما على المذاهب الأربعة ، ولواء الدليم سني محض والشيعة فيه قليلون ، وأهل السنة بين حنفيين وشافعيين . والقبائل المقيمة على دجلة والفرات في أواسط العراق وعلى البطائح في أدانيه كلها من الشيعة

الطوائف العراقية في زمن الدولة العثمانية :

وكان العداء شديداً بين أهل السنة والشيعة في زمن الدولة العثمانية ، وكانت الصلات بين الفريقين مقطوعة ، فلا معاشرة ولا مزاوجة ، ولا تعاون ولا تعارف بل كان ينكر بعضهم بعضا ، ويقسو بعضهم على بعض ، وتكفّر كل طائفة الأخرى ، وكانت الحكومة لا تتحرج من استئصال الشيعة وقتلهم تحت كل حجر ومدر ، وذكر في تاريخ السلطان سليم العثماني أنه كان لا يهتم بشيء أكثر من اهتمامه باستئصال الشيعة وإبادتهم ، وأنه قتل بين سامراء وبغداد في العراق في يوم واحد خمسة وعشرين ألف رجل من غير ذنب سوى أنهم شيعة ، وذكرت مؤلفات تركيا الحديثة : أن من أقوى أسباب زوال الدولة العثمانية عداءهم للشيعة وحربهم معهم . وصرّح كتاب أُلِّف حديثاً باسم (شيعيلك أمادولده حركاتى) بأمور كانت خافية ، تبين أن عوامل التخريب في الدولة العثمانية كادت تكون

منحصرة فى تعصب الدولة لأهل السنة ضد الشيعة ، حتى أنها لم تكن تعترف بأى حق لهم كمواطنين فى البلاد . وكانت تقتل من تظهر له مزية علمية من الشيعة ، كالشهيد الأول محمد بن جمال الدين مكى ، والشهيد الثانى زين الدين وأمثالهما .

والعراق كان أشد البقاع العثمانية شقاء وأكثرها عناء ، حتى أن أحد من الشيعة أو أهل السنة إذا خلا بصاحبه وقوى عليه لم يؤمن عليه خطره ، وهذه الحوادث كانت وليدة الحوادث الكثيرة التاريخية التى أشرنا إليها فى الأمر الأول ومسببة عن وضع المراكز الدينية التى ذكرناها فى الأمر الثانى ، والمستعمرون وجدوا فيها جواً ملائماً لبذر بذور النفاق ، والقاء التفرقة والشقاق بين الفريقين اتباعا للسياسة العامة (فرق تسد) التى يتبعونها فى المستعمرات ، ودامت الحال على ذلك إلى زمن الانقلاب الأخير فى الدولة العثمانيـــة ، والانتقال من الحكم الاستبدادى إلى الحكم الدستورى .

الوحدة الإسلامية والدعوة اليها :

ولما قام الأحرار فى وجه السلطان عبد الحميد وخلعوه وأوجدوا النظام الدستورى ـ واستيقظ المسلمون من سِنة الغفلة ، وشعروا بالضعف ، وأن من أشد عوامله تفرق كلمة المسلمين وتشتت شملهم ، أخذ المفكرون منهم ـ ولا سيما علماء الدين ـ يسعون جهدهم فى نبذ الخلاف وترك الخصومات ، وتوحيد كلمة المسلمين ، ونجحوا نجاحاً باهراً فى العراق ، وصار الشيعى لا يفرق بين أخيه السنى وأخيه الشيعى ، وكذلك صار أهل السنة يرون الشيعة أخوة لهم ويسعون فى مصالحهم كما يسعون فى مصالح أهل السنة وتوثقت روابط الأخوة بين الفريقين ، ودامت الصلات ، وكثرت بينهم المناكحات حتى صار كل من السنى والشيعى يشعر بأن الآخر كفء له فيزوجه ابنته ، وقلما يوجد بيت فى بغداد وأطرافها لا تتشكل أفراده من شيعيين سنيين ، فكم من ولد أبوه شيعى وأمه سنية وبالعكس ، ولما حدثت حرب طرابلس الغرب مع إيطاليا وحرب البلقان والحرب العالمية الأولى كان الشيعة فيها ـ مع أن الدولة كانت سنية ـ أكثر جهاداً وبذلا للنفس وللمال من أهل السنة .

ولا ينسى العراقيون الحروب التى دارت من البصرة إلى بغداد بين العثمانيين والانجليز ، فقد كان مجتهد الشيعة يحملون السلاح فى مقدمة المتطوعين من القبائل الشيعية التى كانت تعد بمئات الألوف ، وقد قُتل فى تلك الحروب الطاحنة كثير من شيوخ الشيعة وعلمائها الذين باشروا الحروب بأنفسهم وخاضوا غمراتها فى (الشعيبة) حول البصرة و (مُزيرعة) حول القُرنة و (أبى الدعاج) حول الناصرية والعمارة والكوت كراً وفراً ، و (قصيبة) حول بغداد فى الهجوم والدفاع ، وهكذا حتى انتهت الحرب وعلماء الشيعة على رأس المتطوعين من قبائلهم ، وكنت أنا ممن حمل السلاح وخاض غمرات تلك الحروب بأسرها ، ولا يغيب عن ناظرى اليوم عشرات من مجتهدى الشيعة رأيتهم مشحطين بدمائهم على التراب تحت العجاج حتى زهقت أنفسهم فى سبيل الله ودفناهم بثيابهم من غير غُسل لأنهم شهداء والشهيد لا يغسل ولا يكفن بل يدفن بثيابه .

لم يُغلب المسلمون :

وكان مما يلاحظ فى تلك الحروب أن المسلمين دائماً كانوا ينهزمون أمام الجيوش الانكليزية ، وكان القواد العثمانيون يظنون أن الهزيمة من نتائج عدم تكافؤ القوى ، وكان علماء الشيعة يعتقدون أن الهزيمة نتيجة ضعف الإيمان ، وترك التعاليم الإسلامية ، فإن الجيش العثمانى كانت له عقيدة ثابتة فى الدين لم تحصل لقادته ، لأنهم كانوا ممن أثرت عليهم الشبهات وغرتهم زخارف المدنية الأوربية ، ولم تتحد عقيدة القادة مع عقيدة الجند ، وكم من قائد كان يذهب إلى ميدان الحرب فى صبيحة ليلة فاجرة كان قد مضاها بين الخمر والغوانى دون أن يردعه عن ذلك وازع من دين أو عقيدة فيزج بجنوده فى لهوات الحرب ، ولا شك أن عاقبة قتل هذا القائد هى الخذلان والهزيمة ، وكان النزاع بين علماء الشيعة الذين كانوا يقودون المتطوعين وبين قادة الجند دائماً بسبب ذلك ، وكانوا يذكرونهم بقوله تعالى : « ولينصرن الله من ينصره » . « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » . « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . « واوفوا بعهدى أوف بعهدكم » ، وأمثال ذلك من الآيات الكريمة التى تصرح أن الله تعالى إنما ينصر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ،

وأن ضعف الإيمان وترك الأعمال الصالحة لا يؤدى إلا إلى الخذلان والذل والخزى ، وكانوا يجهرون دائماً بأن الهزيمة لم تصب المؤمنين والمسلمين ، وإنما أصابت أناساً سموا أنفسهم مسلمين ، وليسوا من الإسلام فى شىء ، انتهت تلك الحروب والعراق الذى كان مسلماً أصبح مستعمرة انكليزية .

الثورة العراقية والوحدة الإسلامية :

هنا عض علماء السنة يد الندم وأسفوا على ذهاب الدولة الإسلامية والحرمان من كل ما كانوا يتمتعون فيها من حقوق ومناصب ورواتب ، وأخذوا يفكرون فى سلوك طريق تنقذهم مما وقعوا فيه ، وكان علماء الشيعة لا يهمهم شىء إلا التخلص من الاستعمار عملا بالواجب الشرعى ، وكان فى مقدمة علماء الشيعة يومئذ الميرزا الشيرازى المجتهد الشهير ووالدى رحمهما الله ، ولما عدت من الأناضول بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وجدتهما فى كربلاء ، وقد عقدا حلفاً بين القبائل للقيام فى وجه الانكليز ، فوكلا إلىّ إعلان الثورة للتخلص من يد الاستعمار الطاغية ، وأسرع إلينا علماء السنة بعد دعوتهم إلى الاشتراك فى محاربة المستعمر ، واتحدت كلمة العراقيين اتحاداً حقيقياً ، وتأهبوا للقتال فى سبيل الله صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص ، فحصلت الوحدة العراقية الكاملة ، وأعلنت الثورة ليلة التاسع والعشرين من شهر رمضان المبارك فى كربلاء فى صحن العباس بحضر رؤساء قبائل العراق وعلمائها بأمر من المجتهدين الكبيرين الشيرازى ووالدى ، وحوصرت الجيوش الانكليزية فى أكثر أماكن العراق ، ونشب القتال فى أغلب ربوعه ، وأهل السنة والشيعة يد واحدة يحاربون فى سبيل الله بإيمان صادق وعقيدة راسخة ، وكانت لهم الغلبة ، إذ صدقت العقيدة ، وخلص الإيمان واتحدت الكلمة .

فشل محاولة الانكليز فى تفريق الكلمة :

وحاول الانكليز تفريق كلمة المسلمين لأنه السلاح الوحيد الذى كانوا يستعملونه فى إخضاع البلاد الإسلامية ، فأرسل المندوب السامى سكرتيره (محمد حسين الكابولى) فكلم والدى عما كان يجرى للشيعة على أيدى العثمانيين من تضييع

الحقوق والاستهانة بهم ، وقال أنه ودولته مستعدان لاعطاء الشيعة حقوقهم كى ينتقموا من أهل السنة الذين كانوا قد ظلموهم ، كما أنه أرسل إلى المرحوم يوسف السويدى والشيخ أحمد داود والشيخ ابراهيم الراوى من علماء أهل السنة يحذرهم من عاقبة الثورة ، وأنها تنتهى بتسلط الشيعة على أهل السنة وإذلالهم والسيطرة عليهم ، وعلى أثر ذلك أصدر أبى بيانا قال فيه (إن الإنكليز بصدد تفريق الكلمة ، وأنهم يطمعوننا بتعيين ملك من الشيعة ليفرقوا بذلك بيننا وبين أهل السنة ، لذلك نعلن على الملأ ، أننا لا نطلب ملكا شيعياً ، وإنما نريد جلاء الانكليز وحكومة مسلمة ، ونستقبل الملك المسلم السنّى) .

وانتشر هذا البيان انتشاراً هائلا فى جميع أنحاء العراق ، واطمأن أهل السنة ورُدَّ كيد الكائدين فى نحورهم ، ودامت الحرب فى العراق حتى انتهت بتتويج فيصل الأول ملكا على العراق ، وكان هذا الاتحاد الذى لم تزلزله دسائس الانكليز نتيجة لما جرّبه العراقيون من الحوادث المرّة التى سبَّبتها تفرقة الكلمة ، فلم يعودوا إلى الضرر الذى ذاقوا مرارته .

العراق اليوم :

والعراقيون اليوم متحدون ، لا فرق بين سنى وشيعى وحنفى ومالكى وشافعى وحنبلى وصوفى وغيرهم ، بل كل واحد منهم يشعر بأنه مسلم يوحد الله ، ويؤمن بخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، كتابه القرآن ، وقبلته الكعبه ، وأحكامه ما جاء فى الكتاب والسنة ، لا فرق بينه وبين غيره من المسلمين إلا فى فروع لم ينص عليها القرآن ، واختلفت الآراء فى استخراجها من السنة ، وهى فروع لا تكاد تُعد شيئاً بالنسبة إلى الأصول والفروع المتفق عليها ، والجميع يتمتعون بحقوق واحدة ، وهذا رئيس وزراء العراق اليوم وبعض وزرائه من الشيعة يتعاونون مع زملائهم الوزراء من أهل السنة لا يفرق عراقى بين أحد منهم وهم لله مسلمون .

الدسائس الاستعمارية :

وإذ تكلمنا عن اتحاد المسلمين فى العراق ، فينبغى أن لا ننسى الدسائس الاستعمارية ، فلا يظن جنان أن الانكليز يئسوا من العراق ، وكفوا عن دسائسهم المعروفة ، ورفعوا اليد عن تفريق كلمة المسلمين ، كلا فإنهم استأجروا أناساً يهاجمون الشيعة باسم أهل السنة وأهل السنة منهم براء ، وأناساً يهاجمون أهل السنة باسم الشيعة والشيعة يلعنونهم ، ولأولئك المستأجرين صحف تهاجم الفريقين ، وكتب تؤلف بهذا الصدد ، وكلها ليس لها أثر على الرأى العام فى العراق ، فإن الشيعة وأهل السنة جميعاً شعروا بهذه الدسائس وعرفوا المستأجرين وصحفهم واحتقروهم ونبذوهم ، ولما لم تكن لتلك الصحف قيمة فى العراق ولا أثر ، استأجروا فى مصر بعض المتمصرين كى يؤلفون الكتب وينشرون الصحف لإثارة النعرات الطائفية ومطبوعاتها فى مصر ويرسلونها إلى العراق ، وكنت قبل أن أزور مصر أحسب فيمن يحسب أن لأولئك المستأجرين شأناً ما فى مصر ولصحفهم وكتبهم أثراً ، فلما زرت هذه البلاد علمت ولله الحمد أن المصريين لا يعرفون شيئاً عن تلك الصحف والكتب ، وأنها تؤلف وتطبع سراً دون أن يعلم بها المصريون ، وتنشر فى العراق اللهم إلا مجلة واحدة استغلت صلة محررها ببعض القائمين على مؤسسة دينية فى مصر ، فنشرت باسم تلك المؤسسة أكاذيب على الشيعة يعلم الله أنها مختلقة عليهم ، منها ما قالته تلك المجلة عن الشيعة من أنهم يجيزون تكذيب النبي والعياذ بالله وأنهم يبيحون نسخ الأحكام الشرعية بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ولما انتشرت تلك المجلة فى العراق ، حدثت ضجة عظيمة لا ضد أهل السنة بل ضد المجلة نفسها والمؤسسة التى تنتسب إليها ، فأشفقت عليها ، وكتبت لها مقالا مسهباً ، لتخرج من غفلتها إن كان ما كتبته عن غفلة ، وذكرت فى ذلك المقال عدم وجود ما نقلته عن كتاب معين فى ذلك الكتاب ، والموجود فيه هو : أن تكذيب النبي فيما ثبت عنه كفر وشرك ، ولو لم يكن ذلك فى الأمور الدينية كإخباره مثلا عن كيفية خلق السموات ، وأمثال ذلك من الأمور التى لا تتعلق بالدين ، وكنت أظن أن الحرص على مصلحة الإسلام أو الإنصاف والوجدان ،

سيقضى على تلك المجلة بنشر ما كتبته إليها ، ولكن خاب ظنى ، إذ لم تنشر ذلك ، بل حرّفت كلمات من المقال ونشرتها ، وما كنت أود أن أذكر فى هذا المقال شيئاً مما اقترفته تلك المجلة حذراً من إثارة الخلاف ، ولكن وقوف إخوانى المسلمين فى مصر على ما يعمله المستعمرون فى بلادهم ، أهم من كل شىء ، فذكرت هذا ليعرف المسلمون ما تحوكه السياسة بينهم من الدسائس ، وشجعنى ما رأيته من علماء مصر وفقهائها وفطاحلها ومجامعها الدينية من المحبة التامة ، والولاء الصادق لجميع فرق المسلمين ، وليس أدل على ذلك من أن مصر مركز « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » تلك الجماعة المؤلفة من كبار العلماء والمفكرين من مصر وغيرها من البلاد الإسلامية ، ذلك زاد فى أملى باتحاد المسلمين ووقوفهم صفاً واحداً لرد عادية الملحدين واللادينيين والمستعمرين ، وسأنقل إلى بلادى وما جاورها ما شاهدته فى مصر من التصلب فى الأمور الدينية ، وكفاح أعداء الدين .

وأسأل الله تعالى أن يرينى فى القريب العاجل وحدة إسلامية فى أقطار العالم ، لاتفرق بينها الدسائس الاستعمارية ، وإنى بعد أن طردت الغلاة من العراق ، وطاردتهم فى إيران ، يحق لى أن أعرف إخوانى من بقية طوائف المسلمين ، أن الشيعة مخلصون فى دينهم ، يقولون بالتوحيد الخالص الذى لاتشوبه شائبة غلو ولا تفويض ، وأنهم متمسكون بقوله تعالى : « فلا تدعوا مع الله أحدا » وأنهم يحترمون صحابة النبى الذين اتبعوه ونصروه وعزروه واتبعوا النور الذى أنزل معه كما يحترمون أهل بيته ولى فى زيارة مصر أكبر حظوة فى اتصالى بإخوانى من العلماء الأعلام .

وأسأل الله أن يبارك لمصر فى نهضتها ، ويبلغها أملها فى حفظ بلادها وإعلاء شأنها ، ويمكنها من المعاونة القوية فى نجاة العالم الإسلامى أجمع ، والله غالب على أمره .

بحث عن الدولة العباسية

لحضرة صاحب المعالى السيد محمد رضا الشبيبي
وزير المعارف السابق بالعراق

معالى الأستاذ الكبير محمد رضا الشبيبي باحث جليل معروف فى الأوساط العلمية والأدبية وهو وثيق الصلة بمجلة « رسالة الإسلام » وقد نشرت من قبل بعض بحوثه وأحاديثه ، ومعاليه معنى الآن بإخراج سفر تاريخى عن « مؤرخ العراق ابن الفوطى » هو بحث مبسوط عن عصر هذا المؤرخ الذى يقع بين منتصف القرن السابع وصدر القرن الثامن الهجرى ، ألفه معاليه بعد دراسة عميقة استغرقت أكثر من عشرين عاما ، ومهد له ببحث طريف عن الدولة العباسية ، استبطن فيه كثيراً من أسرار التاريخ الإسلامى ، ويسرنا أن ننشر فى هذا العدد وفيما يليه طرفا من هذا التمهيد ، مبشرين أهل العلم والبحث بوشك صدور هذا السفر الجليل إن شاء الله ، شاكرين لمعاليه انه خص بذلك مجلة رسالة الإسلام ، وأعرب عن كبير إعجابه بخطتها ، وشديد رغبته فى مؤازرتها ، شكر الله له وحياه :

* * *

تمهيد :

مآخذ البحث فى التاريخ . الأصول القديمة . أبحاث المستشرقين الجديدة . فرق المستشرقين . ضرر التقليد

كانت مآخذ البحث فى التاريخ الاسلامى حتى مستهل هذه المئة الرابعة عشرة ـ عندنا ـ قاصرة على القديم من كتب المؤلفين فى السير والتواريخ والأنساب والطبقات وكتب الفتوح ، وما إلى ذلك ، ومن أقدمها وأشهرها تاريخ الطبرى ،

وكتب الواقدى والبلاذرى وابن قتيبة وطبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام ، ويليها كتب المسعودى والجهشيارى ومسكويه وابن طيفور والصولى والصابى وتاريخ الخطيب البغدادى وتاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ ابن الأثير ، وذيول هذه التواريخ لأشهر المؤرخين العراقيين والشاميين إلى مؤلفات الطبقات الأخيرة من المؤرخين .

ندر من بين المؤلفين أو الباحثين - عندنا - إلى ذلك الحين من وقف على أبحاث علماء الغرب فى علوم العرب والاسلام ومآخذها من الأصول النادرة حتى اتصل الشرق بالغرب ، وزالت الحواجز التى كانت تحجز بيننا وبين البلاد الغربية ، وألغيت المسافات بسبب أحدث وسائل الأسفار .

من ثم عنى من عنى من العرب بتحصيل لغات الغربيين وعلومهم فى بلادهم نفسها ، وطالعوا مانشر لهم من أبحاث تاريخية وغير تاريخية عن الشرق والاسلام واطلعوا على أساليبهم فى التأليف ، فأصبحت هذه الكتب والدراسات الغربية الحديثة من أهم مآخذ المؤرخين المحدثين فى هذه البلاد .

لا غرو إذا حذا المتعلمون من أهل هذا الجيل حذو بعض الأساتذة الغربيين ومالوا إلى مناهجهم فى البحث والتأليف ، فان للكتب التى يعنى الغربيون بتأليفها مميزات تمتاز بها عن كتب المؤلفين من الشرقيين من حيث تنسيق موادها وتقريب مطالبها علاوة على ما فيها من دقة النظر وعمق التفكير . ولكن لابد لنا من القول ان لمجاراة الغربيين فى هذا الباب حداً ينبغى الوقوف عنده وإلا أصبحت مجاراتهم وترسم خطاهم ضربا من ضروب التقليد المعيب ، كما يفعل ذلك الآن بعض المتعلمين فى البلاد الشرقية .

قد يكون لاتكالنا على حذق الغربيين فى تنظيم بعض الشؤون المادية أو الفنون الصناعية ، سبب من تخلف الشرق فى هذا المضمار ، وإن كان الشرقيون ملومين فى هذا التقصير، بيد أننا لانرى وجهاً لاتكالنا على الغربيين أو المستشرقين منهم فى درس ما يتعلق بتاريخنا أو تاريخ آداب لغتنا على الإطلاق ، ولا نجد سبباً للتعويل على أبحاثهم فى هذا الشأن على علاتها وعلى ما فيها من الغث والسمين .

ويلاحظ أن بين المستشرقين فرقا وأحزابا ، ولا شك أن عدد الأعلام المنصفين والفحول المتضلعين منهم ليس بالقليل ، وفضل هذا الصنف لا ينكر فى نشر جانب من تراث العرب وإثارة كنوزهم الدفينة ، وقد بلغ بعضهم فى التحقيق والتنقيب غاية بعيدة ووجدنا فى هذه الطبقة من المستشرقين من يترفع عن الدس والغض من حضارة الشرق والاسلام ، ولكن إلى جانب هؤلاء توجد طبقة أخرى عمدت فى بعض ما يكتب وينشر لها إلى دس السم فى الدسم وبذر بذور الشقاق ، بل وجدناها تعالج البحث فى تاريخنا الإسلامى على شكل يثير التفرقة ، وخاصة بين شبابنا الناشىء المتعلم فى عصرهم أحوج ما يكونون فيه إلى الاتحاد ودفن الحزازات .

ما أكثر أوهام هذه الطبقة من المستشرقين وما أتفه بضاعتها من لغة العرب وتاريخهم ، وقد أبت العربية أن تبوح بأسرارها لكثير منهم فضلت أفهامهم فى فهم ما قرأوه من النصوص فيها وراحوا يخبطون خبط عشواء وضل معهم من ضل من المقلدين ، ثم ألا ترى أن لكثير منهم فى ناحية الشؤون الأخلاقية والسياسية وغير ذلك مقاييس تختلف عن مقاييس شعوب الشرق فى كثير من الاحيان ، هذا وأنكى من ذلك أن يطرس على آثارهم بعض المتعلمين من الشرقيين وإنا عذرنا هذه الفئة من المستشرقين فيما يصدر عنهم من هذا القبيل طبقاً لأغراضهم أو أغراض دولهم وأطماعها فما عذر هذه الزمرة من أبناء الشرق فى انتحال تلك الآراء الدخيلة ونقل ما كتب فيها إلى العربية ؟ وليس الغلو والشطط من أخلاق العرب فى شىء وهما حجة قوية لمن يطعن فى عروبة هؤلاء المقلدين وفى أنسابهم المنتحلة ، وكم جنى الغلو على حقائق العلم والتأريخ !

إذا رأينا بعض هؤلاء المتأخرين من المستشرقين يضلعون مع بيت عريق من بيوت العرب أو يتحاملون على بيت آخر أو يتددون بنحلة من النحل أو يؤيدون نحلة أخرى أو يفرقون بين عرب الشام وعرب العراق فى هذا العصر ، فاعلم أن لهم أو لبعض دولهم المسيطرة على ديار الإسلام ما لها من الأغراض السياسية

أو الدينية فى ذلك ، هذا والمغرور من شباب العرب من اغتر بهذا النمط من المستشرقين وجاراهم فى شططهم ودسهم أو نسج على منوالهم فيما ينشرون ويكتبون .

هذه كلمة مهدنا بها لما نحن بصدده من البحث عن الدولة العباسية ، وهذا حين نتقدم اليك بالبحث المذكور .

دولة بنى العباس

تمخض العالم الإسلامى فى مستهل المئة الثانية عن حركة سياسية جديدة إلا أنها حركة قوية فى بواعثها وتنظيمها ، وهى الدعوة إلى انتزاع الملك من بنى مروان ، وكانت الدولة الأموية تجتاز فى مستهل المئة المذكورة الثلث الأخير من المئة التى عاشت فيها ؛ لأن جميع ملك بنى أمية إحدى وتسعون سنة أو نحو ذلك ، كما كانت كثرة الشعوب فى الدولة تتململ من الفتن وتئن من الجور وتستغيث من العبث بالمصالح العامة ، بل كان كل شىء فى العصر المذكور يهىء الأذهان لقبول الدعوة الجديدة .

نبتت الدعوة الهاشمية ووضعت أسسها وقواعدها فى البلقاء من أصقاع الشام إلى الجنوب بينها وبين وادى القرى ، وكانت عمان وهى الحاضرة المعروفة الآن قصبة الكورة المذكورة ، ومنها أى من البلقاء خرج المبشرون بهذه الدعوة إلى الأمصار على يد محمد بن على العباسى ربان هذه الحركة فى مطلع القرن المذكور ، ثم انتقل الدعاة إلى العراق وخراسان ، ويلاحظ أن النقباء الذين اختيروا للقيام بنشر الدعوة وعددهم اثنا عشر نقيباً من آحاد الرجال فى الدراية والكفاية ، ومع أن عمال الدولة الأموية فى العراق وخراسان لم يألوا جهدا فى مقارعة الدعاة وأخذهم بالشدة والتنكيل خصوصاً فى خراسان ، إلا أن ذلك زاد البقية الباقية منهم مضاء وإصراراً على نشر دعوتهم ، وفى سنة ١٣٢ هـ ، أى بعد مضى ثلاثين عاما على الشروع بالدعوة الهاشمية أعلنت الثورة العامة فى الشرق بأسره ، أى فى خراسان وفارس والعراق إذا استثنينا بعض الجهات النائية .

مروان الجعدى :

وكان مروان بن محمد بن مروان المعروف بالجعدى على رأس جيش ضخم قدر عدده بمئة وعشرين ألفاً قوامه نخبة من أهل الشام وأشهر قبائلها (١) يحاول الزحف بهم على العراق من الجزيرة .

كان جيش الجعدى ضخما حقاً من حيث العدد فقط ، ولكنه فى منتهى الضعف من حيث روحه ، ومن حيث معنوياته ، فقد كانت روح الهزيمة والتواكل فاشية فيه ، بل كان جنده يتحدى أوامره ويجاهر بعصيانه (٢) إلى غير ذلك من المساوىء الشائعة بين أفراد الجيش وقواده على حد سواء ، وهو من هذه الناحية يختلف عن جيش بنى العباس .

الوقعة الحاسمة وموضع العبرة فيها :

وكانت الواقعة الحاسمة بين الفريقين على الزاب الكبير أو الصغير فى قول (٣) وفيها اندحر مروان وظفر عبد الله بن على عم السفاح بالجيش الأموى كله ، ويلاحظ أن جل قواد الجيش العباسى الذى قاتل مروان الجعدى بقيادة عم السفاح المذكور من زعماء العرب المعروفين ، ولوحق مروان وهو هارب بعد واقعة الزاب حتى قتل فى مصر فى السنة المذكورة .

وموضع العبرة فى هزيمة مروان هو الخذلان العام ، فإنه ـ وهو يتنقل بين شواطىء دجلة إلى شواطىء النيل وبين أحياء العرب وحواضرهم فى هذه الرقعة الشاسعة ـ لم يجد كهفاً يأوى إليه أو أحداً يحميه ، ويلاحظ أن هذه الوقعة الحاسمة

(١) انظر عن أسماء القبائل التى كانت فى جيش مروان ـ ومنهم قضاعة والسكاسك والسكون ـ الكامل لابن الأثير [٥ / ٢٠٠] .

(٢) انظر عن روح الهزيمة فى جيش مروان المصدر نفسه ، وانظر عن حالة هذا الجيش الآداب السلطانية لابن الطقطقى ١٠٦

(٣) كانت الوقعة المذكورة على أحد الزابين بلا شك ، والأغلب أنه الزاب الكبير . وفى بعض كتب التاريخ أنه الزاب الصغير انظر المروج [٢ / ١٤٦] .

التى أسفرت عن هزيمة مروان على الشكل الذى انهزم به لم تثر دهشة أو استغرابا فى نفوس أهل الشام ، وقد استقبل هذا الحادث بشىء غير متوقع من رباطة الجأش فى عاصمة الأمويين ، وأكثر من ذلك أنا نجد أهل دمشق وحمص والأردن وفلسطين وثبوا على فلول الجيش المهزوم وأعملوا السيف فيمن يليهم من عسكر مروان ، ونهبوا أمواله وذخائره ، ولا عجب فإن الديار الشامية كغيرها ـ فى ذلك الحين ـ سئمت الفتن والفوضى ، وزهدت فى تأييد قوم انغمسوا بالترف إلى الأذقان ، وشغلوا باللذات عن مصالح الناس ، وكان عدد المطعونين فى ديانتهم من الأمويين غير قليل فى العصر المذكور (١) .

علائم الإدبار :

كانت تجيش فى نفس مروان بعد اشرافه على الهزيمة أمور غريبة تخل بمركزه فى الدولة وتنافى مصلحة الأمة ، ومن ذلك أنه فكر وهو على مقربة من الحدود بالخروج إلى بلاد الروم والالتجاء إليهم إلا أن بعض من استشارهم فندوا رأيه فى تحكيم أعداء الإسلام بنفسه وبأهل بيته ومن ينتمى إليه ، وما هؤلاء الأعداء إلا الروم الذين لا يعرف عنهم الوفاء ، فعدل عن ذلك (٢) ، وهذه من مروان الجعدى خواطر تدل على منتهى الحيرة والارتباك .

انقرضت بمقتل مروان الجعدى دولة الأمويين فى الشرق ، وخلفتها الدولة العباسية ، وإذا استثنينا بعض الانتفاضات المتفرقة فى الجزيرة ، وفى جيوب من بادية قنسرين ، وحوران ، والبلقاء قام بها بعد واقعة الزاب بعض قواد مروان أو بعض الزعماء الذين تربطهم به رابطة مودة قديمة ، فلا نجد أثراً للمقاومة فى البلاد الشامية وما إليها ، وليس فى الانتفاضات المذكورة ما يعبر عن رغبة يمتد بها فى

(١) انظر عن انقلاب القبائل بين الجزيرة ومصر على مروان : المروج [٢/١٤٩] والكامل [٥ / ٢٠٢ ـ ٢٠٣] .

(٢) انظر عن خواطر مروان الجعدى وتفنيد رأيه فى هذا الباب : مروج الذهب [٢ / ١٤٨ ـ ١٤٩] .

الانتصار لبنى مروان، كما توهم بعض الشرقيين أو المستشرقين ، وقد نشأ بعضها عن الشك فى مقتل مروان ، فلما اتضحت لهم الحقيقة ألقوا السلاح ، ولا يستغرب حدوث مثل هذه القلاقل فى ذلك الحين (١) .

الجيش والسياسة :

وقد رأينا أثر السياسة والعصبية القبلية معاً فى خذلان مروان ، وفى ظفر العباسيين به ، فكيف تسرب الفساد إلى ذلك الجيش ؟ .

من رأى بعض المؤرخين أن مرد ذلك إلى أثر الدعوة الهاشمية ، وليس هذا الرأى بشىء ، وإن كنا لا ننكر بعض الأثر للدعوة المذكورة فى جيش مروان .

إذا تأملنا تاريخ الدولة الأموية ، لاحظنا أنه طافح بأخبار التحزب والعصبيات من ذلك عصبية قيس وكلب ، وعصبية قيس وتغلب فى أيام عبد الملك بن مروان وكانت كلب مروانية ، وقيس زبيرية ، وفى هذه الفترة انشق الأمراء من بنى أمية على أنفسهم ، واختلفوا باختلاف أمهاتهم من كلبيات وقيسيات ، وكاد يكون بينهم شر (٢) . ومن أشهر هذه العصبيات ما حدث بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، أو بين العدنانية واليمانية ، فى الشام وغير الشام وأينما وجدت القبائل المذكورة ، ولم تسلم منها الأقطار الأندلسية (٣) .

---

(١) انظر عن هذه الانتفاضات تاريخ الأمم والملوك للطبرى [٩ / ١٣٧ - ١٣٩] والكامل لابن الأثير [٥ / ٢٠٦] وانظر عن أشهر قواد الجيش العباسى فى واقعة الزاب المصدر المذكور [١٩٩] .

(٢) راجع عن الاختلاف بين القيسية واليمانية فى الشام والحرب بينهم فى مرج راهط البيان والتبيين [١ / ١١٦] والعقد الفريد [٣ / ١٤٥ - ١٤٨] وانظر عن الحرب المذكورة فى مرج راهط بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس ، الاستيعاب لابن عبد البر (١ / ٢٧٢ - ٢٧٣) و (٣٣٥ - ٣٣٦) .

(٣) من أوفى المراجع فى ذكر هذه الأحداث والأيام أيام القبائل المذكورة وحروبها - وهى حروب طاحنة كثيرة - كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى (٥/ ٣١١) ، وانظر =

حدث هذا الانشقاق فى صدر الدولة الأموية ، واستمرت نار الفتن تضطرم طوال العصر الأموى ، وشطراً من عصر بنى العباس ، وأدى ذلك إلى اعتزاز القبائل المذكورة ، من عدنانية وقحطانية وقيسية وكلبية وتغلبية بدعوة الجاهلية ، وكتب التاريخ الإسلامى طافحة بأخبار الفتن والحروب الناشئة عن هذه العصبيات الذميمة ، ولا يبالغ من يقول : إنها من أهم العوامل فى تقويض دعائم الدولة الأموية .

إلى هذه العصبيات مرد ذلك الفساد والتحزب الذى رأيناه فى جيش مروان فإن مروان تعصب لقومه من نزار على اليمن ، وكان حجابه يقدمون القيسية ويؤخرون القحطانية ، ويسمعونهم فى مجلسه وعلى بابه كلمات نابية تشعر باحتقار اليمن واليمانية ، كما كان ابن هبيرة صاحب شرطة مروان ينقل لأهل اليمن أقوالا يزعم قائلوها بأن اليمانيين تناسلوا من القرود إلى غير ذلك من المفتريات (١) . ولعل أصل هذه الخرافات ما جاء فى بعض الروايات من أن أحد ملوك اليمن سبى قوما منكرى الوجوه تزعم اليمن أنهم النسناس (٢) . بيد أن اليمانيين أفحموا ابن هبيرة ، ودافعوا عن محتدهم دفاعا مجيداً أثار إعجاب مروان ، وقد أضحكه هذا الجدل الغريب بين اليمانية والنزارية ، ولعل (دارون) صاحب مذهب النشوء والارتقاء كان عيالا على ابن هبيرة فى مذهبه المذكور .

وبجمل القول : بلغ الجفاء بين هذين الحيين من العرب حداً بعيداً فى العصر الأموى المشار إليه ، مع قرب العهد بدعوة الإسلام ، وهى دعوة تمكنت من

= (٣٠٨ — ٣٣١) من الجزء المذكور — ط القدس ، ومهذب تاريخ دمشق لابن عساكر (٥ / ٧ و ٣٧٦) و (٧ / ٤ — ٩) ويراجع المصدر المذكور (١٧٦ — ١٩٣) عن زعيم قيس وفارسها فى هذه الفتنة ، وهو أبو الهيذام المرى . وعن أخباره ومن قتل فى الفتنة المذكورة من زعماء العرب ، وانظر خزانة الأدب للبغدادى (٢ / ٢٢٥ — ٣٢١) .

(١) انظر عن ذلك وعن كيفية استقبال ابن هبيرة لليمانية على باب مروان ، مهذب تاريخ دمشق لابن عساكر (٥ / ٤٠٤) .

(٢) يراجع فى هذا الشأن سيرة ذى الأذعار من ملوك اليمن القدماء .

صهر النعرات القبلية الغالية ، وأذابتها فى وحدة اجتماعية منقطعة النظير . ومهما كان منشأ هذه الشحناء بين القبائل العربية ، فلا شك أن لخرق فريق من الأمويين وسوء تصرف رهط من عمالهم أثراً كبيراً فى تأجج نيران الضغائن المذكورة بعد الإسلام ، وهكذا انحرف عرب اليمن عن الأمويين ، وأصبحوا من أنصار الدعوة الهاشمية ، وقد هاجت هذه الفتن بعد ذلك مراراً ، وهى من أشهر الفتن فى تاريخ الدول الإسلامية (١) .

السياسة الخرقاء :

وكانت ولاية نصر بن سيار على خراسان من قبل الأمويين شؤما عليهم مع اخلاصه وتفانيه فى سبيلهم ، ومع شدة وطأته على دعاة بنى العباس ، وتنكيله بهم . وإلى هذه السياسة الخرقاء مرد تلك الفتن والخصومات العنيفة التى نجمت بين أحياء العرب فى خراسان ، وفى أيام نصر هذه ، أى فى سنة ١٢٦ ﻫ تفاقم الجفاء بين النزارية واليمانية فى تلك البلاد ، إذ كان نصر يضلع مع النزارية على اليمانية ، وكان للأزد وغيرهم من اليمانية زعماؤهم وفى مقدمتهم (جديع بن على الأزدى المعنى) زعيم اليمانيين المعروف بـ (الكرمانى) ، وقد سفكت بسببه دماء غزيرة من عرب خراسان فى هذا النزاع (٢) .

كانت هذه العصبية القبلية وما شجر بسببها من الخلاف ، من أهم العوامل فى اكتساح الدعوة العباسية للأقطار الخراسانية من أولها إلى آخرها ، وهى التى يسرت لصاحب الدعوة العباسية أبى مسلم الخراسانى السيطرة التامة على تلك

(١) أنظر عن هياج هذه الفتنة بدمشق فى أيام الرشيد الأخبار الطوال [٣٦٦] ، والكامل لابن الأثير [٦ / ٥٤] ، وراجع أيضاً المصدر نفسه [٦ / ٧٥ ـ ٧٦] ، ولاحظ ما جاء فى كتبهم من الاختلاف فى تاريخ وقوع الفتنة .

(٢) تجد ترجمة نصر بن سيار أمير خراسان فى الدولة الأموية ـ وأول من وَلاه هشام بن عبد الملك ـ فى خزانة الأدب للبغدادى [٢ / ١٩٣] ، وفى جمهرة النسب .

البلاد (١) ، وقد تعددت المعارك الدامية بين القبيلين فى مرو بزعامة الكرمانى من جهة ، وفرسان ربيعة وشيبان من جهة أخرى بزعامة نصر بن سيار ، وفى بعض هذه المعارك قتل الكرمانى زعيم اليمانيين (٢) .

أهواء متوارثة :

تذكرت قبائل العرب فى هذا العصر ما وقع بينها من الحروب الطاحنة فى القرون الجاهلية الخالية ، وكانت هذه الحروب سجالا طوراً للقحطانيين على النزاريين وتارة بالعكس ، ومن أشهرها حروب تبع الأكبر والحروب الناجمة عن تفرق قبائل اليمن وهجرتها إلى الشمال (٣) ، فعادت هذه الذكريات بالعرب فى العصر الأموى وبعض العصر العباسى إلى ضغائن مجهولة وأهواء متوارثة وأحقاد دفينة ما أنزل الله بها من سلطان ، وما كادت تنطفىء الثائرة بين هذه القبائل المحتربة لغير سبب معقول حتى تتضرم أخرى ، وكانت دعوتهم : يا لفلان ، وما إلى ذلك من نجوى الفتنة ودعوة الجاهلية التى نهى عنها الإسلام ، وتوعد أهلها بأشد العقوبة والنكال ، فقال الرسول الكريم : (من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا) ، إذ كان الفضل فى تلك الجاهلية لمن طغى فسفك

(١) أنظر حكاية الخلاف بين اليمانية والنزارية فى خراسان وأسبابه ، تاريخ الطبرى [٩ / ٣٧] ، والكامل لابن الأثير [٥ / ١٤٣ ـ ١٤٥] .

(٢) راجع عن المعارك المذكورة بين النزارية واليمانية فى مرو ، الكامل [٥/١٧٢ـ ١٧٣] . وعن ظفر نصر بن سيار بالكرمانى وقتله [٥ / ١٧٢ ـ ١٧٣] ، وانظر عن غلبة الأزد بزعامة الكرمانى الأزدى على مرو قاعدة خراسان ـ المصدر المذكور [١٦٢ و ١٧٢] ، وعن ظفر نصر بن سيار بالكرمانى وقتله المصدر عينه [١٧٣] ، وقد أجهز أبو مسلم الخراسانى على بقية آل الكرمانى من أولاده وأصحابه بعد ذلك ، أنظر الكامل [٥ / ١٨٢ ـ ١٨٣] .

(٣) راجع عن تحكم ملوك حمير بالقبائل النزارية وجبايتها وأخذ أموالها وتاريخ امتناعها عن ذلك فى الجاهلية ، العقد الفريد (٣ / ٣٦٥ وما يليها) ط الجمالية . ومن أحسن المراجع فى قصة تفرق قبائل اليمن كتاب الأمثال للميدانى فى شرحه للمثل المشهور : « تفرقوا أيدى سبأ » وانظر عن الحرب بين أهل تهامة واليمن ، العقد الفريد (٣ / ٣٤٧ فما يليها) .

الدماء وسبي الحرم وقتل الذرية ، وكان الجاهليون لا يتناهون عن منكر فعلوه من هذا القبيل ، كانوا يتفاخرون ويتكاثرون بالأموال والأولاد ، وما إلى ذلك من شؤون الحياة المادية وبأشياء أخرى قد يترفع أهل العقول عن المفاخرة بها وحدها ، وكان جل فخر العرب بعد إسلامهم بالعقل والعلم والورع أى بالفضائل ومكارم الأخلاق .

حمية الأنذال :

وكان حكماء العرب يسمون هذا النوع من النخوة الجاهلية (حمية الأنذال) . قال الأحنف بن قيس حكيم العرب ، وقد سئل عما فيه حياة العرب ما نصه : « إذا تقلدوا السيوف ، وشدوا العمائم ، وركبوا الخيل ، ولم تأخذهم حمية الأوغاد ، قيل له : « وما حمية الأوغاد ؟ » قال : (أن يعدوا التواهب فيما بينهم ضيما (١) .

ولقد أصاب الأحنف فيما قال ، فإن صلاح الأمم بالتعاطف والتواهب والتباذل والتحاب ، وفسادها بالتعادى والتنافر والتواكل . وكانت دعوة الجاهلية أو حمية الأنذال هذه ، مبدأ بوار الأمة العربية كما قال الأحنف بن قيس سيد أهل البصرة رحمه الله . والغالب أنه لاحظ بوادر هذه النعرات وسوء مغبة تلك الخصومات الشنيعة بين عرب زمانه ، فأراد أن يصور ضررها وشناعتها وسقوط أهلها بهذه الكلمة القيمة . والحقيقة أن هذه العصبية الجاهلية لم توصف بأحسن من قوله : « حمية الأوغاد » ، ومن أخلص بذلك من الأحنف فى دينه المتين وقلبه الكبير ، وعقله العظيم ؟ فما أوجعها من كلمة ، وما أبلغها من عبارة !

وأبلغ دليل على ذلك هذا الضعف والفساد اللذان عصفا بحياة الأمة العربية بعد عصر الأحنف ، ولا منشأ لهما إلا الحروب التى دارت بين العدنانية والقحطانية

---

(١) البيان والتبيين (٢ / ١٨٣) ، وفى وفيات الأعيان (١ / ٢٣٠ – ٢٣٢) ، ترجمة ضافية للأحنف المذكور ، وتجد أوسع ترجمة له فى تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٧ / ١٠ – ٢٤) وفى كتاب الاستيعاب لابن عبد البر (١ / ٥٥ – ٥٦) ، ووردت له ترجمة أخرى فى مادة (صخر) من المصدر المذكور .

فأفقدت العرب معينا لا ينضب ومادة لا تنقطع كانت قبائل الجزيرة تمد بها الأمصار والثغور رجالا أشداء، وسواعد مفتولة، وأخلاقا رضية كريمة، وقد ظهرت نتائج هذه الحروب الداخلية بعد ذلك فى جرأة الروم والصليبيين على غزو الدول الإسلامية، واجتياح حدودها، وتخلى الدولة المذكورة عن كثير من الثغور والأقطاع، بعد أن كانت فرائص الروم والفرنجة ترتعد لمجرد ذكر العرب والمسلمين.

والواقع أن دعوة الإسلام جاءت رحمة للطبقة الدنيا من الناس، فرفعت أخاملم حسبا، وأوضعهم نسبا، وساوته بغيره فى الحقوق والواجبات.

مساوىء الجاهلية ومحاسنها:

لعرب الجاهلية مساوىء ومحاسن، ولبعض قبائلهم سير ذميمة فى عقائدهم وأنكحتهم وتبرج نسائهم ووأد بناتهم وعضلهن - أى منعهن من الزواج حتى الموت - وقتل أولادهم خشية الإملاق، ولهم عادات أخرى ممقوتة، حضرتها الشريعة الإسلامية، ولكن من حق أهل الوبر وسكان البادية من العرب على كل حال أن يفخروا على غيرهم بشمائلهم وسجاياهم، ومن أشهرها الأنفة من العار، وحماية الذمار وقرى الضيف، وأداء الحمالات أو الغرامات، ورعاية العهود والوفاء بالوعود، وقد اشتهروا ببذل المهج والنفوس فى هذا السبيل، وكان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والتواضع، والبيان، وقد أضيف إليها الإسلام بعد ذلك أى بعد الجاهلية ويمتاز الجنس العربى على غيره كذلك بخصائص ومميزات، فى مقدمتها: حدة الذهن والفطنة، وصدق الفراسة، وكانوا يستدلون باللحظة وباللفظة، وهم إلى الخير أقرب، ومن غيرهم أحفظ، بل هم أمراء البيان، يفيض منطقهم بالحكمة وفصل الخطاب، وقد تأصلت فيهم هذه السجايا والأخلاق وتوارثتها أجيالهم فى الجاهلية وبعد الاسلام؟

«يتبع»

الشاعر المتمرد
دعبل الخزاعى

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

أستاذ الأدب العربى فى كلية اللغة العربية

شاعر زاخر الحياة بالمغامرة ؛ بالغ الجرأة ؛ لا يبالى أوقع على الموت ، أم وقع الموت عليه ، يصفه أبو الفرج فيقول : شاعر متقدم مطبوع هجّاء خبيث اللسان ، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ، ولا من الوزراء ، ولا من أولادهم ، ولا ذو نباهة ، أحسن إليه أو لم يحسن !.

وكان للهجاء عنده فلسفة ومبدأ ؛ قال له أبو خالد الخزاعى مرة : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعاً ، فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كففت عن هذا ، وصرفت هذا الشر عن نفسك ! فقال : ويحك ! إنى تأملت ما تقول ، فوجدت أكثر الناس لا يُنتفع بهم إلا على الرهبة ؛ ولا يبالَى بالشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يُخف شره ، ولَمَن يتقيك على عرضه ، أكثر ممن يرغب إليك فى تشريفه ؛ وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ؛ وليس كل من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ، ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك ، فإذا رآك قد أوجعت عرض غيره وفضحته ، اتقاك على نفسه . ويحك - يا أبا خالد - إن الهجاء المقذع آخَذُ بضبع الشاعر من المديح المضرع !(١) .

---

(١) أغانى ج ١٩ ص ٣١

وهجا دعبل الرشيد، والمأمون، وإبراهيم بن المهدى، والمعتصم، والمطلب ابن مالك والى مصر، وكلهم محسن إليه، يُغنىَّ له ببيت فى حضرة الرشيد، ويَسأل عنه فيدل عليه، فيجيزه ويحسن إليه، فيكافئه بهجائه بعد موته، بقوله من قصيدة فى مدح آل البيت :

وليس حى من الأحياء نعلمه — من ذى يمان، ومن بكر، ومن مضر
إلا وهم شركاء فى دمائهم — كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة — فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين إن غدروا — ولا أرى لبنى العباس من عذر
أربع بطوس على قبر الزكى بها — إن كنت تربع من دين إلى وطر
قبران فى طوس، خير الناس كلهم — وقبر شرهم ؛ هذا من العبر !
ما ينفع الرجس من قرب الزكى، وما — على الزكى بقرب الرجس من وطر
هيهات ! كل امرىء رهن بما كسبت — له يداه، فخذ ما شئت أو فذر

ويعنى بخير الناس على الرضا، وبالآخر قبر الرشيد !.

* * *

ويمدح المطلب والى مصر فيقول :

أَبَعْدَ مصرٍ، وبَعْدَ مطلبٍ — ترجو الغنى، إن ذا من العجب
إن كاثَرونا جئنا بأسرته — أو واحدونا، جئنا بمطلب

فيوليه مطلبٌ أسوان ؛ ثم يبلغه أنه هجاه، فقال :

وعاديتَ قوماً فما ضرهم — وشرَّفتَ قوما فلم ينبلوا
فأنت إذا ما التقوا آخر — وأنت إذا انهزموا أول

فيرسل من يبلغه عزله وهو على المنبر، ليكون أخزى له وأشفى لمطلب .

* * *

ويهجو المعتصم ـ وقد بلغه أنه يبغضه ويريد اغتياله ـ فيقول :

بكى لشتات الدين مكتئب صبٌّ — وفاض بفرط الدمع من عينه غَرْبُ

وقام إمام لم يكن ذا هداية   فليس له دين ، وليس له لب
وما كانت الأنباء تأتى بمثله   يملك يوماً أو تدين له العرب
ولكن كما قال الذين تتابعوا   من السلف الماضين إذ عظم الخطب
ملوك بنى العباس فى الكتب سبعة   ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك أهل الكهف فى الكهف سبعة   خيار إذا عدوا ، وثامنهم كلب
وإنى لأعلى كلبهم عنك رفعة   لأنك ذو ذنب ، وليس له ذنب
لقد ضاع ملك الناس إذ ساس ملكهم   وصيفٌ وأشناسٌ وقد عظم الكرب

ويقول بعد موته وقيام الواثق :

الحمد لله ! لا صبر ولا جلد   ولا عزاء ، إذا أهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد   وآخر قام لم يفرح به أحد

* * *

وهجا إبراهيم بن المهدى ، وهو خليفة ، وهجاه بعد اختفائه بقوله :

نعرَ ابن شكلة بالعراق وأهله   فهفا إليه كل أطلس مائق
إن كان إبراهيم مضطلعاً بها   فلتصلحن من بعده لمخارق
ولتصلحن من بعد ذاك لزُلزُل   ولتصلحن من بعده للمارق
أنى يكون - وليس ذاك بكائن -   يرث الخلافة فاسق عن فاسق (١)

فينتهز إبراهيم فرصة صلحه مع المأمون ، ويذهب يحرضه على دعبل ، فيضحك المأمون ، ويقول : إنما تحرضنى عليه لقوله فيك :

يا معشر الأجناد لا تقنطوا   وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حُنَيْنية   يلتذها الأمرد والأشمط
والمَعْبَديات لقوادكم   لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق قوّادَه   خليفة ، مصحفه البَرْبَطُ

فيقول إبراهيم : فقد - والله - هجاك أنت يأمير المؤمنين ، فيقول المأمون :

(١) شكلة : بفتح الشين وكسرها - أم إبراهيم ؛ ومخارق بضم الميم ، وزلزل بضم الزايين والمارق : مغنون ؛ وكان إبراهيم يغنى .

دع هذا عنك ، فقد عفوت عنه فى هجائه إياى لقوله هذا ، ثم دخل أبو عبّاد وزير المأمون ، فلما رآه من بعد ، قال لإبراهيم : دعبل يجسر على أبى عباد بالهجاء ويحجم عن أحد ؟ ! فقال له : كأن أبا عباد أبسط يداً منك يأمير المؤمنين ! قال : لا ، ولكنه حديد جاهل لا يؤمن ، وأنا أحلم وأصفح ، والله ما رأيت أبا عباد مقبلا ، إلا أضحكنى قول دعبل فيه :

أولى الأمور بضيعة وفساد أمر يدبره أبو عبّاد
وكأنه من دير هِرْقل مُفلت حرد ، يجر سلاسل الأقياد

فيقول إبراهيم : زادك الله حلماً يأمير المؤمنين وعلما ، فما ينطق أحدنا إلا عن فضل علمك ، ولا يحلم إلا اتباعا لحلمك .

وأهاجى دعبل أكثر وأشهر من أن يدل عليها ، وإصراره على هذا المنهج فى الهجاء يكشف عنه ما حكاه بعض الرواة من أنه سمعه يقول : أنا أحمل خشبتى على كتفى منذ خمسين سنة ، لست أجد من يحملنى عليها .

* * *

ونسب دعبل مختلف فيه ؛ فأبو الفرج يقول : هو دعبل بن رَزِيْن ... بن عامر ابن عمرو بن مزيقيا ويكنى أبو على .

وينقل ياقوت هذا النسب عن أبى الفرج ، ثم يقول : كذا قال أبو الفرج وقال آخرون : دعبل بن على بن رزين بن عثمان بن عبد الله بن بُديل بن ورقاء ، يتصل نسبه بمضر ؛ أبو على الخزاعى ؛ وعلى هذا الأكثر . اهـ .

وأنا أرجح ما ذهب إليه أبو الفرج ، لأن انحرافه عن نزار إلى اليمن ، ومناقضته للكميت بن زيد ، ثم لأبى سعد المخزومى ، تنم على أنه يضرب فى القحطانية بعِرْق .

فقد نقض دعبل مذهبة الكميت فى هجاء اليمن التى مطلعها :

ألا حييت عنا يا مدينا وهل بأس بقول مسلمينا

بقصيدة له هجا فيها نزارا ومدح اليمن ، مطلعها :

أفيق من ملامك يا ظعينا كفاك اللوم مر الأربعينا

* * *

والتحم الهجاء بينه وبين أبي سعد المخزومي ، حتى رواه صبيان الكتاب ، ومارة الطرق ، والسِّفل ؛ وحتى انتفى بنو مخزوم من أبي سعد ، فرقا من دعبل أن يعمهم بهجائه ، وكتبوا بذلك كتاباً في دار المأمون وقد تظلموا إليه ، فقال في ذلك دعبل :

غيران الصِّيد منهم فنفوه بخزايهْ
كتبوا الصك عليه فهو بين الناس آيهْ
فإذا أقبل يوما قيل : قد جاء النفاية

وكان هجاء أبي سعد أقوى ، ولكن هجاء دعبل أسْيَر . وفي كليهما إقذاع يميل بنا عن روايته .

* * *

وتلمذ دعبل على مسلم بن الوليد ؛ وقال : ما زلت أقول الشعر وأعرضه على مسلم ، فيقول لي : أكتم هذا . حتى قلت :

أين الشباب ، وأية سلكا لا أين يطلب ، ضلّ ، بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

فلما أنشدته هذه القصيدة ، قال : اذهب الآن فأظهر شعرك ، كيف شئت ، لمن شئت ! وبهذه القصيدة أيضاً عرفه حبيب « أبو تمام » فقال : لمن سأله عن نسب دعبل : هو دعبل بن علي الذي يقول : ضحك المشيب برأسه فبكى !

وما زال دعبل يعرف لأستاذه مسلم فضله عليه ، حتى ولي مسلم جرجان ، ووفد عليه دعبل فجفاه ؛ فهجره دعبل ، وكتب إليه بهذه الأبيات التي تعتبر أبلغ ما رثيت به صداقة : قال :

أبا مَخْلَد كنا عقيدى مودة ... هوانا وقلبانا جميعا معاً معا
أحوطك بالغيب الذى أنت حائطى ... وأَيْجَعُ إشفاقا لأن تتوجعا
فصيرتنى بعد انتحانك مُتْهما ... لنفسى عليها أرهب الخلق أجمعا
غششت الهوى حتى تداعت أصوله ... بنا ، وابتذلت الوصل حتى تقطعا
وأنزلت من بين الجوانح والحشا ... ذخيرة ود طالما قد تمنعا
فلا تعذلنى ليس لى فيك مطمع ... تخرقت ، حتى لم أجد لك مرقعا
فهبك يمينى استأكلت فقطعتها ... وجشمت قلبي صبره فتشجعا

ولا عجب ـ بعد هذه الأبيات الدامية ـ أن يتهاجرا فلا يلتقيا أبدا ! (١)

* * *

وتاريخ دعبل ، ومعقد فخره ، ليس شعره وحده ؛ ولكنه يتركز فى ذلك الروح الثائر ، والإيمان الراسخ ، الذى نبع من إخلاصه لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إخلاصا تركه يرى كل من سواهم عدما على الإطلاق ، لا يجلب خيراً ، ولا يدفع ضراً ؛ ولا يستحق أن يخاف منه ، ولا أن يرغب فيه .

فلقد كان دعبل شيعياً كلّ الشيعى ، وكان تشيّعه معتدلا معقولا ، لا غلوّ فيه ولا إسراف ؛ قرئت عليه مرة مناقضتُه للكميت ، وجاء فيها :

مِنَ ایِّ ثَنِيَّةٍ طلعتْ قريش ... وكانوا معشراً مُتَنَبِّطينا

فقال دعبل : معاذ الله أن يكون هذا البيت لى ! ثم قال : لعنه الله وانتقم منه ! « يعنى أبا سعد المخزومى » دسّه ـ والله ـ فى هذا الشعر ، وضرب بيده على سكين كانت معه ، فجرد البيت بحدّها .

وادّعى عليه بعض الزبيريين مرة أنه شتم صفية رضى الله عنها ، واستعدوا عليه القاضى عمرو بن حميد ؛ فأجابه : أرافضىّ أنا أشتم صفية بنت عبد المطلب تحت عينك ! وهل يقبل عقلك ذلك ؟! .

---

(١) كان البحترى يرى أن دعبلا أشعر من مسلم ؛ فقيل له فى ذلك ، فقال : لأن كلام دعبل أدخل فى كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم .

وهجا أعرابيا مرة ، وهو لا يعرفه ؛ فسأله الأعرابى : ممن أنت ، فكره أن يقول له من خزاعة فيهجوهم ؛ فقال : أنا أنتمى إلى القوم الذين يقول فيهم الشاعر :

أناسٌ ، عَلِىُّ الخير منهم وجعفر   وحمزة والسجاد ذو الثفناتِ
إذا فخروا يوما أتوا بمحمد   وجبريل والفرقان ذى السُّورات

فوثب الأعرابى وهو يقول :

مالى إلى محمد وجبريل والفرقان والسورات مرتقىً !

* * *

والبيتان الأخيران من قصيدة فى آل البيت ، تلك القصيدة ، بل الدرة الفريدة التى لم يقل خير منها فى آل محمد صلى الله عليه وسلم ، فى نظرى. وقد أوردها ياقوت فى خمسة وأربعين بيتا ؛ قال : « وكان دعبل من مشاهير الشيعة ، وقصيدته التائية فى آل البيت من أحسن الشعر ، وأسنى المدائح . . . ونسخ هذه القصيدة مختلفة ؛ فى بعضها زيادات يظن أنها مصنوعة ، ألحقها بها أناس من الشيعة ؛ وإنا موردون هنا ما صح منها :

مدارس آيات خلت من تلاوة   ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخَيْف من منى   وبالركن والتعريف والجمرات

* * *

ثم قال : ومما يختار من شعر دعبل قصيدته العينية التى رثى بها الحسين ابن على رضى الله عنهما ، قال :

رأس ابن بنت محمد ووصيه   يا للرجال ! على قناة ترفع
والمسلمون بمنظر وبمسمع   لا جازع من ذا ولا متخشع
أيقظت أجفانا وكنت لها كرى   وأنمت عينا لم تكن بك تهجع
كحلت بمنظرك العيون عماية   وأصم نعيُك كل أذن تسمع
ما روضة إلا تمنت أنها   لك مضجع ولخط قبرك موضع

وفى الحق ، لقد قال الكميت والسيد وابن الرومى وغيرهم فى آل البيت ، فأجادوا ، ولكنهم مسّوا جلال ممدوحيهم بما شاب كلامهم من قذع لخصومهم ، فأما هذا الشاعر المتمرد الهجّاء ، فقد طهر شعره من هذه اللوثة ، فجاء جامعا للحسن من أطرافه ، حاويا للجمال الخلق ، والجمال الفنى ، نوراً على نور ؛ يهدى الله لنوره من يشاء !

وتائية دعبل الآنفة كأنها قطعة من كل قلب ، لذلك كان لها فى نفس كل من يسمعها أثر لا يجحد ، يستوى فى ذلك الشيعىّ وغير الشيعى ؛ وكذلك الكلام ، إذا خرج من القلب ، وصل إلى القلب ؛ وإذا خرج من اللسان لم يعد الآذان .

روى بعض الكوفيين ، أنه سمع دعبل بن على يقول : دخلت على علىّ ابن موسى الرضا عليهما السلام ، فقال لى أنشدنى شيئاً مما أحدثت ؛ فأنشدته :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

حتى انتهيت إلى قولى :

إذا وُتِرُوا مدّوا إلى واتريهم أكفا عن الأوتار منقبضات

قال : فبكى حتى أغمى عليه ؛ وأومأ إلىّ خادم كان على رأسه أن اسكت ، فسكت ساعة ؛ ثم قال لى : أعد ، فأعدت حتى انتهيت إلى هذا البيت أيضاً ، فأصابه مثل الذى أصابه فى المرة الأولى ، وأومأ الخادم ان اسكت فسكت ؛ فسكت ساعة أخرى ، ثم قال لى : أعد ، فأعدت حتى انتهيت إلى آخرها ؛ فقال لى : أحسنت ، ثلاث مرات ، ثم أمر لى بعشرة آلاف درهم مما ضرب باسمه ، ولم تكن وقعت إلى أحد بعد ؛ وأمر لى من فى منزله بحلى كثير أخرجه إلىّ الخادم ؛ فقدمت العراق ، فبعت كل درهم منها بعشرة دراهم ، اشتراها منى الشيعة ، فحصل لى مئة ألف درهم ، فكان أول مال اعتقدته ؛

وروى آخر أن دعبلا قال له : إنه استوهب الرضا عليه السلام ثوبا قد لبسه ليجعله فى أكفانه ، فخلع جبة كانت عليه ، فأعطاه إياها ؛ وبلغ أهل قُمّ خبرها ، فسألوه أن يبيعهم إياها بثلاثين ألف درهم ؛ فلم يفعل ؛ فخرجوا عليه فى طريقه

فأخذوها منه غصبا ، وقالوا له : إن شئت أن تأخذ المال فافعل ، وإلا فأنت أعلم ؛ فقال لهم : انى ـ والله ـ لا أعطيكم اياها طوعا ، ولا تنفعكم غصبا ؛ وأشكوكم إلى الرضا عليه السلام ؛ فصالحوه على أن أعطوه الثلاثين الألف الدرهم ، وفرْدَ كُمٍّ من بطانتها ، فرضى بذلك !

وروى آخر عن دعبل أنه قال : لما هربت من الخليفة ، بت ليلة بنيسابور وحدى ، وعزمت على أن أعمل قصيدة فى عبد الله بن طاهر فى تلك الليلة ؛ فانى لفى ذلك ، إذ سمعت ـ والباب مردود على ـ السلام عليكم ورحمة الله ، انج ، يرحمك الله ! فاقشعرَّ بدنى من ذلك ، ونالنى أمر عظيم ؛ فقال لى : لا تُرَعْ ، عافاك الله ، فإنى رجل من إخوانك من الجن ، من ساكنى اليمن ، طرأ علينا طارىء من أهل العراق ، فأنشدنا قصيدتك :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

فأحببت أن أسمعها منك ؛ قال : فأنشدته إياها ، فبكى حتى خر! ثم قال رحمك الله ، ألا أحدثك حديثاً يزيد فى نيتك ويعينك على التمسك بمذهبك ؟ قلت : بلى ، قال : مكثت حينا أسمع بذكر جعفر بن محمد عليه السلام ، فصرت إلى المدينة فسمعته يقول : حدثنى أبى عن أبيه عن جده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : علىّ وشيعته هم الفائزون ؟



لحضرة الكاتب الفاضل الاستاذ أحمد محمد بريرى

قال شيخى :

وفى الأرض منأًى للكريم عن الأذى	وفيها لمن خاف القِلى مُتَعزَّل
أديم مِطال الجوع حتى أحينه	وأضرب عنه الذكر صفحا فأذْهَل
واْستفُّ تربَ الأرض كيلا يَرى له	علىَّ من الطَّوْل امرُؤ متطول
ولولا اجتناب الذم لم يبق مشرب	يعـاش به إلا لدى ومأ كل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بى	على الضيم إلا ريثما أتحـول

يماطل الجوع حتى يميته ، ولو قدر لك الله أن تجوع ولا تجد ما تسد به خَلتك ، يعنى تشحن معدتك ، لعلمت أن مماطلة الجوع تقتله فلا تحس أنك جائع ، وصاحبنا مارس هذه الحال غير مرة ، مارسها بطبيعة حياته ، حياة الصعلكة والإملاق التى اختارها اختياراً ، أو قل اضطره إليها اضطراراً : الإباء والإنفة .. فهو يستف ترب الأرض ولا يمكن لك أن تتطاول عليه بما تمن وتؤذى . ولو كان ممن لا يضيرهم المن والأذى ، ولا يتجنبون الذم ، لكان له ثراء ولتوافر لديه ما شاء من ألوان المطعم والمشرب .. كلا وبعدا عطالب البطن متى صحبها الهوان فلن أقيم عليها أبدا أو بتعبير ما أصحه ، لا أصبر عليه إلا ريثما أتحول .. فهو فى اللحظة التى تبدو فيها بوادى الضيم من بعيد ينتقل فلا تدهمه . ولا تسأله أين يذهب ، ففى الأرض منأًى للكريم عن الأذى ، أو فيها مُرَاغَم كثير وسعة ، أو كما قال صعلوك آخر :

وسائلة أين الرحيل وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ؟
مذاهبه : إن الفجاج عريضة إذا ضَنَّ عنه بالنوال أقاربه

قلت : هذا الصعلوك الثانى بارد الطبع مرذول .. ألا تراه يمد عينيه إلى موجود ذوى قرباه ويوَد أن يمدوه بشىء أو ببعض الشىء، إلا أنهم يضنون بالشىء وببعض الشىء .. فهو يواجه المسألة ، بل لعله يلحف فيها إلحافا ولا يصرفه إلا اليأس .. لقد أقامت نفسه على الضيم ، ثم أقامت فما تحولت ولا استقامت على الطريقة - طريقة النفس الأبية - إلا بعد أن صدمتها الدنية ودفعتها دفعاً إلى عرض الطريق فأين هذا من ذاك ؟

قال : لست أدرى أيكون « أبو النشناش » كما رأيته سائلا مرذولا لا يطرده إلا القنوط من رحمة المسئول ، أم تكون تلك طريقة قولية ، وأنه لم يَسأل ولم يطرد وأنه استقل بأمره أمرِ الحزم الحازم ، لا سؤال الأقارب والإخوان والاعتراض للحرمان والهوان ؟ أقول لست أدرى ، ولعلى أنا أيضا مثله ، أنهج نهجاً قولياً فى حين أنى أدرى ، فأبو النشناش يقول فى هذا الشعر نفسه :

ودَوِّيَّة قفْرٍ يَحَارُ بها القطا سرت بأبى النشناش فيها ركائبه
ليدرك ثأراً أو ليطلب مغنما ألا إن هـذا الدهر تترى عجائبه

إن إنسانا يدلج أو تسرى به ركائبه فى الفيافى التى يحار فيها القطا على خبرته وعدم حيرته فى العادة حتى ليقال للرجل الدليل الخبير بالطرق « أدل من قطاة » إن إنسانا يركب هذا الوعر لينتهب عيشه انتهابا أو ليدرك ثأره ، غير جدير أن يكون ما تصورت .. كلا فأبو النشناش ضريب زميله الشنفرى .

قلت : عبارة الشنفرى أقوى ، فهى لا تحتمل ما تحتمله عبارة أبى النشناش .. ثم كيف هو زميله أتأتى زمالة بين جاهلى وإسلامى ، قال زميله باعتبارهما صعلوكين إذ اعتبرت الصعاليك مذ كانت الصعلكة - جماعة بعينها ، وما أحسب اللغة تمنعنى هذا الاعتبار .

قلت : لقد بعثتم فى مخيلتى أثراً قديماً للصعلكة والصعاليك : كنت أقرأ أخبارهم فى كتب الأدب العربى وتاريخه ، فتكوّن لدى عنهم معنى عام يلمهم أجمعين . ولم أكن أعنى بأن أنقش عن الكلمة فى كتب اللغة ، ولكن المصادفة ، بعد زمن طويل ، جعلتنى أعثر عليها فى معجم لغوى شرحها شرحا لم أطمئن إليه ، فبغيتها فى معجم آخر وثالث إلى آخر ما تيسر لى ، فرأيت أصحاب اللغة مجمعين أو كمجمعين على قالة معجمى الأول . . كنت إذن واهما فى تصورى القديم .

فالصعلوك ـ لغة ـ لا يعدو الرجل الفقير أو المسكين . وإذا كان ذلك كذلك فلماذا يعد أبو الفرج الأصفهانى الصعاليك طائفة معينة ، فإذا حدثنا عن أحدها قال : فلان من صعاليك العرب ، ثم ساق أخباراً وبسط معانى تتحقق فى كل فرد من أفراد تلك الطائفة ، لقد كان أبو الفرج مسئولا إلى حد كبير عن الخطأ اللغوى الذى أخطأته فى باب الصعاليك . لقد كانوا جميعاً فقراء ، ولكن الفقر هو آخر ما يقفك من صفاتهم ، بل لعله لم يكن صفة لازمة لهم ، وكان لهم عنه مندوحة لو أرادوا . فهاهو ذا « الشنفرى » يؤكد لنا أنه ، لولا اجتناب الذام ، لنعم بالطعام والشراب . لو قال أصحاب اللغة عن الصعلوك إنه الفاتك أو اللص لكان ثمة صلة بين مقولهم والمعنى القائم عندى جرّاء أصحاب الأدب وتاريخه ، فقد كان الفتك أو اللصوصية رابطة تجمع صعاليكى جاهلية وإسلاما ، نعم إنها لصوصية كريمة أوشريفة إن أسمحتم ، وإلا فلماذا ـ وأنا أبداً أمقت غير الشرفاء ـ أجدنى لا أمقت الشنفرى ولا تأبط شراً ولا السليك بن السلكة ؟ .

قال : قف فأنت تتجاوز ما أنت فيه من حد الصعلكة فيما تصورت من مجموع ما قرأت ، وفيما يقول صاحب « الصحاح » أو صاحب « القاموس » أو غيرهما من جامعى اللغة . فهل تستطيع أن تعرف الصعلوك تعريفاً جامعاً مانعاً بالنظر إلى ما كنت تراه قبل أن يعين لك أصحاب اللغة معناه .

قلت : إنهم يقولون عن « عروة بن الورد » : « عروة الصعاليك » فلماذا لا أتخذه مثلا أو المثل الأعلى للصعاليك ، فإذا أنا عرفته ، أو قلت مَن عروة ؟ قلت من الصعلوك ؟ بمعناه العام .

قال : كان عروة رجلا ملأته المروءة وفكرة العدالة الاجتماعية ، لوْ فَسِقه هذا التعبير ، وما أحسبه إلا فاقهه لو طرق أذنه ، فكان يجمع الصعاليك والضعفاء والمستضعفين ، وما يزال يعنى بالمريض حتى يصح أو يستريح الراحة الكبرى . على أنه لم يؤثر عنه أنه قتل مريضاً ميئوساً من شفائه .

قلت : إذن لو كان عضواً فى جمعية تشريعية ، ووضعت هذه المسألة : أيجوز قتل صاحب المرض العضال فلا يعاقب قاتله ، أم لا يجوز لكائن من كان أن يضع حداً لحياة إنسانية ولو حياته ، ويعاقب حتى من شرع فى الانتحار ؟ لكان من أصحاب الرأى الثانى .

قال : لست أدرى وإن كنت أعتقد أن الكليات لا تطرد اطراداً كليا مع الجزئيات ، فقد تضع القاعدة العامة أو الحكم العام ، ثم لا تلبث أن تجد جزئية لا تستقيم على القاعدة العامة ، ومن أجل هذا أرانى متحيزاً لفكرة « القاضى الشارع » وما استطاع قانون حديث أو قديم مهما تنبأ واستقصى وأجمل وفصل أن يطرح هذه الفكرة .

قلت : إنها فكرة شرعية إسلامية قرآنية أستطيع أن أبسطها . . .

قال : هى فى غنى عن أن تبسطها أو تقبضها ، فقف عند حدك أو حد اللصوصية والصعلكة ، وعروة بن الورد الذى كان يلم شعث الفقراء ويقوم عليهم ، ويغير بهم على الأغنياء ... ليغتصبوا حقهم من لدنهم . لم يكن حينذاك إسلام ولا سلام بل كانت العرب تطبق حكم : « الحق للأقوى » ومقولة زهير :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

قلت : مفهوم كلامكم أن الصعاليك كانوا رواد إصلاح فى زمن عم فيه الفساد وطم ، واستشرى فى البلاد وعم . إنها اشتراكية اتجه إليها عروة الصعاليك بمحض الغريزة ، فما أظنه كان قد ألتقى فى عالم الأرواح « بكارل ماركس » ومن إليه عن فكروا فى النظم الاجتماعية والاقتصادية وإنتاج الثروة وتوزيعها .

قال : أعود فأقول أن من أعظم البلاء الفكرى أن يعمم الخاص ، وأن يحاول

إسناد كل شيء إلى آخر. نعم إن كل الأشياء متساندة ، ولكن كثيراً من حلقات سلسلة التساند قد خفي علينا ، ونحن نظن ونتوهم ويشتبه علينا ، وما دمنا لا نملك الدليل القاطع فليس أسلم من التحرز وتجنب الظن ، فبعضه إثم .

قلت : يقول عروة :

أليس عجيباً أن تلم ملمة   وليس علينا في الحقوق معول

فهل من باب الحدس والظن أن أزعمه رجلا أدرك آدميته ، وأن من شأن الآدميين أن يتعاونوا فيؤدى كل ماعليه من الحقوق ، إنه لينكر أن تلم بالحي ملمة ولا يعول عليه في دفعها ، عليهم مثلا دية أو ثمن دم أريق ، فكيف لا يكون له له بعير من جملة البعران التي يجب أن تساق إلى أهل القتيل ؟ .

هل يستجدى هذا البعير أو كما قال أخ له :

وهل أسأل المرء اللئيم بعيره   وبعران ربي في البلاد كثير

ان يسأله بعيره سؤالا ، فتلك ذلة ، بل يغتصبه اغتصابا ، فتلك عزة ، وإذا رجع إلى أصل الحق ، فإن مال الرجل اللئيم من عند الله ، والله ليس رب اللئيم وحده ، هو سبحانه رب الكريم واللئيم ، والمال ماله . ومتى كنت أنا وأنت سواء فيما بين يدى ولؤمت فلم أعرف لك حقك فلا عليك أن تأخذه أخذ عزيز مقتدر وأنفى راغم .

قال آخذه أخذ عزيز مقتدر إذا كنته ، أما إذا كنت أهم بأمر الحزم ولا أستطيعه ، فتلك هي البلية أو أشد ما يبتلى به صاحب النفس الأبية .

قلت : كان عروة مستطيعاً ، وكان عادلا ، حتى لكأنه قرأ (ولا والله ماقرأ) قوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » روى عنه أنه عنى بجماعة من المرضى الجياع وأطعمهم حتى نشطوا للعمل ، فأغار بهم على حى وساقوا ما شاء الله لهم أن يسوقوا ، وكان من جملته امرأة احتجزها عروة لنفسه ، واقتسم وصحبه الغنيمة ، قالوا : والمرأة كيف تستأثر بها دوننا ؟ وكان عروة فيما يقوله الرواة قادراً على أن يقتل أولئك الناقمين الخارجين من

من إسار العلل وما كادوا . وسولت له نفسه أن يفعل ، فردها إلى مكروهها قائلا : هم صنيعتى فكيف أوردهم مورد الهلاك ، وقد كانوا على شفا حفرة منه فأنقذتهم لجعل المرأة قسما من الأقسام ، وما زال يفاوض صعاليكه حتى رضو أن تكون نصيبه ، ولست أدرى أكان نظيرها فى القسمة جملا أم ناقة ؟.

قال : لعلها (سلمى) المشهورة فى تاريخ عروة ، والتى ظلت معه ردحا من الزمن ، ثم رغبت إليه فى أن تزور أهلها معه ، فكان لها ما أرادت . فسقوه الخمر واستوهبوه سلمى فوهبها لهم . فلما أفاق واستعد للرحيل مع زوجه إلى ديارهم ذكروه بما فرط منه ، أما هى فقد أثنت عليه أطيب الثناء مبينة له أنها على حبها إياه ، كانت تتمنى الموت كل يوم طوال المدة التى أقامتها معه ، إذ كان يقطع نياط قلبها أن تسمع نساء الحى يتحدثن عنها قائلات : ذهبت سبية عروة .. جاءت سبية عروة . ويندم عروة ويعلم أنها كادت له كيداً ، وأنه ما كان من الحكمة أن يتبعها فيما أوحت إليه من زيارة أهلها ، وفيما فعله من شرب الخمر إلى آخر المأساه . ويتركها لذويها ويقول :

سقونى الخمر ثم تكنفونى ... فيالله للواشى المطاع
فأصبحت الغداة ألوم نفسى ... على أمر وليس بمستطاع

وتتزوج سلمى رجلا من قومها ، ويريدها على أن تثنى عليه كما أثنت على عروة فى ندى قومه فتتمنع مؤكدة له أنها لا تقول إلا الحق ، فيصر على مشيئته ، فتأتيه فى الندى وهو مع عشيرته فينتفخ ويحسب أنه سامع شيئاً كالذى قالته فى عروة ، وتحدثت به الركبان ، فتخيب ظنه ، وتقول عنه فيما قالت : إنه لا ينام إلا ليلة يخاف ، ولا يشبع إلا ليلة يضاف ، فيخجل أيما خجل ، وكان له عن الخجل غنىً لو أنه استمع إليها حين قالت له : إنها لن تقول عنه غير الحق .

إن القصة بينة الصنعة والافتعال ، ويخيل لى أن شيئاً منها قد وقع وأن الرواة على عادتهم قد أضافوا إليها ما تقتضيه الحال ، وربما زادوا على مقتضى الحال ، وكأنهم أرادوا أن يعطونا قرينة الافتعال ، وأياما كانت الحال ، أفلا تراها قصة

صالحة للعرض ؟ إنها والله لقصة يقرها الذوق العربى الشرقى ، وأظن الذوق الأوربى يتقبلها قبولا حسنا ، وإذا عدوت بها إلى أمريكا فإن القوم هناك يجنون بها جنونا . . سجل الفكرة إذاً لشيخك واحفظ حقه فى الوضع والطبع والنشر والعرض . وقد أعذر من أنذر .

ثم أراك قد حبستك كلمة صعلوك أو لص أو فاتك فما عديت عن حيزها الضيق ، لقد كان عروة ـ أو هذا الإنسان الذى صوره لنا الرواة إن صدقا وإن كذبا ـ رجلا كريم النفس بعيد الهمة مصلحاً ودّ لو قاد القطيع الآدمى الذى عاش معه إلى سبيل الإصلاح ، واقتلاع جذور الفساد ، فلم يسمع نداءه حى . فلما يئس أن يسمع الصم الدعاء ، قال : عليك نفسك ومن اتبعك ، ولا يضركم من ضل إذا اهتديتم . . . وهكذا سلك والقليلين الذين اتبعوه السلوك الذى لو استطاع لهدى الناس إليه جميعاً : يأخذ من الغنى للفقير ومن القوى للضعيف .

قلت : لعلنا إذا قسنا الصعاليك بمقياس الخلق الكريم ، وجدناهم كرام المجتمع الذى عاشوا فيه . . . كان فى مال عروه ـ ولو منتهبا انتهابا ـ حق معلوم للسائل والمحروم .

قال : ولتضف إلى هذا أن كسب العيش إنتهابا ، كان القاعدة العامة حتى لغير الصعاليك من سراة الناس ، والفرق بين الطائفتين أن طائفة تنتهب لنفسها وذويها ، وطائفة أخرى ـ طائفة الصعاليك ـ تأخذ لتعطى المستحقين .

قلت : أفليس عجيباً إن هـــذه الطائفة الكريمة فى معيار الخلق ، كانت الطائفة المنبوذة ، ألا ترون خوارج الجاهلية أو صعاليكها فئة ممتازة .

قال : رويدك ، فما زعمت أن المجتمع الجاهلى كان مجتمعاً صالحا ، أو أن سادته كانوا على خلق عظيم ، ففيم كان الإسلام إذن ؟

قلت : إن هؤلاء اللصوص كانوا فيما أرى فلاسفة اجتماعيين ورواد إصلاح .

قال : إذا صح هذا فى صعاليك الجاهلية ، فما قولك فيمن روَوْا سيرتهم فى الإسلام .

قلت : أعلم أن وجوها طلعت على البلاد العربية أثناء قيام الدولة الإسلامية تشبه وجوه عروة وأضرابه الجاهليين ، وفى وسعى أن أقيم الدليل على أن طلوعها كان نتيجة التواء سياسة الحكام . فالعلل هى العلل ، والتربة التى أنبتت أولئك هى التى أنبتت هؤلاء ، وما كانت سياسة الحكم الإسلامى لتخرج هذه الفئة المتصعلكة لو سيست بها الأمة الإسلامية .

قال : هذا موضوع طويل عريض لا يتسع له حديثنا ، فلنبق فى دائرتنا . . فما الفكرة الغالبة فى لامية الشنفرى سواءاً صحت له أم كانت من وضع خلف الأحمر ؟

قلت : الفكرة الغالبة فيها هى الدعوة إلى الهجرة والتنقل ، فهى تستهل :

أقيموا بنى أمى صدورَ مطيّكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايا وأرحل

ولا تراه فيها إلا ضاربا فى فجاج الأرض آناء الليل وأطراف النهار .. أفليس ذلك أصلا إسلاميا اتبعه بحكم الفطرة صعلوك جاهلى ؟

قال : هنا مربط الفرس .. الأصول الفطرية فطرة الله التى فطرالناس عليها ولن تجد لسنة الله تبديلا . والإسلام لم يزد على أن أرشد الناس إلى هدى الفطرة السليمة ، وما دام الكائن الحى فرداً أو مجتمعاً مهتديا بهذا الهدى ، فقد صح ، وصحت حياته .

قلت : الإنسان مدنى أو اجتماعى بالطبع .

قال : تلك قاعدة فطرية أغفلتها العرب فى الجاهلية فلم تجتمع ، بل تفرقت أيدى سبأ على حد تعبيرها .. جعلها الله شعوباً وقبائل لتتعارف وتتعاون فتناكرت وتجادلت واحتربت . فلما جاء الإسلام ألفاها متبددة ومختلفة اختلافا تعجز القوى البشرية أن تؤلف شتاته . . كان محمد بن عبد الله عليه صلوات الله خير دعاة بنى الإنسان ما فى ذلك أدنى ريب . إلا أنه بقوته ووسائله الآدمية ، ما كان بمستطيع تأليف تلك القلوب التى أتت عليها الثارات والحزازات ، بل كان لا بد لأعظم

بنى الأرض من معجزة سماوية حتى يؤلف قلوب العرب « ولو أنفقت مافى الأرض جيماً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » . أجل ، ألف بينهم أى ردهم إلى سواء السبيل . سبيل الفطرة .. هؤلاء الأجلاف الذين كانوا يأكل بعضهم بعضاً على خلاف ما تفعل النمل والنحل وغيرهما من فصائل الحيوان الاجتماعى فكان دأب كل حى أن يغير على الذى يليه فإذا لم يجد غير أخيه فالرأى أن يأكله .

وأحيانا على بكر أخينا   إذا ما لم نجد إلا أخانا

هؤلاء الأجلاف أصبحوا بنعمة الله إخوانا أى إخوان يتعاونون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

قلت : ولكنها حال لم تلبث أن أتى عليها الزوال ، وسبحان مغير الأحوال .

قال : زوال إلى أجل علمه عند علام الغيوب . وإنى لأعتقد اعتقادا جازما أن الإسلام أكرم على الله من أن يكون عمره على الأرض سنوات معدودات . وإنه لمقيض لهذه الأمة الواحدة من يجمع كلمتها ويجلى وحدتها ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

قلت :

منىً إن تكن يوماً تكن أحسن المنى   وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

قال : منى وليس أمانى . حسبك أن ترجع القهقرى عشرين عاما . لقد رأيت ذوى الفكر والتوجيه فى الأمة الإسلامية أعقاب الحرب العالمية الأولى مفتونين ببرق خلب غربى خلب ألبابهم فحسبوا دينهم الذى ارتضى الله لهم ماحسبوا ، غير أنها كانت غمامة صيف تقشعت أسرع مما تجمعت ، وهأنت ذا الآن تجد المسلمين يقولون آمنا . يقولونها حتى أولئك الذين لما يدخل الإيمان فى قلوبهم ، أتقول إن من بين المتظاهرين بالغيرة على الوحدة الإسلامية منافقين ، ليكن الأمر كذلك فتلك بشرى ، فأنت لا تنافق ولا تصانع إلا من تحس خطورة شأنه . وازن بين هذه الظاهرة والأخرى نقيضتها ، فمنذ سنين غير بعيدة كان من المسلمين عقيدة من يسترون إسلامهم ، فإذا رأيت غير المسلمين الآن ينافقون فيظهرون إيمانهم ، فأية دلالة هذه ؟ .

قلت : تا لله إنها لمن كبريات الدلائل ، وإن كان كثير منا فى غفلة منها .

قال : لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك .

قلت : صدق الله العظيم وأشهد أنكم جلوتم بصيرتى . والله ما أعظم شيخنا المحنك.

قال : لست ممن يطبيهم الإطراء ، وإذا عددتنى شيخك المحنك فاكتمها ، وحدثنى فيما يمكن أن يستدرك ، ولعلك وجدتنى خرفت على أنه قد بقى منى أن أرجع إذا نبهتنى فاقرع لى العصا ولا عليك .

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا　　　وما علـم الإنسان إلا ليعلما

قلت : لقد قرعها لكم شيخ آخر فهو الشيخ المستدرك بالقياس إليكم .

قال : أفيرى غير ما أرى فى وحدة المسلمين .

قلت : بل فى إعراب إلياسين والأخين والأبين .

قال : إليك قبل ما يقوله صاحب (غريب القرآن) :

[الياسين : يعنى إلياس ، وأهل دينه جمعهم بغير إضافة بالياء والنون على العدد ، كأن كل واحد إسمه إلياس] .

وقال : بعض العلماء يجوز أن يكون إلياس والياسين بمعنى واحد ، كما يقال : ميكال وميكائيل ، ويقرأ على آل ياسين أى على آل محمد صلى الله عليه وسلم] .

رحم الله (السجستانى) ولست أدرى لمَ أغفل احتمالات أخرى منها مثلا أن تكون (إلياسين) جاءت على صيغة جمع المذكر السالم . ولو كانت مرفوعة لكانت (الياسون) بواو ونون ، وإنما جمع إلياس تعظيما لشأنه فهو واحد ، ولكن كل ألف تعد بواحد ، فكأنه إلياس . وإلياس . وإلياس . . . إلى الألف أو الألفين ، أو ألف ألف ، وأيًّا كان العدد فهو (الياسون) سلام على إلياسين هذا احتمال ، والثانى . . .

قلت : على رسلكم فإن شيخنا المستدرك حدثنا فى أمرين : رواية الشعر ، وإعراب الأخينا .

قال : وأنت على رسلك ، فهذا حديث طويل ، فإلى جلسة أخرى ؟

لكن قال شيخي

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوى
الأستاذ فى كلية اللغة العربية

لقد يستحثنى إلىّ وَصاتى الموثقة لك ببر الأب ومؤازرة الأخ ما روّ عنى الآن من عقوق للأب وخِذلان للأخ ، لطغيان السيل العرم من الانحلال الخلقى فى الشبان والشواب ، مما يتقرح منه كبد الأب ، ويفت فى عضد الأخ ، فتخمد منهما جـذوة المناصرة وينأيان عن المكانفة ، حتى يؤذِّن نذير الانهيار الأُسرىّ بالعفاء .

وما حفظ كيان أسلافنا الأمجاد إلا احتذاؤهم المثل السُّميا فيما توحى به الفطر النقية ، وأكده دين الإسلام والسلام .

ومرحى للراجز العزلى ، إذ يقول على لسان الضب حينما رأى تهدم جحر ابنه الحِسْل :

أهدّموا بيتك لا أبا لكا وحسِبوا أنك لا أخا لكا
وأنا أمشى الدَّألَى حوالكا

كيف اجترأ عليك الخاطئون . وخربوا بيتك ، وزعموا أنه لا أخا لك ، ولا أبا لك ، يمشى حولك يرعاك . ألا يثأر أخوك وأبوك لك .

قال أبو العباس المبرد : (حدثنى أبو عُمَر الجَرْمى ، قال : سألتُ أبا عبيدة عن قول الراجز :

أهدّموا بيتك لا أبا لك ... ...

فقلت لمن هذا الشعر ؟ فقال هذا يقوله الضب للحِسْل أيام كانت الأشياء تتكلم (١) .

وسواء أكان هذا الشعر يقوله العرب على ألسنة الحيوانات كما يقول سيبويه ، أم قاله الضب أيام أن كانت الأشياء تتكلم كما يقول أبو عبيدة ، فإنه ذو مغزى يأخذ بتلابيب المأفونين الذين هم فى طغيانهم يعمهون .

ترفرف أجنحة القربى على الأصول لتضم لها الحواشى والفروع ، فقد العم أبا وابنه أخا وتبتئس من دَعَارَّة عَقيل بن عُلَّفة فى سوء مجازاته بنى العم بمثل مايصنعون ، ثم تستريح مغتبطة لسماع نداء مِسْكين الدارى رحمة الله عليه فى قوله :

وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه وهل ينهض البازى بغير جناح

فى الصواب أن ما بين روحى عقيل ومسكين ما بين الحنظل والصندل ، أو الحميم والسلسبيل .

قلت : قرأت مقداراً له بال من شعر العرب ومنثورها ، وهم أرباب اللسن ، لاتخيفهم سطوة حاكم عات ، ولا تردعهم قوانين مسنونة ، فما يبالون هُجر القول وسلاطة اللسان شفاء لما فى صدورهم الحانقة ، حسب تقديرهم الشخصى .

فقد هجا الأخ وأقذع فى السباب كالمغيرة بن حبناء التميمى ، وتهدد ابن العم وأرعد كذى الأصبع العدوانى وطرفة بن العبد ، وعنترة العبسى ، وسَفِه ابن الأخ وأفحش كعقيل بن علفة المرى ، مما أوغر الصدور واستفزهم إلى التدابر فيما بينهم ، وجلب الأحداث الجسام التى انتابت الأقارب ومزقتهم بَدَدا ، ذلك أن العِداء ينشب بينهم لما يغتفر مثله من غيرهم ، فهنواتهم معدودة ، دقيقها جليل ، وتحملها ثقيل ، ويقول طرفة بعد سرد آلامه من ابن العم .

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

إن للعداوات بين ذوى القرابات أسبابا تخلقها ، يستعصى على الباحث عنها الوقوف على كنهها حتى يعرف المحق من المبطل ، وليس من الهين البين البت

---

(١) رغبة الأمل من كتاب الكامل جـ٥ باب من تكاذيب الأعراب وهو طريف مستملح .

فى القضاء على خارج ، فربما التقت حلقتا البطان ، فلم يُطق المجروح الإغضاء عن الحيف المتراكم عليه - إن المنطق المستقيم ليطرب لقول المغيرة بن حَبْنا :

إذا المرء أولاك الهوان فأوله هوانا وإن كانت قريبا إواصره
فإن أنت لم تقدر على أن تهينه فذره إلى اليوم الذى أنت قادره
وقارب إذا لم تكن لك حيلة وصمم إذا أيقنت أنك عاقره

وإنى لأستشف من خلال سطور نصيحتك الممحضة النقشم على عقيل ، ورب ملوم غيرُ مُليم ، والظواهر قد تناقض البواطن والموازين القسط لعلام الغيوب ، فكثيراً ما تنماع سحب التهمة ، وينكشف للقاضى الألمعى عذر القاتل ، وأنه حر انتصر .

إن هذا مقام يطول فيه الحديث ، ولا يصل غاية يوقف عندها ، ويحسن السكوت عليها .

قال : لا مرية فى أحقية ما أبديت ، ولكن جاش فى صدرى ما استهللت به الحديث من نصيحة غالية ، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

قلت : آمل أن تتفتح لها القلوب الغُلف ، وتنشرح لها الصدور المفتحة ، ولا أجانف الواقع إذا ما عددت ميل المنصوح وسيلة لقبولها ، فكم من نصيحة ضرب المنصوح عنها صفحا ، وقد لقى من جرائها حتفاً ، وقديماً زُج بالكميت فى سجن خالد بن عبد الله القسرى ، والى العراقين لهشام بن عبد الملك ، بعد إلحاح معاذ الهراء الصرفى المشهور عليه فى الخروج من العراق والبعد عن وجه خالد - إذ كان معاذ للكميت مخادنا وفياً ، لما بينهما من التشيع العلوى - لمّا لم يصخ لنصيحته فقال الهراء :

نصحتك والنصيحة إن تعدت هوى المنصوح عزّ لها القبول
فخالفتَ الذى لك فيه رشد فغالت دون ما أملتَ غول
وعاد خلافُ ما تهوى خلافاً له عرض من البلوى وطول

ثم بعد هذا كله أرانا يامولاى قد انساق بنا الحديث إلى ما أبعدنا عن مبحثنا فإننا بصدد لفظى الأب والأخ ، وجمعهما لا بشأن الواجب نحوهما ، فكم لهما من واجبات حث عليها الدين وفصلتها الآداب الاجتماعية .

قال : أراك استأنيتني في التعليق على ما أسلفت من النصوص المؤيدة أن الأخين لغة في الأخ ، بما فيها من أمثال وأشباه .

وما كان لك أن تتعجل بعد عرضي لك شواهد عربية حاسمة في جعل الأخين والأبين جمعي أب وأخ ليقيني أنك مطمئن القلب بعدئذ ، على أني موف لك بعهدي ، إن العهد كان مسئولا .

نعم قد بدا لي اليوم قبل التعليق عليها أُحاد أُحاد - والتكرير للتأكيد لا التأسيس على حد قوله صلى الله عليه وسلم : صلاة الليل مثنى مثنى - أنْ أوجه نظرك إلى أن الأبين كان جمعاً متعارفاً ذائعاً في الاستعمال العربي أوائل التدوين للعربية ، حتى عُد أساسا للتمرين عندهم على ما عرف عند الصرفيين في باب التدريب ، إذ يتخذون الكلمات المعروفة عماداً للنظائر من غيرها في موافقتها تطبيقاً للقواعد واختباراً في العلم ، فيقولون : كيف تبنى من كذا على مثال كذا المعروف عندهم ، وذلك عند للصرفيين نظير باب الإخبار بالذي ، والألف واللام عند النحويين .

ولو ذكرتُ هذا قبلا كنت في غنى عن تلمس شواهد لجمعهما ، في التنقيب عن الشواهد عناء أي عناء ، مكتفيا بجعل علماء العربية (الأبين) أساساً يبنى على مثاله ، وفي هذا غناءٌ أي غناء .

إن سيبويه استشرفت نفسه للحظوة عند الخلفاء والأمراء ببغداد ، وقد غمروا الكسائي زعيم بغداد بعطاياهم الجزيلة وهو دونه عنده ، فشخص إليها أملا في الفوق عليه ، ونزل عند يحيى بن خالد البرمكي وزير الدولة ليجمع بينهما ، وفي اليوم الموعود سبق الكسائي تلميذاه : الفراء والأحمر ، وجرت المناقشات العلمية بينه وبينهما ، فكان مما قاله الفراء : (ما تقول فيمن قال هؤلاء أبون ومررت بأبين؟ كيف تقول على مثال ذلك من وأيْت أو أويْتُ؟) (١) ، وقد أجاب سيبويه بما يوافق المذهب البصري في المفرد وخطأه الفراء تبعا للمذهب الكوفي فيه ، وليس لهذا الخلاف من أثر في الجمع نفسه .

إن السائل في البناء على مثال هذا الجمع رفعاً وجراً الفراء الكوفي ، والمسئول

(١) المغني : مبحث إذا .

سيبويه البصرى ، لجمعيته مطبق عليها من المِصْرَين : (البصرة والكوفة) فكيف بعدئذ تعرض فكرة الأخين لغة فى الآخ .

لم يعبأ سيبويه بالعنت الذى حاق به من ملاحاة التلميذين أنفة منه عن مسايرتهما حتى حضر أستاذهما الكسائى وسأل سيبويه السؤال المشهور بالمسألة الزنبورية ، وليس هنا مجالها ، فكان نصيبه فيها الخذلان أيضاً ، ويؤكد الثقات الأثبات أن لأصبع السياسة أثراً كبيراً فى تغليط أستاذ البصرة والتندر به ، فقفل راجعا من هذه الرحلة المشئومة بالخزى والانكسار متوارياً من سوء ما لحق به تاركا البصرة موليا وجهه شطر بلده بفارس فمات بها غما فى ريعان شبابه . وقال قبل احتضاره :

يؤمل دنيـــا لتبقى له فمات المؤمل قبل الأمل
حثيثا يُرَوِّى أصول النخـ ـيل فعاش الفسيل ومات الرجل

لاتضجرن من استرسالى بعد سوق الحجة فى التنويه عن المناظرة المتعالمَة بين العلماء، فما ذكرت مثار النزاع فيها ، ولا ما قيل من المتنازعين ، ولكنى ألمحت إليها لتعلم أنه سبقها الحديث عما نتناقش فيه بما لايدع ريبة تحوم حوله .

قلت : إن هذه الحجة بعد الشواهد الماضية الكافية طالت لا تنالها الشبهات زادتنى يقينا على يقينى ، وما بقى لى شاغلا ذهنى إلا تعقيبك على ما قدمت لك من نصوص تناهض ما تقدم ، طال تشوفى واستشرافى له ، فهذا بغيتى وطلبتى ، ولك منى بالغ العرفان بالعرف المسدى فى العلم - وأخشى ما أخشاه أن ينفلت لسانى بإنشاد قول ابن أبى ربيعة :

كلما قلتُ متى ميعـــادنا ضحِـكت هند وقالت بعد غد

قال : قَدْنِى منك اليوم ، لو غيرك أنشده ، سأبين لك ما عنيتَ غداً لا بعد غد ، كما قال هدبة بن خشرم العذرى .

فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غداً لناظره قريب

قلت : لك الطول فى الأولى والآخرى ، وتفضل بقبول اعتذارى موفور الشكر والثناء ، وسلام الله عليك ورحمته ؟ [للكلام صلة]

بر المخالفين في الإسلام

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى
الأستاذ بكلية اللغة العربية

— ١ —

تدعو جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية إلى أن تكون العلاقة بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم علاقة محبة ومبرة ، حتى لا يكون اختلافهم فى المذاهب داعياً إلى قطع العلاقة بينهم ، وقيام الخصام بين فرقهم ، وأنها لدعوة الإسلام التى تؤثر السلم على الحرب ، ولا تدعو إلى خصام المخالف فى الدين ، بل لا نرى بأساً فى حبه ومودته ، فيكون المسلمون أحق بقيام علاقة المحبة بينهم ، لأنه ليس بينهم من الخلاف ما بينهم وبين غيرهم ، وإنه ليدعونى الآن إلى الكتابة فى هذا الموضوع - بر المخالفين فى الإسلام - أن كثيراً منا يتأثر بظاهر آيات وردت فى القرآن يفيد الحث على بغض المخالفين ، فيأخذه قضية مطلقة غير مقيدة ، ويحمل الإسلام من هذا ما تأباه دعوته السلمية البريئة ، وهى الدعوة التى جعلت من المسلمين الأولين بررة أطهارا ، لا تحمل قلوبهم للناس غير الحب لهم ، ولا تتطلع نفوسهم إلا لهدايتهم .

وقد ضرب النبى صلى الله عليه وسلم أمثلة كثيرة فى بر المخالفين ، منها ما كان منه حين قصد إلى الطائف ليعرض على أهلها أن يحموه من قومه ، فأرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون فى وجهه فى الطريق ، ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه ، فاشتد به الكرب ، وقال : اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وهوانى على الناس ، يأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، فأتى جبريل عليه السلام برسالة من الله تعالى ، وقال : إن الله أمرنى أن أطيعك فى قومك لما صنعوه معك .

فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون . فقال جبريل عليه السلام : صدق من سماك الرؤوف الرحيم .

نعم صدق من سماه الرؤوف الرحيم ، لأن مثل هذا لا يكون إلا من قلب غمره البر بالناس كافة ، فليس فيه شىء من الحقد عليهم ، حتى يستعجل هلاكهم ، ويشفى حقده بما يراه من عذابهم ، وهكذا قال : « اللهم اهد قومى » فطلب الهداية لهم ، ولم يطلب هلاكهم ، وأضافهم إليه إضافة تقريب وحنان ، وهو فى أشد حالات الكرب ، وقد طلب المعين فلم يجده ، بل وجده أقسى عليه ممن طلب إعانته عليه ، ثم قال « فإنهم لا يعلمون » فالتمس بعض العذر لهم ، وإن كانوا لا يعذرون إذا ماتوا وهم على كفرهم ، لأنه كان لا يزال يطمع فى أن يؤثروا الإيمان فى يوم من الأيام ، لأنهم لا يمنعهم من الإيمان به إلا الجهل الذى طال به الأمد ، فلابد له من زمن يثابر فيه على علاجه ، ويأخذهم فيه بالدليل والإقناع ، فليس من يكفر عن جهل كمن يكفر عن عناد ، لأن من يكفر عن جهل يفيد فيه العلاج ، ومن يكفر عن عناد لا علاج له .

ثم ضرب النبى صلى الله عليه وسلم مثلا آخر لبر المخالفين ، وهذا بعد أن هاجر من أذى قومه ، وقامت الحرب بينه وبينهم ، وقد كال لهم فيها أكثر مما كالوا له ، ولكنه بعد انتصاره عليهم لم يشأ أن يمضى فى حربهم ، لأنه لم يحمله عليها عداوة لهم وإرادة انتقام منهم ، وإنما كانت حرباً دفاعية لحماية الدعوة ، فلما ذهب فيها من ذهب من قومه أشفق عليهم من الفناء ، فحنا عليهم مع عداوتهم له ، لأنه لم يكن يحمل لهم حقداً ولا ضغنا ، بل كان لا يزال طامعاً فى هدايتهم ، مع ما قام من الحرب بينه وبينهم .

وقد كان هذا المثل فى صلح الحديبية ، وكان قد سار إلى مكة معتمراً لا يريد حربا ، فعزم قومه على صده عن المسجد الحرام ، وأرسلوا خالد بن الوليد فى مائتى فارس طليعة لهم ، فلما بلغ النبى ذلك قال : يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابونى كان ذلك

الذى أرادوا ، وإن أظهر الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة .

فقوله صلى الله عليه وسلم : (يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب) يدل أكبر دلالة على أنه لم يكن يحاربهم عن عداوة لهم ، ولا عن إرادة انتقام منهم ، بل كان يحاربهم وهو كاره لهذه الحرب ، لأنه يقتل فيها أرحاما يعز عليه تقتيلها وإن كانت ظالمة ، ولا يضمر لها إلا حب الخير ، ولا يريد لها إلا السعادة والهناءة ، ولا تجتمع هـــذه النية لهم فى قلب يضمر عداوتهم ، لأن القلب العامر بحب الخير للمخالفين لا يعرف العداوة التى تمنعه من حب الخير لهم ، فلم يكن شأن النبى صلى الله عليه وسلم معهم إلا كما قال الشاعر :

أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد

وقد بر النبى صلى الله عليه وسلم بهم هنا أعظم بر ، وحنا عليهم أعظم حنو ، فلم يزل يلين لهم حتى رضوا بعقد صلح معه ، وكان صلحاً فيه نفع كثير لهم ، وفيه غبن كثير للمسلمين ، ولكنه ضن عليهم بالقتل ، لأن قلبه عامر بحب الخير لهم ، ولا يزال يطمع فى إيمانهم .

ثم ضرب النبى صلى الله عليه وسلم مثلا ثالثا فى بر المخالفين ، وهذا مع المنافقين الذين كانوا يخفون الكفر ويظهرون الإسلام ، فكان يقبل منهم ظاهرهم ويتغاضى عما يحصل منهم من الكيد للمسلمين فى السر ، فيقابله بالإغضاء والصفح ، ولا ينقطع عن برهم ومودتهم ، ليقتلع من قلوبهم جذور النفاق بالحسنى ، لأن الصفح عن المسىء أقوى فى إقلاعه عن إساءته من مقابلته بمثلها ، وقد كان رئيسهم عبد الله بن أبى بن سلول أكثر إساءة للمسلمين ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يقابل عقوقه بالبر ، ويقابل إساءته بالصفح ، ويقابل مايضمره من العداوة بإظهار المودة ، فلما مرض عبد الله عاده صلى الله عليه وسلم فى مرضه ، فطلب منه أن يصلى عليه ويقوم على قبره ، ثم أرسل إليه يطلب منه قميصه ليكفن فيه ، فأرسله إليه ،

ولما مات صلى عليه صلاة لم يطل مثلها (١) ، وشيع جنازته حتى وقف على قبره ، وقد قال له عمر حين أعطى له قيصه : لم تعطى قيصك هذا الرجس النجس ؟ فقال : إن قيصى لن يغنى عنه من الله شيئا ، فلعل الله يدخل به ألفاً فى الإسلام ، وقد تحقق ما أمله النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن المنافقين كانوا لا يفارقون عبد الله فى مرضه ، فلما رأوه يطلب هذا القميص ويرجو أن ينفعه أسلم خلق كثير منهم ، ولم يبق على النفاق إلا عدد قليل ، ثم اختفى النفاق بعد هذا بفضل ذلك البر الذى رعى به النبي صلى الله عليه وسلم أولئك المنافقين .

ومن هذا كله نستطيع أن نحكم بأن بر النبي صلى الله عليه وسلم بالمخالفين كان عاما شاملا ، فقد عامل به من خالفه وسالمه ، ثم عامل به من خالفه وعاداه قبل هجرته إلى المدينة ، ثم عامل به من خالفه وحاربه بعد هجرته إليها ، ثم عامل به من أظهر له الإسلام من المنافقين وكان يناوئه فى الخفاء ، ويدبر له الفتن والمؤامرات .

ولا غرو أن يكون هذا شأن النبي صلى الله عليه وسلم مع أولئك المخالفين ، فقد كانت رسالته رحمة للناس كافة ، كما قال تعالى فى الآية - ١٠٧ - من سورة الأنبياء : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فالعالمون هم الناس عامة من مؤمنين ومخالفين ، وقد بعث صلى الله عليه وسلم والناس فى جاهلية وضلالة ، وأهل الكتاب فى حيرة من أمر دينهم ، لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ، ووقوع الاختلاف فى كتبهم ، فبعث حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب ، فدعاهم إلى الحق : وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام ، وميز الحلال من الحرام ، فكان لهم رحمة فى الدين ، وكذلك كان رحمة لهم فى الدنيا ، لأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ، حين كان جبابرة الملوك يعاملونهم كما يعامل الأرقاء ، ويسوقونهم إلى حروب آثمة لا تقف عند حد ، ولا تنتهى إلى نهاية ، ولا يقصد منها إلا استرقاق الشعوب واستعبادهم ، فجاء الإسلام بإبطال هذه الحروب ، ودعاهم إلى الدخول فيه بالسلم ، كما قال تعالى

---

(١) قد منع من الصلاة عليهم بعد هذا لأنها خاصة بالمسلمين الصادقين .

فى الآية - ١٢٥ - من سورة النحل : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

وهـذا إلى أن كل نبى قبله كان إذا كذبه قومه دعا الله فأهلكهم بالخسف أو الغرق أو غيرهما من آيات العذاب التى أهلك بها الأولون ، أما النبى صلى الله عليه وسلم فقد أخر عذاب من كذبه إلى الموت أو القيامة ، وقد كانوا يطلبون هذا العذاب فلا يجيبهم إليه ، كما قال تعالى فى الآيتين - ٣٢ ، ٣٣ - من سورة الأنفال « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، وما كان الله ليعـذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » فوقاهم الله من العـذاب الذى طلبوه فى دنياهم لوجوده بينهم ، وكان بهذا أبر بهم من أنفسهم .

وقد قال أبو هريرة : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع على المشركين ، فقال : إنمـا بعثت رحمة ولم أبعث عذابا .

وروى حذيفة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنمـا أنا بشر ، أغضب كما يغضب البشر ، فأيمـا رجل سببته أو لعنته ، فاجعلها اللهم عليه صلاة يوم القيامة .

وهذا غاية ما يكون من البر وحسن الخلق ؟

[للـكلام صلة]

أنباء وآراء

بلا تعليق :

نشرت جريدة « الجمهورية » الغراء فى عددها الصادر يوم الثلاثاء ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٥٣ نبذة عن جريدة التيمز الانجليزية اللندنية هذا نصها :

« يتقدم الإسلام بخطى سريعة فى غرب أفريقيا ، حتى أن بعثات التبشير والاوروبيين على السواء ليبدون قلقاً شديداً عما قد يترتب على انتشار الإسلام فى المنطقة كلها ، وكان الاعتقاد قديماً أن الإسلام هو دين شعوب الصحراء ، وقد يتجه نحو الحضر ، وما كان أحد ليصدق أنه يستطيع اختراق المناطق الاستوائية ، وأن يصل إلى الجنوب كما حدث فى « سيراليون » و « الساحل العاجى » و « ساحل الذهب » و « داهومى » .

ويخشى رجال الإدارة على الأخص من انتشار الإسلام فى هذه البقاع بتبعه اتصالات بالقاهرة وبالعالم العربى ، ويختلف المفكرون الغربيون فى اتجاههم الفكرى نحو مستقبل الإسلام فى أفريقيا ، فمن قائل أن تقدم الإسلام لن يضر بالمصالح الاستعمارية ما دام يسير فى الخطوط التى رسمها له المستعمر ، بينما يرى آخرون ضرورة الحد من تقدم الإسلام عن طريق نشر البدع والخرافات حتى يكون هذا بمثابة حائل يقف أمام ضغط الإسلام المتزايد » .

فى مؤتمر برينستون :

فى المؤتمر الذى عقد فى جامعة برينستون بأميركا أثار أحد المتحدثين سؤالا كثيراً ما يثار فى أوساط المستشرقين والمهتمين بالنواحى الإسلامية .

قال : « بأى التعاليم يتقدم المسلمون إلى العالم ليحددوا الإسلام الذى يدعون إليه ؟ أبتعاليم الإسلام كما يفهمها السنيون أم بالتعاليم التى يفهمها الشيعة من إمامية

أو زيدية ، ثم إن كلا من هؤلاء وأولئك مختلفون فيما بينهم . وقد يفكر فريق منهم فى مسألة ما تفكيراً تقدمياً مجدداً ، بينما يفكر آخرون تفكيراً قديماً متزمتاً ، والخلاصة أن الداعين إلى الإسلام يتركون المدعوين إليه فى حيرة لأنهم هم أنفسهم فى حيرة » .

وقد كان من حسن الحظ أن وجد فى هـــذا المؤتمر بعض العارفين بفكرة التقريب ، فأوضح أن جميع الطوائف الإسلامية (من سنية وشيعية إمامية وزيدية) متفقون فى الأصول التى لا يكون المسلم مسلماً إلا بها ، وهم بعد ذلك متفقون أيضاً فى كثير من الفروع مختلفون فى غيرها ، والخلاف فى الفروع ماهو إلا كاختلاف الشراح فى القوانين مع اتفاقهم على الأصول الرئيسية لها ، ولو أن المسلمين دعوا إلى دين كلهم فيه على كلمة سواء فى الأصول والفروع ، لما كانوا بذلك مصورين للإسلام تصويراً صحيحاً ، ولما وجدوا مستجيباً لدعوتهم ، فإن الإسلام قسمان : أصول ثابتة لا يجوز الخروج عنها ، وفروع جعلها الله - رحمة منه بعباده - موضع الاجتهاد والنظر، فكما أنه يسوغ للمسلمين أن يجتهدوا فى الأولى لا يسوغ لهم كذلك أن يحجروا ما وسعه الله فى الأخرى .

وهذا تحديد جيد للإسلام .

صوت من « اليونسكو » بالهند :

فى المؤتمر العام الذى عقده اليونسكو بالهند فى هذا الشهر ، واشترك فيه مندوبو ثمان دول شرقية منها مصر ، ناشد أحد الإعضاء البارزين المؤتمر أن يعمل على دعوة المسلمين فى جميع الشعوب الإسلامية إلى تمحيص التاريخ الإسلامى على وجه عام ، وما يدرس منه للناشئة على وجه خاص ، لينفوا منه ما أضيف إليه من زيف ، وليعصموا الأذهان من التأثر بالمثيرات للأحقاد والضغائن صونا للوحدة الإسلامية ، ودرأ لوساوس العصبيات بين الطوائف .

ولا شك أن هذا اتجاه جمعية يتفق وما يدعو إليه التقريب من ائتلاف المسلمين فى جميع طوائفهم ، والابتعاد بهم عما يؤدى إلى إثارة الضغائن بينهم ، وتقريب قلوبهم على ثقافة إسلامية خالصة .

من بحوث مجمع اللغة العربية[١]

معجم ألفاظ القرآن الكريم

— ١١ —

ل هـ ب

اللهب

اللهب اشتعال النار وتوقدها ، ويقول بعض اللغويين فى اللهب : هو حر النار أو اشتعالها حين تخلص من الدخان ، ويقال فيه : التهبت النار وألهبتها .

اللهب — وجاء اللهب فى قوله تعالى : « لا ظليل ولا يغنى من اللهب » ٣١ / المرسلات « سيصلى ناراً ذات لهب » ٣ / المسد .

ل هـ ث

يلهث

لهث الكلب يلهث لهثاً : أخرج لسانه من العطش أو التعب أو الإعياء .

يلهث — وقد جاء من هذا قوله تعالى : « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » ١٧٦ / الأعراف .

ل هـ م

ألهم

ألهمه الله كذا : أوقعه فى قلبه ، وبصره به ، وعرفه إياه ، تقول : ألهمه الله

(١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد رئيس المجمع .

الخير ، وقد ألهم الله الإنسان سبل الهدى والضلال بما ركز فى النفوس ووضع فى بدائه العقول ، والإنسان إذا سلمت فطرته ينكر المنكر ويعرف المعروف بهذا الإلهام .

وقد جاء هذا فى قوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » ٨ / الشمس — ألهم

ل ه و

اللهو . لاهية . تلهى . ألهى

١ — اللهو يجىء على وجهين :

(ا) فيكون مصدراً . يقال : لها يلهوا لهواً : أمتع نفسه وروح عنها بما فيه لذتها وشهوتها . كسماع غناء ، ونظر إلى حسناء . ومثل هذا لا يعقب منفعة ، ولا يخلف ثمرة . ويقال لمن لا يأتى بعمل نافع : إنما عمل فلان لهو ولعب . وقد جاء من هذا قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » ٣٢ / الأنعام . « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم » ٢٠ / الحديد . — لهو

(ب) ويأتى اللهو لما يلهى به ، كالغناء ، والحديث المبنى على الخيال المتجافى عن الحقيقة ، ومن ذلك الأساطير ، وما يروى عن الفرس واليونان ، ومن ذلك المرأة يلهو بها الرجل ، والولد يلهو به الوالد .

وقد جاء من هذا قوله تعالى : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم » ٦ / لقمان .

ومن هذا قوله تعالى : « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين » ١٧ / الأنبياء . وقد قيل اللهو هنا الزوجة أو الولد .

٢ — لهى عن الشىء يلهى لهيا ، فهو لاه وهى لاهية : غفل عنه وتركه .

وقد جاء من هذا قوله تعالى : « لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا » ٣ / الأنبياء — لاهية

٣ — تلهى عن الشيء : لهى عنه .

تلهى وقد جاء من هذا قوله تعالى : « وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى » ١٠ / عبس . تلهى أصله تتلهى .

٤ — ألهاه الشيء : شغله وصرفه .

الهى وقد جاء من هذا قوله تعالى : « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » ١/التكاثر . « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » ٣ / الحجر .

لا ت

لات حرف نفي ، يختص بالدخول على الزمن .

وقد جاء من هذا قوله تعالى : « ولات حين مناص » ٣ / ص .

ل و ح

(لواحة . لوحة)

١ — لاح الإنسانَ السفرُ أو الحزن ، أو غيرهما يلوحه لوحا : غيره ، يقال من هذا : لاحت النار فلانا : غيرت لونه من حرها فاسود ، والنار لائحة ، وقد يقال في مبالغة وصفها باللوح : لواحة .

لواحة وجاء لواحة وصفاً لجهنم في قوله تعالى : وما أدراك ماسقر لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر » ٢٩ / المدثر .

٢ — اللوح يجيء لما يأتي :

(ا) فيقال : اللوح للقطعة العريضة من الخشب أو العظم وما أشبههما ، ويجمع على الواح ، ويقال للسفينة : ذات ألواح ودسر ، والدسر المسامير إذ كانت تتألف منهما ، والألواح قد يكتب فيها كما هو معروف .

الواح ومما جاء فيه الألواح قوله تعالى : « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة » ١٤٥ الاعراف .

« وحملناه على ذات ألواح ودسر » ١٣ / القمر .

لوح — وقد جاء اللوح اسماً لشيء استودع فيه كتاب الله ولا يعلم كنهه إلا هو ، قال تعالى : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » ٢٢ / البروج .

ل و ز

لواذا

لاذ به يلوذ لوذا ولياذا : لجأ إليه . يقال : لاذ الجيش بالحصن : ويقال : لاذ الرجل بآخر أو بأمر من الأمور : استتر به واعتصم لدرء ما يخشاه من أذى يلحقه فى نفسه أو كرامته .

ويقال من هذا : لاوذ القوم لواذا : لاذ بعضهم ببعض .

لواذا — وقد جاء لواذا فى قوله تعالى « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا » ٦٣/النور وهو تصوير لحال قوم من المنافقين كان ينصرف بعضهم من مجلس الرسول فيلوذ الآخر به وينصرف متستراً به .

ل و م

لام - يلوم - لومة - لائم - اللوامة - ملوم - مليم - يتلاوم .

١ — لامه يلومه لوما ولومة عنفه على ما لا ينبغى من قول أو عمل . والوصف لائم .

وكثير اللوم يقال فيه لوام ، والأنثى لوامة واسم المفعول ملوم .

لام — وقد جاء من هذا قوله تعالى : « فذلكن الذى لمتننى فيه » ٣٢ / يوسف .

يلوم — « فلا تلومونى ولوموا أنفسكم » ٢٢ / ابراهيم .

لومة لائم — « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ٥٤ / المائدة .

اللوامة — « لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة » ٢ / القيامة .

ملوم — « وتول عنهم فما أنت بملوم » ٥٤ / الذاريات . « إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين » ٦ / المؤمنون .

٢ — الام الرجل فهو مليم : أتى بما يلام عليه من قول أو فعل .

مليم — وجاء مليم فى قوله تعالى « فالتقمه الحوت وهو مليم » ١٤٢ / الصافات .

« فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى أليم وهو مليم » ٤٠ / الذاريات .

٣ — تلاوم الرجلان : لام كل واحد منهما صاحبه .

يتلاوم — وجاء يتلاومون فى قوله تعالى « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » ٣٠/القلم .

ل و ن

لون — ألوان

اللون صفة الجسم من البياض والسواد والحمرة وغيرها . والنوع والصنف . ويجمع على ألوان .

لون — ١ — وقد جاء فى الكتاب اللون بمعنى الصفة فى قوله تعالى « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين »

ألوان — ٦٩ / البقرة ، وفى قوله تعالى : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » ٦٩ / النحل .

وفى قوله تعالى « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك » ٢٨ / فاطر .

ألوان — ٢ — وجاء فى الكتاب اللون محتملا أن يفهم منه أحد المعنيين فى قوله تعالى « وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه » ١٣ / النحل « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » ٢٢ / الروم . فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها » ٢٧ / فاطر « ثم يخرج به زرعا مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً » ٢١ / الزمر .

ل و ى

لوى - لوى - ليا

لوى الشىء يلويه ليا : ثناه وأماله يقال لوى العود أى ثناه ولوى رأسه

وبرأسه : أماله . ويستعمل لىّ الرأس بمعنى الاعراض والسخرية . ولىّ اللسان بالكلام بمعنى صرف الكلام عن المعنى المراد منه أو الكذب . ويقال : لوى على الشيء : توقف عنده .

وقد جاء فى الكتاب لما يأتى :

لوى — ١ — قال تعالى « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم » ٥ / المنافقون . أى أعرضوا عما قيل لهم وسخروا منه .

يلوى — ٢ — وقال تعالى : « وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب » ٧٨ / آل عمران . أى يميلون عن الحق إلى الباطل ويفترون على الكتاب بما ليس منه .

ليا — وقال تعالى « ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم » ٤٦ / النساء . أى انحرافا وميلا عن اللفظ الذى يؤدى المعنى المستقيم بلا احتمال إلى لفظ يحتمل الذم الذى يقصدون .

تلوى — ٣ — وقال تعالى : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد » ١٥٣ / آل عمران أى لا تميلون يمنة ولا يسرة وهو كناية عن عدم التوقف فى السير .

٤ — وقال تعالى « وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » ١٣٥ / النساء . أى تميلوا عن الحق فى الشهادة بعدم الإتيان بها على وجهها .

لوى — ٥ — لوّى رأسه : لواه وفى هذه الصيغة فضل مبالغة وتكثير . وقد جاء هذا فى قوله تعالى : « لووا رؤوسهم » — فى بعض القراءات .

السيد الصدر

تبادلت أسرة التقريب وأسرة المغفور له العالم الجليل آية الله السيد صدر الدين الصدر كتب التعزية والمواساة فى فقد هذا الرجل العظيم الذى فقد المسلمون بفقده عضداً قوياً ، وتذاكروا ما كان رحمه الله بصدد القيام به من جمع الأحاديث النبوية التى اتفق عليها السنة والشيعة ، وهى خدمة علمية لو أنها تمت لكانت خطوة نافعة فى سبيل توحيد كلمة المسلمين .

تغمده الله برحمته وأثابه بما قدم للإسلام والمسلمين خير الجزاء .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

---

١ — نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ — ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، وألا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ — ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتى هى أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يمهدوا لهم سبيل الاطلاع على مايكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للمودة بينهم وبين إخوانهم .

٤ — من المعروف أن « سياسة الحكم والحكام » كثيراً ما تدخلت قديما فى الشئون الدينية ، فافسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتا لأقدامهم ، وأنهم سخّروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكام وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة .

* * *

وعلى الجملة ، نرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادىء الاسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهــــرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى   مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشا مصريا

وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

مطبعة احمد على مخيمر ت ٤٧١٩٣

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

شعبان ١٣٧٣ هـ
أبريل ١٩٥٤ م

السنة السادسة
العدد الثاني

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

" قرآن كريم "

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

قرأتُ فيما قرأتُ صدرَ شبابى : أن أحد الدهاة العباقرة من الملوك الأولين ، أوصى ولداً له كان قد وجّهه إلى طرف من أطراف مملكته لمقاومة عدو مغير ، فكان من وصيته إياه ، أن قال له :

« ... واعلم أنك تواجه قوما أشدّاء ذوى بأس ومَدَد ، فليكن حرصك على أن تبلوَ أخبارهم ، وتعرف ما رسموا لحربك ؛ أشد من حرصك على أن تفجأهم ، وتغتر بأوليات النصر عليهم ، فإن ما أخذ بالمجاءة ، قمين أن يسترد بالرباطة ، ولكن اخبُر خبرهم ، واعرف ما بيتوا ، ثم استقبل أمرك على بصيرة من ذلك ، وأفسد عليهم ، وادرأ عن بلادك وقومك » .

ذكرتُ هذه الوصية الحكيمة حين قرأت ما كتبته الصحيفة الانجليزية الكبرى (التايمز) وهى تتحدث عن تقدم الإسلام بخطوات واسعة فى غرب أفريقيا ، وما يخشاه المستعمرون من هذا التقدم ، وما يوحون به إلى أوليائهم من « وجوب محاربة الإسلام ، والحد من تقدمه ، بنشر البدع والخرافات حتى يكون هذا بمثابة حائل يقف أمام ضغطه المتزايد » .

والعبرة التى يجب أن نفيدها من ذلك ، أن أعداء الإسلام قوم أولو بأس شديد ، ومدد كثير ، ودهاء عظيم ، كهؤلاء الذين يصفهم ذلك الأب الناصح ، فمن أول ما يجب أن نتواصى به ، ألا يكون همنا التظاهر بما نزعمه انتصاراً عليهم ، ومفاجأة لهم ، فإن أمرهم أجل من أن نتخادع فيه بمثل ذلك ، ولندرس خططهم التى رسموها لقهرنا ، وبيتوها لكيدنا ، لنعمل على إفسادها ، وتفويت مقاصدهم فيها .

وهذه الخطة التي أوجزتها صحيفة الاستعمار ليست جديدة ، ولا هي من مبتكرات العصور التي أمر فيها أمر الغرب ، وإنما هي خطة قديمة معرقة في القدم ، لا يرجع تاريخها إلى نشأة الإسلام فحسب ، وإنما يرجع إلى عهود الرسالات الإلهية القديمة ، بَيْد أن نصيب الإسلام فيها كان أوفى نصيب ، لأن أعداءه لمسوا فيه القوة والوضوح ومجاراة الفطر السليمة ، والعقول المستقيمة ، فعلموا أنه دين الحياة ، وشِرعة الصلاح ، فكان أكبر همهم أن يناصبوه هذه الحرب الدنيئة : حرب الإسفاف والإرجاف والكذب والاختراع ، ليغرقوا عامة أهله في لجج الأوهام والخرافات ، ويحيروا خاصته بالشكوك والشبهات ، ويوقعوا بينهم جميعاً الخلافات والعداوات ، ويصرفوا بهذا كله عن دين الإسلام أرباب العقول ، وروّاد العلوم ، وطلاب الحقائق . وهذا سر ما نجده منبثاً في كتب التفسير والآثار من الروايات التي تعرف « بالإسرائيليات » .

وقد حذرنا الله تعالى من هذه الحرب ، وعرفنا مصدرها لنتقيه ، فقال مخاطباً رسوله الكريم « قل يأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون » كما أومأ إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول « جئتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها » يرشدنا بذلك إلى أعظم خواص هذه الشريعة ، وهي كونها صافية من الشوائب التي تنافي الفطر ، أو تجافي العقول ، واضحة المعالم ، لا سر فيها ، ولا خفاء في شيء من مقاصدها ، وذلك سر عظمتها ، ومناط عزتها ومنعتها .

فليفهم المسلمون ذلك حق الفهم ، وليحرصوا على أن تبقى شريعتهم بيضاء كما أنزلها الله ، وليفقهوا نداء ربهم الذي ناداهم به تحذيراً لهم من كيد أعدائهم : « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » ؟

محمد محمد المدني

تفسير القرآن الكريم

سورة المائدة

— ٧ —

آيات التفسير ـ خلاصة ماسبق فى اتخاذ الأولياء من الأعداء ـ أسباب النهى عن هذا الاتخاذ : الاختلاف بين الفريقين أساسى ـ الأعداء دائبون على الفتنة ـ مرضى القلوب ومسارعتهم فى أهل الباطل ـ تحطيم قواهم المعنوية وتحصين المؤمنين من فتنتهم .

النداء الثامن : الارتداد لا يضر إلا صاحبه ـ صفات المؤمنين الثابتين ـ المحبة فى الله أقوى الروابط ـ محبة العباد لله ـ محبة الله للعباد : القرآن لا يثبتها إلا لذوى الفضائل العليا ـ أمثلة ـ لم ينف الله حبه إلا عن المقترفين كبائر الإثم ـ الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين ـ أصحاب الشخصيات المتعددة بتعدد الأحوال صنف ممتاز ـ الجهاد فى سبيل الله شأن المؤمن الصادق ـ عدم المبالاة باللوم شأن الواثق بفكرته ـ صفات متلازمة متكافلة .

النداء التاسع : سر النهى عن موالاة الكفار وبعض أهل الكتاب ـ مثل من الماضى ـ مثل من الحاضر ـ عزة المسلمين فى العمل بالإسلام .

آيات التفسير :

نعيد ذكر الآيات التى هى موضوع الحديث فى العدد الماضى وفى هذا العدد ، ليتيسر للقراء متابعة البحث والنظر فيها ، وهذه هى :

١ — « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن

يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ، ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ؟ حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » .

٢ — « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ، إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

٣ — يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » . .

* * *

خلاصة ما سبق فى اتخاذ الأولياء من الأعداء :

وقد تحدثنا فى العدد السابق عن بعض الجوانب التى عرضت لها هذه الآيات التى نهى الله فيها المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء ، فبينا الفرق بين « الولاية » التى هى النصرة والمعاونة على تحقيق غرض مشترك ، بحيث يؤمن كل من « الوليين » أن لصاحبه عليه حقاً هو مطالب بأدائه عن باعث قلبى ، وبين البر والقسط اللذين يجب أن يسودا المجتمع وتقوم عليهما العلاقة بين أبناء الوطن ، وإن لم تجمعهما فكرة ، أو تؤاخ بينهما عقيدة ، وأن القرآن الكريم يقف من كل واحدة من هاتين العلاقتين موقفاً يناسبها ، فهو لا يرضى بأن يتخذ المؤمن مخالفه فى الدين ولياً ومناصراً ، ولكنه مع ذلك يعطى هذا المخالف حقه فى علاقات المعاشرة والمواطنة التى تقوم على البر والرحمة والقسط ، ولفتنا إلى ما فى ذلك من عبرة يجب أن ينتفع بها أهل الإسلام فى علاقة بعضهم ببعض ، حيث وصلت سماحة دينهم إلى هذا الحد فى معاملة مخالفيهم ، فهم أولى فيما بينهم بهذه السماحة ، وأجدر

أن يبنوا علاقاتهم على أساس البر والقسط والرحمة ، فلا تحملهم النزعات الطائفية أو المذهبية على تناسى ما بينهم من أخوة الإسلام ، والتراحم الذى لم يحرم القرآنُ منه أحداً حتى أعداء الإسلام .

وبيّنا أنه لا ولاية بين الحق والباطل ، وأن الولاية إنمـا تتصور بين مؤمن ومؤمن ، أو بين كافر وكافر ، ولا يمـكن أن تقوم على حقيقتها بين كافر ومؤمن ، ولا بين منافق ومنافق .

وبيـّنا ما يفيده التعبير بلفظ « الاتخاذ » الذى ورد فى هـذه الآيات ، وبينا بواعث اتخاذ الـكافرين أولياء ، من ملاحظة المصالح الخاصة ، ومصانعة الأعداء لاحتمال تغلبهم ، وابتغاء العزة والسلطان عندهم ، واتقاء شرهم ، وبينا وجه الاستثناء فى قوله تعالى « إلا أن تتقوا منهم تقاة » ، ولفتنا إلى وجوه العبرة فى ذلك كلـه بقدر ما اتسع له المجال :

* * *

والآن نتابع الحديث فيما تضمنته هذه الآيات :ــ

أسباب النهى عن هـذا الاتخاذ :

كما بين لنا القرآن الـكريم ، البواعث التى تبعث مرضى القـلوب على اتخاذ الـكافرين أولياء ؛ بين لنا الأسباب التى من أجلها نهينا عن ذلك ، فـكان منهـا :

الاختلاف بين الفريقين أساسى :

١ ــ نقط الخلاف بيننا وبينهم أساسية جوهرية ، فنحن قد آمنا بما جاءنا من الحق ، وهم قد كفروا به ، ولا يمـكن لاثنين مختلفين فى أمر أساسى أن يتعاونا تعاوناً صادقا ، نعم قد تتـلاقى مصالحهما فى شىء فيتفقان عليه ، ويتحالفان فى سبيله ، لـكن هذه العلاقة بينهما ليست بسبيل من الولاية بمعنى نصرة أحدهما للآخر ، لأنه فى الحقيقة إنمـا ينصر نفسه ، ويتخذ ذلك سبيلا لتحقيق مصلحته ، وشتان بين هذا ومن ينصرك ناظراً إلى أنك تستحق نصرته ، وإن لم يفد منهـا لنفسه خيراً ، أو يدفع بهـا عن نفسه ضراً ، وقد استفيد هـذا من قوله تعالى

فى سورة الممتحنة : « وقد كفروا بما جاءكم من الحق » ومن قوله تعالى فى سورة المائدة ، فى آية من آيات موضوعنا هذا : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » فآية الممتحنة تصرح بالاختلاف الأساسى الجوهرى بين المؤمنين والكافرين ، حيث آمن بالحق فريق ، وكفر فريق ، وآية المائدة تشير إلى مظهر من مظاهر هذا الاختلاف الأساسى فى الدين وشعيرته الأولى وهى الصلاة ، حيث ينظر إليهما فريق نظرة الجد والاحترام ، وهم المؤمنين ، وينظر إليهما فريق آخر نظرة الاستهزاء واللعب وهم الكافرون ، فلا يمكن أن تتحقق ولاية ونصرة جادة صادقة بين فريقين على طرفى نقيض .

الأعداء دائبون على الفتنة :

٢ — أن هؤلاء الأعداء لايزالون يعملون على فتنتنا عن الحق الذى آمنا به ، فهم أخرجوا الرسول وأخرجونا أو ظاهروا على إخراجنا من ديارنا لا لشىء إلا لأننا آمنا بالله ربنا ، وهم لايدعون فرصة يتمكنون فيها من إيذائنا إلا انتهزوها أو عاونوا عليها ، وهم يتمنون من صميم قلوبهم أن نخرج من ديننا فنعود إليهم ، يدل على هذا كله كثير من الآيات الكريمة من مثل قوله تعالى : « إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون » « يُخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم » ، « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسكم » .

هذا هو شأن المختلفين فى العقيدة ، لا يمكن أن تقوم بينهم ولاية أو شبه ولاية ، ولهذا دلالته لمن شاء أن يعتبر بما جاء فى الكتاب الكريم ، ويفيد من إيحاءاته وإرشاداته ، فما أجدر أصحاب الدعوات الحقة أن يكونوا على حذر من الذين لا يؤمنون بدعواتهم ، ولهم تاريخ فى إيذائهم والتحريض عليهم وودادة فتنتهم وانقلابهم . إنهم يطلبون محالا إذا ظنوا أن ملابسة هؤلاء على باطلهم تجلب

ولاءهم ، أو تكـكشف من غلوائهم ، فقد قست منهم القلوب ، وفسدت النفوس والتوت العقول ، وما أدق ما وصفهم به القرآن الكريم ، وما صور به حفيظتهم على المؤمنين حيث يقول « لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » ، « تحبونهم ولا يحبونكم ، وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

مرضى القلوب ومسارعتهم فى أهل الباطل :

وقد عُقب النداء الأول الذى نهى فيه المؤمنون عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، بتوجيه الأنظار إلى فريق المنافقين الذين فى قلوبهم مرض ، وما مرنوا عليه من المسارعة فى أهـل الباطل ، مع الانحياز فى الظاهر لأهل الحق ، اتقاء للدوائر ، واحتياطا للنوازل « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة » .

والتعبير عن المنافقين بهذه العبارة : « فى قلوبهم مرض » تعبير قوى رائع جاء فى غير هـذا الموضع من القرآن كما جاء هنا : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » . « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم » « فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت » فإنه لما كانت قوة القلب تضرب مثلا للثبات والتماسك والقوة النفسية ، كان ضعف القلب الذى عبر عنه بالمرض مثلا للخور والتردد والتزلزل وانهيار النفس ، وهذه شنشنة المنافق ، لا يمكن أن يكون صريحا واضحا منحازا إلى ناحية معينة ، فهو يتردد بين الناحيتين ، ويلتمس الحظوة فى الجانبين ، ولا يهمه إلا أن يطمئن على نفسه فى يومه وغده ، لذلك يأتى هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ، ويتخذ عند كل منهما يداً ، والآية تقول : « يسارعون فيهم » ولا تقول : « يسارعون إليهم » لأن المنافق فى العادة يحرص على أن ينحاز فى الظاهر إلى أهل الحق ، ولا يظهر لهم أنه مع الآخرين ، والآخرون يكتفون منه بما يبطنه من ولائهم والميل إليهم ، فهو لا يسارع إليهم فيفسد خطته ، ولكن يسارع فيهم ، أى فى قضاء

لبانتهم ، وبث فتنتهم ، وتنفيذ خطتهم ، دون أن تبدر منه أية بادرة تدل على ذلك فتفضحه وتكشف أمره ، وقوله تعالى : « يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة » ليس معناه أنهم يقولون ذلك للمؤمنين بألسنتهم معتذرين عن تقربهم إلى أعدائهم ، وإلا لكانوا يقولون ما يفضحهم ويفسد تدبيرهم ، ولكن معناه أنهم يعتذرون بذلك إلى أنفسهم ، ويبررون به صنيعهم وخيانتهم ، فهو قول نفسى لا لفظى .

تحطيم قواهم المعنوية وتحصين المؤمنين من فتنتهم :

وقد رد الله تعالى عليهم هذا المعنى الذى يدور بنفوسهم ، ويحملهم على النفاق ومصانعة أهل الباطل ، فبين أن الأمور بيده ، وأن الفتح والفصل بين المؤمنين والكافرين مرجو قريب ، فإن لم يكن فتح قريب ، فأمر من عنده يترتب عليه أن يصبحوا على ما أسَرُّوا فى أنفسهم نادمين ، وذلك الأمر المذكور فى الآية يحتمل أن يكون فضح المنافقين ، وتبيين ما فى قلوبهم ، وقد ورد ذلك صراحة فى قوله تعالى : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم » ويحتمل أن يكون الإيقاع بهم ، وإغراءه صلى الله عليه وسلم بتشتيتهم وعقوبتهم ، وقد ورد ذلك صريحاً فى قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » وقوله تعالى : « ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم » الخ . هو من تمام تبيين عاقبتهم المرجوة يوم تنهار آمالهم بهزيمة الذين يصانعونهم أو بحلول أمر الله عليهم أنفسهم ، يومئذ ينفضح أمرهم ويتساءل الناس عنهم ، ويعجبون لحالهم ، ويقارنون بين حقيقتهم التى كانوا يخفونها وما كانوا يزعمونه من أنهم مع المؤمنين حالفين عليه جهد أيمانهم ، كما قال تعالى فى سورة التوبة : « ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ، لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون » ويومئذ لا يبقى عند أحد شك فى أنهم الأخسرون ، الذين أرادوا بنفاقهم كسب الفريقين ، فكان عاقبة أمرهم أن خسروهما جميعاً « حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » .

والفائدة التى يفيـدها المؤمنون من ذكر ذلك ، وبيانِ أنه متوقع الحصول للمنافقين ، هى تقويتهم وتثبيتهم ، وصرفهم عن الاتجاه إلى موالاة أعدائهم التماساً لهذه المعانى التى لا يلتمسها إلا مرضى القلوب ، والتى لا تؤدى بحسب سنة الله إلا إلى عكس المقصود منها ، وفى ذلك أيضاً إرهاب للمنافقين ، وزلزلة عليهم ، فإن المنافق إذا علم أن أمره سينكشف ، وأن عاقبته السُّوآى مهما احتال ، أدركته الرهبة ، وأخذته الحيرة ، فاضطرب ، وضعف تدبيره ، وقل خطره .

هذا إلى ما فى ذلك من تحذير المؤمنين من المنافقين ، والإيحاء إليهم بأن يفتشوا صفوفهم ، ويطهروا جماعتهم من دنسهم ، ويعلموا أن وجودهم بينهم لا يفيدهم . إلا الضرر ، ولا يزيدهم إلا الخبال « لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالـكم » بل إن مصانعتهم لأعداء المؤمنين هى أيضاً مصانعة كاذبة ، وإنهم حين يجد الجد ينـكصون عنها ، ويفرون منها ، فإنهم لا إيمان لهم ولا أمانة ولا وفاء ، فضررهم على الفريقين شديد ، وفى ذلك تقول سورة الحشر « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معـكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لـكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليوَلُن الأدبار ثم لا ينصرون ، لأنتم أشد رهبـــة فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » .

وهذا شأن النفاق والمنافقين فى كل زمان ومكان ، وإننا لنجد فى كثير من بلاد المسلمين فريقاً حذق التزلف إلى أعـداء الأمة ، ومرن على اتخاذ الأيادى عندهم على حساب الوطن والدين ، وهم يفعلون ذلك خشية الدوائر ، ويحسبونه حصافة ولباقة وبعد نظر ، وإنمـا هو خيانة ونذالة وتجارة خاسرة ، لا ينجح الله أصحابها ، ولا يبارك فيها ، بل يفضحها ويُخْـسِرُها ويجعل عاقبتها البوار ، ولو عقل الناس لفهموا ممـا يرون كل يوم ، وممـا يشاهدون من أحداث أنْ ليس الأمر كله أمر تدبير بشرى ، وأنه لا يكفى أن يعتمد المرء على أساليب المخاتلة والمخادعة لـكى ينجح فى حياته ، ويحصل على مآربه ، فإن الخداع نقد زائف إن راج بعض

الزمن ، فمصيره إلى الانكشاف ثم البوار، أما الاستقامة والسير على الطريق السوىّ فربما يكلف صاحبه صعابا ومشاق ، ولكنه فى النهاية إلى خير وصلاح ورضا من الله والناس .

النداء الثامن : الارتداد لا يضر إلا صاحبه :

يأتى بعد ذلك النداء الثانى من هذه النداءات الثلاثة - وهو الثامن كما قلنا من نداءات السورة - واتصاله بالنداء الذى قبله واضح ، فإنه تعالى نهى أولا عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، وقرر أن من يتولاهم من المؤمنين لا يمكن أن يحتفظ مع هذا التولى بإيمانه ، بل يصبح بمجرده منهم ، وأن المنافقين هم الذين يسارعون فيهم خشية الدوائر ، فبان من ذلك أن تولى اليهود والنصارى إنما هو ارتداد عن الإيمان ، فجاءت الآية التالية تتحدث عن خطورة الارتداد على صاحبه ومقترفه ، وتشير إلى أن الله مستغن عنه لا يضره ارتداده شيئاً ، وسوف يأتى بدل من يرتد بقوم تتحقق فيهم صفات الإيمان الصحيح ، والجهاد الصادق ، ثم جاء بعدها آيتان أخريان تبينان أن المؤمنين ليس لهم من ولى يتولاهم ويتولونه إلا الله ورسوله وإخوانهم فى الإيمان والتزام أحكامه ، وأن عاقبة المؤمنين إذا عرفوا ذلك واستمسكوا به هى الفلاح والغلب ، لأنهم حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون .

صفات المؤمنين الثابتين :

وصف الله جل شأنه هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين أنبأنا بأنه سوف يأتى بهم مكان المرتدين عن دينه بأوصاف ستة :

أولها وثانيها : « يحبهم ويحبونه » ، والمحبة هى أسمى العلاقات التى يعرفها أهل الحياة ، ويجدربنا أن نبسط الحديث عنها شيئاً من البسط لنعرف قيمة هذا الوصف الذى وصف الله به عباده المؤمنين ، فنقول :

المحبة فى الله أقوى الروابط :

إن العلاقات التى يعرفها الناس كثيرة : علاقة الأخ بأخيه ، علاقة الزوج

بزوجه ، علاقة الزميل بزميله ، علاقة الشريك بشريكه ، علاقة الجار بجاره .. الخ

وهذه العلاقات كلها إنما تبقى وتثمر وتكون مصدر سعادة لأصحابها ؛ إذا استندت إلى المحبة ، أما إذا تجردت منها فلا قيمة لها ، ولا فائدة ترجى من ورائها ، فالأخوة بدون المحبة ما هى إلا مجرد قرابة ، والزوجية بدون المحبة ما هى إلا مجرد معاشرة ، والزمالة التى لا توطدها المحبة ما هى إلا مجرد مصاحبة . . وهكذا .

والمجتمع أحوج إلى علاقة « المحبة » منه إلى أية علاقة سواها ، فبها تكون الطمأنينة والاستقرار ، وبها يكون اليسر والتسامح ، وبها يكون التراحم والتعاون وبها ـ من أجل هذا كله ـ تكون السعادة والهناءة .

ولذلك يصف لنا القرآن الكريم المجتمع السعيد ، وهو مجتمع أهل الإيمان بأوصاف ترجع إلى المحبة فيقول : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » « رحماء بينهم » « يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » « يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا » .

ويظهر عظيم المنة على المؤمنين بنعمة المحبة والألفة بينهم فيقول : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » أى بالمحبة والألفة « وكنتم على شفا حفرة من النار » أى بالتعادى والتفرق « فأنقذكم منها » .

كما يصف لنا حال أهل النعيم فى دار الخلد فيقول : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » .

هذه هى المحبة فى الله بين العباد والعباد ، وقد أنبأنا الصادق الأمين ، صلوات الله وسلامه عليه وآله ، أنها من صفات المؤمنين ، وأنه لا خير فيمن حرمها ، فقال : « المؤمن إلفٌ مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » كما أنبأنا بعظم منزلة المتحابين يوم القيامة ، إذ يقول — وهو يعد السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله — : « ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعا على ذلك ، وتفرقا عليه » .

ولننظر فى نوعين آخرين من المحبة يحدثنا عنهما القرآن الكريم ، وهما موضوع الوصف الأول فى آيتنا التى نحن فيها : محبة العباد لله ، ومحبة الله للعباد .

محبة العباد لله :

فأما محبة العباد لله فهى لازم من لوازم الإيمان الحق ، وليس الإيمان الحق هو مجرد المعرفة وإذعان النفس ، ليس هو ذلك الشعور القلبى الصامت الذى لايتعدى الباطن إلى الظاهر ، ولا يبدو شىء من آثاره العملية التى تدل على انفعال صاحبه به ، إنما المؤمن الحق هو من أدرك جمال الله وجلاله ، وأدرك لطفه وإحسانه ، وعلم علم اليقين أنه المنعم المفيض الذى لا إنعام إلا به ، ولا فيض إلا منه ، ثم انفعل بهذا الإدراك فأحبه ، فأصبح قلبه مشغولا به ، وعمله موجهاً إليه ، ولذته وارتياحه فى طاعته وعدم المخالفة عن أمره .

ذلك هو الحب ، وذلك هو المؤمن ، وآية ذلك أن الله تعالى ذكر الكافرين والمؤمنين فجعل حبه هو العلامة المميزة بين هؤلاء وهؤلاء إذ يقول : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله » وذكر الذين يتبدلون بدين الحق ماسواه ـ فى آيتنا هذه ـ فقال : « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » فوضع الحب فى موضع الإيمان ، ثم وصف هؤلاء الذين يحبهم ويحبونه بأوصاف هى أمارات هذه العلامة السامية القائمة بينهم وبينه ، فقال : « أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » .

وقد نعى الله على الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، فوصفهم بأنهم « يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا » أى أنهم أحبوا الحياة الدنيا فآثروها ، ولو أحبوا الله لآثروه ، ومثل ذلك قوله تعالى : « كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » .

وقد نفى الله الإيمان عمن يوادون أعداء الله ، أى يبادلونهم الحب ، ولوكان بينهم من علاقات القربى ، أدناها وأقواها ، فقال : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم

الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » وذلك أن المؤمن الحق هو من يحب ربه ، والمحب الصادق لا يحب عدو حبيبه ، ومثل ذلك ما جاء فى قوله تعالى نداء للمؤمنين فى سورة التوبة : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

وكما نهى الله المؤمنين عن محبة أعدائه وإيثار أى شىء من الدنيا عليه جل شأنه أوجب على المؤمنين أن يحبوا رسوله ، ويحبوا أولياءه ، أى الموالين له ، الذين ينصرونه بنصر دينه وإعلاء كلمته ، وذلك لأن محبوب المحبوب محبوب ، ورسول المحبوب محبوب ، وفى ذلك يقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » .

محبة الله للعباد : [القرآن لايثبتها إلا لذوى الفضائل العليا] : أمثلة :

وأما حب الله للعباد ، فلم يثبته القرآن الكريم إلا لذوى الأعمال العظيمة التى تفوق فى قيمتها ومنزلة العاملين بها ما سواها من جنسها ، ولم ينفه إلا عن ذوى الصفات السيئة الموغلة فى السوء التى من شأنها أن تشيع الضرر والفساد .

فالذين يحبهم الله هم المتصفون بأمهات الأخلاق الكريمة ، ومنابع الفضائل النفسية ، يقول الله تعالى : « إن الله يحب المحسنين » والإحسان إن أريد به الإنعام على الفقراء فهو منزلة فوق الأعطاء ، لأن الإعطاء قد تشوبه شائبة من المن أو الأذى ، أو اختيار الأدنى تخلصا منه ، ولا يكون الإعطاء إحسانا حتى ينزه عن ذلك كله ، ويسمو صاحبه فيه إلى الدرجة التى يصفها الله وسوله فى مثل : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه » من كل مايدل

على تحرى الحالة الفضلى ، وإن أريد بالإحسان إتقان العمل وتجويده ، فليس كل من أدى عملا يكون محسناً بمجرد أدائه ، فالأداء قد يكون مجرد تخفف وإبراء ذمة ، أما إحسان العمل وأداؤه كاملا متقنا ، فتلك منزلة أسمى ، وإنهم ليقولون : إن الإحسان فوق العدل ، إذ العدل هو التسوية ، والإحسان معنى زائد عليها ، فمن أدى الحق وأخذ الحق ، فهو عادل ، ومن تجاوز عن بعض حقه ، مسامحة منه وكرما ، وأعطى أكثر مما عليه تفضلا ، أو تلطف فى إعطائه ، فهو محسن .

وكما يقال هذا فى الإحسان ، يقال فى الصبر ، إذ الصبر منزلة فوق الاحتمال ، لأنه مجاهدة وحبس للنفس عن كل ضجر أو تبرم ، مع اطراد العمل والسعى وعدم الانكماش والانكسار ، ولذلك كان الصبر ينبوعا لكثير من الفضائل ، وإن اختلفت أسماؤها : فالشجاعة هى الصبر على مكاره الجهاد ، والجود هو الصبر على بذل المال والمعروف ، والكتمان هو الصبر على شهوة الإفاضة والكلام ، ورحابة الصدر هى الصبر على المثيرات والمحفظات .. وهكذا ، ولهذا أثبت الله حبه للصابرين كما أثبته للمحسنين فقال « والله يحب الصابرين » .

ومثل هذا بقية المواضع التى أثبت الله فيها حبه لعباده ، « إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين » و « يحب المتقين » و « يحب المتوكلين » و « يحب المقسطين » و « يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » .. الخ .

لم ينف الله حبه إلا عن المقترفين كبائر الإثم :

بقى بعد هذا ، الآيات التى نفى الله فيها حبه عن بعض عباده مثل قوله تعالى : « إن الله لايحب المفسدين » ولا شك أن الفساد إجرام فوق العادة ، وأن المفسدين أعداء المجتمع ، العاملون على تقويض بنيانه ، وزعزعة أمنه واطمئنانه ، فإن الذى يذنب ذنباً شخصياً يكون جرمه على نفسه ، أما الذى يعيث فى الأرض الفساد ، فجرمه على المجتمع كله ، وحسبنا أن الله عز وجل يذكر الفساد والمفسدين فى أخطر المناسبات ، إذ يقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » .

ونتيجة هذا المقت للفساد والمفسدين هي ما ذكره الله عز وجل في مثل قوله « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » ، « زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون » « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » .

ومثل هذا في بقية المواضع التي نفى الله فيها حبه عن بعض عباده « إن الله لا يحب الكافرين » و « لا يحب الفرحين » و « لا يحب من كان خوانا أثيما » و « لا يحب من كان مختالا فخورا » .

ولهذا كله كان رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء الذي يبين لنا منزلة الحب بين العبد وربه : « اللهم ارزقني حبك ، وحب من أحبك ، وحب ما يقربني إلى حبك » .

ولعلنا نعرف بهذا قيمة الوصف الذي وصف الله به عباده المؤمنين في قوله « يحبهم ويحبونه » ودلالة هذا الوصف على المعنى المقابل الذي باء به المرتدون عن دينه وشريعته ، المتمردون على أمره ونهيه ، الذين يطوّعون لأنفسهم موالاة أعداء الله ، ويؤثرونها على الله ورسوله وأوليائه .

الوصفان الثالث والرابع : « أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين » .

الذلة على المؤمنين ، والعزة على الكافرين :

المراد بالذلة التي وصفهم بها : الليونة واليسر والسماحة في المعاشرة والمعاملة ، والمراد بالعزة . قوة البأس وشدة الشكيمة ، وقد يتصف المرء بوصفين متباينين يتوجه كل منهما إلى جهة معينة في حياته ، ويعبَّر عن هذا المعنى في عصرنا الحاضر بتعدد الشخصية ، أي أن الرجل الواحد قد تكون له شخصيتان مختلفتان باختلاف حالتيه ، فهو أحيانا هادىء وديع لين الجانب سمح متسامح ، وأحيانا ثائر غضوب شديد البأس صعب المراس ، وإنما يحسن في المرء ذلك إذا كانت كل شخصية من الشخصيتين تبرز في وقتها المناسب ، وتتجلى في موضعها الملائم ، وشبيه مما جاء في هذه الآية قوله تعالى « أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

أصحاب الشخصيات المتعددة بتعدد الأحوال صنف ممتاز :

وأصحاب الشخصيات المختلفة التي تبرز في مواضعها الملائمة هم الصنف الممتاز

من بنى الإنسان ، فلا خير فى امرىء خاضع ذليل طول حياته ، ولا فى امرىء عنيف مستكبر فى جميع حالاته ، وفى القرآن الكريم دلالة على أن الاختيال والفخر لا يذمان فى كل حال ، فالله تعالى يقول « إن الله لا يحب كل مختال فخور » وقضية هذا التعبير أن بعض الاختيال والفخر محبوب ، ولا بأس من حمل ذلك على الاختيال والفخر فى حالة الحرب ومنازلة الأقران فإن ذلك مما يثير الحماسة ، ويرهب الأعداء ، ويوهن عزائمهم ، أو كما يقولون بلغة العصر : يحطم الروح المعنوى فيهم ، وقد رأينا أمم الحضارات تهتم « بالدعاية » وترصد لها الأموال ، فتملأ ماضغيها فخراً بتاريخها وأبطالها ، وتذكر ما أعدت لأعدائها ، وتقوم (بالمناورات) البرية والبحرية لتظهر أمام الناس بمظهر القوة والمنعة ، ويشمخ سفراؤها وممثلوها اظهاراً لعظمتها وسمو مكانتها ، وكل ذلك فخر وخيلاء ولكنه ليس بمذموم ولا مكروه .

كما أن فى القرآن الكريم ما يدل على أن خفض الجناح والتذلل يحسنان من المؤمن إذا وضعا موضعهما ، قال تعالى موصيا الولد بوالديه « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وقال فيما أدب به رسوله الكريم من أدب السياسة والحكم « واخفض جناحك للمؤمنين » « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » وكل ذلك لين وتواضع فى الموضع المناسب ، بينما يقول له فى موضع آخر « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » .

ومن هذا يتبين أن الذلة والعزة اللتين وُصف بهما المؤمنون فى الموضعين المناسبين لهما ، هما وصفا سمو وفضل ، وأن ما يدل عليه ذلك مما يقابلهما من التزلف لأعداء الله باتخاذ الوسائل والأيدى عندهم ، والتخابث على المؤمنين بخيانتهم وتضييع أماناتهم ونحو ذلك هى أوصاف خسة ودناءة ، جدير بالمؤمنين أن يحرصوا على التخلص من أصحابها ، وأن يلجأوا إلى الله فى تحقيق وعده بإبدالهم منهم ، والإتيان بأعوان للحق ثابتين غير متقلبين .

الوصفان الخامس والسادس : «يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم»

الجهاد فى سبيل الله شأن المؤمن الصادق :

والجهاد فى سبيل الله ، هو الجهاد لإعلاء كلمته ، ونصر دينه ، وسيادة شريعته ، وإنما يكون ذلك من قوم ذاقوا حلاوة الإيمان حقاً ، وأدركوا بثاقب نظرهم أنهم جنود مخلصون لربهم ، وأن شكر نعمته التى أنعمها عليهم بإيجادهم وأمدادهم يقتضى أن يبذلوا فى سبيله مهجهم وأموالهم وكل عزيز لديهم ، وألا يؤثروا على ذلك شيئاً مهما علا أو غلا ، وأن يستعذبوا كل ما يصيبهم من المصائب والآلام غير ناكصين ولا متوانين « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » .

عدم المبالاة باللوم شأن الواثق بفكرته :

وهم كما لا يهابون خطراً يتهددهم ، لا يخافون لوما يوجه إليهم ، والمؤمن بعقيدته قوى فيها ، صبور عليها ، لا يأبه فيها بنقد الناقدين ، ولوم اللائمين ، وتثبيط المثبطين ، وقد دأب الناس على أن يستفظعوا الإقدام ويعتبروه فى أول الأمر طيشاً وجنونا ونزقا ، ويوجهوا اللوم إلى أصحابه فى صورة الخوف عليهم ، أو الشماتة بهم ، أو النصح لهم ، وإنما هو الخور والجبن ، أو الحسد والحقد ، ولن يجدى ذلك فتيلا مع المقتنع بفكرته ، المؤمن بعقيدته .

صفات متلازمة متكافلة :

هذه هى الصفاتُ التى وصف الله بها عباده المؤمنين الذين تأذن ليبدلنهم من المنافقين والمرتدين ، وهى صفات ستٌ إذا لاحظنا كل واحدة منها بمفردها ، ثلاث إذا عرفنا أن كل صفتين متتابعتين منها متكافلتان متلازمتان تكمل إحداهما الأخرى ، ويصوران معاً خلقا واحداً متميزاً ، فحب الله للعباد ، وحب العباد لله ، وصفان فى العدد ، ولكنهما متلازمان ، فلا يحب اللهُ إلا من يحبه ، ولا تحب الله

إلا أحبـــك ، وكذلك القول فى الذلة على المؤمنين ، والعزة على الـكافرين ، فإن من ذل للمؤمنين اقتضاه ذله لهم أن يترفع على أعدائهم ، ويتنـكر لخصومهم ، ويبذل جميع عواطفه وقواه لتحقيق ذله لمن أحبهم وأخلص لهم ، والجهاد فى سبيل الله إيثار لما عند الله ، فلا يمكن أن يجامعه الخوف من لومة لائم ، ومن لا يخاف لوما فى الله ، لا يقصر عن بذل روحه وماله فى سبيل الله .

ولهذا المعنى جمعنا الـكلام على كل صنفين فى نسق واحد .

وقد بين الله بعـد ذلك لعباده المؤمنين أن وليهم الحقيقى هو الله ورسـوله والمؤمنون العاملون بدينهم ، الخاشعون لربهم ، فإليهم فليتجهوا ، فإنهم حزب الله ومن يتولاهم تولاه الله بالنجاح والفلاح ، ونصره على أعدائه نصراً مؤزرا ، « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحـكيم » .

* * *

النداء التاسع :

يأتى بعد ذلك النداء الثالث ـ وهو التاسع من نداءات السورة ـ وهو متصل فى المعنى والغرض بمـا قبله من النهى عن اتخاذ أعداء الله أولياء ، وبيان عاقبـة من يرتـكب هذا الوزر العظيم .

سر النهى عن موالاة الـكفار وبعض أهل الـكتاب هو اتخاذهم الدين هزواً ولعبا :

يبين الله للمؤمنين فى هذا النداء أنه لا ينهاهم عما نهاهم عنه من مصانعة أعدائهم تحكما أو اعتباطاً ، ولـكن نهاهم لأن هؤلاء الأعداء ينظرون إلى دينهم الذى هو مصدر قوتهم وعزتهم ، ومشكاة صلاحهم وهدايتهم ، نظرة الهازىء العابث ، يستوى فى تلك النظرة الـكفار الذين أشركوا بالله ، وطائفة من أهل الـكتاب التوت عقولهم ، وفسدت قلوبهم ، ومن مظاهر هذا الاستهزاء واللعب أنهم كانوا إذا رأوا المؤمنين ينادون إلى الصلاة ، ويقومون إليها أخذوا يسخرون منهم ، ويقلدونهم فى حركاتهم ، ويخرجون هذا التقليد فى صور مضحكة ، تنفيراً منها ، وصرفا عنها .

مثل من الماضي :

وقد بقى هذا المعنى فى أعداء الإسلام حتى قال شاعر نصرانى فى عهد بنى أمية ـ وملوكُ الإسلام ملوك بزعمهم كما يقول ابن رشيق فى كتابه العمدة ـ :

ولست بصائم رمضان طوعا ... ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بزاجر عنسا بكوراً ... إلى بطحاء مكة للنجاح
ولست مناديا أبداً بليل ... كمثل العَيْر : حى على الفلاح
ولكنى سأشربها شمولاً ... وأسجد قبل منبلج الصباح

فهو يسخر من صوم رمضان ، ومن لحم الأضاحى ومن الحج ، ومن المؤذن للفجر ، ويصوره بأنه يصيح كما يصيح العير ، ومع هذا كان أحد الخلفاء يتخذه شاعراً له ، ويغدق عليه من أموال المسلمين ، ويواده ، وهو يحاد الله ورسوله .

مثل من الحاضر :

ثم امتد الضعف والتساهل بالمسلمين إلى ما بعد ذلك من عصور ، فكان منهم من يحالف أعداءهم ، ويحارب إخوانه فى صفوفهم ، ويفضى بأسرار أمته إليهم ، يتخذ بذلك الأيادى عندهم ، ويتقى الدوائر أن تصيبه ، ويؤمن حاضره ومستقبله كما يزعم ، وقد وجدنا فى عصرنا الحاضر من يقف مع فرنسا على أهل وطنه وملته فى مراكش الجريحة ، ومن يستحل سفك دماء عشيرته وقومه فى سبيل إرضاء المستعمر ، ولا يخاف فى ذلك لومة لائم .

عزة المسلمين فى العمل بالإسلام :

أما والله لو حفظ المسلمون على الإسلام عزته ، وصانوا كرامته ، وعملوا بما أرشدهم إليه ربهم ، لما ساءت حالهم ، ولما ضاعت هيبتهم ، وينبغى ألا نيأس ، وأن نعمل على تطهير أنفسنا ، وتقوية روحنا ، والتطلع إلى مثل ما وعد به سلفنا « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

خواطر من الذاكرة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم
وكيل جماعة التقريب

لفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الإسلام الشيخ عبد المجيد سليم ، مجالس حافلة يحضرها خاصة أهل العلم والرأى ، والحديثُ فيها ذو شجون ، فإذا عَرَضَتْ مسألة من مسائل الشريعة ، فى الفقه ، أو الكلام ، أو الأصول ، أو التفسير ، أو غير ذلك ، لمعَتْ من الشيخ الأكبر عينان تَشعان ذكاء وألمعية ، وبدت على جبهته أسارير إنما هى مَوْجات تنقل العلم الصحيح والرأى السديد عن قلب قوى له حماسة الشباب ، وعمق الشيخوخة ، ونفاذ البصيرة ، وغزارة التحصيل ، فما يلبث الخفى من وجوه المسألة أن يسفر واضحاً مبيناً يملأ القلوب كما يملأ الأسماع .

وهذا طرف من حديث لفضيلته ، وعيْتُه عنه فى مجلس من مجالسه ، ورأيت أن أنقله لقراء « رسالة الإسلام » لما فيه من الفوائد التى تهم أهل العلم عامة ، ولا سيما المشتغلين بتحقيق فكرة « التقريب » ، وقد عرضت عليه ما كتبت فوافق عليه ، وأذن بنشره :

[رئيس التحرير]

* * *

قال ـ بارك الله للمسلمين فى حياته :

من المعروف أن الشريعة الإسلامية ، جاءت بنوعين من الأحكام :

(ا) نوع قطعى ليس موضع اجتهاد ، ولا محل خلاف ، ولا يسوغ للمسلمين

أن يتفرقوا فيه ، وذلك كالعقائد الواجبة ، وما ثبت من الأحكام العملية بالتواتر ، وما دلت عليه النصوص دلالة ظاهرة بحيث لا يحتمل النص غيرها .

فالعقائد مثل اتصاف الله بكل كمال ، وتنزهه عن كل نقص ، وأنه تعالى أرسل رسلا ، وأنزل كتباً ، وأن البعث حق ، والحساب يوم القيامة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، إلى غير ذلك .

والأحكام العملية مثل الصلوات الخمس في اليوم والليلة ، وعدد الركعات فيها ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام .. الخ

(ب) ونوع ظني هو موضع النظر والاجتهاد واختلاف الفقهاء أو المتكلمين ، من كل ما لم يرد فيه من الشرع دليل يفيد اليقين ، وليس للعقل فيه حكم واجب حتم ، وذلك كاختلاف الصحابة وغيرهم في مثل العول والكلالة وسكنى المبتوتة ، وعدة الحامل المتوفى عنها زوجها ، وكالاختلاف في المسح بالرأس المجزىء في الوضوء وفي قراءة المؤتم ، وفي وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثا أو واحدة ، ونحو ذلك ، وكاختلاف المتكلمين في وجوب شيء على الله أو عدم وجوب شيء ، وفي جواز تعذيب المطيع والعفو عن المسيء أو عدم جواز ذلك في حقه تعالى ، وفي أن صفات الله جل شأنه هي عين ذاته أو غيرها .. الخ

* * *

ومما يتصل بالنوع الثاني من الأحكام اختلافهم في المسألة الأصولية المعروفة : هل كل مجتهد مصيب ؟ فمن العلماء من يجيب على هذا السؤال بنعم ، على معنى أن حكم الله في المسألة المجتهَد فيها هو ما يصل إليه المجتهدُ بعد استفراغ الوسع في طلب معرفته ، أو بعبارة أخرى : ان المجتهد مكلفٌ العملَ بما وصل إليه بعد اجتهاده ، وهو حكم الله في حقه وحق من قلده ، وهذا معنى اتصافهم جميعاً بالإصابة ، كأنّ الله تعالى لم يعين حكما بذاته في المسألة المجتهَدِ فيها ، وإنما الحكم هو ما يؤدي إليه اجتهاد المجتهد .

هذا رأى لبعض العلماء ، ولا أراه سديداً ، إنما الرأى السديد ما عليه جمهور العلماء من أن الحق واحد ، وحكم الله فى كل مسألة معين ، وقد نصب الله الدليل الذى يدل عليه ، فن المجتهدين من يصل إليه ويصيبه ، فهو الذى يوصف بأنه مصيب ، ومنهم من لا يصل إليه ، بل يظن غيره ، فهو مخطىء ولكنه معذور فى خطئه ، مغفور له هذا الخطأ ما دام قد بذل جهده فى تعرف الحق غير متبع هواه ولا مقصر فى استكمال وسائل النظر والحكم ، بل ورد الخبر الصحيح بأن المخطىء مثاب كالمصيب ، غير أن المخطىء له أجر واحد على اجتهاده وبذله الوسع ، والمصيب له أجران ، أجر على اجتهاده ، وأجر لإصابته .

ثم نظر فضيلة الأستاذ الأكبر إلىَّ وقال :

وليس المقام الآن مقام تحقيق ذلك ، وبيان ما استدل به كل فريق على ما صار إليه ، ومعرفة الراجح منهما ، لكن يمكن أن نستخلص من هذا العرض الوجيز بعض الفوائد التى لعلها تناسب فكرة التقريب :

أولا : أن كل فريق من هذين الفريقين ، يرى المجتهد مأجوراً فضلا عن أن يكون خطؤه معفواً عنه ، فإذا علم أتباع المذاهب الفقهية أو الكلامية ذلك ، لم يكن لهم بدٌّ من احترام بعضهم بعضا ، والترفع عن الاحتفاظ بالضغائن والأحقاد التى تكون عادة بين المختلفين الذين لا يعذر بعضهم بعضا ، ولا يَقدُر بعضهم إخلاص بعض ورغبته فى الوصول إلى الحق ، وهذه السماحة هى الخلق الذى كان يتصف به الأئمة أنفسهم ، فلم يعرف عن أحد منهم أنه طعن صاحبه ، أو أثمه ، أو نقصه حقه ، أو حاول أن يقطع ما بينه وبينه من صلة الأخوة فى الدين والعلم .

ثانيا : إن كل واحد من الفريقين يفتح المجال للنظر والاجتهاد وبذل الوسع فى معرفة الحق ، والاعتماد على الدليل والحجة وما يولد العلم أو الظن الراجح ، فليس المرجع فى حكم من الأحكام ، أو رأى من الآراء ، إلى أنه مذهب فلان

أو فلان ، ولكن إلى حظه من الدليل والبرهان ، أما أهل التقليد ، فليس لأحد أن يلزمهم بمذهب إمام معين لا يحيدون عنه ، فالكل فى حقهم سواء .

ثالثاً : قد علمنا من استقراء أحكام المذاهب الفقهية ، وآراء الفرق الكلامية ، أن فى كل منها خطأ وصوابا ، ولم نعلم مذهباً من المذاهب الإسلامية المعتبرة خطأ كله أو صوابا كله ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلا ينبغى أن تطغى العصبية المذهبية على المسلمين ، ولا ينبغى أن يكون همُّ الحنفى مثلا هو الانتصار لكل ما جاء فى مذهب الحنفية ، ولا أن يكون همُّ الإمامى أو الزيدى هو الانتصار والتعصب لكل ما جاء به الإمامية أو الزيدية . . وهكذا .

بل الواجب على المسلمين أن يأخذوا بما ظهر بالبرهان صوابه ، وأن يكون قصاراهم الرغبة الصادقة فى الوصول إلى الحق دون أن يقيموا وزنا لما سوى الحق ، بذلك يصبحون فعلا أمة واحدة ، ويصبح الخلاف الفقهى والكلامى والنظرى فى محيطهم وسيلة من وسائل القوة العلمية والسعة الفكرية ، ويتفرغون لما هو أولى بهم من التعاون على نصرة الدين ، وإصلاح حال المسلمين ، وتبليغ كلمة الله واضحة قوية إلى الناس أجمعين .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ؟

بحث عن الدّولة العبّاسيّة

لحضرة صاحب المعالى السيد محمد رضا الشبيبى

وزير المعارف السابق بالعراق

— ٢ —

العصبيات القبلية ـ أسبابها ونتائجها :

تناول المؤرخون من قدماء ومحدثين موضوع هـذا التنافر العنيف والجفاء القديم بين القحطانيين واليمـانيين ، وعنوا بالبحث فى بواعثه وأسبابه ، وللمؤرخ المسعودى رأى حاول فيـه رد هذه المنافرات إلى أثر الشعر والشعراء فى حمـاية الأعراض والذب عن الأحساب وتخليد المآثر ، كما فعل الـكميت فى قصيدته التى يذكر فيها مناقب قومه فى مضر وربيعة وإياد وأنمـار ، ويـكثر من تفضيلهم ، ويطنب فى نعوتهم ، وأنهم أفضل من أبناء قحطان . وكان لأقوال الـكميت أثرها فى إحداث العصبية ، أو الجفاء بين اليمنية والنزارية ، ولم يجـد شعراء اليمانية بدا من الرد على الـكميت كما فعل دعبل الخزاعى ، فذكر فى قصيدة له عارض بها قصيدة الـكميت : مناقب اليمن ومحاسنها ، وافتخر بملوكها ، وعرض بغيرهم . وكما فعل زياد الأعجم فى الدفاع عن قبيلته حتى أحجم الفرزدق عن هجائها ، ولهم فى هـذا الباب أخبار كثيرة ، كما كان لـكل قبيلة شاعرها وخطيبها فى المشاهد والمواسم والأيام وفى المنافرات والمفاخرات .

شاعت هـذه المنافرات بين قبائل العرب من قحطانيين وعدنانيين ، ففخر بعضها على بعض ، وأدلى كل فريق بمـا له من المناقب ، وتحزب الناس ، وثارت العصبية فى البدو والحضر ، حتى أن مروان بن محمد الجعدى لم يـكتم تعصبه لقومه

من نزار على اليمن ، فاضطر هؤلاء إلى تأييد الدعوة العباسية ، ثم تلا ذلك ما تلاه من قصة معن بن زائدة فى اليمن وقتله أهلها تعصباً لقومه من ربيعة ، ونقض الحلف القديم المبرم بين القبيلتين ، وما فعله عقبة بن سالم بعمان والبحرين ، وقتله من قتل من أحياء ربيعة كياداً لمعن بن زائدة ، وتعصباً لقومه من قحطان ، إلى غير ذلك من الأحداث الدامية (١) .

وللمحدثين من المؤرخين آراؤهم فى منشأ هذه العصبيات القبلية المذكورة ، فردها - فيما يراه بعضهم - إلى تباين المنشأ والبيئة واختلاف الأخلاق والطباع ، فالقبائل العدنانية تميل غالبا إلى الحياة البدوية خلافا للقحطانية ، فإن منشأها فى بلاد عريقة فى الحضارة وفى تأسيس الدول وإنشاء الحكومات .

ويميل بعض المتحاملين على العروبة والإسلام من المستشرقين إلى القول بأن هذه الخصومة مظهر من مظاهر الخلاف بين المهاجرين والأنصار (٢) ، ويزعم فريق آخر منهم أن هذه المنافرات قامت على أساس من اختلاف الجنس ، فالعدنانيون فى الشمال عرب خلص لا تشوب دماءهم شائبة ، والقحطانيون فى الجنوب تشوب دماءهم شائبة من دماء شعوب أخرى : إما حامية ، وإما آرية .

وليس هذا الرأى بشىء ، فإن القحطانيين بعد هجرتهم إلى الشمال توغلوا فى البداوة كالعدنانيين أو أكثر من ذلك ، بل كانت اليمن تسود ساداتها على

---

(١) انظر مروج الذهب (٢/١٣٩ : ١٤١) عن رأى المسعودى فى منشأ هذه العصبية.

(٢) المعروف أن الخلاف وقع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية — وهم الأنصار بعد ذلك — بسبب التفاخر والمنافرات ، وقد تطاولت الحروب بين الحيين عشرات من السنين إلى أن أشرفوا على الفناء ، ولكن الشحناء ارتفعت من بينهم بدعوة الإسلام ، فأصبحوا يداً واحدة ، أنظر عن الحرب بين الأوس والخزرج قبل الإسلام ، خزانة الادب للبغدادى (٤ / ٢٠٨ — ٢١١) طبعة السلفية .

أنظر ما أورده الجاحظ فى كتاب : « شرائع المروة » .

أنظر عن أشهر منافراتهم فى الجاهلية شرح المقامات للشريشى والاغانى . وقد وضعت كتب فى منافرات الجاهلية منها كتاب منافرات العرب لأبى عبيدة .

النسب كما كانت مضر تسودهم على أصالة الرأى ، وربيعة على تعجيل القرى وإطعام الطعام .

هـذه آراء رهط من المؤرخين المحدثين أو المستعربين ، وهى كما ترى آراء مدخولة على الأكثر ، والحقيقة أن الفخر بالأحساب ، والاعتزاز بالأنساب أو الطعن فيهـا ، من السجايا التى جبل عليها العرب ولم يفارقوها حتى اليوم ، ولن يفارقوها إلى ما شاء الله ، مع أن الغلو فى هذا الضرب من التفاخر منهى عنه فى الإسلام ، ولـكن هذا الإنسان قد يصبو إلى دين غير دينه ، أو ينتحل عقيدة غير عقيدته ، ثم تبقى كثير من سجاياه وأخلاقه الفطرية كما هى فى كثير من الأحيان .

أضف إلى ما تقدم أن هجرة القبائل من الجنوب إلى الشمال فى سبيل العيش وحيازة الأراضى والمراعى الخصبة ـ كهجرة القبائل اليمانية ونزوحهم إلى الجهات الشمالية ، ومجاورتهم للقبائل العدنانية ـ من أهم الأسباب فى تكوين تلك الضغائن المتوارثة ، وانتقالها من جيل إلى جيل .

المنافرات بعد الإسلام :

هذا ما كان فى الجاهلية . ولما جاء الإسلام ، اعتز العدنانيون به على القحطانيين ، فالرسول الـكريم سيد ولد عـدنان ، ولـكن القحطانيين حتى بعـد إسلامهم ظلوا ـ كما هو شأن العرب ـ يفخرون بمآثرهم فى الجاهلية ، ولم يستأصل الدين عاطفتهم المذكورة ، أو ينتزع ما تأصل فى نفوسهم أو خالط دماءهم من هـذا القبيل ، فـكانت لهم فى مجالس الأمويين والعباسيين مواقف معروفة فى المفاخرات والمناظرات .

كانت منازل الأمويين والعباسيين وأعيان هاتين الدولتين ملتقى السراة من رجال القبائل يمنية ومضرية ، ومجتمع العلماء من مختلف المنازع والمشارب ، وكانت فى بعض أصحاب تلك المجالس نزعة ملحة إلى التعرف والاستزادة من العلم والاطلاع فـكانوا يغرون بين زوارهم ورواد مجالسهم ويدفعونهم إلى المناظرات والمماتنات فى هذا الشأن ، وهى مماتنات بريئة فيها مادة أدبية أو تاريخية غزيرة ، وفيها بلاغة

وبيان عربي حر ، ولا يوجد لهـذا الأدب نظير في تاريخ آداب الأمم غـير الآداب العربية .

وكانت لتلك المجالس فوائدها وعوائدها المهمة في تحريك المواهب وإثارة البحث في أصول القبائل وفروعها وأيامها وأخبارها ، وفي مثالبها ومناقبها وحكمها وأمثالها ، وفي عاداتها وأوابدها (١) .

الجاهلية لليمن والإسـلام لمضر :

وهذه المفاخرات في العصور المذكورة كثيرة ، وأحسن مثال لها ما وقع في بعض مجالس العباسيين والأمويين ، ويلاحظ أن الدائرة تدور على اليمن في هذه المناظرات غالباً ، لوقوعها في بلاد جل زعمائها من مضر ، وفي عصر هو عصر المضرية وحسبنا أن مثالب اليمن كلها جمعت في كلمة موجزة قذف بهـا في وجوه زعمائهم خالد بن صفوان الأهتمي التميمي (٢) خطيب البصرة وعالمها بالأنساب والأخبار

---

(١) انظر عن بعض هـذه المفاخرات بين مضر واليمن مهذب تاريخ ابن عساكر [٥/٥٨ ـ ٥٩] وقد يكون شطر من هذه المفاخرات من وضع الاخباريين ، وانظر البيان والتبيين [١/١٠٣] ومروج الذهب ، [١/٢٣٨] والعقد الفريد [٢/٢١٣] ، وانظر ما كان يجري من هـذا القبيل في مجالس عبـد الله بن عامر في البصرة ، البيان والتبيين [١/١٢٢] . وعبد الله بن عامر هذا : من أشهر ولاة البصرة ، وله ترجمة في كتاب الاستيعاب [١/٣٨٧ ـ ٣٨٨] ، وعن مجالس البصريين في التفاخر بأيام العرب في الجاهلية انظر العقد الفريد [٣/٣٦٥] .

(٢) قال خالد بن صفوان ، وهو يذكر فيما يزعم مثالب اليمن في مجلس السـفاح : « ما ذا أقول لقوم كانوا بين ناسـج برد ، ودابغ جلد ، وسائس قرد ، وراكب عرد ، دل عليهم هدهد ، وأغرقتهم فأرة ، وملـكتهم امرأة ؟ » رويت هذه الـكلمة ـ مع بعض الاختلاف في روايتها ـ في كثير من كتب الادب والتاريخ ، وممن رواها الجاحظ في البيان والتبيين (١/١٠٣) وابن عبد ربه في العقد الفريد (٢ / ٢١٣ ، ٣٣٩) والمسعودي في مروج الذهب (١/٢٨٣) . وهذه الـكلمة في الذروة من البلاغة عند القوم ، ولا يكتم الجاحظ إعجابه بخالد وإكباره له ، ويعنى بنقل أقواله وكلماته في كتبه ، وقد علق على =

فى عصره ، ولبعض علماء النسب من العرب كلمة قيمة أجمل فيها المفاخرة بين العدنانيين والقحطانيين فقال : « الجاهلية لليمن والإسلام لمضر » . وقد أصاب هذا النسابة ، وهو دغفل بن حنظلة (١) فيما قال ، فمن الملاحظ أن جل مفاخر اليمن تعود إلى عصر الجاهلية ، وحق لليمن أن يفخروا بماضيهم المجيد فى الحضارة والصناعة والفنون ، فإنهم أنشأوا مدناً عظيمة وشيدوا قصورا ضخمة كقصر غمدان مقر التبابعة ، وبَنَوْا سد مأرب ومصانع المياه ، وكان لهم ملوك وأقيال دوخوا الأرض واستولوا على كثير من الأقطار ، وهكذا نجدهم فى سائر مفاخرهم يرجعون إلى أبعد عصور الجاهلية ، ففى الجود يذكرون حاتما الطائى ، وفى الشعر امرأ القيس ، وفى الحروب والفتوح الأذواء (٢) وأقيال حمير ، وملوك غسان ، والمناذرة والضجاعمة ، وفى الفتوة والشجاعة : فرسان الأزد ، وهمدان أحلاس الخيل ، وكل هؤلاء جاهليون عريقون فى الجاهلية .

والواقع : أن نصيب اليمن من المآثر بعد الإسلام غير قليل ، فإن منهم الأنصار وهم الأوس والخزرج أعز الناس نفساً وأشرفهم هما ، لم يؤدوا إتاوة

= كلمته المذكورة بقوله : « لئن كان خالد قد فكر وتدبر هذا الكلام إنه للراوية الحافظ والمؤلف المجيد ، ولئن كان شيئا حضره فما له فى الدنيا نظير » إلى أن قال : « ولكلام خالد كتاب فى أيدى الوراقين » . انظر عن خالد بن صفوان وعن أخباره وأقواله البيان والتبيين « ٢/٧ ، ٧٢ ، ١١٤ ، ١٢٩ ــ ١٣١ » و « ٢/١٨٤ » وتجد أوسع ترجمة له فى تاريخ دمشق لابن عساكر « ٥/٥٣ ــ ٦٣ » .

(١) دغفل بن حنظلة السدوسى الشيبانى ، قيل : له صحبة ، وقتلته الأزارقة ، وفى أمثالهم : « أنسب من دغفل » . ولقبه عند الجاحظ : « العلامة » وعده من رؤساء النسابين . انظر عن كلامه ورأى الجاحظ فيه البيان والتبيين « ١/١٠٨ ، ١٢٢ ، ١٢٤ » وعن كلمة دغفل المذكورة العقد الفريد « ٢/٢١٣ » ولدغفل ترجمة مطولة فى مهذب تاريخ ابن عساكر « ٥ / ٢٤٢ ــ ٢٤٧ » وله ذكر فى فهرست ابن النديم ، كما أن له ترجمة فى الاستيعاب لابن عبد البر « ١/١٧٣ » .

(٢) انظر عن أذواء اليمن خزانة الأدب للبغدادى « ٢ / ٢٥٢ ٢٥٤ » ، وكتاب : الاشتقاق لابن دريد .

إلى أحد من الملوك ، وقد حاربهم تبع الأكبر فامتنعوا عليه ، ومن اليمن عدد غير قليل من أشهر مشاهير الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، وقد روى فى فضل اليمن ما روى من الأحاديث (١)

العباسيون والحزب العباسى :

أجمع المؤرخون على أن جل شيعة بنى العباس من أهل خراسان ، وتلك هى الحقيقة ، ولكن هذا الإجماع يوهم فى ظاهره أن هؤلاء الخراسانيين برمتهم أعاجم ، وقد بالغ بذلك رهط من المستشرقين المتأخرين وقوم قلدوهم من الشرقيين ، ولا غرض لهم إلا التعريض ببنى العباس وأن دولتهم صنيعة الموالى والأعاجم ، وفى هذه الأقوال ما فيها من الغلو والإغراق .

إن التأمل الجيد فى نصوص التاريخ كفيل بإزالة هذا الوهم ، فإن قدماء المؤرخين وثقاتهم إذا قالوا : « أهل خراسان » لم يقصدوا الأعاجم وحدهم ، وإنما كانوا يقصدون بهذه العبارة ـ فى كثير من المواضع ـ القبائل العربية المقيمة فى خراسان ، ولا تنكر مساهمة هذه القبائل فى خدمة الدعوة العباسية ، فأهل خراسان معناه أصحاب خراسان من العرب غالبا ، وإنك لتجد مدلول هذه العبارات على هذا الوجه واضحا فى خطب الولاة والأمراء وفى أقوال المؤرخين ، تجدها كذلك فى خطب نصر بن سيار عامل الأمويين (٢) وفى خطب قتيبة بن مسلم وغيرهما

(١) انظر عن آراء علماء النسب فى بيوتات اليمن وبيوتات مضر والمفاخرة بينها ، العقد الفريد [٢/٢١١ ـ ٢٥٤] وانظر أساليبهم فى معرفة الأنساب وأقوالهم فى القبائل العقد الفريد [٢/١٣] ويستحسنون فى ترتيب طبقات الأنساب العربية ما أورده الماوردى فى الأحكام السلطانية [١٨٠] طبعة الاتحاد ، وانظر عن خبرتهم بهذا الفن نهاية الارب للقلقشندى [٣٦٦] طبعة بغداد .

(٢) انظر خطب نصر بن سيار عامل خراسان فى أيام مروان الجعدى ، وفى بعضها يقول : « يأهل خراسان ، إنكم غمطتم الجماعة ، وركنتم إلى الفرقة ، السلطان المجهول تريدون وتنتظرون ؟ إن فيه لهلاككم معشر العرب » ألا ترى أنهم لا يعنون بأهل =

من الأمراء، وكانوا ينسبون إلى المدن الخراسانية والفارسية فيقولون : رازى، وأصفهانى، ومروزى، وكرمانى؛ لأنهم ولدوا أو أقاموا فيها لاغير، وهم عرب صرحاء، والأمثلة على ذلك كثيرة . وهذا (الكرمانى) وهو من أشهر رؤساء خراسان فى أواخر عصر بنى أمية ، وأخباره كثيرة فى هذه الفترة من التاريخ - وقد مر ذكر بعضها - قد نسب إلى كرمان؛ لأنه ولد فيها وما هو إلا عربى قح، وكان يقال له : (شيخ خراسان وفارسها) فى العصر المذكور .

وقد ألف العرب هذا النوع من الانتساب إلى حيث يولدون أو يقيمون من بعض البلاد الفارسية أو التركية ، ألفوا ذلك حتى أواسط عصور الدولة العباسية أو بعد ذلك ، فهذا أبو الفرج الأصفهانى قد اشتهر بنسبته إلى أصفهان وهو كما لا يخفى من أرومة أموية، بل كان نزيل بغداد .

وفى كتب الفتوح ذكر لخطط العرب ومنازلهم فى البلاد المذكورة (١)، وقد أشار غير واحد من الكتاب والمؤلفين إلى فعل البيئات الأجنبية من تركية وخراسانية وغيرها وأثرها فيمن نزل بها من القبائل العربية، فمن نزل من العرب (فرغانة) لاتستطيع تمييزه عن أهل (فرغانة) فى السحنة واللون والهيئة، ومثلهم فى ذلك من نزلوا فى غير (فرغانة) من الخطط والأقاليم التركية والخراسانية . وقد وصف الجاحظ تأثر بعض هذه القبائل العربية بتلك البيئات (٢) ، ورأينا

= خراسان إلا العرب فى هذه الكلمة ؟ ومثل ذلك كثير . وانظر وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد حين استخلفه على « جرجان » فقد أوصاه بأحياء العرب فيها من اليمن وربيعة وقيس ، مع الاشارة إلى أسباب ذلك . انظر تاريخ الأمم والملوك [٩ / ٣٧ - ٣٨] والكامل لابن الاثير [٥ / ٢:١٤، ١٦٢، ١٧٢] . ولاحظ الاختلاف فى سرد نسب نصر بن سيار نقلا عن الطبرى .

(١) انظر عن خطط العرب ومنازلهم وأسماء قبائلهم فى آزربيجان — فتوح البلدان للبلاذرى [٣٣٦ - ٣٣٧] .

(٢) مناقب الاتراك للجاحظ [٣٩] .

بعض المؤرخين يقولون « فلان عربي خراساني » ، أو « عربي من أهل خراسان »(١) والمكتشفات الحديثة تؤيد أقوال الجاحظ ، فقد عثر الباحثون في تركستان ، أو فيما وراء النهر على قبائل رحل تعيش في عزلة عن غيرها ، أو لها لغية أو لهجة تقارب اللهجات العربية ، ومن رأيهم أنها من بقايا العرب الأولين في تلك البلاد .

عروبة نقبـــاء الدعوة :

كان عدد مقاتلة العرب من أهل المصرين : الكوفة والبصرة كبيراً في خراسان من عهد الفتوح الأولى ، وهم من مختلف القبائل النزارية واليمانية ، بل كان جل نقباء الدعوة الهاشمية من زعماء العرب المنتمين إلى أشهر قبائلهم ، فمنهم خمسة من خزاعة ، وثلاثة من تميم ، وبعضهم من طيء وربيعة ومزينة وغيرها من القبائل المشهورة (٢)

وقد كتب الجاحظ فصلا ممتعاً في هذا الموضوع لم يسبقه إليه أحد في رسالته المسماة (مناقب الأتراك) (٣) ، ومن هذا الفصل تعرف ان جل هؤلاء النقباء

---

(١) لاحظ العبارات التي يستعملها الجاحظ من هـذا القبيل في رسالته المسماة : « مناقب الاتراك » [٣٤] .

(٢) انظر عن عـروبة رجال الدعوة تاريخ الطـبرى [٩ / ٧٦] وتاريخ اليعقوبي [٣ / ٧٢] ومروج الذهب [٢ / ١٤٤] والكامل [٦ / ٩٠] . وعن عروبة زعماء خراسان المصدر نفسه [٥ / ١٩١] . وعن القبائل العربية المقيمة في خراسان من تميم وربيعة واليمن — كتاب : الوزراء للجهشياري [٢٦٩] . وعن أحياء العرب في خراسان كلمة لقتيبة بن مسلم في البيان والتبيين [١ / ١٩٩] . وعن بني تميم في خراسان كلمة خاطب الأحنف بن قيس قبيلته فيها البيان والتبيين [١ / ١٨٤] . وعن ضعائن العرب تخرج من مرو إلى سمرقند بدون جواز في خطبة لقتيبة بن مسلم . العقد الفريد (٢ / ٣٨٥) .

(٣) مناقب الأتراك (٨/١٢) .

من العرب وإن كان فيهم عدد من الموالى (١) ، وله فى هذا الباب فصل آخر ، أشار فيه إلى وقائع حاسمة فى خراسان والعراق تفانى فيها أنصار الفريقين ، وقد جاء فيه مانصه : « وهل أكثر الدعاة إلا من صميم العرب ومن صليب هذا النسب ، كأبى عبد الحميد قحطبة (٢) بن شبيب الطائى ، وأبى محمد سليمان بن كثير الخزاعى ، وأبى نصر مالك بن الهيثم الخزاعى ، وأبى داود خالد بن ابراهيم الذهلى ، وكأبى عمرو لاهز بن طريز المزنى(٣) ، وأبى عيينة موسى بن كعب المرانى ، وأبى سهل القاسم بن مجاشع المزنى ، ومن كان يجرى مجرى النقباء ولم يدخل فيهم مثل مالك بن الطواف المزنى . وبعد ، فمن هو الذى باشر قتل مروان ، ومن هزم ابن هبيرة (٤) وقتل ابن ضبارة (٥) ومن قتل نباتة بن حنظلة (٦) الاعرب الدعوة والصميم من أهل الدولة ؟ » .

---

(١) راجع فيما يتعلق برؤوس النقباء من الموالى ـ وفى مقدمتهم أبو مسلم الخراسانى صاحب الدولة ، وأبو سلمة حفص بن سليمان ، وبكير بن ماهان ـ « مناقب الأتراك » للجاحظ (١٤) والكامل لابن الأثير (٥ / ٤٥ ، ٥٩) وعن التشكيل بهؤلاء الدعاة فى خراسان الكامل (٥/٦٤ ، ٨٨ ، ٨٩) وعن شجاعتهم وصلابتهم المصدر المذكور (٦٧)

(٢) كان قحطبة يقارن بأبى مسلم صاحب الدولة ، ولآل قحطبة دالة كبيرة على العباسيين الأول ، ولما وقع أحد المناوئين للمنصور من آل قحطبة أسيراً فى يده لم ينتقم منه وقال : « لست أقتل أحداً من آل قحطبة ، بل أهب مسيئهم إلى محسنهم ، وغادرهم لوفيهم » . البيان والتبيين (٢ / ١٥٦) .

(٣) المشهور ابن قريظ لا ابن طريز .

(٤) انظر عن هزيمته فى خراسان الكامل (٥/١٩٢) وعن مقتله فى حرب واسط المصدر نفسه (٢٠٩ ـ ٢١١) .

(٥) قتله قحطبة سنة ١٣١ ، وما رؤى عسكر يجمع شتى المؤن والآلات والذخائر كعسكر ابن ضبارة ، وكان يسمى : « عسكر العساكر » حتى كأنه مدينة ، انظر عن ذلك الكامل (٥/١٨٩ ـ ١٩٠) وتاريخ الطبرى (٩/٩٤ ـ ٩٥) ونجد لعامر بن ضبارة الغطفانى المرى المشار إليه ـ وهو من أهل حوران ـ ترجمة فى تاريخ دمشق لابن عساكر (٧/١٥٥ ـ ١٥٦)

(٦) انظر عن مقتل نباتة بن حنظلة ومن معه من أهل الشام على يد قحطبة تاريخ =

يحتجون بكلام الجاحظ :

هذا وللجاحظ كلمة كثيراً مارأينا شداة التاريخ الإسلامى من عرب ومستعربين يحتجون بها فى هذا الباب ، وهى قوله : « دولة ولد العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بنى مروان عربية أعرابية » (١) ، ومن رأينا أنها كلمة لا تصلح للاحتجاج فيما نحن فيه ؛ لأن صاحبها قالها فى معرض المقارنة بين الدولتين من حيث استخدام الشعر والكلام العربى البليغ لحفظ الوقائع ، وتقييد المآثر وتخليد المحاسن . ومن رأى الجاحظ أن العصر الأموى امتاز بهذا الضرب من الأدب البدوى العربى ، والعرب وهم أميون أحفظ وأوعى لما يسمعون ، وأكثر عناية بالإنشاد وضرب الأمثال . ومن رأيه كذلك أن أنصار بنى العباس قصروا عن الأمويين فى حفظ وقائعهم وتدابير ملوكهم وسياسات كبرائهم فى أهل الشام وما جرى لهم فى هذا السبيل من حر الكلام وشريف المعانى فى الدولة العباسية ، إلى أن قال : « كان فيما قال المنصور وما فعل فى أيامه وما أسس لمن بعده ما بقى بجماعة ملوك بنى مروان » (٢) .

أولع الجاحظ بتكرار هذا المعنى فى كتبه (٣) على وجه يؤكد لنا أنه لم يقصد بالكلمة المذكورة إلا الناحية الأدبية العربية دون السياسية ، وقد عقد فى رسالته التى سماها (مناقب الأتراك) فصلا قارن فيه بين العرب والعجم من حيث استخدام

= الطبرى « ٩/١٠٥ ـ ١٠٦ » وهذه الواقعة بين قحطبة وابن ضبارة كسابقتها من الوقائع الحاسمة فى هذا النزاع . ولا شك أن الكفاح كان مريراً جداً فى خراسان والعراق بين عمال الأمويين وبين أنصار الدعوة العباسية فى هذه المرحلة من مراحل النزاع ، أنظر الكامل لابن الأثير « ٥/١٨٤ » ويراجع عن أخبار قحطبة « ١٨٣ ، ١٨٨ ـ ١٩٢ » من المصدر المذكور ، وتاريخ الطبرى « ٩ / ١٠٤ ، ١١٤ ، ١١٦ ـ ١١٧ » وعن مكانة القحاطبة فى الدولة العباسية وحرمتهم ودالتهم على المنصور البيان والتبيين « ٢ / ١٥٦ » .

(١) و (٢) البيان والتبيين ، المطبعة العلمية « ٢/ ١٥٤ » .

(٣) البيان والتبيين « ١/٧٨ ، ١٤٥ ، ١٥٤ ـ ١٥٧ » و « ٢/١٦٩ ، ١٧١ »

صناعة الكلام لحفظ الوقائع وتسجيل المثالب والمناقب ، فالشعر ديوان العرب ، وهم أميون لا يتكلون على الكتب المدونة ، والخطوط المطرسة ، ولبعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ، وهممهم أرفع ، وهم من جميع الأمم أفخر ، ولأيامهم أذكر » (١)

وخلاصة القول : يريد الجاحظ أن بنى العباس اقتبسوا ما اقتبسوه من قواعد الدواوين ورسوم الدول الأعجمية البائدة ، فنقلوه إلى دار خلافتهم ، فأصبحت رسوم دواوينهم والقواعد المتبعة فيها شبيهة بتلك العادات والرسوم من بعض الوجوه ، فليس فى قوله ما يشين دولة بنى العباس ، وكيف يفعل ذلك وهو أشهر كتاب العصر الأول من عصور الدولة ؟ عاصر المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل أى أنه عاش فى أزهى عصور العباسيين أثيراً عند خلفائهم وأعيان دولتهم ، ولهم ألف جملة من أحسن كتبه ورسائله ، ومنها كتابه الذى سماه « إمامة ولد العباس » (٢) ، ويعد الجاحظ فيما يراه بعضهم من الغلاة فى تعظيم العباسيين ، فقد زعم أن الطواعين الجارفة زالت عن بنى آدم ببركة بنى العباس ، ولم ير الناس من هذه الطواعين ما رأوه فى دولة بنى أمية .

هذا ما عناه فريق من قدماء المؤرخين والكتاب بقولهم عن الدولة العباسية : إنها دولة فارسية ، وعن دولة بنى مروان . إنها دولة عربية أو أعرابية . وقد أسيء فهم هذه الأقوال من قبل بعض المعنيين بالتأريخ شرقا وغربا ، وعلى هذا الوجه الذى بيناه آنفاً فهمت أقوال الجاحظ فى عصره ، وعلى هذا الوجه ينبغى أن تفهم فى كل العصور . ومن الخطأ الشنيع ، بل من الظلم الفاحش ، أن تفسر هذه الأقوال بأن الدولة العباسية دولة فارسية فى روحها ونزعتها ، وأن دعوة أنصارها من الموالى والخراسانيين وغيرهم كانت موجهة إلى الكيد من الأمة العربية ، أو إلى بعث المجد الساسانى البائد ، وأن النزاع بين الدولتين إنما هو

---

(١) مناقب الأتراك للجاحظ [١٢] وانظر أيضاً [٤٢ ـ ٤٣] من هذه الرسالة .

(٢) مروج الذهب [٢ / ١٤٣] .

نزاع بين الفرس والعرب ، وأن الموالى حاولوا فى تأييدهم للدعوة الهاشمية استرداد مجدهم القديم ، وأن يكونوا أصحاب الكلمة العليا والسلطان فى الدولة الجديدة ، إلى أمثال ذلك من أقوال واهية ومزاعم مردودة .

كان اقبال الفرس وأبناء خراسان على الدين الأسلامى منقطع النظير حتى استأصل تلك النعرات القديمة من نفوس الشعوب الإيرانية والطورانية ، وإن لم ينزع كل ما تأصل فى الطباع ، أو جرى فى الدماء ، أو امتزج بالأرواح بالمرة ، فلا يصح أن يقال اطلاقا : إن الفرس حاولوا انتهاز الفرصة فى العصر العباسى المذكور للرجوع إلى عوائدهم وأوابدهم القديمة ، وكل حكم يبنى على هذا الأساس ظاهر البطلان . وما أغنانا عن إثارة الخواطر ، ونبش الدفائن ، بمثل هذه الأقوال جريا على طريقة بعض المستعربين من الغربيين ! اننا لا ننكر أن تبقى فى العصر العباسى المذكورة بقية من نحل فارسية ، أو عادات وثنية ، خصوصاً فى بعض الأصقاع النائية من الشرق ، بيد أن ذلك لم يكن له أثر يعتـــد به فى حياة الشعوب المذكورة .

والواقع أن الدعوة الهاشمية قديمة ، بدأت فى عصر معاوية بن أبى سفيان بعد صلح الإمام الحسن ، ثم فى عصر يزيد بن معاوية بعد مقتل الإمام الحسين . بدأ بها الهاشميون وأنصارهم فى الحجاز واليمن والعراق ، ثم انتقلت إلى خراسان فى تكتم شديد (١) .

[يتبع]

(١) أنظر كتاب الامامة والسياسة [٢ / ١١٧ — ١١٨] .

بين قحطان وعدنان

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

يطبق المؤرخون ، على أن الجزيرة العربية . كانت موطناً لقحطان ، التى كانت تنزل اليمن أصلا ؛ ولعدنان ، التى كانت منازلها فى الشمال ؛ ولم يكن الشعبان على حظ واحد من الحياة ، بل كانت اليمن ذات حضارة تعقد لها دائماً لواء الفخر على عدنان كلها ، وتبسط سلطانها السياسى - مع ذلك - على بعض قبائلها ؛ مما جعل الجزيرة مسرحا لأحداث سياسية بين الجذمين ، أشعلت جذوة الأدب ، وأطلقت ألسنة الشعراء ، وتركت آثارها فى الشعر ، إلى أوائل القرن الخامس الهجرى ؛ وما تزال ماثلة فيه إلى اليوم .

وأبرز هذه الأحداث ، انفصال عدنان عن قحطان ، فى القرن الخامس الميلادى على يد كليب بن ربيعة : لما ولىّ صاحب اليمن زهير بن جناب الكلبى على ربيعة ، فأرهقهم وسامهم الخسف ؛ فدسوا عليه رجلا فاتكا من بنى تيم الله ؛ يسمى زُبَّابة ، طعنه وهو نائم ، طعنة ظنها قاتلة ولكنها لم تصب منه مقتلا ، فاحتال زهير حتى نجا ؛ ثم جمع لهم اليمن وهزمهم ؛ وأَسر كليب ومهلهل ، وآخرون من وجوه ربيعة ؛ وفى ذلك يقول زُبابة :

طعنة ما ، طعنت فى غسق الليـــل ، زهيرا ، وقد توافى الخصوم

حين يحمى له المواسم بكرٌ أين بكر ، وأين منها الحلوم ؟ (١)

خاننى السيف إذ طعنت زهيراً وهو سيف مضـــلل مشئوم

---

(١) المواسم ، جمع موسم : الربيع .

بيد أن ربيعة تجمعت ، تحت راية ربيعة أبي كليب ، وحملت حملة استردت بها الأسرى ، ثم التقوا على صلح لم يلبث بعده زهير أن عاد إلى ظلمهم . ولما خلف كليب أباه على ربيعة بعد موته ، جمع معداً كلها تحت لوائه : ربيعة ، وقضاعة ، ومضر، وإياد، ونزار؛ وحارب اليمن فيموقعة عرفت بيوم خَزاز، أو: خُزازى ، وهو جبل بين مكة والبصرة ؛ وهى التى يقول فيها عمرو بن كلثوم :

ونحن غداة أوقد فى خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا
وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصُلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

وفيها انتصفت عدنان من قحطان ، واستقلوا عنهم ؛ ونشأ من ذلك أن طغى كليب فقتله جساس ، وانبعثت الحرب بين بكر وتغلب ، وكانت مبعثاً لفيض من الشعر الربعىّ : فقصدت القصائد ، ونشطت المناقضات ، والمراثى ؛ وكان المجلىّ فى الميدانين المهلهل ؛ فضى ـ لذلك ـ بأنه أول من هلهل الشعر ! .

وانفصلت كذلك أسد وغطفان عن كِنْدة ، وكندة بطن من كهلان ، وكانوا يلون المناصب لليمن ، فملكوا أحدهم ، وهو حجر الجد الثانى لامرىء القيس على أسد وغطفان وبعض قبائل ربيعة فى نجد ؛ ولما ضعف شأن اليمن ، انحاز الحرث الكندى إلى كسرى ، فأقر ولايته عليهم ؛ ثم قتل الحرث ، فتولى حجر أبو امرىء القيس ، وكان عبيد بن الأبرص الأسدى نديماً لحجر ، وهو الذى يقول له : غِبّ ثورة من أسد عليه كان نصيبها الفشل :

ومنعتهم نجدا فقد حلوا ـ على وجل ـ تهامهْ
برمت بنو أسد كما برمت ببيضتها الحمامهْ
مهما تركت ، تركت عفوا ، أو قتلت ، فلا ملامهْ
ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الخزامهْ
أنت المليك عليهم وهمو العبيد إلى القيامهْ

ولكنهم لم يبقوا عبيداً إلى القيامة ـ كما زعم عبيد ـ بل انتقضوا مرة أخرى وقتلوا ربهم ، وشردوا امرأ القيس وعلموه البكاء ؛ وتغير بإزائه موقف عبيد .

وانتصرت تميم على اليمن ، فى يوم الكُلاب الثانى ، ومدح شعراء اليمن تميما ، وأشادوا بشجاعتها ، وأسر عبدُ يغوث قائد اليمن ، ورثى نفسه قبل أن يموت بقصيدته المشهورة :

ألا ، لا تلومانى ، كفى اللوم مابيا ... فما لكما فى اللوم خير ولا ليا
وتضحك منى شيخة عبشمية ... كأن لم ترى قبلى أسيراً يمانيا

* * *

وشهد الإسلام إبان مشرقه ، فصلا من فصول الصراع ، بين يمن وعدنان ، يمثل الأولى أبناء قيْلة : أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويمثل الأخرى قريش ؛ تقارعت فيه السيوف ، ببدر وأحد وغيرهما ، وتقارعت الألسن ، بين شعراء الرسول من الأنصار : سادتنا حسانٍ بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب ابن مالك ؛ وشعراء قريش . عبد الله بن الزبعرى ، وأبى سفيان بن الحرث ، وعمرو بن العاص . على أن ذلك كان يستره حجاب من الجهاد فى سبيل الدين ، ينأى به عن الشهوات الجاهلية ، والعصبيات القبلية ؛ حتى إذا لحق الرسول بالرفيق الأعلى ، تحرك رأس الأفعى يوم السقيفة ، فسمع المسلمون من يصيح : نحن الخلفاء لأننا آوينا ونصرنا ؛ أو : منا أمير ومنكم أمير . ومن يقول : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش ؛ ولكن : نحن الأمراء وأنتم الوزراء .

فإذا انتقلنا إلى « الشورى » سمعنا مروان بن الحكم يقول لعبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه : إنك إن تول عثمان لا يختلف عليك قرشى ؛ فيقول عمار بن ياسر : إنك إن تول علياً لا يختلف عليك مسلم ! .

حتى إذا بلغتَ صفين ، رأيت أبا تراب ـ كرم الله وجهه ورضى عنه ـ يقول :

ناديت همْدانَ والأبواب مغلقة ... ومثل همدانَ ثنَّى فتحةَ البابِ(١)

(١) ثنى فتحة الباب : جعلها فتحتين اثنتين .

كالهِندُوانى لم تفلُلْ مضاربه وجه جميل ، وقلب غير وجّاب

* * *

ولو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان : ادخلى بسلام

وهمدان قبيلة يمنية .

وكان إبراهيم بن الأشتر النخعى أشجع قواده وأخلصهم ، ومن قواده الأشعث الكندى ، وهو الذى أكرهه على قبول التحكيم ، وشغب على ابنه الحسن رضى الله عنهما ، لمّا لمح ميله إلى صلح معاوية ، وألب عليه الجيش حتى وطىء بساطه ، وانتهب فسطاطه .

والأشتر والأشعث من يمن .

وهجاء الأخطل للأنصار ، واحتجاج النعمان بن بشير على معاوية بقصيدته التى مطلعها :

معاوى إن لا تعطنا الحق تعترف لحى الأزد مشدودا عليها العمائم

أيشتمنا عبد الأراقم ؟ ضلّةً وماذا الذى تغنيه عنك الأراقم

من المتعالم المشهور .

ويتهاجى عبد الرحمن بن الحكم ، وعبد الرحمن بن حسان ، ويستشرى بينهما الشر ، ويطول الصيال ؛ ويقول عبد الرحمن بن الحكم :

أزجر كلابك ، إنها قَلَطيّةٌ بُقْعٌ ، ومثل كلابكم لم تصطد

فيجيبه عبد الرحمن بن حسان :

من كان يأكل من فريسة صيده فالتمر يغنينا عن المتصيِّد

إنا أناس ريّقون ، وأمكم ككلابكم ، فى الولغ والمتردد

حزناكم للضب تحترشونه والريف يمنعكم بكل مُهنَّد

فترى فى شعر ابن حسان ، صورة لما كان يفخر به قحطان على عدنان

فى الجاهلية ، من أن الأولين أهل حضارة واستقرار ، وأن الآخرين رعاة رحّل لا وطن لهم ولا قرار ! (١)

« يقول النويرى فى نهاية الأرب : « ومن الكبر المستهجن ما روى : أنه وائل بن حجر ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقطعه أرضاً ، وقال لمعاوية : « اعرض هذه الأرض عليه ، واكتبها له » فخرج مع وائل فى هاجرة شاوية ؛ ومشى خلف ناقته ، وقال له : اردفنى على عجز راحلتك ؛ فقال : لستَ من أرداف الملوك ؛ قال : فأعطنى نعليك ؛ فقال : ما بُخلٌ يمنعنى ، يا بْن أبى سفيان ، ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن أنك لبست نعلى . ولكن ، إمْشِ فى ظل ناقتى ، فحسبك به شرفا ! . وقيل : إن وائلا أدرك زمن معاوية ، ودخل عليه ، فأقعده معه على السرير وحدثه » اهـ .

* * *

وهجا الكميت بن زيد اليمن بمذهبته :

ألا حييت عنا يا مدينا ، فنقضها دعبل بن على الخزاعى بقصيدة هجا بها نزاراً : نقضها أبو سعد المخزومى بقصيدة هجا بها اليمن .

واعترك الإسلام فى موقعة مرج راهط فكانت اليمن تحت راية مروان ، وقيس تحت راية الضحاك بن قيس .

وانتقل الصراع بين الجذمين إلى الأندلس ؛ فكمن حينا ، ثم تراخت أيدى أمية فى الشرق عن ضبط السلطان فى أطراف الخلافة ، فصرح الشر بينهما ، وتخاطبوا بألسن الأسنة والقواضب ؛ ثم توادعوا على توزّع الأمارة بينهما ، لمضر سنة ، ولليمن سنة ؛ ومضوا على ذلك مدة ؛ ثم خاست مضر بالعهد ، وغدرت باليمن بياتا ؛ فبقى هؤلاء مغلوبين على أمرهم ، إلى أن جاز إليهم عبد الرحمن الداخل

«١» القلطى : القصير جداً من الناس والسنانير والكلاب . والبقع : تخالف اللون ، يريد أنهـا غير أصيلة ، أو خبيثة . والريف الخصب والسعة فى المـآكل ، وما قارب المـاء من أرض العرب . وريقون ، لعله أراد : أشراف ؟ فأن ريق كل شيء أفضله ، من راقنى الشيء يروقنى : أعجبنى .

سنة ١٣٨ هـ ؛ فدله حزمه على أن ينضم لأضعف المعسكرين : اليمن ؛ وينازل بهم مضر تحت راية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ؛ ولما التقى الجيشان ، كان مما قال الداخل ، يشجع جيشه : « المتزاحفان ، أموى ، وفهرى ؛ والجندان : قيس ، ويمن ؛ قد تقابل الأشكال جداً ؛ وأرجو أنه أخو يوم مرج راهط ؛ فأبشروا وجدوا » .

وقد تم النصر للداخل بعد كفاح مرير ؛ واستقرت ولاية أمية فى الغرب ، بعد انهيارها فى الشرق ؛ فاختفت العصبيات تحت سلطانهم ؛ حتى أواخر القرن الرابع الهجرى ؛ عند ما تولى السلطة عبد الملك بن محمد بن أبى عامر ، بطريق الوصاية على هشام المؤيد بن الحكم المستنصر ؛ ولم يكن عبد الملك هذا من الحزم وبعد النظر ، على ما كان عليه أخوه وأبوه قبله ، من الاكتفاء بالسلطة الفعلية ، باسم الحاجب ؛ فجعل لنفسه ولاية عهد هشام ؛ ولما كان الحاجب المنصور محمد ابن أبى عامر ، قحطانيا ؛ فقد استمد الأمويون من ضعفهم وتفرقهم يومئذ ، قوة ، وثاروا بعبد الملك فقتلوه ، حتى لا تنتقل الخلافة من عدنان إلى قحطان ، لأول مرة فى التاريخ ؛ وبذلك عاد الأمر إلى أمية ، وتولى الخلافة المستعين سليمان ؛ وانتهت بذلك أيضاً ، ابرز الانتفاضات بين يمن وعدنان .

* * *

وعلى الرغم ، من أن رجال البحث الحديث ، قد شككوا فى الدلالات التاريخية ، للحوادث ، والأنساب ، والشعر الجاهلى ؛ فى الفترة التى سبقت ظهور الإسلام ؛ ونصبوا على ذلك دلائل ، منها القاطع ، ومنها المعقول الأشبه بالصواب ؛ ومنها الخصائص الفنية التى لا تشتبه ، إلى غير ذلك ، مما يعد رفضه مكابرة أو حسداً لمن وجه الله سبحانه وتعالى أذهانهم إلى إثارته والسبق إليه .

أقول : إنه على الرغم من هذا التشكيك ، الذى لا يدفع ؛ تبرز حقيقة واضحة ماثلة ؛ وهى أن المسلمين : سادتهم وقادتهم ، علماؤهم وأدباؤهم فى صدر الإسلام ، وفيما تلاه من عصوره ؛ إلى يومنا هذا قد درجوا على احترام هذا التاريخ فى جملته

واتخاذه إماما مرجحاً وهادياً فى الحوادث ، والأنساب ؛ وسنداً قاطعاً فى اللغة والأدب ؛ احتراما لا سبيل إلى دفعه ، ولا إلى الشك فيه .

يروى المفسرون ، كالزمخشرى ، والبيضاوى : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قرأ على المنبر مرة ، قوله تعالى : « أفأمن الذين مكروا السيئات إلى قوله : أو يأخذهم على تخوف ؛ ثم قال للصحابة : ما تقولون فيها ؟ أى فى معنى هذه الآية ، وغرضه السؤال عن معنى التخوف ؛ فسكتوا ؛ فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا : التخوف : التنقص . فقال عمر : وهل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ فقال : نعم ؛ قال شاعرنا أبو كبير ، يصف ناقته .

تخوّف الرحل منها تامكا قرداً كما تخوف عود النَّبْعَة السَّفَنُ

فقال عمر : عليكم بديوانكم ، لا تضلوا ؛ قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ، ومعانى كلامكم « ١ »

ومعنى البيت : أثر الرحل فى سنام الناقة ، فأكله وتنقصه كما يتنقص السفن أى المبرد أو القدوم عود النبعة الذى يعمل منه القوس .

* * *

فالأمر الذى لاشك فيه ، أن الأدب الجاهلى ، وبخاصة الشعر ، حجة فى اللغة ، وحجة فى أسلوب اللغة ، فى نظر الإسلام ؛ قحطانياً كان ذلك الشعر أو عدنانياً ؛

« ١ » انظر البيضاوى فى تفسير سورة النحل .

والذى فى اللسان ج ١٧ ص ٧٢ : « السفن والمسفن والشفر أيضاً : قدوم تقشر به الأجذاع ؛ وقال ذو الرمة يصف ناقة أنضاها السير :

تخوف الرحل منها تامكا قرداً كما تخوف عود النبعة السفن

يعنى : تنقص . والسفن : ما ينحت به الشىء ... الخ .

وتمك السنام يتمك ، تموكا وتمكا : اكتنز وتر ، أو طال وارتفع ، وناقة تامك : عظيمة السنام. وقرد الشعر والصوف «بالكسر» يقرد قرداً ، بالفتح فيهما فهو قرد : تجعد .اهـ أقول : والاستشهاد صحيح قائم ، سواء أكان القائل أبا ذؤيب أم ذا الرمة .

صحت دلالته التاريخية على الأحداث والأنساب وما يتصل بها ، أم لم تصح ؛ ومن حق الباحثين أن يتكلموا على التاريخ وعلى الأنساب ، على مبلغ ما تهديهم إليه دراساتهم وبحوثهم ودلائلهم ، وأن ينقدوا الأدب الجاهلى نثره وشعره ؛ على مناهجهم الخاصة أو العامة ، ما شاءوا ؛ والمثقفين على اختلاف مدارسهم ، أن يفيدوا من كل نقد ، ومن كل بحث ، ما يكشف عن فكرة سديدة أو رأى جديد .

على أن يدعوا للدراسات الإسلامية العربية منهجها فى النقد ، لارتباطه بأصول الإسلام ، وفروعه ارتباطاً لا يقبل الانفصال بحال .

* * *

ولقد نشطت حركة النقد الأدبى فى هذه الأيام نشاطاً بارزاً ؛ واستفاضت فيه البحوث ، واتسع مجال النشر فى المؤلفات والمجلات والصحف اليومية ؛ وأخذ اتجاهه فى الأعم الأغلب على ضوء من الثقافات الغربية ، وآدابها وأدبائها ، وبأقلام مجددة ثائرة فى أغلب الأحيان ، وهى حركة نلقاها ـ نحن المحافظين ـ كما تعودنا أن نلقى كل علم وفن : بصدر رحب ، وتعطش إلى المعرفة ، وشوق إلى الاستفادة .

بيد أن كل أولئك ، لا يلهينا عن أدبنا الخالد ما خلد القرآن الكريم ، والذى بلغ غاية نضجه على يد الباحثين من رجاله قديماً وحديثاً :

ولكن تأخذ الألباب منه على قدر القرائح والفهوم

ولا نرضى أن ندفع من التنكر له ، أو الانحراف عن سننه ومنهاجه ، ثمناً لما نغنمه من مذاهب النقد الحديث ، فنسكت على هضيمته ، أو ننام معه على ضيم .

الإسلام وفكرة الزهد

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنية
رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

تعرضت كتب التاريخ والتراجم لسيرة الملوك والأمراء ، وقادة الجيش ، ولم تتعرض بالذات لحياة الفقراء الكادحين ، ومع ذلك فباستطاعة الباحث أن يتعرف على حياة الجماهير من خلال دراسته لحياة القادة والحكام ، لأن حياة هؤلاء وتاريخهم يرتبط ارتباطاً تاماً بالحياة الاجتماعية ، وتاريخ المجتمع على أن المؤرخين وأصحاب السير قد ترجموا لعدد كبير من الشعراء ورجال الدين وعلماء اللغة الذين عانوا آلام البؤس والشقاء ، ترجموا لهم لأنهم من أهل الذكاء والمعرفة ، لا لأنهم من ذوى الفقر والفاقة ، فمن هؤلاء :

عبد الوهاب بن على المالكى كان بقية ذوى الفضل ، وقد ضاق به العيش فى بغداد فهجرها ، ولدى خروجه شيعه خلق كثير من سائر الطوائف ، فقال لهم : لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين فى كل غداة ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية . ومنهم الأخفش الصغير على بن سليمان النحوى عاش أياماً على الفت النيء حتى انتهت به الحال إلى أن مات جوعا ، ومنهم الخليل بن أحمد النحوى العروضى الشهير كان يقيم فى خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين ، والخص خيمة من القصب ، ومنهم أبو الطيب الطبرى طاهر بن عبد الله كان شيخ الشافعية فى عصره وبلغ من العمر مئة وستين سنة صحيح العقل والفهم والأعضاء ، يفتى ويقضى ويدرس ، كان له ولأخيه عمامة وقميص ، إذا لبسها هذا جلس الآخر فى البيت وإذا أرادا غسلها جلسا فيه معاً ، وفى ذلك قال الشاعر :

قوم إذا غسلوا ثياب جمالهم لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل

ومنهم السيرافي النحوي الحسن بن عبد الله كان ينسج ويأكل من كسب يده ، ومنهم الشيخ أبو حامد الاسفرايني ، قيل في سيرته : إنه إمام المذهب على الإطلاق وشيخ الإسلام والمسلمين قاطبة ، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة متفقه ، كان هذا الشيخ يشتغل حارساً في الليل لبيوت الناس ، ويقرأ ويطالع على ضوء فانوس الحرس ، ومنهم الزبيدي محمد بن يحيي تزيد مصنفاته على مئة تصنيف في شتى العلوم والفنون ، وقد بلغ به الفقر والجوع أنه كان يضع نواة في حلقه يلوكها ليتعلل بها . ومنهم عبد القادر السهروردي كان يبقى اليوم واليومين لا يذوق الزاد ، وكان ينقل الماء بالقربة بأجر زهيد . وكان الشهيد الثاني زين الدين العاملي على علمه ومكانته ينقل الحطب على ظهره إلى أهله لعجزه عن أجرة الخادم ، وباع الشيخ عبد المحسن الصوري عمامته ليشتري بثمنها قوت يومه ، ويكفي هذا العدد اليسير مثالا لحياة قادة الفكر وأئمة الدين واللغة البائسين ، وتمهيداً لبيان فكرة الزهد وأسبابها .

عاش الخليل في خُص من القصب لا يملك فلسين ، واشتغل شيخ الإسلام والمسلمين حارساً ، ومات الأخفش من الجوع ، عاش هؤلاء وأمثالهم في الحرمان وهم يرون إلى الأموال تجي من العامل والفلاح وغيرهما في شرق الأرض وغربها ليبذرها الخونة والمقامرون على الحرام والفسوق ، ويمتلكون بها الدور الشاهقة والضياع الواسعة ، وكان من نتيجة هذا الوضع الشاذ أن تراكم السخط والاستياء في نفوس الشيوخ المحرومين من الذين قدمنا ذكرهم ، والذين لم نأت لهم على ذكر وعوضاً عن أن يحملهم هذا الاستياء على النضال وجهاد القائمين على الظلم ، فقد انقلب في نفوس الكثير إلى يأس من الإصلاح وتبدل الحال ، وتولد من هذا اليأس فكرة الزهد في الحياة الدنيا ، والتهوين من شأنها ، وكان لهذه الفكرة خطورتها وتأثيرها في الحياة الاجتماعية بين المسلمين ، فكتب علماؤهم في الزهد وأطالوا ، ودعوا إليه في المساجد والمحافل ، وألبسوه ثوب الدين والقداسة ،

والزهد بمعنى الإعراض عن طيبات الحياة ليس له مصدر فى الكتاب الكريم ، ولا فى السنة النبوية ، وإنما انعكس فى أذهان اليائسين من فقرهم وفاقتهم ، أن أفكار الإنسان ورغباته لا تأتيه عفواً ، ولا تهبط عليه من السماء ، وإنما تتولد من واقع حياته ، والظروف التى تحيط به .

ولو لا وجود الفقراء المعذبين فى الأرض ، لولا الطمع وظلم الإنسان للإنسان ، لو طبق مبدأ التعاون الأخوى ، والمساواة دون اعتبار لطبقة أو فرد ، لما عرف الناس معنى الزهد ، ولما كان للفظه فى قواميس اللغة عين ولا أثر ، ويكفى للدلالة على هـذه الحقيقة زهد الإمام على عليه السلام ، وأبى ذر ، وغيرهما من أنصار الحق ، ودعاة العدالة ، قال الإمام : هيهات أن يغلبنى هواى ، ويقودنى جشعى إلى تخير الأطعمة ، ولعل فى الحجاز أو اليمامة من لا طمع له فى القرص ، ولا عهد له فى الشبع ، وقال أبو ذر : عندما خصه عثمان بمبلغ من المال لا أقبل عطاء لا يعم كل معوز .

أعرض الهداة المتقون من الزهاد من متاع الحياة وطيباتها لا رغبة عنها ، بل احتجاجاً على من استأثر بها ، واحتكرها لنفسه دون سواه . أرادوا أن تكون الحياة وخيراتها للجميع ، أرادوها اجتماعية عامة لا فردية خاصة ، أرادوا القضاء على الفوارق والامتيازات ليعيش الجميع فى أمن وسلام ، فلا تكالب ولا تطاحن على أرزاق الشعوب ، ولا حقد ولا حسد على الرغيف .

زهد الإمام فى لذائذ العيش ، وهو الحاكم المطلق ليفهم الأجيال أنه ليس لمن يتولى أمور الناس أن يشبع وفيهم جائع واحد . إن الإعراض عن متاع الحياة مواساة لمن حرم منها ، كما فعل الإمام إن دل على شىء فإنما يدل على قيمة الحياة وأهميتها لا على احتقارها وازدرائها ، وقد ثبت فى الحديث الشريف أن حرمة الأموال كحرمة الدماء ، فالاعتداء على قوت انسان اعتداء على دمه وحياته ، فكيف بالغاصبين المحتكرين أقوات الشعب وموارد ثرواتهم .

أما الآيات والروايات التى استدل بها بعض الزهاد ، فلا تدل على الترغيب

فى التقشف والإعراض عن اللذائذ ، وإنما تدل على وجوب الزهد فى المحرمات ، والكف عن السلب والنهب ، والخيانة والكذب ، على أن يضحى الإنسان بالنفس والمال فى سبيل الحق ، ولا يؤثر الخبيث على الطيب . قال الله سبحانه وتعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض » « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

المُحَرّم هو اعتداء الإنسان على حق أخيه ، وتهاونه بنصيبه من هذا الحق . وقد جاء فى الحديث الشريف (ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه ـ المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) .

ولا ريب أن الإنسان يقوى بالمادة ، وما تقدمت الإنسانية إلا بعد أن كشف العلم عن حقيقتها ، وسلك بها سبيل الخير والعمار ، لا سبيل الشر والدمار .

وبعد فإن الإسلام دين القوة والعمل ، لا دين الرهبانية والكسل ؟



لحضرة الكاتب الفاضل الاستاذ أحمد محمد بريري

قال شيخى :

تقول ألا تهجو فوارس هاشم ومالى وإهداءَ الخنا ثم ماليا
أبى الهجو أنى قد أصابوا كريمتى وأن ليس إهداء الخنا من شماليا
إذا ما امرؤ أهدى لميت تحية فحياك رب الناس عنى معاويا
لنعم الفتى أدى ابن صِرْمة بزه إذا راح فحل الشول أحدب عاريا
وطيب نفسى أننى لم أقل له كذبت ولم أبخل عليه بماليا

يروح الفحل أحدب عارياً إذا جف المرعى ، فلم يجد ما يحفظ عليه سنامه وسائر لحمه وشحمه ... إنه لهزيل ، فهى سنة جدباء ، ومع هذا كان المقول فى رثائه هذا الشعر جواداً منْعِما ، فما بالك به إذا كان العام رخاء ؟ وابن صِرمة هو الذى أدى سلاح الفارس القتيل إلى ذويه ، والشعر لصخر يقوله حين رُغِب إليه فى أن يهجو قاتلى أخيه « فوارس هاشم » فلم يرض مبيناً أن المقام أعظم من أن يتقارض فيه السباب ، فذلك شىء يأباه ـ أن القوم أصابوا أعز الناس لديه وآثرهم عنده ، وهو من عبر عنه « بكريمتى » فلا تحسبنها تاء تأنيث ، وإنما كل أثير لديك فهو كريمك . ويأباه أيضاً أن إهداء الهجاء ليس من خصاله .

قلت : أفهو أخو الخنساء الذى قالت فيه :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

قال علم فى رأسه نار ، فليس هو الذى تعرفه بأخته أو بـعِرْسه .

قلت : عرسه « سليمى » التى قال فيها وفى أمه :

أرى أم صخر لا تمل عيادتى ... وملت سليمى مضجعى ومكانى

وما كنت أخشى أن أكون جنازة ... عليك ومن يغتر بالحدثان

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العَـيْر والنزوان

ذلك بأن علته من طعنة أصابته فى جنبه طالت ، فكانت أمه إذا سئلت عن حاله قالت « بخير » فأما سليمى فكانت تقول : لا هو حى فيرجى ، ولا ميت فينعى . ويزعمون أنه رآها تغازل قريباً لها أو يغازلها ، فقال لها هـذا القريب : متى يستباح هذا ؟ ؛ مشيراً إلى كفلها ؛ وقد كان يريد أن يبنى بها ، فتقول : عما قريب . فحينئذ أراد العليل أن يقتلها فقال : إلى بسيفى ، فلما أتى به أراد أن يسله من غمده فعجز . وماذا يجديه أن يهم بأمر الحزم ما دام غير مستطيع .

قلت : لله ما أشقها حياة تلك التى كان القوم يحيونها . فهم قتيل ومنتظر أن يقضى نحبه ، ولا ثالث إلا أن يكون من سقط المتاع . لا فى العير ولا فى النفير ، أو من الطبقة الثالثة على حد تعبير الفرنجة .

قال : أو كما قال دريد ابن الصمة :

يـغـار علينا واترين فيُشتفى ... بنا إن أُصبنا أو نُغير على وِتر

بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة ... فما ينقضى إلا ونحن على شطر

يقتلون عدوهم أو يقتلهم وتلك غاية عيشهم .

قلت : عيش الجاهلية الأولى التى أراح الله الدنيا منها برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال : بل عيش السادة الكرام ، ولا والله ما أنكره الإسلام ، بل أبقاه فيما أبقى من حسنات الجاهليين .

قلت : فإنى لا أعلم أن الإسلام يريد الناس على أن يقاتلوا أبدا فيـقتلوا ويـقتلوا .

قال : فأما أنا فموقن بأن الإسلام أراد المسلمين على أن يقاتلوا فيقتلوا ويقتلوا ، أو يغيروا أو يغار عليهم .

قلت : أى أنه يطبق حكم دريد بن الصمة .

قال : ولم لا ؟ « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتَلون » وإنما الفرق بين الحالين أن القوم فى جاهليتهم كانوا يقاتلون فى سبيل الشيطان ، على خلاف المسلمين الذين يقاتلون فى سبيل الرحمن .

قلت : العجيب أن قاعدة القتال هذه قاعدة آدمية شاملة ، فكذلك كانت الفرنجة أيام فروسيتها ، كان القتال شأن السادة . وكان على العبيد كل شىء إلا القتال فهم معفون منه ، وقد يقتل السيد فلا يصيب العبد أكثر من أن يستبدل بسيده القتيل سيداً آخر هو القاتل .

قال : فتعلم أن دلالة فساد النوع هى أن ينحرف السيد عن سبيله هذه التى سلكه فيها الطبع قبل أن يقره عليها الوضع .

قلت : أفمؤدى هذا أنا أصبنا بما يسمونه « فساد النوع » وأنه لا دليل على البرء من هذا الداء إلا أن نعود سيرتنا الأولى مقاتلين فى سبيل الله ؟ أهى إذن دعوة إلى الجهاد والاستشهاد ؟ .

قال : لا تفتر على شيخك ، فما كنت داعية جهاد . وإنما أقول : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ولست أشك فى أن لكل زمان « ضرباً من المصلحة ونوعا من العبادة » كما يقول أبو عثمان : بيد أنى أعمل مع العاملين على نشر دعوة أخرى محلها وحدة المسلمين التى تبددت ، ولله ما أصدق القائل الذى رآها تتبدد .

ما كان أغنى رجالا ضل سعيهمو عن الجدال وأغناهم عن الخطب
كنا أناساً على دين ففرقنا فرع الكلام وخلط الجد باللعب

أتحس هذه اللوعة : لوعة رجل يدرك مدى أفاعيل « فرع الكلام » وأصحاب

الخطب وفرسان الجدل ممن شغلهم هذا الفرع أو شغلوا أنفسهم والناس بالفروع فنسوا الأصول وأنسوها ؟ .

قلت : يقول : « كنا أناساً على دين » أفيعنى أنهم لم يصبحوا على دين ؟ .

قال : أزعم أنا أن الوحدة هى أصل هذه الشريعة المحمدية ، فأين أنت منها إذا عملت على أن تبعثها شيعاً وأحزاباً ؟ إنه لمن حقك - إذا شئت - أن تحتج « بمفهوم المخالفة » فى قوله : « كنا على دين » وإنى لأدعو شيوخ الإسلام إلى أن يعطوا هذه المسألة ما هى حقيقة به من جد التفكير ، وما يترتب عليه من صدق التقدير وسلامة التدبير .

قلت : أولا يتدبرون القرآن ؟ .

قال : من تدبر القرآن لم يمسكه « فرع الكلام » ولم يلهه تحبير الخطب عن جليل الخطب النازل جراء جدل ما كان أغنانا عنه لولا الاستجابة إلى نزغ الشياطين .

قلت : إنه لمن اليسير أن تسمعوا الخاصة وهى لا شك باذلة قصارى جهدها فى جمع الشتات وتدارك ما فات . ولكن البلية فى أن العامة ليست لها أذن واعية إن المقدمات لمؤديات إلى نتائجها ضرورة ، وليس فى وسع عاقل أن يجادلك إذا أنت بينت له أن الفروع ما كانت لتطغى على الأصول . وأن من شأن المسلمين أن يذهبوا مذاهب شتى فى تلك على وحدة المذهب فى هذه .

قال : رويدك بعض الثرثرة . فإن عامة المسلمين براء مما تحاول أن ترميها به . وإن لها لغريزة واعية أوعى من عقول أصحاب المقدمات والنتائج . لقد ينسى الرجل الأمى أنه شافعى أو مالكى ، ولكنه لا ينسى أبداً الوحدة الإسلامية . لو قلتَ : لو أن للخاصة أذناً واعية لما عدوت الحقيقة الواقعة .

قلت : فإنى أرى الخاصة قد استجابت إلى دعوة التقريب ، فمتى نرى العامة تدخل فيها أفواجا ؟ .

قال : وهل خرجت منها حتى تريدها على أن تدخل فيها ؟ لقد عمل أهل القطيعة داخل البلاد الإسلامية وخارجها على أن تصبح « الطائفية » أو « المذهبية »

أديانا مختلفة ، فلا يذكر الرجل إلا أنه حنفي أو حنبلي أو إمامي أو زيدي ، خبطت أعمال هؤلاء العاملين المفسدين ، عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وسلمت عامة المسلمين ، فلم يلتو بها قصد . « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » .

قلت : لو شاء لهدانا أجمعين . فما الحكمة في أنه - جل جلاله - هدى بعضا وأضل آخرين ؟ .

قال : الحكمة هي أنه - علت حكمته - حق القول منه ليملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين . وليس شيخك ممن يقفون ما ليس لهم به علم . ولقد أمرنا مالك الملك أن نتفكر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء . أفليس في « علوم الحياة » وقد كلفتها ، ما يصرفك عن قضايا جدلية لا تجدينا إلا أن نلقي بأيدينا إلى التهلكة ؟ .

قلت : فمعاذ الله أن نلقي بأيدينا إلى التهلكة ، وما قصدت إلى أكثر مما يقصد إليه أصحاب الكلام حين يتناولون مسائل القضاء والقدر والاختيار والاضطرار ومرد التبعة والجزاء .

قال : فخير أن تقصد إلى مقصود « أصحاب الفعال » وكفانا مالقينا من أصحاب الكلام والمقال .

قلت : لقد بحرنا المقال إلى حديثنا الماضي عن الياسين والآبين والآخين .

قال : ويل للشجي من الخلي ، فلو أنك كنت في غمرة الحمى التي تعالج شيخك أو يعالجها لكان لك شغل عن الآبين والآخين والنحو والنحويين ؟

الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية

لحضرة الكاتب الفاضل الدكتور محمد البهى
أستاذ الفلسفة فى كلية اللغة العربية

---

١ — الاسلام فى المؤتمر الثقافى الاسلامى بجامعة برينستون (الذى انعقد فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٣) :

لا أود أن أنقل هنا صورة كاملة عما دار بين المؤتمرين فى المؤتمر الثقافى الإسلامى الذى انعقد فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٣ فى جامعة برينستون ثم فى مكتبة الكونجرس الأمريكى بواشنطن . لا أود ذلك لأن ما دار فيه يمثل فى واقع الأمر اختلاف المسلمين اليوم فى الشرق فى تقدير الإسلام ومدى الإفادة منه ، ولكن على أرض أمريكية : فالاختلاف الرئيسى فى وجهات النظر إلى الإسلام كان بين المسلمين أنفسهم هناك ، وليس بينهم وبين العلماء الأمريكان ، أو بينهم وبين العلماء الأوربيين ، وخاصة الإنجليز الذين حضرو إلى المؤتمر وساهموا فيه مع غيرهم من المستشرقين الأمريكان .

والاختلاف هنا فى مصر فى فهم الإسلام وفى تحديد دائرته فى الحياة الإنسانية ، وكذا الاختلاف فى ذلك الذى نسمع عنه فى إيران أو الباكستان أو إندونيسيا ، هو بعينه الذى كوّن من المؤتمرين المسلمين فى جامعة برينستون جبهات متقابلة :

فالبعض كان يرى أن الإسلام دين يحدد علاقة الفرد بربه فقط ، ولا شأن له

بالجماعة الإنسانية فى جوانبها المختلفة ، أو هو يجب أن يقصر على ذلك حتى لا يتخلف ركب المسلمين فى الحضارة الصناعية والمدنية الحديثة عن غيرهم ، والبعض الآخر كان يحتفظ بالرأى الذى يقدر الإسلام على أنه جملة من التعاليم والمبادىء جاءت بها رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لمعالجة جوانب الحياة الإنسانية المختلفة : فهى كما تتناول الفرد فى سلوكه نحو نفسه وفى عبادته لخالقه تتناوله فى سلوكه مع غيره فى أسرته ، أو جماعته ، وأمته . وكما تتناوله كقائد وراع تتناوله كتابع ومرعى ، وفى السلم والحرب ، وفى علاقته بأخيه المسلم أو بشريكه فى الوطن أو العالم كله .

ولهذا أرجع هذا البعض تخلف المسلمين فى الآونة الحاضرة أو قبل ذلك فى القرن التاسع عشر على الأخص إلى الاستعمار الغربى وليس إلى مبدأ أو مبادىء فى الإسلام ، وأرجعه كذلك إلى تنكب المسلمين عن طريق الإسلام ، لا إلى تمسكهم به .

ولكن أود أن أنقل إليكم خاتمة المطاف فى الجدل بين المؤتمرين فى هذا المؤتمر فيما يتعلق بقيمة الثقافة الإسلامية فى حياة المسلمين وفى صلاتهم بغيرهم : المؤتمر وصل إلى النتيجة التالية : وهى أن الغالبية من العلماء فى المؤتمر ترى أن الثقافة الإسلامية الأصيلة لها قيمتها الفعلية فى توجيه المسلمين وربط صلاتهم بغيرهم ، وأنها ثقافة إيجابية بنائية لمجتمع إنسانى فاضل حديث ، وأنها فقط يجب أن تعرض فى صورة توافق العقلية المعاصرة حتى تكون الإفادة منها فى نطاق واسع ، وحتى يتيسر للإنسان المسلم فى الوقت الحاضر أن يلائم بينها وبين الحضارة الحديثة فى حياته الخاصة والعامة . فالذى طلبه المؤتمر من العلماء المشتغلين بالثقافة الإسلامية فى العالم كله جِدّة العرض ، وليس وضع هذه الثقافة فى ميزان التقدير .

وبقدر حرص علماء المسلمين أنفسهم وجدهم فى عرض الإسلام ومبادئه فى جوانب الحياة الإنسانية المتعددة فى صور توافق عقلية الإنسان المعاصر - بقدر ما يقيمون من أدلة عملية على جدارة الإسلام كنظام عام شامل فى معالجة المشاكل الإنسانية :

السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وكتوجيه سليم لتهذيب الفرد وإشعاره بكرامته الإنسانية ، وقيمته الذاتية فى مجتمعه الصغير والمجتمع العالمى الكبير .

٢ – الاسلام فى الجامعات الامريكية :

أتيحت لى الفرصة – بفضل المعونة القيمة التى قدمها معهد دراسات الشرق الأوسط بواشنطن – للعلماء الذين حضروا المؤتمر : أن أزور جامعات برينستون بنيوجرسى : مارى لند ، وهوبكنز بواشنطن ، وكولومبيا بنيويورك ، وهارفارد ببوسطن ، ووين بدتريت ، وميتشجن فى آن آربر ، وشيكاغو بمدينة شيكاغو ، وكلية برينسيبيا بالزا ، وأنديانا ببلومن تون ، وأوكلاهوما بنورما أوكلاهوما ، وكلية رولينس بوينتربارك بفلوريدا ، كلية ماكاليستر فى سان بول ، لوس انجليس بلوس انجليس ، استان فورد ببالو ألتو ، كاليفورنيا بسان فرانسيسكو وغيرها ...

وبعض هذه الجامعات يقع فى شرق أو شمال الولايات المتحدة الأمريكية بالقرب من المحيط الأطلسى ، وبعضها فى غرب هذه الولايات على المحيط الهادى ، وبعض آخر فى الولايات الوسطى ، وبعض رابع فى الولايات الجنوبية بالقرب من خليج المكسيك .

كما أتيحت لى الفرصة فى أثناء زيارة هذه الجامعات والكليات أن أتصل اتصالا وثيقاً بالأساتذة ، وخاصة أساتذة الدراسات العربيــة والإسلامية والأسيوية والفلسفية ، وأتصل بالطلاب والطالبات فى هذه الجامعات عن طريق المحاضرة ، أو تبادل الحديث الشفوى فى المناقشات العامة ، أو الإجابة على أسئلة بعض الطلاب والأساتذة . فقد ألقيت :

١ – فى معهد العلاقات السياسية بجامعة كولومبيا محاضرة : عما يجب أن يعرفه الدبلوماسى الأمريكى فى الشرق الإسلامى وفى مصر خاصة ، عن الاتجاهات الفكرية السائدة فى الوقت الحاضر .

« نصيب الفكر الإسلامى فى توجيه الحياة الحديثة فى البلاد الإسلامية » .

٣ — ومحاضرة ثالثة فى جامعة أوكلاهوما فى قسم الدراسات الفلسفية عن :

٢ — ومحاضرة أخرى فى كلية « برينسيپيا » عن :

« بين الفلسفة الإسلامية والفكر الإغريقى القديم ، وأثر هذه الفلسفة فى الفكر الأوربى منذ عصر النهضة الأوربية » .

واشتركت فى مناقشات عامة أخرى دارت فى ندوات بينى وبين الطلاب والأساتذة فى جامعة شيكاغو ، وفى كلية روليتس ، وجامعة استان فورد ، ومعهد العلاقات السياسية الخارجية بسان فرانسيسكو ، وجامعة أوكلاهوما .

ولست بصدد الحديث عن النصيب الذى قمت به فى رحلتى هذه كعالم أزهرى فى الجامعات الأمريكية أو فى المجتمعات الإسلامية هناك ، وإنما أنا بصدد بيان الصورة التى التقيت فيها بالعقلية الأكاديمية الأمريكية : عقلية الطلاب والأساتذة . وهو التقاء كان حتما حول الإسلام نفسه ، والدراسات الإسلامية ، والعقلية الإسلامية فى ماضيها وحاضرها ، لأن زائراً أجنبياً هو عالم من علماء الأزهر ومدعو للمساهمة فى مؤتمر إسلامى عقد فى أمريكا ، وقد ضم إلى ثقافته الإسلامية الشرقية ثقافة الجامعة الحديثة فى أوربا ، وفى ألمانيا على وجه الخصوص - ينتظر منه الطالب الأمريكى والأستاذ الأمريكى أن يطلعه على صورة الإسلام والعقلية الإسلامية بأسلوب الباحثين المحدثين فى الجامعات الأمريكية والأوربية ، ولا ينتظران منه شيئاً آخر يتعلق بمواد الثقافة الحديثة أو الآثار الفرعونية القديمة .

وجدت عقلية الطالب الأمريكى تعيش فى الآونة الحاضرة أكثر مما تعيش فى الماضى . فما يوجهه من أسئلة أو استفهامات تتعلق بمشاكل الحاضر وحضارة الوقت ، والمدنية السائدة . ولعل سبب هذه الظاهرة أن الحياة الأمريكية ليس لها ماضٍ طويل ، ثم ليس فيها كذلك فراغ تشغله بما يتصل بماضيها أو بماضى حياة أخرى . فالطابع العملى يسود هذه الحياة ، والغد قبل اليوم يجذب العقل

الأمريكى لاستغلال الثروة الفسيحة فى رقعة هذه البلاد والانتفاع بها فى رفع مستواه الصحى والاجتماعى .

ولهذا يهم الطالب الأمريكى - إن سأل عن الإسلام - أن يعرف : إلى أى مدى يستطيع المسلم أن يتفاهم مع الغربى أو الأمريكى ، وإلى أى مدى يمكن للإسلام أن يساهم فى الحياة الحديثة وفى حضارتها الصناعية ، وإلى أى مدى تستطيع الشعوب الإسلامية مع احتفاظها بالإسلام كعقيدة أن تساير ركب الحياة اليوم وتأخذ بمقوماتها فى حياتها ؟ .

وإذا كانت عقلية الطالب الأمريكى تحدد له نوعا خاصاً من الأسئلة عن الإسلام ، فرغبته فى معرفة أجوبتها تلفت نظر مشاركه فى الحديث والمناقشة من أصحاب الثقافة الإسلامية . يسأل فى شوق ، ويسترسل فى السؤال لا ليجادل وإنما ليقتنع . إذ الجدل لذات الجدل ظاهرة من ظواهر العقلية النظرية . أما العقلية العملية فرغبتها فى الجدل لذات الجدل محدودة .

وكما يُستشف من عقلية الطالب الجامعى الأمريكى الرغبة الشديدة فى معرفة رأى الإسلام فى مشاكل الوقت ، وفى تحديد مظاهر الحياة الإسلامية الحاضرة ، فإنه يُستشف منها أيضاً جهله بالإسلام وبالصورة الصحيحة لحياة الشعوب الإسلامية الحاضرة ، أو سوء فهمه للإسلام ولحياة المسلمين . وقد ينحرف فى فهمه للإسلام إلى أنه دين يعادى الإنسانية ، كما قد ينحرف فهمه لحياة الشعوب الإسلامية الحاضرة إلى أن المسلمين بحكم مبادىء دينهم يعادون الحضارة الصناعية ، وينظرون إلى غيرهم بروح العداء البغيض .

ولهذا لا يلق المتحدث عن اضطهاد الأقليات فى البلاد الإسلامية ، أو عن تشويه الإسلام إذا ما أراد أن يصور المسلمين بغير صورتهم الصحيحة ، أو يسىء إلى الإسلام - عناءً من عقلية الطالب الأمريكى فى تصديقه ومد يد المساعدة إليه كذلك . والدعاية اليهودية المغرضة تلقى رواجا هناك . لالأن العلماء اليهود فى الجامعات الأمريكية - وهم كثيرون - يشجعونها ، أو لأن الصحافة ودور الإعلان تعتمد

على الرأسمالية اليهودية ؛ بل لأنه مع ذلك يوجد هذا الاستعداد لسماع الروايات المشوهة عن الإسلام والمسلمين .

ولو فتشنا فى العوامل التى كونت هذا الاستعداد لدى طلاب الجامعات الأمريكية لوجدناها قبل كل شىء فى « كتاب المكتبة الجاميعية » .

فكتب الدراسات الإسلامية والعربية :

١ — إما أنها من تأليف المستشرقين الأوربيين الذين بقوا فى أوربا .

٢ — أو من وضع المهاجرين المسيحيين أو اليهود الذين أصبحوا أساتذة هذه الدراسات فى الجامعات الأمريكية .

٣ — أو أنها مترجمة عن العربية وغيرها من لغات العالم الإسلامى اليوم .

والاستشراق فى أساسه محاولة باسم العلم لتصوير الشرقيين والمسلمين فى حياتهم وعقيدتهم تصويراً يتيح للمستعمر الأوربى أن يتمكن بسلطانه المادى وتوجيهه العقلى الخاص من استغلال ثروة البلاد الاسلامية بأيدى المسلمين أنفسهم وبرضاً من رؤسائهم وزعمائهم . فالاشتشراق بحث ، ولكن ليس هدفه المعرفة من حيث إنها معرفة تعين على الفهم الصحيح وخلق جو من التفاهم الإنسانى ، بل هو معرفة موصلة إلى نتيجة معينة ومحددة قبل القيام بالبحث والتفتيش . هذه النتيجة هى :

إفهام المسلمين أنفسهم أن ليس لهم « أصالة » فى تاريخ الحركات الفكرية ، وليست لهم « إيجابية » فى حياتهم أو الحياة الإنسانية العامة .

وكذلك إفهام الأوربيين المستعمرين أن خصائص « السيادة » فى الحياة من مقومات العقلية الأوربية ، وأن الأوربيين هم الأجدر بالحياة الرفيعة ، وبالبقاء فى الجماعة الإنسانية .

ولذا نرى الدول الأوربية العريقة فى الاستعمار - وهى التى تقوم حياتها على المستعمرات - تبذل الكثير فى تقوية حركات الاستشراق ، وبالتالى تبرز فى اتجاهها الاستشراقى هذه النتيجة المحددة السالفة الذكر .

كما نرى علماء الدول الأخرى التى لها صلة ضعيفة بالاستعمار يحاولون الحيدة فى استشراقهم ، ولكن قلما يتأثرون فيه بثقافتهم الدينية الخاصة .

والأمريكان لقرب عهدهم بالعالم القديم - وبالأخص بالشرقين الأوسط والأدنى - اعتمدوا فى جامعاتهم عند ما اتجهوا لبحث الثقافة الاسلامية كمصدر أصيل فى توجيه شعوب الشرق الأوسط والأدنى - إلى علماء الاستشراق فى أوربا وساروا فى نفس اتجاههم بعد أن تتلمذوا عليهم ، كما كونوا نواة مكتباتهم فى مصادر التراث الاسلامى الروحى والعقلى من تأليف هؤلاء بجانب الدراسات المتعلقة بالإنجيل والتوراة ، وهى دراسات العهدين القديم والجديد .

وعند ما هاجر بعض الشرقيين من العرب المسيحيين ، وبعض اليهود من العلماء الأوربيين ، واستوطنوا جميعاً الولايات المتحدة الأمريكية ، واتصلوا بجامعاتها ومعاهدها ، وطُلب منهم أن يساهموا فى الدراسات الشرقية الأكاديمية ، احتلوا بعد فترة وجيزة من الزمن رياسة الأقسام الدراسية فى الثقافة الاسلامية والعربية . وأصبح لهم توجيه ملحوظ فى دراسة هذه الثقافة ، وأصبح لهم تلاميذ تولوا فيما بعد مباشرة النشاط الأمريكى الخارجى فى البلاد العربية والاسلامية ، وتولوا مساعدتهم فى تصوير الاسلام والمسلمين للطالب الأمريكى .

فالمسيحيون واليهود من هؤلاء المهاجرين المستوطنين أضافوا فى المكتبات الجامعية فى أمريكا إلى كتب المستشرقين الأوربيين كتبهم الخاصة . وفيها توجيهاتهم التى قد تختلف عن توجيهات هؤلاء الأوربيين . ولكنها تشاركها كثيراً فى تصوير الدعوة الاسلامية ، وحياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وصحابته رضوان الله عليهم الذين قاموا بعبء الخلافة الاسلامية بعده ، وبيان كيف أن الاسلام اعتمد فى انتشاره على الدفع المادى : بالسيف مرة ، وبفرض الجزية مرة أخرى ... إلى غير ذلك من الموضوعات التى يبعث سوء القصد فى تصويرها التشكك فى قيمة الاسلام ، والريب فى نظرة غير المسلمين إلى المسلمين .

وبالإضافة إلى جهود المستشرقين الأوربيين ، والمهاجرين المستوطنين من

المسيحيين واليهود فى تكوين مكتبة الدراسات الإسلامية والعربية بالجامعات الأمريكية - يذكر أيضا ذلك المجهود الذى تقوم به بعض المؤسسات العلمية والتعليمية الأمريكية فى نقل بعض المؤلفات المعاصرة من اللغة العربية وغيرها من لغات العالم الإسلامى اليوم إلى اللغة الانجليزية .

وهذه المؤسسات تعتمد فى اختيار ما يعد للنقل من مؤلفات المعاصرين المصريين أو العرب أو غيرهم فى رقعة العالم الإسلامى - إما على شهرة المؤلف نفسه أو على مشورة بعض الدوائر الرسمية أو الشخصيات المعروفة فى بلاد هذا العالم .

ولا أستطيع هنا أن أقول : إن سوء القصد هو الباعث على عملية النقل هذه ؛ بل ربما أقول ، العكس هو واقع الأمر . فإذا وجدنا لهذا فى مكتبات الجامعات الأمريكية ترجمات لبعض كتب المعاصرين فى العالم الإسلامى كان أجدر أن لا تترجم لسبب أو لآخر - فالخطأ فى ذلك راجع لمشورة الجهة الرسمية . أو بعض الشخصيات المعروفة ، أو لأن شهرة المؤلف نفسه قد جاوزت بالراغب فى الترجمة دائرة المشورة أو القراءة الذاتية للكتاب .

فمثلا كتاب : « من هنا نبدأ » لخالد محمد خالد ، وكتاب : « مستقبل الثقافة فى مصر » لطه حسين من الكتب المترجمة ، وبجانب هذا نجد كتاب : « العدالة الاجتماعية » فى الإسلام لسيد قطب فى عداد هذه الكتب المترجمة التى زودت بها مصادر البحث عن الثقافه الإسلامية .

وقد أتيحت لى الفرصة وأنا مشرف على مراقبة البحوث والثقافة بالأزهر أن أبدى الرأى فى كثير من الكتب المعاصرة . وأخذ برأيى إيجاباً أو سلباً فى بعض ما عرض على ، وفى البعض الآخر منها تعذر تنفيذ الرأى ، لأن الترجمة بالفعل كانت أخذت طريقها إلى الظهور .

وهناك عامل آخر غير الكتاب له أهميته فى توجيه الطالب الأمريكى توجيهاً خاصاً فى فهم الإسلام ، والحضارة الإسلامية ، وعقلية الشعوب الإسلامية المعاصرة - هو اتصال العلماء والطلاب المصريين والعرب به فى الجامعة الأمريكية عن طريق المحاضرات والاشتراك فى المناقشات .

فبعد هذه الحرب العالمية الثانية ازداد سفر العلماء المصريين والعرب إلى أمريكا عن طريق التبادل الثقافى لإلقاء سلسلة من المحاضرات فى فترة محدودة ، كما ازداد التحاق الطلاب المصريين والعرب بالجامعات الأمريكية كمبعوثين حكوميين ، أو على مشروعات خاصة كمشروع فول بريت أو مشروع النقطة الرابعة . وقليل من هؤلاء الطلاب من هو على حسابه الخاص .

الطالب الأمريكى ، كما ذكرت سابقا ، تحمله الرغبة القوية إذا ما التقى بطالب أو بعالم من البلاد الإسلامية - فى أن يعرف منه شيئاً عن الإسلام وعن الحياة الإسلامية ، لأن ذلك هو الشىء المجهول له فى حياته هناك .

وهذه الرغبة تبدو من الطالب الأمريكى ، ولو كان المحاضر يحاضر فى شىء فى آخر لاصلة له بالتعبير عن التعاليم الاسلامية . فطالما المحاضر أو الطالب الغريب من بلد إسلامى فمركز الاستفهام والسؤال فى نظر الطالب الأمريكى هو : الاسلام والمحمدية .

وقد لمست ذلك فى وضوح وغير مرة : فقد كان الأستاذ محمد خلف الله أحمد وقد صحبنى فى زيارة الجامعات الأمريكية التى زرتها يلقى بعض محاضرات عن الأدب العربى ، ويتحدث فى الأدب العربى المعاصر عن فن المسرحيات وعن الكتاب المحدثين . فالأسئلة - التى أعقبت المحاضرة وقد استغرق وقتها ضعف وقت المحاضرة اتجهت من جميع السائلين فجأة إلى مقاييس الاسلام الخلقية ، ومبادئه فى السياسية الدولية ، وتنظيمه للأسرة ، وعلاجه للفجوة بين الطبقات ، ومعالم العدالة الاجتماعية فى نظره ... وهلم جرا ؛ اتجهت إلى الموضوعات التى تبعد كل البعد من الوجهة العلمية البحتة عن موضوع المحاضرة .

وكثير من هؤلاء العلماء والطلاب ذهب إلى أمريكا ومعه صورة مهوشة عن الاسلام ، وربما كانت حياة المسلمين الحاضرة فى البلاد الاسلامية هى مصدر معرفته بالتعاليم الاسلامية . فيستوحى من حياة المسلمين ليرسم للطالب الأمريكى صورة هى أبعد ما تكون عن الاسلام ، ولكنه يقدمها إليه على أنها تعبير صادق للمبادىء الاسلامية .

وبعض هؤلاء العلماء والطلاب يحمل فى رحلته إلى الجامعات الأمريكية شعور البغض والكراهية للإسلام ، أو شعور الاستخفاف بتعاليمه ومقاييسه فى الحياة . وهناك المجال الفسيح لابراز هذا الشعور ، مستعينا فى تأكيده بالقصص المختلفة والتفسيرات المغرضة للأحداث التاريخية وظواهر علاقات المسلمين بغيرهم فى تاريخ الجماعة الاسلامية الطويل .

فقد سمعت فى غير جامعة من الجامعات التى زرتها أن بعض العلماء المصريين هيئت له الفرصة لالقاء بعض المحاضرات عن « الاسلام فى مصر » ـ فكان العمود الفقرى لهذه المحاضرات هو : أن الاسلام استعان بالسيف وبفرض الجزية على حمل الناس على اعتناق الاسلام ، وعلى طمس الحضارة القبطية العريقة ، وعلى أنه حول المجتمع المصرى المتحضر إلى مجتمع يسوده الاضطهاد والارهاب .

ثم سمعت أن واحداً آخر من العلماء المصريين حاضر عن الفلسفة الاسلامية فى بعض الجامعات الأمريكية فذكر : أن المسلمين بتفكيرهم الدينى المحدود أساءوا إلى الفكر الاغريقى القديم ، وأن هذا الفكر لم يشع إلا بعد أن عاد إلى خلفاء الاغريق الأوربيين من جديد ، وإلا بعد أن أبعد عنه الأوربيون الصور المحرفة التى أضافها المسلمون إليه . وأرجع عمل المسلمين إزاء الفكر الاغريقى إلى سطحيتهم وعدم قدرتهم على الانتاج العقلى ، كى يخلص من ذلك إلى أن النهضة فى الشرق مرهونة بالإفادة من الثقافة الغربية ، والفكر العلمى الطبيعى الغربى .

ويقل بين العلماء والطلاب من البلاد الاسلامية فى الولايات المتحدة الأمريكية من له معرفة حسنة وفهم واضح للإسلام .

كما يوجد بينهم من يتحول عملياً إلى إنسان صاحب تفكير مسيحى فى صورة مسلم موفد من مصر أو غيرها إلى الجامعات الأمريكية ، وذلك بحكم العادة القائمة فى هذه الجامعات وقت الاحتفالات الجامعية وفى المناسبات الدينية .

فمع كثرة الجامعات الأمريكية التى زرتها لم أر جامعة واحدة خلت من كنيسة احتلت مكان الصدارة فى أبنيتها الجامعية . لا على أنها رمز فحسب ، بل على أنها

مصدر التهذيب للطلاب والطالبات ، وكثيراً ما يقرأ الزائر هذه العبارة : « الدين والمعرفة » على واجهة البناء الرئيسى من أبنية الجامعة كشعار لهذه الجامعة .

وقد أصغيت إلى حديث طالب مصرى هو ابنٌ لتاجر غلال فى مصر عن مدى مشاركته لزملائه وزميلاته فى الطقوس الدينية المسيحية التى يفتتح ويختتم بها اليوم الجامعى فى كلية رولينس بفلوريدا . وأنه لم يجد بدا من المشاركة فى القيام بهذه الطقوس نظراً لحداثة سنه ، ولعدم معرفته بالاسلام فى بيئته المصرية والإلف والعادة فى هذه الكلية .

فالطالب الامريكى إذن قلما يجد مصدراً محايداً يتحدث عن الاسلام وعن الثقافة الاسلامية .

فالكتاب الجامعى لدراسة هذه الثقافة على نحو ما شرحت . والزائر من بلد إسلامى للجامعات الأمريكية تعوزه صحة المعلومات أو دقتها عن الاسلام ، أو يعوزه القصد العلمى السليم فى عرضه للثقافة الاسلامية .

ومن مميزات الطالب الأمريكى أنه لا يصر على رأى بأنَ له خطؤه ، فالعقلية الرياضية والعقل العملى فى الحياة يسيطران على توجيهه فى جدله أو سلوكه .

وقد يكون من العوامل فى ذلك ـ وإن كان عاملا سلبيا ـ عدم رسم سياسة مصرية ثقافية خارجية . ففى سنة ١٩٥١ طلبت الأكاديمية الأمريكية للدراسات الأسيوية بسان فرانسسكو عالما من علماء الأزهر ممن يجيدون لغة أوربية حديثة ودرسوا فى إحدى الجامعات الأوربية ليشرف على قسم الدراسات الاسلامية المنشأ حديثاً فى هذه الأكاديمية .

فرصت وأنا فى مراقبة البحوث والثقافة بالأزهر على أن تجيب المشيخة هذا الطلب . ووقع الاختيار على عالم من علماء الأزهر ممن سافروا إلى ألمانيا للدراسة وهو يجيد اللغة الانجليزية ويقوم بالتدريس الآن فى جامعة القاهرة ، وكتبت المشيخة إلى وزارة المعارف والجامعة تطلب إليهما الموافقة على إعارة هذا الأستاذ للأزهر

مدة سنتين . والأزهر بدوره يوجهه إلى الاشراف على العمل بسان فرنسسكو . فطلبت المعارف من الأزهر نظير ذلك أن توافق على إعارة مدرس بإحدى كلياته لها كى توجهه هى أيضاً فى مهمة إلى الخارج . وبعد أن وافق الأزهر على طلب المعارف أجابت المعارف ـ وكان وزيرها الدكتور طه حسين ـ بأنها لاتستطيع التدخل فى شئون الجامعة لأنها مستقلة . وحاولت الاتصال شخصياً ببعض زملائى هناك بكلية الآداب لتوافق الكلية على طلب الأزهر . ولكن كان ذلك بدون جدوى . واستقر فى ذهنى من الأحاديث التى دارت حول هذه المسألة : أن العامل الطائفى فى الثقافة كان سبباً خفياً فى ذلك ، فكيف يسافر أزهرى إلى أمريكا فى مثل هذه المهمة ؟.

وبجانب هذا المثل أذكر أن السفارة المصرية بواشنطن عن طريق الملحق الثقافى هناك ، وكذا عن طريق الادارة الثقافية هنا بوزاة المعارف لو عرضت بعض الجامعات أو المعاهد الأمريكية شغل بعض وظائف التدريس بقسم الدراسات الاسلامية أو العربية ببعض العلماء المصريين ـ تتجه الرغبة أولا وبالذات إلى الجامعات المصرية الحديثة دون الأزهر . وربما يكون لهذا الاتجاه بعض العذر لأن دائرة الاختيار من بين علماء الأزهر ضيقة نظراً لعدم شيوع تمكنهم فى اللغات الأوربية الحديثة . ولكن مع ذلك يمكن للأزهر أن يساهم وأن تجدى مساهمته لصالح الثقافة الإسلامية ولصالح مصر .

وعن طريقى تقدمت بعض الجامعات وقت زيارتى إياها أو بعد عودتى مباشرة تطلب منى أن أدلها على بعض العلماء ممن يجيدون اللغة الأجنبية ، ولهم دراسات علمية حديثة فى الثقافة الاسلامية .

فلو أن لمصر ـ عن طريق الأزهر أو غيره من الجامعات ـ سياسة ثقافية خارجية مرسومة لاستطاعت ـ كما استطاع اليهود مثلا هناك ـ أن تساهم فى عرض الثقافة الاسلامية بالجامعات الأمريكية عرضاً صحيحاً تفيد منه ، ويفيد منه العلم كذلك .

٣ - الإسلام بين المسلمين المقيمين فى الولايات المتحدة :

الغالبية العظمى من المسلمين فى الولايات الأمريكية المتحدة من المهاجرين العرب من سوريا وفلسطين وشرق الأردن ولبنان .

وهؤلاء يعيشون فى ولايات : أيوه - ميتشجن (ديترويت) - أوهايو - شيكاغو - نيوچرسى - فيلاديلفيا - نيو مكسيكو - كولورادو - تيكساس - وفى مدن : سيوسيتى - سان پول - ميتشجان سيتى - نيويورك سيتى - لوس أنجلس . وفى هذه المدينة الأخيرة وفى ولاية كاليفورنيا على العموم ، ينتسب المسلمون هناك إلى بلاد الشرق الأقصى كإندونيسيا والملايو ، أو الشرق الأوسط كبلاد الهند والباكستان .

وقد زرت أكثر هذه الجاليات الإسلامية وعشت فى جماعتهم فترة من الوقت . وقد سهل لى هذه الزيارة وعاونى على الاتصال بالمجموعات الإسلامية فى الولايات المتحدة عامة « معهد دراسات الشرق الأوسط » بواشنطن أيضا وهو مشكور لذلك .

يعيش هؤلاء المسلمون كتجار أو كعمال صناعيين . وقليل منهم من ينتسب إلى بيئة الفن أو العلم ، لأنهم هاجروا من أجل الكسب المادى ، وبينهم عدد غير قليل من الأميين أو أنصاف المثقفين .

وأكبر جالية عربية إسلامية تسكن مدينة ديترويت فى ولاية ميتشجن . فربما يصل عددها إلى ما فوق العشرة الآلاف ، ولها فى هذه المدينة ثلاثة مساجد : واحد للجالية الألبانيـــة ، وآخر للمسلمين العرب من السنيين ، والثالث للشيعة من الإيرانيين والعراقيين .

والذى لاحظته بين الجاليات الإسلامية عامة قلة تمكنهم من اللغة العربية ، مع أن معظمهم من العرب ، وضآلة حظهم من الثقافة الإسلامية إلى درجة أنهم لا يعرفون السنة الصحيحة فى تغسيل الموتى والصلاة عليهم ، وتشييع جنازتهم ، ثم جهل ناشئتهم ذكوراً وإناثا جهلا مطبقاً بتعاليم الإسلام وباللغة العربية . ولأنهم يجهلون الإسلام ، يخفُون بين زملائهم أو زميلاتهم فى الدراسة أو المصنع أنهم مسلمون ، كما أنهم يطلقون على أنفسهم فى خارج المنزل أسماء تعتبر مسيحية ، على

أن ينادوا بأسمائهم الإسلامية فى منازلهم بين أهليهم فقط : فسعيد يسمى بـ « چون » وفارس يطلق عليه « ألبير » وحسين ينادى بـ « سام » وشريفة تسمى « نيف » ... وهكذا .

وهذا التبديل فى الأسماء إن دل على شىء فإنما يدل على ضعف الشخصية - وهى الشخصية الإسلامية هنا - وعلى تمكن مركب النقص فى نفوس هؤلاء المغيّرين .

ومع جهل الناشئة بالاسلام وباللغة العربية ، يلاحظ الزائر رغبة دفينة فى نفوس هذه الناشئة : وهى أن تبقى مسلمة . ولكن كيف ، وأنّى لها أن تصبح مسلمة فى حقيقة الأمر . ثم تحرص على أن تبقى مسلمة ؟ . لاحظت ذلك فى اجتماعين كبيرين : أحدهما فى ديترويت ، والآخر فى سوسيتى . وكانت هذه الرغبة الدفينة تتجلى بين الإناث أكثر منها عند الذكور .

وإذا كان جهل الناشئة هناك بالاسلام أوحى اليها بتغيير الأسماء ، فإنه أيضا دفعها إلى الزواج بغير المسلم من المسيحيين واليهود . وتقلص بالتدريج لهذا عدد المسلمين المهاجرين إلى الولايات المتحدة . وحُكى إلىّ من بعض المسلمين فى « سانت پول » وفى غير هذه المدينة أن عدد المسلمين الذين استوطنوا أمريكا من البلاد العربية ، والبلاد الاسلامية الأخرى فى الشرق الأدنى والأوسط ، كان قبل خمسين سنة مضت ، يقرب من المائة والخمسين ألفا ، وأصبح الآن لا يتجاوز الخمسين ألفا .

وربما كان ذلك يطابق الواقع : لأن الجيل الأول وهو جيل المهاجرين قل عدده بالموت ، والأجيال الناشئة عنه تقلص عددها بالفناء الأدبى واضمحلال عوامل البقاء المميزة لهم وهى إسلامهم ولغتهم وعاداتهم الأصيلة .

وكما تبدو عند هؤلاء المسلمين النازحين الرغبة فى تعرف الاسلام ، يدرك زائرهم من أحاديثهم صلتهم الوطيدة بوطنهم الأصلى ، رغم أن القانون الأمريكى يعتبرهم أمريكيين ، وقد يعبرون عن وطنهم بالإسلام ، وقد يحملون الاسلام الشعار المميز لهم .

ولهذا التعلق بالوطن وبالاسلام يعلن زعماؤهم ورجال الأعمال منهم عن كبير استعدادهم المادى وحمايتهم الأدبية لمن يأتى إليهم من علماء الأزهر خاصة

يفقه أولادهم فى الدين ويعلمهم العربية . ومنطقهم فى ذلك - كما شرحه غير واحد منهم - أنهم حضروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية للإثراء ، ولكنهم بعد أن أثروا وجدوا أنهم فقدوا ثروتهم الحقيقية وهى تنشئة أولادهم تنشئة إسلامية ، وأن ثراءهم المادى لا يقيهم من آلامهم النفسية عند ما يرون بناتهم تتزوج مسيحيين أو يهود ، وتساهم فى إفناء عنصرهم وشخصيتهم هناك ، وهى الشخصية الإسلامية .

وقد حدثنى فى مدينة سوسيتى أب لأربع بنات وابن واحد بأنه أخذ يصفى متجره - مع ربحه الطائل - منذ العام الماضى على أن يعود إلى دمشق هرباً من المصير المنتظر لهؤلاء البنات والابن . وهذا الأب من الشخصيات الاسلامية المحترمة فى المجتمع الأمريكى هناك ، كما لاحظت فى الاجتماع الذى أعده احتفاء بنا أن كان من شهود هذا الاجتماع رئيس الولاية وعمدة المدينة والممثلون الولاية فى الكونجرس الأمريكى بواشنطن ، عدا كبار رجال التعليم ورجال المال والتجارة .

إن هذا الوالد ذكر لى : إنه كان على استعداد تام لأن يرسل بجميع أولاده إلى واشنطن فى أشهر الصيف لتعلم الدين واللغة العربية فى المركز الثقافى الاسلامى هناك ، وذكر لى مثلَ هذا الرأى مالىٌّ إيرانى كبير يعيش فى لوس أنجلس بكاليفورنيا وآخرون فى شيكاغو ، وسيدارابس فى ولاية أيوه . لو أن المركز هيأ لهم مثل هذه الدراسة .

٤ — الاسلام بين الملونين فى الولايات المتحدة الأمريكية :

لو انتقلنا مما لاحظناه على حال المسلمين المهاجرين هناك من الرغبة الشديدة فى تعلم الإسلام مع عدم استطاعتهم تحقيق هذه الرغبة - إلى حال الأمريكان الملونين لوجدنا أن رغبة هؤلاء فى اعتناق الاسلام وفهم مبادئه لا تقل عن رغبة أولئك ، ولوجدنا السبب عند هؤلاء يشبه السبب عند أولئك ، وإن اختلف تعبير الطرفين عنه .

هذا السبب هو « حفظ البقاء » والكفاح ضد الفناء الأدبى : زرت المسلمين الملونين فى نيويورك ، وفى كليفلند ، ورأيت بعد ذلك الملونين فى الولايات الوسطى والجنوبية ، رأيتهم فى أطلانتا وفى جورجيا وفلوريدا وتكساس ، واستطعت

أن أفهم : لماذا يقبل الملونون على اعتناق الإسلام ؟. إن الملونين لا يثقون فى الكنيسة ، ولا يرون فى المسيحية أنها دين الحياة . لأن أى دين يبغى أن يسيطر على التوجيه فى الحياة يجب أن يكون متضمنا للمبادىء الإنسانية الطبيعة التى يقوم عليها السير الطبيعى للحياة .

كثير من الملونين فى أمريكا ـ وبالأخص فى الولايات الوسطى والجنوبية ـ يعامل من بقية الأمريكان البيض معاملة الإنسان صاحب الدرجة الثانية . وهذه المعاملة ترجمت فى تشريعات هذه الولايات وقوانينها . والمظهر الدال عليها هو « الفصل » بين البيض والسود فى الحياة العملية ، والفرق فى العقوبة بين النوعين فى قوانين المخالفات والجنح والجنايات .

المطعم فى محطات السكك الحديدية يقسم إلى قسمين ، ودورات المياه العامة بها تقسم إلى قسمين ، وقطارات السكك الحديدية وعربات النقل المشترك تقسم إلى قسمين ، وكثير من الفنادق لايسمح بدخول الملونين كنزلاء فيها . ويخصص فى التعليم فى مراحله المتعددة بعض المدارس للملونين . وللملونين جامعة خاصة فى ضواحى واشنطن ، ولكنها من أحدث الجامعات الأمريكية نظاما ومنهجاً وأسلوباً فى التربية .

هذا الفصل فى الحياة العملية ، وهذه التفرقة القانونية فى العقوبات أوحيا الملونين بالشك فى الكنيسة كهيئة مشرفة على التهذيب الروحى . لأن التهذيب الروحى لا يفاضل بين إنسان وآخر ، وبالشك فى صلاحية المسيحية للحياة ، لأن الصالح للحياة يجب أن يكون له طابع المبادىء العامة ، وفى صلاحيتها كدين لأنها لم تنل من نفوس معتنقيها فى السلوك والمعاملة ما يدل على أنها عقيدة تستوجب تصرفات خاصة ، ونمطا معينا فى المعاملة .

وإذ شكوا فى الكنيسة وقيمة المسيحية ، لم يؤمنوا كذلك بالأديان السلبية كالبوذية . لأن الحياة الأمريكية تعتبر النموذج العملى للحياة الإيجابية ، وهم خاضعون لقوانين الإيجابية فيها ، ووجدوا فى الإسلام العقيدة الدينية التى تجمع بين دعوة

المساواة فى المعاملة ، والدعوة إلى العمل الإيجابى فى الحياة ، وكان الإسلام فى نظارهم مركز التوفيق بين شعورهم النفسى الداخلى ، وما تفرضه سنة الحياة الأمريكية من وجوب السعى فيها والانتاج المثمر المستمر .

يحدثنى أحد الملونين فى كليفلاند وهو إمام الجالية الإسلامية الملونة فيها : أنه لا يجد عناء فى إقناع الملونين بالإسلام رغم أن معرفته بالإسلام قليلة ، وقد أخذه عن أحد أصوله من الصوماليين ، ويبدى أن السبب فى يسر إقناع الملونين بالإسلام بساطته فى تأدية أنواع العبادة ، وفى صلة الانسان بخالقه ، وفى تسويته فى الحقوق والواجبات بين الناس جميعاً ، وفى دفعه الناس إلى العمل ، وفى عدم وجود سلطة دينية فيه قد يساء استعمالها وقد يَتَّجر بها القائمون عليها ، ويستطرد فى حديثه فيذكر من العقبات عدم تفقهه فى الدين التفقه الكافى حتى يستطيع محاجة المبشرين الذين يشككون المسلمين من فريقه فى الاسلام وقيمته ويضللونهم بقصص بعيدة عن الواقع وعن هدف الرسالة الاسلامية . وذكر لى بعض هذه القصص ، فذكر « الحريم والجوارى » وحث الاسلام على « العرى » كما يصور الحج ، وتحريم الاستمتاع بمظاهر الحضارة الحديثة كركوب السيارات والاستماع إلى الراديو والتيلفيزيون ، على نحو مايحكى هناك عن المملكة العربية السعودية . . . وغير ذلك مما يعتمد فيه المبشرون على قول غير متفقه ، أو على ظاهرة فى جماعة إسلامية معاصرة أو شرح عبارة على غير وجهها الصحيح .

وعرفت من المسلمين الملونين فى نيويورك أن طريقهم إلى معرفة الاسلام هى أقوال المهاجرين العرب الذين يشاركونهم العمل فى المصنع أو الخدمة فى المطاعم والفنادق ، أو الذين يتصلون بهم فى الأعمال التجارية الصغيرة .

ولما أرشدتهم إلى ترجمة « معانى القرآن العظيم » لمحمد بكتال (انجليزى أسلم) المطبوعة فى نيويورك ، أجابونى كما أجابنى غيرهم من المسلمين العرب فى مدن أخرى أنهم سمعوا : أن شيخ الاسلام فى القاهرة يحرم الترجمة .

وأعتقد أن شيخ الأزهر الحالى لو عرف حال المسلمين فى الخارج ، وعرف

أن هناك ٢٨ ترجمة للقرآن الكريم من اللغة اليابانية إلى اللغة الانجليزية - كما رأيتها فى مكتبة كليفلاند - وأن معظم هذه الترجمات تنطوى على أخطاء جسيمة فى تصوير رسالة الاسلام أو تصوير حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنها منتشرة بين المسلمين الأجانب . أعتقد أنه لو عرف ذلك لما أدلى بما ذكره فى حديثه إلى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٥٤/٢/١٤ إجابة عن أهمية ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الحية : من قوله : « إنى أرى أنه من الخير لنا ولمن نريد أن ندعوهم إلى الاسلام أن نترجم لهم مبادىء الإسلام وأحكامه فى رسالة موجزة ، ولنبادر إلى إقرار مثل هذه الترجمة التى تعد أصح وأوضح ترجمة لمعانى القرآن الكريم باللغة الانجليزية .

٥ — الاسلام فى المركز الثقافى الاسلامى بواشنطون :

هذه هى حال المسلمين المهاجرين والملونين فى الولايات المتحدة الأمريكية . وقبل ذلك وقفنا على حال الاسلام وعلى الصورة التى يُعرض فيها بالجامعات الأمريكية ، وبخاصة فى المعاهد القائمة على شئون الدراسات الاسلامية بينها .

المركز الثقافى الاسلامى بواشنطن عبارة عن مسجد لم يكتمل بناؤه بعد ، وإن اكتملت مئذنته ، كما لم يكتمل الجناحان الملحقان به فى رسمه .

وتحت هذا المسجد طابق أرضى اتخذ منه الآن صالة للمحاضرات ولإقامة الصلاة فى المناسبات الدينية . وفى زاوية من هذه الصالة أقيم جداران يفتح فى أحدهما باب لتكوين حجرة خصصت لمدير هذا المركز وإمام مسجده . وهو من الزملاء الأفاضل الذين درسوا فى لندن بعد الأزهر الشريف ، وأوفد فى بعثة واحدة مع شيخ الأزهر الحالى : هذا إلى باريس وذاك إلى لندن ، وهى بعثة فؤاد الأول التى أرسلها الأزهر فى سنة ١٩٢٥ ، بعد ما أرسل مجلس مديرية البحيرة بعثة تخليد ذكرى الإمام الشيخ محمد عبده فى سنة ١٩٣١ . التى أتشرف بالانتساب إليها .

موقع بناء المركز من أحسن المواقع فى عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية . وارتفاع مئذنة الجامع يُرى من بعيد ، ويدل الناظر على مظهر إسلامى واضح .

ولكن عند ما يزوره الزائر يدرك أن عدم إتمام بناء هذا المركز ومسجده يشبه إلى حد كبير خيبة الأمل فى إنقاذ فلسطين : فمن أجل المركز الثقافى الاسلامى اشترك فى تنفيذه جميع حكومات البلاد الاسلامية حتى تركيا ، ومع ذلك لم يتم ، وفى حرب فلسطين اشتركت جميع حكومات البلاد العربية ، ومع ذلك لم تنقذ فلسطين .

وهذا المظهر فى عدم إتمام المركز الثقافى بواشنطن يدل مرة أخرى على أن تكتل المسلمين إن اتجه إلى الإرهاب لا يرهب ، وإن اتجه إلى الانتاج والإثمار لا ينتج ولا يثمر .

الدكتور محمود حب الله يعيش فى هذا البناء وحده ، يدرك كما أدرك أنا ، أنه كان يمكن أن يكون لهذا المركز نشاط أكاديمى فى الاتصال بالجامعات الأمريكية ومعاهد الدراسات الاسلامية فيها : يكون حلقة الاتصال بينها وبين علماء البلاد الاسلامية إذا مارغبت إحدى هذه الجامعات فى استقدام عالم أو أكثر من العلماء المشتغلين بالدراسات الأجنبية ، يكون المعقب والناقد لما تخرجه هذه الجامعات من كتب عن الثقافة الاسلامية .

وكان يمكن أن يكون لهذا المركز نشاط تعليمى إسلامى وعربى لأبناء المسلمين إما عن طريق المدارس المتنقلة ، أو عن طريق فصل دراسى وقت عطلة المدارس الأمريكية يقام فى المركز نفسه لأبناء المسلمين فى أنحاء الولايات المتحدة .

وكان يمكن أن يكون لهذا المركز نشاط توجيهى لطلاب البعثات الحكوميين وغير الحكوميين من العرب وغيرهم من المسلمين ممن يفدون على الولايات المتحدة - يتعلق بالثقافة الإسلامية وبآراء الإسلام فى الحياة ، والحضارة ، والأسرة ، والمجتمع ، والعلاقات الخارجية . وغير ذلك من الموضوعات التى يتعلق بها الطالب الأمريكى ، والمجتمع الأمريكى ، والتى كان توضيحها يخلق جواً لمصر والبلاد الإسلامية فى هذه الولايات ، لا تستطيع الدبلوماسية للدول الإسلامية هناك أن تكونه .

كنت أفهم أن مصر يمكنها عن طريق المركز الثقافى الإسلامى بواشنطن أن تلغى وظيفة الملحق الثقافى بالسفارة المصرية ، ووظيفة مدير إدارة البعثة المصرية من الطلاب فى السفارة المصرية أيضاً ، حتى يتركز التوجيه فى إشراف واحد ،

وحتى يمكن أن يكون للدبلوماسية المصرية فى أمريكا اتجاه محدد واضح هو كسب جانب كبير من الرأى العام الأمريكى سواء فى الجامعة أو المصنع أو الحياة العامة لمصر والبلاد الاسلامية .

المركز الثقافى الاسلامى فى واشنطن كما أفهمه ليس داراً للتبشير، وإنما هو معهد لتيسير أمر المسلمين عليهم فيما يعتقدونه ويؤمنون به ، ولتوضيح التعاليم الاسلامية وأنها كفيلة ببناء مجتمع قوى فى خلقه وفى توجيهه ، وفى إفادته من الحياة وفى نفعه للحياة والمجتمع البشرى كله ، وأنها كفيلة بدعم صلاة الأخوة فى الانسانية بين الشعوب ، وأنها تهدف فى النهاية إلى طمأنينة الناس ، وتأمينهم من الخوف فى جميع مظاهره .

وهذه الرسالة يؤديها المركز الثقافى ، لا الملحق الثقافى ، ولا مدير البعثة التعليمية المصرية .

هذا ما أدركه فى وظيفة المركز الثقافى بواشنطن ، وإن خالفنى فيما أدركه شيخ الأزهر الحالى كما جاء فى حديثه فى أهرام ١٤/٥/١٩٥٤ من أن الفائدة التى تحصل من هذا المركز ومن المركز الآخر فى لندن لا تساوى عشرة جنيهات ، رغم أنه يصرف عليهما عشرة آلاف من الجنيهات .

ولكن ماذا يصنع مدير المركز الاسلامى فى واشنطن ، وليس لممثلى الحكومات الاسلامية هناك أى عون مادى أو أدبى ؟ ماذا يصنع وهو وحده وعمل المركز - كما ينبغى - يتطلب عدداً من العلماء الباحثين والمعلمين والموجهين ؟ ويتطلب مالا للإنفاق على البحث والنشر والاتصال ؟

٦ — الأزهر ورسالته فى الخارج :

إن الحديث عن « الاسلام فى أمريكا » أو عن الاسلام فى أى بلد خارجى يدفع صاحب الحديث وسامعه إلى الأزهر . إذ أصبح هناك تلازم فى عصرنا الحاضر بين الأزهر وأداء رسالة الاسلام . وليس هذا التلازم فى ذهنى لأنى أزهرى ، ولكنه أيضاً فى أذهان الأجانب ديناً أو بلداً . مازرت جامعة إلا وسئلت عن الأزهر ، وما زرت مجتمعاً إسلامياً إلا وأبديت رغبة أو رغبات فى تقديمها للأزهر ، وما زرت مكتبة من المكتبات الجامعية أو العامة فى أمريكا ، إلا طلب

إلى تبادل الكتب والمجلات العلمية ، ومقالات العلماء الأزهريين . وما حضرت جلسة من جلسات المؤتمر الاسلامى فى جامعة برينستون إلا ونظر إلىّ على أنى المقدم من علماء البلاد الاسلامية لأنى أزهرى النشأة والثقافة .

الأزهر الذى يعيش فى رمال المقطم الآن ، ويعيش أبناؤه فى قبور الأحياء وبالقرب من مساكن الأموات مصدر فخار ومجد لمصر فى الخارج .

الأزهر الذى أصبحت كلياته الثلاث معهداً لتخريج المدرس العربى فى مدارس وزارة المعارف ، يعرف عنه الأمريكيون والأوربيون أنه الجامعة الاسلامية الوحيدة التى حفظت التراث الاسلامى قرابة ألف عام ، والتى ساهمت فى الحركات الاسلامية وبالتالى فى الحركات القومية فى الشرق الاسلامى .

لمصلحة مصر أولا ، ولمصلحة العالم الاسلامى ثانياً : يجب أن يعمل أولوا الأمر فينا على أن يؤدى الأزهر رسالته كجامعة وكمركز دولى للإسلام ولرسالته .

إن مصر فى سياستها الخارجية الواقعية فى حاجة ماسة إلى كسب شعور المسلمين فى الخارج ، وفى حاجة ماسة إلى توضيح مصر الاسلامية بين غير المسلمين فى البلاد الأخرى . والأزهر وحده لا غيره . هو الكفيل بالمساهمة الفعالة فى تحقيق نصيب كبير من السياسة الخارجية لمصر .

لمصر أن تعرض من التحف القديمة ما تشاء فى أوربا وأمريكا ، وأن تعرض من صور المنشآت الحديثة فى القاهرة والاسكندرية وعلى النيل ما تشاء فى أوربا وأمريكا ، وللمصريين أن يتزيوا نساءً ورجالا بزى الأوربيين والأمريكيين . ولكن الأوربيين والأمريكيين لا يفهمون المصريين والمصريات على حقيقتهم إلا إذا زال من تصوراتهم تلك الصور المشينة البغيضة عن الاسلام التى رسمها الاستعمار فى الشرق الاسلامى منذ أجيال طويلة .

الاستعمار الذى نحاربه حارب الأزهر والثقافة الاسلامية ونال منهما فى فترات متعددة . واليوم الذى يجثو الأزهر فيه على قدميه ـ لا قدر الله ـ هو اليوم الذى ينقطع فيه الشرق الاسلامى عن ماضيه الثقافى ، وهو اليوم الذى يفقد فيه هذا الشرق أخص مقوماته ، وهو اليوم الذى تفقد فيه مصر مصدر القوة الروحية فيها .

لكن قال شيخي

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوى
الأستاذ فى كلية اللغة العربية

حان لنا أن نعمد إلى ما خطه قلم النبه اليلمعى فى حكمه على (الأخين) فى قول عَقيل بن علفة المرى :

وكان بنو فزارة شر عم   وكنت لهم كشر بنى الأخينا

أنه (الأخ) ولم تحدث فيه زيادة الياء المتولدة عن الكسرة المشبعة والنون المجلوبة بعدها معنى جديداً ، فما زال مفرداً ، وما هى إلا زيادة لفظا ملغاة معنى .

وهذا الاستعمال ليس ببدع اختص به الأخين فى البيت ، فهو معهود فى اللسان العربى ، وطريقة مسلوكة فى الفصحى : شعرها ونثرها ، مما جاء على نهجه ووفاقه فيما اعتمد عليه من شواهد .

وإزاء هذا البيان قسمت حديثى معك اليوم قسمين : الأول فى مدلول (الأخين) ـ والثانى فى التعليق على النظير والمثيل مما استند إليه فى الاعتزاز بصحة حكمه .

أما حقيقة الأخين فغير حقيقة الأخ ، فإن الأخين جمع مذكر سالم ، وفيما أسلفت من شواهد ناطقة بجمعيتها مقنعٌ أىّ مقنع فى المقال الأول(١) .

وأبدأت وأعدت القول عن جمعيتها ، وأنها صارت بينهم سلفا فى العصور الأولى للتدوين مثالا يحتذى للبناء على نمطها فى باب التمرين عند الصرفيين ، كما حدث بين الفراء وسيبويه فى المقال الثالث (٢) .

---

(١) راجع العدد الثالث من السنة الخامسة لمجلة رسالة الإسلام .

(٢) راجع العدد الأول من السنة السادسة للمجلة .

وأما التعليق على النظائر والمسوغات التى دعم بها رأيه فى حسبانه (الأخين) مفردا ، فكما تعهدت لك أمس الدابر ، سنتناولها موحدّ لأن الكلام على كل مسوغ باعتباره وحدة كافية فى الاستدلال أجدى فى الفائدة وأجزل فى العائدة ، فهات أولها .

قلت : هذا حقا منهج تربوى تهفو نفسى إليه ، لأنه وسيلة الإيضاح فى تثبيت المعلومات .

أشيخى - أول هذه المسوغات أن اللغة لرحابة جوها وانفساح ساحها أباحت فى الاختيار - وهو مئنة الانصياع لتعاليمها ، وعدم الحيود عن سننها ، ولا سيما (آيات الكتاب الكريم) - ما هو أبعد من (الأخينا) فى البيت ، فقد ورد فى المحكم فى سورة الصافات : « سلام على إلياسين » فى ختام قصة إلياس عليه الصلاة والسلام المبدوءة بقوله عز من قائل : « وإن إلياس لمن المرسلين » والمحدث عنه فى القصة واحد هو الرسول إلياس .

على أننا إذا وازنا بين الأخ الذى استحال فى البيت (الأخين) وبين إلياس الذى تحول فى نهاية القصة القرآنية (إلياسين) رأينا البون شاسعاً ، ففى الأخ أشبعت الكسرة الأصلية للإضافة فنشأت الياء وردفتها النون ، ثم ألف إطلاق الشعر ، وأما إلياس فقد عمد فيه إلى إزالة الفتحة الأصلية وجيء مكانها وبدلها بالكسرة ، وجرى على هذه الكسرة الطارئة ما يجرى على الأصلية فأشبعت هذه الكسرة العارضة فتولدت الياء ثم ذيلت بالنون ، فالكسرة المحدثة للياء فى الأخ أصلية ، وفى إلياس مجلوبة لتساير كسرة الأخ حتى يلتقى اللفظان : الأخين وإلياسين فى النهاية على سمت واحد وهو معنى المفرد الذى دلا عليه قبل عروض الزيادة .

فكيف بعدئذ يحوم الشك ويجرى فى الوهم التفرقة فى المعنى بين الأخ والأخين ؟ وخصوصاً فى الشعر مع الاتحاد بين إلياس وإلياسين ، كما تنطق به الآى الشريفة .

فمن ناحيتين لامندوحة من التسليم فى تفرع الأخين من الأخ : أصالة الكسرة والضرورة ، والضرورات تبيح المحظورات .

وهذا توجيه تغلغل تأثيره فى ذهنى ، وأرانى مأخوذاً بالإذعان له لوجاهته وبدوّ قياسه الأولوى .

قال ـ على رسلك ، فرب عجلة تهب ريثا ، لقد عرضت أول دليل يستنتج منه مطاوعة اللغة فى زيادتى الأخين على الأخ ، ألا وهو القياس على إلياسين فى إلياس ؛ وهذا لعمرى فى القياس بديع .

إن المقيس عليه دائماً يكون مسلم الحكم ليتجه إليه القائس فى حمل غيره عليه مما خفى حكمه للمناسبة الجامعة بينهما ، ولا أعرف فى الكلمات الدائرة فى الأساليب العربية إحلال كسرة محل فتحة فى (الاختيار) ثم التعويل عليها ومدها لتولد ياء الإشباع منها كما فى (إلياسين) .

أيصح بعدئذ أن نعتبر هذا العمل الذى لا عهد لنا به أصلا لنجاريه ونحمل عليه غيره مما فيه الكسرة أصلية ومع ذلك فى (النظم) ؟ .

ولو عُكست القضية وعُد العمل المظنون فى إلياسين مستنداً إلى مسايرته للأخين على أى ملاحظة دارت فى الخلد ، لكان ذلك فى ميدان النقاش محتملا ، وإن أباه واقعية الأمر لأول وهلة

منشأ هذا المبحث :

إن منشأ كل ما سلف من هذا الحديث الطويل الذى كثر فيه الأخذ والرد ، والافتراض والنقض : هو الزعم أن الفتحة فى إلياس حارت كسرة تولدت عنها الياء فزيدت بعدها نون ، وتمخض عن ذلك : إلياسين ، وأن هذا العمل مسنون متبع فى العربية ، فلا نكران على الأخ أن يؤول إلى الأخين .

وسترى قريباً أن ذلك لم يخطر على بال لرحالاتها ، وإنما كان حديثهم يدور عنها فى اتجاه آخر هو : هل إلياسين لغة أخرى فى إلياس دون نظر إلى أبتنائها عليها ؟ ذاك رأى كثيرين ، لأن القليل جنح إلى جعلها جمعاً لإلياس .

وفيما يأتى قريباً التفصيل عن بينة للقولين مع الموازنة بينهما .

والمقصود أولا وآخراً الإنكار على جعلها مفرعة عن إلياس بوساطة الإتيان بكسرة بدل الفتحة .. إلخ ما مضى .

ذلك هو مثار هذا الحديث المسهب الذى يبدو لى بعده أن اتجه اتجاها آخر اختصر فيه الطريق ، فأنظر إلى أساس الموضوع ، إذ أنه طال حبل ، الدلو والمستقى قريب من يد المتناول ، لأن المسلك السابق مبنى على التسليم ، والجواب بالمنع أولى وأقرب .

ذلك أنه لا صلة بين الأخين وإلياسين ، فالأولى عربية والثانية عجمية ، ففى اللسان مادة (ألس) : وإلياس اسم أعجمى ، و(ليس) : وإلياس اسم قال ابن سيده أراه عبرانياً ، وفى القاموس (ألس) : إلياس علم أعجمى ، وفى الإتقان للسيوطى : وإلياس بهمزة قطع اسم عبرانى .

فلا مراء أنهما متباينان منبتاً ولا يتماثلان استعمالا .

إن العربية لا ترنو إلى العجمية ، لأنها ليست من فصيلتها ، والعربى القُح لا يومض للهرزية ومن يحاكيها من العجماوات ، وقد دهش من استلاب فؤاده وهيّج شوقه عند هديل الحمام مع عجمته ، حُميد بن ثَور الهلالى :

وما هاج هذا الشوقَ إلا حمامةٌ دعت ساق ُحر فى حمام ترنما
عجبت لها أنّى يكون غناؤها فصيحاً ولم تفغَر بمنطقها فما
فلم أر مثلى شاقه صوت مثلها ولا عربياً شاقه صوت أعجما (١)

حرىٌّ أن يذهب ما تمكن من قلبك ياصفىّ ، بل لا يبقى رسيسه فى خلدك ، بعد ما اهتديت إلى الحق ، وأن الأخين جمع مذكر سالم لأخ بفضل علامتى الجمع المعتبرتين لا الملغاتين ، وهى عربية ، وأن إلياسين مفرد على أنه لغة أخرى

(١) ساق حر : ذكر القمارى أو لحن الحمامة ، وترنما : صوت بما لايفهم ، وتفغر : تفتح ، والأبيات من قصيدة بلغت تسعة عشر بيتا بعد المائة . راجع ديوان حميد طبع دار الكتب .

أو جمع مذكر سالم بالعلامتين المعروفتين أعجمية ، والالتفات إليها لا يجدى فى اعتبار الأخيرين مفرداً ، مزيداً فيه للضرورة .

لقد لبثنا طويلا فى الحديث العلمى ، واستدامةُ التفكير فيه مَجْهِدة للذهن ، وقد قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة ، فيجمل أن يتخلل المجلس ما يستريح به القلب ، وتستجم به النفس ، حتى يعود لها نشاطها ، وفى ثنايا الأدب العربى طرائف نتفكه بواحدة منها . وما ألطف أن تشابه ما نحن فيه ، وتدور حول نقد يعود على ملاحظة مناطها عدم اتساق أو انسجام أو اتصال أو تقارب فيما قيل فى أى شأن من الشؤون ، والشىء بالشىء يذكر ، فقد حضرنى ملحة :

ملحـــة :

روى الأصبهانى فى الأغانى بعده سنده : (حدثنى بعض أصحابنا عن أبى نواس أنه قال شاعران قالا بيتين : وضعا التشبيه فيهما فى غير موضعه ، فلو أخذ البيت الثانى من شعر أحدهما فجعل مع بيت الآخر ، وأخذ بيت ذاك ، فجعل مع هذا لصار متفقاً معنى وتشبيها ، فقلت له أنّى ذلك ؟ فقال : قول الفرزدق لجرير :

فإنك إذ تهجو تميما وترتشى ... تَبابين قيس أو سُحوقَ العَمائم
كمهريق ماءٍ بالفلاة وغره ... سراب أذاعته رياح السمائم(١)

وقول ابن هَرْمة :

وإنى وتركى ندَى الأكرمين ... وقدحى بكفىَّ زَنداً شَحَاحا
كتاركة بيضها بالعراء ... وملبسة بيض أخرى جناحا (٢)

(١) تبابين : جمع تبان وهو سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط يكون للملاحين . والسحوق : جمع سحق وهو الخلق البالى ، وإضافته إلى العمائم من إضافة الصفة إلى الموصوف ، وفيه التأويل المعروف عند النحاة فى قول العربى سحق عمامة . والسمائم : جمع سموم وهى الريح الحارة .

(٢) زند شحاح : لا يورى . والعراء : الفضاء لا ستر به .

فلو قال الفرزدق :

فإنك إذ تهجو تميما وترتشى تبابين قيس أو سحوق العمائم
كتاركة بيضهـــا بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحا

لكان أشبه منه ببيته ، ولو قال ابن هرمة مع بيته .

وإنى وتركى ندى الأكرمين وقدحى بكفى زندا شحاحا
كمهريق ماء بالفلاة وغره سراب أذاعته رياح السمائم

كان أشبه به) (١)

نقد الحاذق الحكمىّ الشاعرين فى تشبيههما لعدم الاستحكام فى التجانس بين المشبه والمشبه به عندهما ، ذلك أن الفرزدق يوبخ جريراً على ذمه قبيلته مع ارتشائه قيساً فلا يناسبه أن يكون كمريق الماء المخدوع بالسراب ، وأن ابراهيم ابن هرمة يؤنب نفسه على صدوفه عن الكرماء وطموحه إلى الأشحاء ، فلا يحاكى التاركة بيضها بالفلاة المحتضنة بيض غيرها . ثم استحسن التقارض بينهما فى المشبه به ، حتى يستقيم لهما تشبيهاهما . وإنه لحق لا وهم فيه .

إن تمنى الحكمى فى التعاكس بين التشبيهين قمن بالتقدير .

قلت : إنها لملحة ، فيها للروح متعة ، لأن النقد فيها من طراز يعز مثله ، فعهدى بالنقد أن يثرب الناقد على الشاعر مستحسنا أنه لو قدم ، أو بدل ، أو حذف ، أو تأمل ، إلى آخر ما يعن له ، أما أن يهجنه مع شاعر آخر ، ثم يرأب ما أثأت غفلتهما باستعارة صنيع الأول للثانى والثانى للأول ، فذاك ما لم اسمع به من قبل ، ولكن ابن هانىء باقعة يقع على ما لم يبصره غيره .

بقى لى بعد هذا استفهام فى هذا النقد عن أمر لا يتعلق بجوهر الموضوع ، إنما يتعلق بقائل البيتين الأولين ، من هو؟ فبين أيدينا الأغانى وقد نسب فيه البيتين الأولين لجرير على لسان أبى نواس مرتين : فى النقد وفى التمنى لتلافيه مع أنك

(١) الأغانى أخبار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ص ٤١ ــ ٤٢ حـ ٩ طبع الدار .

نسبتهما للفرزدق فيهما - والارتباط بين الشعر وقائله وثيق ، لأنه من أقوى العوامل المعينة على فهم الشعر والإحاطة بما يرمى إليه . فهل ما فى الأغانى خطأ ؟ .

ما فى الأغانى خطأ :

قال : ما فى الأغانى خطأ ما فى ذلك من شك ، ومنار السالك لليقين يرشد إليه أمران : الأول نزعة كل من الشاعرين فى اتجاهاته مدحاً وهجاء طوعا لوضعه الطبعى ، الثانى رواية القصيدة التى منها هذان البيتان ، فيم ومتى ولم قيلت ؟

الأول : يلتقى الشاعران نسبا فى حنظلة الذى ينتهى نسبه إلى تميم ، فإذا نبز أحدهما الآخر من ناحية الأجداد متعرضاً لمثالبهم منقبا عن سوءاتهم لا يتجاوز حنظلة بجمعهما ، فمن فوقه من باب أولى إلى تميم فمن علاه إلى إلياس بن مضر ، ويفترقان فى خؤولتهما ، فخؤولة جرير تجتمع مع عمومته فى كليب بن يربوع ، وخؤولة الفرزدق فى بنى ضبة ، فكان تهارشهما وملاحاتهما فى خؤولتهما ، وفى الآباء إلى حنظلة فيما واتاهما الشعر المسف والهجاء المقذع .

ولقد خلف هذا التهارش ثروة ضخمة فى الأدب العربى ، استبقت له أحداثه الجلى ، محيطة بالتعريف عنها زماناً ومكاناً وسبباً ، كما حافظت على أعلام الأناسى والأيام والأماكن فى سجلها ، ولولاها لعراها المسخ والتغيير والتحريف .

ولذا فإن الأدباء جد حريصين على النقائض بين جرير والفرزدق كنز أدب ونقد وتاريخ .

أرث التنافس فى الحظوة المادية والأدبية نار الملاحاة والتهاجى بين الشاعرين ومن ورائهما عشائرهما تغريهما بكل حافز حتى ألقيا بأنفسهما فى تنور الاضطراب الذى أقض مضاجعهما فلم يألوا جهداً فى السباب ، وكان الغلب بينهما سجالا .

كان جرير يعوزه المال ، فلم يجد بداً أن يشيم كل برق يعقبه المطر الهطال ولا يتحرج أن يستجدى بمدح الخلفاء والأمراء سادة قيس ، فيتغنى بمواقف قيس المشهورة ، ويدون انتصاراتهم الرائعة ، بينما كان يحط من شأن أجداد الفرزدق ، الذين إليهم آلت مكانة الجد الأعلى تميم ، فالغض منهم غض من تميم ،

فيثور الفرزدق على جرير فى قلبه الوضع وركوبه رأسه لهجائه تميما ومدحه قيساً لارتشائه منهم تلك الثياب التى لا تستر ، والعمائم البالية ، فهو كالسائر فى الصحراء معه الماء يلقيه من يده مخدوعا بالسراب المذاع من الرياح اللافحة الذى يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجه الشبه كما ترى .

واستغراب الفرزدق عقوق جرير تميما ردده كثيراً ، فمن ذلك قوله .

أسكرانَ كان ابن المراغة إذ هجا تميما بجوف الشام أم متساكر (١)

وفى هذا البيت نبزه بلقب لأمه امتهانا له وإفحاشا فى أمه ، وشاع هذا النبز وعلق بجرير طوال أيامه .

أما الفرزدق فكان أكثر منه مالا وأعز نفرا ، فلم يكدح فى الكد على عيشه ويطرح نفسه كل مطرح ، ويمتدح أحداً إلا فى فترات حملته ظروفها وملابساتها عليه ، كما لم يَدَع الافتخار بأسلافه والمباهاة بعشيرته فى أحرج المواقف وأدعاها إلى التطامن والخنوع ، ففى ذات يوم مثل بين يدى الخليفة سليمان بن عبد الملك فاستنشده شعرا ، وأضمر أنه لا بد مادحه ، فأنشده شعراً يشيد فيه بأبيه غالب ، من ذلك :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب
سرَوْا يخبطون الريح وهى تلفهم إلى شعب الأكوار ذات الحقائب
إذا أبصروا ناراً يقولون ليتها ـ وقدخصرت أيديهم ـ نارغالب (٢)

فتمعّر وجه سليمان وأعرض عنه كالمغضب ، ولم يباله الفرزدق اتكاء على عصبته أولى القوة . ولما حج هشام فى عهد أبيه عبد الملك أعياه الوصول إلى الحجر الاسود فى الطواف حول الكعبة لكثرة الزحام ، فلما أقبل علىّ

---

(١) المراغة الأتان التى لا تمتنع عن الفحول ، والبيت من شواهد الكتاب ص٢٣ ج١

(٢) تره : ثأراً ، والعصائب : جمع عصابة وهى العمامة تعصب على الرأس ، والأكوار : الرحال ، والحقائب : جمع حقيبة ، والمراد بها هنا كساء على عجز البعير ، وخصرت اشتد عليها البرد .

زين العابدين ، وطاف فتنحى الناس له عن الحجر واستلمه ، قال شامیّ مشدوها : مَن هذا ؟ فقال هشام : لا أعرفه ، فأنشد الفرزدق على البديهة القصيدة المشهورة راداً عليه ، فزجه فى السجن ، فشفى غيظه وقال مستهزئاً وعائباً بما لاينبغى التفوه به ، وهشام ابن الخليفة ، ومرشح أن يصير خليفة :

أيحبسنى بين المدينـــة والتى ‏ ‏ إليها قلوب الناس يهوى منيبها

يقلب رأساً لم يكن رأس سـيد ‏ ‏ وعينا له حولاء باد عيوبها

مما حمله على إطلاقه على الرغم منه .

رجل تلك شنشنته لا يقبل الذوق أن يوجه له البيتان ، بلى يوجهان لجرير المتهافت على نوال قيس الزارى على تميم .

الثانى : أن البيتين من قصيدة طويلة للفرزدق معدودة من روائع شعره قالها شامتاً حين قـتل وكيع بن أبى سود التميمى قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى لخروجه عن طاعة الخليفة سليمان بن عبد الملك فى يوم اضطرب فيه حبل الأمن فى خراسان سنة ست وتسعين ومنها يخاطب جريرا :

تعيرنا أيام قيس ولم ندع ‏ ‏ لعَيْـلان أنفاً مستقيم الخيـاشم

وما أنت من قيس فتنبح دونها ‏ ‏ ولا من تميم فى الرؤوس الأعاظم

فلم ين جرير فى الرد على الفرزدق بنقيضة تناهض قصيدته .

ومنها على سبيل التمثيل :

تُحضض يابن القين قيساً ليجعلوا ‏ ‏ لقومك يوماً مثل يوم الأراقم

* * *

وانى وقيساً يابن قين مجاشع ‏ ‏ كريمٌ أصفى مِدْحتى للأكارم

* * *

إذا عُدّت الأيام اْخزين دارما ‏ ‏ وتخزيك يابن القين أيام دارم (١)

---

(١) القين : الحداد ، والأراقم : قبائل من تغلب سموا بذلك لأن عيونهم تشبه عيون الأراقم (الحيات) ، ويوم الأراقم كان لقيس عليهم وهو من الأيام المشهورة .

ففى البيت الأول يحذر الفرزدق فى تحديه قيساً بسوء العاقبة ، وفى الثانى يخطئه فى زعمه الكاذب فى ارتشائه لأنه كريم يخص الأكرمين بثنائه ، وفى الثالث يكشف له مخازى دارم ، فليس لهم يوم خالد فى صفحات الماضى ، وفى الأبيات الثلاثة نبزه بلقب لأبيه ، إذ جعله قينا ، وتلمس جرير هذا النبز من نزول قيون عند جده الأدنى صعصعة وإقامتهم معه ، وسحب هذا النبز من جده الأدنى على جده الأعلى مجاشع ، ثم اعتبر هذه المهنة الحقيرة صناعة مجاشع وفروعه ، فالفرزدق قين ابن قين الخ ، وحلا لجرير هذا النبز كما ترى فى الأبيات الثلاثة ، وهكذا كل هجاء منه لا يخلو عنه ، بل لقد أسرف فى الإكثار منه أحيانا إيغالا فى التنكيل ، من ذلك مثلا قوله :

هو القين وابن القين لا قين مثله　　　لفطح المساحى أو لجدل الأداهم(١)

ولقد اتخذ بعض الشعراء هذا البيت فكاهة يتندر بها على الفرزدق .

دعابة :

لقيه يوما خلف بن خليفة وهو شاعر ظريف دعّاب راوية ، إلا أنه (أقطع) - له أصابع من جلود ، فقال له يا أبا فراس ، من الذى يقول :

هو القين وابن القين لا قين مثله　　　لفطح المساحى أو لجدل الأداهم

فأجابه على البديهة بما أخجله واستخذى منه ، قال : هو الذى يقول :

هو اللص وابن اللص لا لص مثله　　　لنقب جدار أو لطرّ الدراهم(٢)

فلم يحر خلف جوابا وأُفحم (حَذْو القُذّة بالقذة) (٣) وموطن التعجب هنا براعة الفرزدق وسرعة خاطره ومواتاة قريحته فى قرضه بيتاً على وزن ، وروى بيت جرير لم يتخلف عنه فى هجر اللفظ وفاحش المعنى . ولنعد إلى ما نحن بسبيله .

---

(١) المساحى : جمع مسحاة : الآلة التى يجرف بها الطين وتقشر بها الأرض ، وفطحها : تعريضها وتسويتها ، والأداهم : القيود ، وجدلها : إحكام صنعها .

(٢) طر الدراهم : خلسها ، ونقب الجدار وطر الدراهم يزاولهما اللص .

(٣) القذة فعله بمعنى مفعوله : الريشة المقذوذة (المقطوعة) على قدر صاحبتها فى التسوية وهذا مثل فى الميدانى (الحاء) يضرب فى التسوية بين الشيئين .

لقد تبادل الشاعران : جرير والفرزدق الشتائم والسباب بكل قارصة من القول فى قاموس الشتائم ، يعثران عليها طيلة أيامهما حتى توفى الفرزدق .

ولما علم جرير بوفاته بكى ، فقيل له يا أبا حزرة ما أبكاك ؟

قال : بكيت لنفسى ، إنه والله قل ما كان اثنان مثلنا ، أو مصطحبان أو زوجان ، إلا كان أمد ما بينهما قريبا ، وكذلك كان ، فأنه مات بعده بنحو ستة أشهر .

قلت : ماكنت أتوقع عند سؤالى عن نسبة البيتين لجرير كما فى الأغانى ، بعد سماعى منك نسبتهما للفرزدق - أن تفيض فى البيان بما لا يدع خلجة شك فى نسبتهما للفرزدق كما قلت ، لا من ناحية المعنى ، لأنه يخالف الواقع المعروف ، ولا من ناحية القصيدة التى منها البيتان ، وظنى أن النسبة فى الأغانى عرضت سهواً ، ومرجع السهو إلى المشابهة بين الشاعرين فى جزالة شعرهما ، وتقارب هدفهما فى المعانى .

إنى لأحتسب لك الجزاء عند الله فيما تقدّم من معارف يرجع الاستلفات لها إلى ماتوحى به : إنْ فى مقام البحث العلمى ، وإن فى مستطرف الملح للترويح ، فإن الملحة التى تنقّلت بها مع ما تلاها ، أعادت إلى النفس نشاطها فى الإقبال والإصاخة والانتباه ، وهى مع ما بعدها تعتبر فى التقنين العلمى بمثابة الجملة المعترضة تقع بين كلامين متصلين معنى ، واعتراض الجملة إعراباً لا ينافى حسن موقعها ، فقد تذهب طلاوة القول وجمال روائه بذهابها ، وفن المعانى فى إطنابه كفيل بمآثرها . كنتُ قبل الملحة وعيت منك ما جلوته عن بينة فى الأخين والياسين ، وأنهما لا يلتقيان ، فانجاب عن القلب الغين ، وانبلج الصباح لذى عينين .

وحبذا لو تطولت بشرح التفصيل الذى وعدت به فيما فرط من حديثك من قولى العلماء فى إلياسين ، فإنك الذى استرعيت انتباهى إليه ، كما تطولت فى مقالك الماضى ، ومنهوم العلم لا يشبع فلذته فوق لذات الحياة ومتعها .

إلياس ـ الياسين :

على أنى أصارحك أننى طالما جال فى نفسى سؤالك استئنافا عن إلياسين ، ولكن قد انساق إليها القول عفواً .

ذلك أنه كثر ما نشب الحوار بين الإخوان فى ندواتهم العلمية حول إلياس وإلياسين ، وتعاطوا فيها كتب التفسير ومعاجم المعربات ، وموسوعات اللغة العربية ، وما حمدت مغبة هذا الحوار مرة لأن ثمرته على الدوام الوقوف عند مختلف الآراء التى لا نكاد نركن إلى أحدها ، وهى ثمرة غير شهية .

إنى شيق إلى كلمة فيهما معقولة المدرك صحيحة التوجيه أستبقيها ذخيرة علمية مضافة إلى الذخائر التى منحتنيها .

فمثلك جدير بما يؤمل فيه ولا يحول رفده اليوم عن رفده غداً ، وقبلى أبو تمام حبيب بن أوس الطائى حباه أحمد بن أبى دواد الإيادى بالمنن الغُر ، فاستزاده أن يواليها بأخرى حتى يكون كمن أسرج بعد أن ألجم فقال :

إعلم ـ وأنت المرء ـ غير معلم ... وافهم ـ جعلت فداك ـ غير مفهم
أن اصطناع العرف ما لم توله ... مستكملا كالثوب ما لم يعلم
والشكر ما لم يستثر بصنيعه ... كالخط تقرؤه وليس بمعجم
ويفوتنى فى القول إكثار وقد ... أسرجتَ فى كرم الفَعال فألجم (١)

قال : حب شىء إلى أن أفيد وأفيد ، وسأنجز لك ماوعدت ، وعساك تكتفى بإجابة سؤلك اليوم ، فلست أدرى ما تفاجأنى به غداً ، لأنه تكشف لى أنك (تسرحسوا فى ارتغاء) (٢) .

---

(١) اصطناع العرف : اتخاذ المعروف عند الناس ، ولم يعلم الثوب : توضع عليه علامة ورسم ، الفعال : الفعل الحسن ، والابيات من شواهد الإيضاح [التشبيه] .

(٢) مثل أصله أن الرجل يوتى باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة فيشربها وهو فى ذلك ينال من اللبن ، يضرب لمن يريك أنه يعينك ، وإنما يجر النفع إلى نفسه . نهاية الارب ص ٦٠ ج ٣

وأين أنا من ابن أبي دواد الذى قال فيه أحمد بن عبد الرحمن الكلبي : (ابن أبي دواد رَوح كله من قرنه إلى قدمه) . لقد استجاب لنداء حبيب حتى امتلك لسانه فاختصه بكثير من مدائحه ، وآية ذلك :

لقد أنست مساوىَ كل دهر ... محاسن أحمد بن أبي دواد
وما سافرت فى الآفاق إلا ... ومن جدواك راحلتى وزادى

فى البيت الأول أذهبت محاسنه مساوىء الدهور ، ومن هذا ؟ وفى الثانى عتاده فى أسفاره عطاؤه . لقد جاوز الحد فى الاطراء (واللها تفتح اللَـها) (٣) .

يا صفى انتصف النهار فآذن الزوال بالمقيل ، فإلى يوم آخر تلقانى فيه ، قلت : فى كنف الله عشت سالماً من الآفات والعلل ؟

[للكلام صلة]

---

(٣) اللها : جمع لهوة وهى العطية ، واللها : اسم جنس جمعى واحده اللهاة ، وهى الهنة المطبقة فى أقصى سقف الفم .

البلاغة العربية
وقضية الإعجاز

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد العمارى
المدرس بالأزهر

سأل إبراهيم بن إسماعيل من كتاب الوزير الفضل بن الربيع ومن جلسائه ، سأل أبا عبيدة معمر بن المثنى عن قول الله تعالى : « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » كيف وقع هذا التشبيه والمشبه به غير معروف ؟ وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله ، فقال أبو عبيدة : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفىُّ مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به . . . وعزم أبو عبيدة منذ ذلك الحين أن يضع كتابا فى القرآن ، فى أشباه هذا ، وما يحتاج إليه من علمه ، ثم وضع كتابه (المجاز) ، فكان أول كتاب ألف فى فن البلاغة .

يبدو واضحاً من هذه القصة التى سقناها باختصار ، أن التأليف فى جو البيان ، ولد فى جو القرآن الكريم ، ولو تتبعنا تاريخ البيان العربى لوجدنا أنه ـ كذلك ـ نشأ وأيفع واكتهل فى جو القرآن ، يدلنا على ذلك أن العلماء منذ عهد أبى عبيدة ، كانوا يضعون نصب أعينهم ـ حين يؤلفون فى البيان ـ قضية الإعجاز ، وإن كانوا يضعون بجانب ذلك أغراضاً أخرى ، كمعرفة السَّرِى والمتخلف من الكلام ، وكالقدرة على إنشاء الجيد من الشعر والنثر ، واختيار الجيد منهما ، فإن المتعلم إذا

(فاته هذا العلم ، مزج الصفو بالكدر ، وخلط الغرر بالعرر ... وساء اختياره ، ودل على قصور فهمه) (١)

ويرى السكاكى أن من أهم البواعث على دراسة البلاغة ، طلب الاستعانة على فهم كتاب الله ، فهو يذكر فى مقدمة كتابه (المفتاح) أنه إذا كان المراد من علم الأدب مجرد الوقوف على بعض الأوضاع ، فذلك أمر ميسور (أما إذا خضت فيه لهمة تبعثك على الاحتراز عن الخطأ فى العربية ، وسلوك جادة الصواب فيها ، اعترض دونك منه أنواع تلتى لأدناها عرق القربة ، ولا سيما إذا انضم إلى همتك الشغف بالتلقى لمراد الله تعالى من كلامه ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) .

ثم يعود فى مقدمة علم المعانى والبيان ، فيقول : (وفيما ذكرنا ما ينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقدس من كلامه ، مفتقر إلى هذين العلمين ، كل الافتقار ، فالويل كل الويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيهما راجل) .

وهذا كلام سبق به عبدُ القاهر حين قسا بقلمه على بعض المفسرين ، ورماهم بالجهل ، ووسمهم بالغفلة ، وجعل مرد ذلك إلى أنهم لا يحسنون فهم الدقائق والأسرار ، ورده الزمخشرى فى مقدمة كتابه (الكشاف) ، حيث نقل قول الجاحظ (وليس كل ذى علم يستطيع أن يغوص على أسرار التفسير ، وأن يدرك لطائف الآيات) ثم جعل القدرة على ذلك وقفاً على من برع فى علمى المعانى والبيان .

ومن العلماء من جعل الغاية الوحيدة من دراسة علوم البيان ، معرفة سر الإعجاز ، ويبدو ذلك واضحاً فى كلام عبد القاهر فى دلائل الإعجاز ، وابن خلدون فى المقدمة (واعلم أن ثمرة هذا الفن ـ يريد البيان ـ إنما هو فى فهم إعجاز القرآن) .

ويرى القائلون بالصرفة ، أن دراسة البلاغة أيضاً ضرورية لفهم إعجاز القرآن فإن هذه الدراسة تحقق للدارس معنى الفصاحة ، فهو فى حاجة ماسة إلى دراسة فصاحة القرآن (ليقطع أنها كانت فى مقدورهم من جنس فصاحتهم) .

---

(١) من مقدمة كتاب الصناعتين للعسكرى .

هذه هي جماع الأغراض التي ذكرها القدامى والمحدثون من دراسة البلاغة ، فهل استطاعت أو تستطيع هذه الدراسة أن توصلنا إليها ؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نحب أن نفصل القول في الطرق التي سلكها العلماء في هذه الدراسة ، ويبدو لنا واضحاً أن الدراسة في علوم البيان اتخذت مناهج ثلاثة :

الأول : الطريقة النقدية ، وهي طريقة تعنى بالشواهد وتحليلها ؛ ويمثلها عندي كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري .

الثاني : الطريقة التقعيدية ، وهي طريقة تعنى بوضع الضوابط ، والتدقيق في تحديدها ، ويمثلها عمل السكاكي ومن تابعه .

الثالث : الطريقة الوسطى ، وهي طريقة تجمع بين الطريقتين السابقتين ، فهي تعنى بالشواهد ، كما تعنى بالقواعد ، وإن كانت لا تدقق في الضبط كطريقة السكاكي ، ويمثلها كتاب « الصناعتين » وما أشبهه ، ثم نعود إلى السؤال ، فنقول في الجواب عنه : إن الأغراض الأخرى غير الإعجاز قد تحققها الطرق الثلاثة ، وإن كان بعضها أكثر إعانة على هذه الأغراض من بعض ، غير أن بعض الباحثين من المحدثين لا يرون للطريقة السكاكية جدوى ، بل يراها بعضهم تؤدي إلى عكس المقصود ، وفي ذلك يقول الشيخ عبد العزيز البشري ، بصراحته المعهودة ، وسخريته اللاذعة : (فوق التعقيد الشديد في عبارات هذه الكتب ، والمبالغة في إبهامها وغموضها ، فإن ملاك البحث فيها إنما هو الجدل اللفظي ، والاعتساف في بحوث فلسفية لا غناء لها في صنعه البيان ، بل إنني لأزعم أنه لو كان هناك من يريد التخلص من فصاحة اللسان وفصاحة البيان ، فليس عليه أكثر من أن يدرس هذه الكتب حق درسها ويديم النظر فيها ، ويقلب في عباراتها لسانه وفكره ، ليكون له كل ما يحب إن شاء الله ! » .

أما الإعجاز ، هل تمكن معرفته أو لا تمكن ؟ فهنا نقف !

يرى الشيخ عبد القاهر أن معرفة أسرار الإعجاز ممكنة ، وأن دراسة البيان هى الوسيلة لهذه المعرفة (فإذا كنت لاتشك فى أن لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا أن الوصف الذى له كان معجزاً قائم فيه أبداً وأن الطريق إلى العلم به موجود ، والوصول إليه ممكن ، فانظر أىّ رجل تكون إذا أنت زهدت فى أن تعرف حجة الله تعالى ، وآثرت فيها الجهل على العلم ، وعدم الاستبانة على وجودها ، وكان التقليد فيها أحب إليك ، والتعويل على علم غيرك آثر لديك) (١) .

ويرى السكاكى أن معرفة أوجه الإعجاز عن طريق الدراسة أمر غير ممكن (نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت اماطة اللثام عنها ، لتجلى عليك ، أما نفس وجه الإعجاز فلا) ولكل من هذين العالمين الجليلين أنصار ومشايعون .

المعرفة والإدراك :

لقد طال القول فى إمكان معرفة الإعجاز ، وعدم إمكانه ، وأطال الشيخ عبد القاهر ، وفصل القول تفصيلا فى رأيه ، وأصر السكاكى فى أكثر من مناسبة على أن هذه القواعد ليست الطريق لمعرفة أسرار الإعجاز ، ثم رأيتُ كلاما أعجبنى للعلامة ابن خلدون ، وهو كلام جديد ، لعله كذلك وسط بين الرأيين ، رأيته يفرق بين المعرفة وبين الإدراك ، ويرى أن معرفة الإعجاز ممكنة عن طريق دراسة البلاغة ، أما إدراكه فغير ممكن عن طريق هذه الدراسة : « واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هو فى فهم إعجاز القرآن . . . وهذا هو الإعجاز الذى تقصر الافهام عن إدراكه ، وإنما يدرِك بعضَ الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربى ، وحصول ملكته ، فيدكر من إعجازه على قدر ذوقه » .

ويمكن بسهولة أن نفرق بين المعرفة والإدراك ، ونضرب لذلك مثلا بدراسة العروض ، فبعض الناس يعرف سلامة البيت واعتلاله عن طريق هذه الدراسة ،

---

(١) دلائل الاعجاز — فاتحة المصنف فى مكانة علم البيان ، ص ٨ ط دار المنار سنة ١٣٦٦ هـ .

فهو ينظر إلى البيت يعرضه على ما عرفه من البحور وقواعدها ، ويتبين ما فيه من زحاف وعلة ، ويحكم بما يجوز من ذلك وما لا يجوز ، فهذا عارف ، وبعض آخر له أذن موسيقية تحس نُبُو الوتر - كما يقول حافظ إبراهيم - يحكم على البيت بالصحة أو بالاعتلال بمجرد سماعه ، وهذا هو الإدراك .

الذوق هو الحكم :

إذن ما هي الوسيلة التي نعرف بها الإعجاز - على ما يرى السكاكي - أو ندركه على ما ذكر ابن خلدون ؟ الوسيلة هي الذوق ، وقد ظهر ذلك واضحاً من كلام ابن خلدون ، وليس هذا الأمر بأقل وضوحا في كلام السكاكي ، بل إنه ذكره وأكده ، وأصر عليه وكرره في كتابه ، فمرة يقول بعد أن ذكر أوجها أربعة للإعجاز : (يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أوجه الاعجار . . . ولا استبعاد في إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه ، فكم سحبنا الذيل في إنكاره ، ثم ضممنا الذيل ما إن تنكرد) ويقول في موضع آخر : (ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا) .

وينسب الإمام الخطابي هذا الرأي إلى الأكثرين من علماء النظر ، فيقول : « ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الاعجاز في القرآن من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصفوا فيه إلى حكم الذوق » .

ويرى ابن سنان الخفاجي ، أن العلة في المفاضلة بين الكلمات كثيرا ما تخفى ، ولا مدرك لها إلا الذوق ، ويسوق هذا المثال « وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصناً أو فنناً أحسن من تسميته عسلوجا ، وأن أغصان البان أحسن من عساليج الشوحط في السمع ... كل ذلك لما قدمته من وقوعه على صفة يسبق العلم بقبحها أو حسنها من غير معرفة بعلتها أو بسببها » .

هذا ، وما أظننا نحتاج إلى كثير من الجدل لنثبت أن كل روائع الجمال سواء كانت في الطبيعة أو في الفنون لا يمكن إدراكها إدراكا حقيقيا بواسطة الابانة

عن أوصافها ، فجمال الزهرة ، والجمال الانسانى ، وجمال النحت والتصوير ، والموسيقى ، والكلام ، كل ذلك يدرك على حقيقته عن طريق الذوق ، وقديما قال بعض الخلفاء العباسيين لإسحق الموصلى : صف لى جيد الغناء ، فقال : يأمير المؤمنين إن من الأشياء أشياء تصيبها المعرفة ، وتعجز عن أدائها الصفة ، وما قاله إسحق فى جيد الغناء هو نفسه الذى يقال فى جيد الكلام ، والجيد من الفنون بعامة ، وقد كنت قرأت قصة قديمة وقفت عندها طويلا : كانت عائشة بنت طلحة تنافس بالحسْن سكينة بنت الحسين ، فقالت لها سكينة يوماً : أنا أجمل منك ، قالت عائشة : بل أنا ، فاختصمتا إلى عمر بن أبى ربيعة فقال لأقضين بينكما ، أما أنت يا سكينة فأملح منها ، وأما أنت يا عائشة فأجمل ، فقالت سكينة : قضيتَ لى ورب الكعبة ، فهم إذن كانوا يفضلون الملاحة على الجمال ، وفرق بينهما ، إنك تستطيع أن تصف الجمال وتبين حدوده وقواعده ، ولكنك لا تستطيع أن تصف الملاحة ، وإنما تدرك الملاحة بالذوق ، وبالذوق فقط .

والسكاكى قد ربط بين بلاغة الكلام وبين الملاحة حيث يقول : « واعلم أن شأن الاعجاز عجيب ، يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة » .

وقد اعترف الجاحظ بالعجز عن وصف الجيد من الكلام ، فقد تذاكر الناس يوماً شعر أبى العتاهية بحضرته إلى أن جرى ذكر أرجوزته المزدوجة التى سماها ذات الأمثال ، فأخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابى روائح الجنة فى الشباب

فقال الجاحظ للمنشد : قف . ثم قال : انظروا إلى قوله : روائح الجنة فى الشباب ، فإن له معنى كمعنى الطرب الذى لايقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة النظر .

قلت : ووهم الجاحظ حيث ظن أن الألسنة تستطيع أن تصف معنى هذا الكلام ، أو معنى الطرب بعد التطويل ، وإدامة النظر ، فمهما بالغ الجاحظ

فى الوصف ، ومهما استعان بقدرته البيانية ، فإنه لن يستطيع أن ينقل إلى القلوب بواسطة بيانه ، هذا الذى أدركه .

ما فائدة علوم البلاغة ـ إذن ـ ؟ :

إن الشيخ عبد القاهر يؤكد أن دراسة هذه العلوم ضرورية جداً لمعرفة الإعجاز ، وأنها الوسيلة لها ، ولذلك يرى الصادّ عنها كالصاد عن سبيل الله ، ويَدق عبدالقاهر حين يذكر أن مجرد هذه الدراسة لا يُغنى فى هذه الغاية ، بل لابد عنده من أن يكون الدارس ذا ذوق يساعده على الإدراك ، لاسيما أنه حاول أن يفاضل فى كتابه بين بعض الكلمات وبعض ، ولم يستطع أن يهتدى إلى علة صحيحة ، فهو مثلا يوجه نظرك إلى أن كلمة « شىء » قد تحسن فى موضع وتقبح فى موضع ، ولكنه لا يذكر لماذا حسنت هنا وقبحت هناك .

والسكاكى وإن جعل الوسيلة لإدراك الإعجاز الذوق ، إلا أنه يرى أنه لا سبيل لتكوين هذا الذوق إلا بطول خدمة علمى المعانى والبيان ، وما دام الذوق الفطرى الذى كان عند العرب الذين أدركوا إعجاز القرآن بسلائقهم ليس موجوداً فلا مندوحة لنا عن أن نُكوّن أذواقا جديدة ، ودراسة علوم البيان هى سبيلنا إلى ذلك .

وما من شك فى أن دراسة البلاغة على الطريقة النقدية ، وعلى الطريقة الوسطى ، تساعدنا كل المساعدة على الوصول إلى هذه الغاية ، وربما أعانتنا على ذلك الطريقة السكاكية ، إذا استطعنا أن نعرضها فى معارض أخرى ، أنصع بيانا ، وأقشب ثوبا ؟

من بحوث مجمع اللغة العربية[١]

معجم ألفاظ القرآن الكريم

— ١٢ —

ت و ب

تاب يتوب توبا ـ من باب قال ـ : رجع عن ذنبه وأقلع فهو تائب ، ومن مصادره أيضاً : التوبة و المتاب : وتاب الله عليه ، قبل توبته وغفر له .

وفي كليهما معنى الرجوع ، فالعبد يرجع عن ذنبه ، والله يرجع إليه برحمته وغفرانه .

والتواب : الكثير التوبة ـ يقال لباذلها وقابلها ، فالعبد تواب لكثرة توبته . والله تواب لكثرة قبوله توبة العباد .

* * *

جاءت هذه المادة في الكتاب الكريم في ثمانية وثمانين موضعاً بلفظ الماضي والمضارع والأمر والمصدر واسم الفاعل وصيغة المبالغة .

* * *

تاب جاء الماضي وهو « تاب » في أربعة وثلاثين موضعاً ، منها ما أسند فيه الفعل إلى الله عز وجل كقوله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » ٣٧/البقرة والمعنى قبل توبته وغفر له ذنبه .

---

(١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد رئيس المجمع .

ومنها ما أسند فيه الفعل إلى العباد على معنى الإقلاع عن الذنب ، كقوله تعالى :
« أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده ، وأصلح فإنه غفور رحيم »
٥٤ / الأنعام

يتوب

وجاء المضارع وهو « يتوب » وفروعه فى واحد وعشرين موضعاً ، وهو كالماضى فى اسناده تارة إلى الله ، وتارة إلى العباد ، وقد اجتمعا فى قوله تعالى :
« إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم » ١٧ / النساء .

تب

وجاء الأمر فى ثمان مواضع ـ منها :

١ ــ قوله تعالى حكاية لدعوة إبراهيم وإسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت : « وأرنا مناسكنا وتب علينا » ١٢٨ / البقرة .

٢ ــ وقوله تعالى : « وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون »
٣١ / النور

التوب

ولم تجىء كلمة « التوب » إلا فى موضع واحد هو قوله تعالى : « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب » ٣ / غافر .

وهى إما بمعنى المصدر ، أى قابل التوبة من عباده ، وإما جمع لتوبة ـ كلوز ولوزة ـ أى قابل كل توبة .

توبة

وجاءت كلمة « توبة » معرفة ومنكرة فى سبعة مواضع ، منها قوله تعالى :

١ ــ « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة » ١٧ / النساء .

يصح أن يكون المراد التوبة التى يتوبها الله على عباده ، والمراد صدور القول عنه ، وكلمة « على » أفادت التحقق حتى كأنه واجب إنجازاً لوعده به ـ جل علاه ـ وهذا مراد من قال : كلمة على بمعنى من .

ويصح أن يكون المراد توبة العباد ، والمعنى : إنما التوبة التى أوجب الله على نفسه قبولها ، وهذا مراد من قال : إن كلمة على بمعنى عند ، وكذلك معنى التوبة فى الآية التى تلى هذه : ١٨١ / النساء .

٢ ــ « فصيام شهرين متتابعين توبة من الله » ٩٢ / النساء .

المصدر فى موضع المفعول له ـ أى ابتغاء توبة من الله ، أى قبول وغفران .

٣ ــ « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده » ١٠٤ / التوبة . عدى الفعل بكلمة « عن » لتضمنه معنى الصفح والتجاوز ، ومثلهما فى ٢٥ / الشورى .

تائبات وجاء اسم الفاعل من « تاب » فى موضعين .

(ا) مرة مجموعا جمع مؤنث سالماً ، وذلك فى قوله تعالى : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات » ٥ / التحريم

(ب) ومرة مجموعا جمع مذكر سالما . وذلك فى قوله تعالى : « التائبون العابدون الحامدون » ١١٢ / التوبة .

تواب وجاءت كلمة « تواب » مفردة ومجموعة جمع مذكر سالما :

(ا) فالمفردة لم تجىء إلا وصفاً لله عز وجل ، وذلك فى إثنى عشر موضعاً منها قوله تعالى : « وأنا التواب الرحيم » ١٦٠ / البقرة .

(ب) والمجموعة فى موضع واحد هو قوله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ٢٢٢ / البقرة .

متاب وجاءت كلمة « متاب » وهى المصدر من تاب فى موضعين :

أحدهما قوله تعالى : « قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب » ٣٠ / الرعد ـ أى توبتى ـ وكذا هى فى ٧١ / الفرقان .

ت و ر

(ا) تارة .

(ب) التوراة .

تارة (ا) التارة : المرة والكرة ، يقال : فعل ذلك تارة بعد تارة ، أى مرة بعد مرة ، وعاد إلى هذا الأمر تارة أخرى ، أى كرة أخرى .

وألفها منقلبة عن الواو والياء ، وقيل أصلها الهمزة وخففت لكثرة الاستعمال .

وقد جاءت هذه الكلمة في الكتاب الكريم بهذا المعنى في موضعين ، أحدهما قوله تعالى : «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى» ٥٥/طه ومثله ما في ٦٩ / الاسراء .

التوراة

(ب) التوراة : كلمة لم تثبت عربيتها ، وهي في عرف القرآن الكريم ما أنزله الله تعالى على موسى من الوحي ليبلغه قومه لعلهم يهتدون .

وقد جاء ذكرها في القرآن العظيم في ثمانية عشر موضعاً ، منها قوله تعالى : «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور» ٤٤ / المائدة .

ت ي ن

التين

التين : اسم فاكهة معروفة ، وقد سمي به بعض الجبال وغيرها .

وجاء ذكره في الكتاب الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : «والتين والزيتون» ١ / التين .

يقسم الله بما شاء ، قال ابن عباس : هو تينكم وزيتونكم هذا ، وقيل : هما جبلان أو بلدان ، والله أعلم .

ت ي ه

تاه في الأرض يتيه تيهاً - من باب ضرب - : ضل الطريق وتحير .

ومنه يستعار لمن رام أمراً فلم يصادف الصواب فيقال : إنه تائه .

يتيه

لم يأت من هذه المادة في الكتاب الكريم إلا المضارع ، وهو : «يتيه» وذلك في موضع واحد هو قوله تعالى : «قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض» ٢٦ / المائدة .

الكلام عن الأرض المقدسة التي أمر بنو إسرائيل أن يدخلوها ، فخافوا وأبوا وقالوا «إن فيها قوما جبارين» و«إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها» فعاقبهم الله بتحريمها عليهم أربعين سنة هي فترة ضعفهم ومهانتهم كما هي سنة الله في الأمم .

والتعبير بقوله : «يتيهون في الأرض» تصوير لحيرتهم واضطرابهم في هذه الفترة .

ث ب ت

ثبت يثبت ثبوتا - من باب دخل - : دام واستقر ؛ ضد زال ، فهو ثابت ، يقال ذلك للمدرك بالبصر أو البصيرة ، فالجبل ثابت فى مكانه أى مستقر لايتزلزل والإيمان ثابت فى القلوب أى راسخ لا يتزعزع .

ويتولد من ذلك تعبيرات شتى عن معان متقاربة ، فمن ذلك :

١ — فلان ثابت القدم عند النزال ، أو ذو ثبات فى الحرب ، تعبيراً عن قوته وعدم نكوصه .

٢ — وفلان ثابت العزم أى مستقر على ما يرى .

٣ — وفلان ثابت الإيمان ، أو ثابت القلب على الإيمان ، أى قوى فى إيمانه لا يعرف الشك .

ويتعدى هذا الفعل بالتضعيف والهمز ، يقال : ثَبَّتَه تثبيتاً ، وأثبته إثباتا .

وأكثر ما يكون المضعف حيث يراد معنى التقوية ودفع أسباب الوهن والتزعزع ، نحو : ثبتك الله ، وثبت بالحق فؤادك .

ويأتى من المعدى بالهمز .

١ — أثبت الشىء بمعنى أخرجه من العدم إلى الوجود ، ضد محا .

٢ — وأثبت فلانا سقمه ، أو أثبتته جراحته ، إذا اشتد به ذلك فلم يتحرك .

ورد من هذه المادة فى الكتاب الكريم :

١ — الأمر والمصدر وإسم الفاعل من ثبت اللازم : « اثبتوا - ثبوت - ثابت » .

٢ — الأفعال الثلاثه والمصدر من المضعف : « ثبت - يثبت - ثبت - تثبيتا » .

٣ — المضارع فقط من المعدى بالهمز « يثبت » .

جاء الأمر من ثبت اللازم وهو (اثبتوا) فى موضع واحد هو قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا » ٤٥ / الأنفال .

أمرهم بالثبات فى القتال وعدم الفرار .

ثبتَ — وجاء « ثبت » الماضى المعدى بالتضعيف فى موضع واحد هو قوله تعالى مخاطبا رسوله عليه الصلاة والسلام : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » ٧٤ / الإسراء . كانوا يسعون فى إبطال أمره عليه الصلاة والسلام ، وفتنته عن دينه ، وإزالته عن منهجه القويم ، وكم عرضوا عليه من الأموال والمتاع والملك ، وكم فتنوه وأصحابه بألوان الإيذاء والتعذيب ، ولكن الله ـ جلت قدرته ـ ثبته وعصمه أمام تلك المغريات والمحرجات ، فلم يزدد إلا قوة ، ولم يستطيعوا له تحويلا .

يثبت — وجاء المضارع منه وهو « يثبت » فى ستة مواضع هو فيها بمعنى التقوية والتمكين ـ منها قوله تعالى :

١ — « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » ١٢٠ / هود أى ما نطمئن به قلبك ، وتسكن به نفسك حتى تحتمل أعباء الدعوة وتصبر على ما تلاقى فى سبيلها .

٢ — « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا » ١٠٢ / النحل أى ليقويهم به ويديمهم على محجة الحق » .

ثبِّتْ — وجاء الأمر منه وهو « ثبت » فى ثلاثة مواضع ، منها قوله تعالى حكاية عن قوم طالوت المؤمنين : « فلما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » ٢٥٠ / البقرة . سألوا ربهم الصبر والتثبيت فى القتال والنصر على الأعداء » .

يثبت — وجاء المضارع من المعدى بالهمز وهو « يُثْبِت » فى موضعين :

١ — قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت » ٣٩ / الرعد . والأظهر أن المعنى فيه : يزيل ما يشاء ، ويوجد مايشاء ، فإليه الإيجاد والإعدام ، والإحياء والإماتة ، والإغناء والإفقار ، وغير ذلك من أحوال الخلق .

٢ — وقوله تعالى فى تذكيره صلى الله عليه وسلم بما كان من تآمر المشركين عليه قبيل الهجرة : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » ٣٠ / الأنفال

يثبتوك : أى يحبسوك بالوثاق أو الجراحة المثخنة التى تعجز معها فلا تستطيع حراكا ، وذلك أن بعضهم أشار بشد وثاقه أو جراحته جراحة لا يقوم بعدها .

ثبوت وجاء لفظ « ثبوت » وهو المصدر من ثبت اللازم فى موضع واحد ، هو قوله تعالى : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها » ٩٤ / النحل وذلك تعبير عن الضعف والانحلال بعد القوة والتمكن .

ثابت وجاء لفظ « ثابت » وهو اسم الفاعل من اللازم فى موضعين :

١ — أحدهما قوله تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت » ٢٤ / ابراهيم . أى متمكن من الأرض ضارب بعروقه فيها .

٢ — والآخر قوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت » ٢٧/ ابراهيم

القول الثابت ، هو المطابق للحق الواقع الذى ليس فى لوح الوجود ، سواء يستقر فى قلب الإنسان فيعتقده ويطمئن إليه .

تثبيت وجاء « تثبيت » وهو المصدر من ثبت المضعف فى موضعين :

١ — قوله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة » ٢٦٥ / البقرة .

أى يطلبون بإنفاقها رضوان الله وتمكين أنفسهم فى منازل الإيمان والإحسان حتى تألفها ، فلا يزلزلها بعد ذلك زلزال البخل ، ولا اضطراب الحرص .

٢ — وقوله تعالى : « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا » ٦٦ / النساء .

أى أشد تقوية وتمكينا لهم فى أمر دينهم ، لأن الأعمال هى التى تطبع الملكات وتمكن الأخلاق ؟

المجمع واللغة العامة

لحضرة الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات

عضو مجمع اللغة العربية

... وهذا نوع آخر من ثمرات « مجمع اللغة العربية » إذ يتقدم أعضاؤه الأجلاء فى جلسات مؤتمره السنوى العام ببحوث قيمة طريفة تهم أهل اللغة والأدب ، وتتضمن كثيراً من الفوائد النادرة ، وقد استطاعت «رسالة الإسلام» أن تحصل لقرائها على بعض هذه البحوث ورأت أن تنشر منها بين حين وآخر ما يتيسر لها ، توطيداً للصلة العلمية بين علماء المجمع وأنصار التقريب ، وإن من التقريب لخدمة اللغة التى نزل بها الكتاب الكريم ، ونطق بها الرسول الأمين .

وهذا أول بحث نبدأ به ، وهو للكاتب العلامة الأستاذ أحمد حسن الزيات ، عضو المجمع :

[التحرير]

منذ أربعة عشر عاما كتبت إلى المغفور له رئيس المجمع السابق كتاب دعابة قلت فيه : حضر الأصمعى يوما مجلس الفضل بن الربيع وقُبالته فرس مُطَهَّم ، فتذاكر الجُلوسُ كتاب أبى عبيدة فى الخيل ، فأراد الوزير أن يعلم ماعند الأصمعى من ذلك ، فقال له : « قم يا أصمعى وأمسك كل عضو من أعضاء هذا الفرس وسمِّه ، فإذا سميتها فخذه ، فقام وأمسك بناصية الفرس وجعل يسميه عضواً عضواً وينشد ما قالت العرب فيه إلى أن فرغ منه فأعطاه إياه .

فهب يا سيدى الرئيس أن الجود والرق لم يرفعا من الأرض ، وأنى دخلت يوماً على أمير من الأمراء البهاليل ، وبين يديه جارية من الغيد الحسان ، ترفل فى حرير « شيكوريل » و « سمعان » وقال لى هـذا الأمير الاريب : إذا سميت ما على هذه الجارية من اللباس ، ووصفت ما فى هذه الدار من الرياش والأثاث ، نزَلت لك عن الجارية والدار ، وزدتك عليهما ألفَ دينار . فماذا ترانى يا رئيس المجمع اللغوى قائلا وأنا من الذين أفنوا أعمارهم فى تحصيل مادة اللغة ، واكتساب ملكة الكتابة ؟ ماذا أسمى هذا المائل على الفوْد الأيمن ، أو هذا المائل على الجبين الزاهر ؟ وماذا أقول فى هذا المزّرر على الصدر المشرق ، وهذا المُدار تحت الثدى الناتىء ، وهـذا المُرسل على الكَشْح الهضيم ، وهذا المُفصَّل على القدم اللطيفة ؟

أنا لا أعرف من غطاء الرأس إلا القناع والخمار ، ولا من كساء الجسم إلا الملاءة والإزار ، ولا من وِقاء الرِّجْل ، غير الحذاء والنعل . فهل تنطبق هذه الأسماء ، على هذه الأشياء ، أم هل تكون دلالتها عليها كدلالة الرياش والأثاث على كل (موبيليات) البيت ، والورد والريحان على جميع أزهار الحديقة ، والجهل والعجمة على كل أدوات السيارة ؟ لا جرم أنى سأعجز على كل حال ، وسأطالب رفعت (باشا) بالجارية والدار والمال !

* * *

كان ذلك منذ أربعة عشر عاما ، كما قلت ، ولا تزال الحال هى الحال ، والمشكلة هى المشكلة . فلو أننى حضرت اليوم مَعرضاً من معارض التجارة أو الصناعة أو الزراعة ، فيه ما أبدعت العلوم ونوّعت الحضارة من مختلف الآلات والأدوات والسلع والزهور ، ثم طُلِبَ إلىّ أن أسمى كل معروض فيه لما صنعت أكثر مما صنع ذلك البدوى الذى حضر وليمة عرس فى بغداد ، فوصف لقومه ألوانها وصحافها بصفاتها لا بأسمائها وبأثرها فى حلقه ، لا بعينها فى يده . وليس معنى ذلك أن المجمع لم يعمل طول هذه المدة ، إنه عمل بإخلاص ، وسعى بجد ، وأنتج

بوفرة، وإنما معناه أن المجمع قضى ثمانى عشرة دورةً فى خدمة اللغة الخاصة، وهى لغة الفلاسفة والعلماء والرياضيين والأطباء والفقهاء والفنانين وغيرهم من رجال الثقافة العليا. وهؤلاء جديرون ـ إذا ما أبطأ المجمع عن إسعافهم ـ أن يضعوا مصطلحاتهم بأنفسهم بحكم عملهم فى التعليم والتأليف، وهم إذا وضعوها أو نقلوها قاربوا الكمال، فلا يكون عمل المجمع معهم إلا التسجيل أو التعديل.

أما اللغة العامة، وهى لغة البيت والشارع والسوق والمصنع والورشة والحقل فلم يولها المجمع عنايته بعد. والكتّاب والمترجمون والصحفيون ومما ثرمن يتصلون بحياة الناس، لا يعنيهم كثيراً تلك اللغة العلمية. والناس متى رأوا الشيء سمَّوْه. والمسمُّون فى الغالب من سواد الأمة الذين لا يبالون أن ينطقوا على أى صورة ما داموا يقضون حاجتهم من الفهم والإفهام. ويجىء بعد ذلك الكتاب والصحفيون فيجدون اللفظ قد شاع، فإما أن يستعملوه على علته فيكون الفساد وإما أن يضع كل كاتب لمعناه لفظاً فتكون البلبلة. والصحافة والعامية متنافسان فى الوضع والنقل والتعريب، لا تهادن إحداهما الأخرى، فأيتهما سبقت إلى الشيء الجديد يوم وروده الميناء سمته وفرضت تسميتها على الألسنة، فـ «التَّنْكس» مثلا أدركها الصحفيون وهى لا تزال فى الميادين الأوربية، فوضعوا لها لفظ «الدبابة»، وأذاعوه فى البرقيات والأخبار حتى عرفه كل قارىء وردَّده كل سامع. فلما رآها الناس بعد ذلك فى مصرلم ينكروا الاسم ولا المسمى.

وأما «الأوتوموبيل» فقد ورد مصرَ قبل أن يسمع الناس له إسماً عربيا من قبل، فنطقوا لفظه الأعجمى بلغات عشر كما كان ينطق العرب لفظ (إصبع)، ووضع الكتاب له بعد ذلك لفظ السيارة، وحاولوا أن يعمموه فما استطاعوا، وظلت الكلمتان دائرتين فى لغة الناس: العربية للكتابة، والأعجمية للكلام. وهيهات أن تسلم أحداهما للأخرى. وهناك نوع من الألفاظ تخلى عنه الكتاب للعامة فاستأثروا به، كلفظ (أباجق) مثلا. فالناس لا بد أن يسموا هذا الشيء لأنه من أثاث بيوتهم، فسموْه (أباجورة). وأما الكتاب فلم يجدوا ضرورة

لتسميته لقله دورانه على الألسن فى خارج المنزل ، فعمّت الأباجورة كما عمت الدبابة فى الكلام والكتابة . فلو أن الكتّاب عادوا اليوم فأطلقوا عليها « لامّة » أو « ضامّة » لأنها تلم الضوء المتفرق وتضمه ؛ لما فهم الناس ما عبروا عنه ، ولا اتبعوهم فيما عبروا به .

فالمسألة إذن مسألة سباق بين الفصحى والعامية ، مَن تسبق منهما إلى الوارد والجديد سمته وفرضته على الأخرى كما قلت . . . وأن ثمانى عشرة دورة أو سنة قضاها المجمع محايداً فى هذه المعركة جعلت الأمل فى تغلب الفصحى أبعد مما نظن فلم يبق إلا أن نصلح بين اللغتين على وجه من التساهل المتبادَل ، ولقد عنيت منذ تشرفت بعضوية المجمع أن أسعى مع الساعين لعقد هذا الصلح ، وتحديد هذا التساهل ، فقدمت إلى المجمع اقتراحين ، أحدهما : قبول الوضع من المحدَثين ، والآخر : قبول السماع منهم أسوة بالمتقدمين ، وتفضل المجمع فقبل الاقتراحين ، ولكنهما ظلا معطلين لانصرافه إلى وضع المصطلحات المختلفة للغة الخاصة ، وتقدمت منذ طويل إلى مجلس المجمع بطائفة من الكلمات التى جرى المحدَثين فيها سماع يخالف المسموع من العرب الأقدمين ، فى المدلول أو فى الصيغة ، فأقرها المجلس ثم اعتمدها المؤتمر ، ولعلها تأخذ السبيل إلى المعجمين : الكبير والوسيط .

والحق الذى لا أرتاب فيه أن المجمع بقبوله الوضع والسماع من المحدَثين قد وضع الأساس القوى الثابت لتهيئة اللغة لقبول التجدد المستمر فى أسماء الذوات والمعانى ، فبالوضع نصل ما بين اللغة والحياة ، وبالسماع نقرب ما بين العامية والفصحى ، والفائدة من قبول السماع منا ، لا تقف عند حد التجديد والتكميل والتقريب ، وإنما تتعدى ذلك إلى تسجيل مدلولات جديدة قد نسخت مدلولات قديمة لبعض الألفاظ ، مثال ذلك لفظ الغَداء ولفظ الفُطور : فقد أجمع اللغويون على أن الغداء أكلة للغُدْوة ، وهى مابين طلوع الفجر إلى بزوغ الشمس ، وهو خلاف العشاء ، وبه فسر قوله تعالى : « آتنا غداءنا » وأن الفطور

أكل الصائم حين تغرب الشمس ، وكان هذان المدلولان صادقين أيام كان الناس يكتفون بأكلتين : أكلة الغدوة ، وأكلة العَشِيَّة ، فلما اقتضى حال العيش ونظام العمل أن يأكلوا ثلاث أكلات نقلوا الغداء من الغدوة إلى الظهر ، واستعاروا الفطور من وجبة الصائم إذا أمسى إلى وجبة المفطر إذا أصبح ، ووجه الشبه بين الأكلتين ، أنهما تجيان بعد إمساك ، إمساك نهار للصائم ، وإمساك ليل للمفطر وقد فعل الفرنسيون كما فعلنا ، أو نحن فعلنا كما فعلوا ، فإن فعل (Diner) فى لغتهم لاتينى الأصل ، وكان معناه فى اللاتينية الإفطار أو قطع الصوم بالأكل ، ولا يكون ذلك إلا صباحا ، فلما جعلوا طعامهم فى اليوم ثلاث وجبات نقلوا (Diner) من أول النهار إلى نصفه . ثم وضعوا لوجبة الصبح لفظاً آخر بمعناه وهو . . . (Déjeuner) . ثم اضطرتهم المدنية إلى أن يأكلوا أربع أكلات ، فوضعوا الفطور الصغير للصبح ، والفطور للظهر ، والغداء للغشاء ، والعشاء لنصف الليل ، فهل يجوز أن تبقى كلمتا الفطور والغداء وأمثالها فى المعجمين الكبير والوسيط على هذا الوضع ، والناس فى جميع الأقطار العربية يستعملونهما اليوم فى غير ما كان يستعملهما العرب ؟ وبأى سند نضعهما فى المعجم إذا لم يكن المجمع قد قرر حجِّية السماع المولّد أسوة بالسماع القديم ؟ .

من أجل ذلك نطمع فى أن يوجه المجمع الموقر عنايته الكريمة إلى الانتفاع بقرارَيْه فى الوضع والسماع على صورة أشمل وأكمل وأسرع ليعوض اللغة العامة عما نالها من طول انصرافه عنها إلى اللغة الخاصة ، وذلك بقبوله هذه المقترحات الثلاثة :

المقترح الأول : أن يعبىء قواه أو أكثرها لجمع ألفاظ الحضارة الموضوعة والمسموعة والمنقولة من البيئات المصرية والأقطار العربية ، فيكلف محرريه بما كان يصنعه رواة اللغة الأولون من الخروج إلى الوادى ، ومشافهة الأعراب ، والنقل عنهم ، فيخرج المحررون كل يوم إلى المتاجر والمصانع والمزارع ، فيسألون كل ذى سلعة ، وكل ذى صنعة ، وكل ذى آلة عن اسمها العام واسم كل جزء من

أجزائها ، وكل نوع من أنواعها ، ثم يدوّنون كل ذلك بأوصافه وصوره ، ويصنع مثل ذلك فى الأقطار العربية ، فيوفد المحررين إلى الشام والعراق وتونس فيعملون فيها ما عملوا فى مصر تحت إشراف عضو المجمع هناك وتوجيهه ، حتى إذا عادوا ضموا ما جمعوا إلى ما جَمَع غيرهم ، ثم قدم كل أولئك إلى اللجان المختصة فتصنفه وتغربله وتعرفه ، ثم تعرضه على مجلس المجمع .

المقترح الثانى : أن يخصص المجمع دورتين أو ثلاثا لهذا العمل لا يكاد يشتغل فى غيره .

المقترح الثالث : أن ترتب هذه الألفاظ بعد أن يقرها المجلس ويعتمدها المؤتمر ، ثم تفرغ بتعاريفها وصورها فى معجم خاص يسمى معجم ألفاظ الحضارة مثلا ينشر مستقلا أول الأمر ، ثم يدْمج بعد ذلك فى الطبعة الأولى للمعجم الكبير ثم فى الطبعة الثانية للمعجم الوسيط .

هذه أيها السادة أقرب السبل فى رأيى إلى اتصال المجمع بالحياة ، وتقريب المجمعيين للناس ، وإعانة الكتاب على مكاره الكتابة ، ورفع القصور عن اللغة ، ودحض التهم عن المجمع .

ولعل أقوى ما أستند إليه فى تأييد هذه المقترحات بعد الحاجة الماسة والضرورة القاضية أن المعجم الوسيط سيجىء على غير ما ينتظر الناس ، فإن جمهرة المثقفين ينتظرون من معجم ينشره المجمع بعد ثمانى عشرة سنة قضاها فى الوضع والتعريب أن يكون فيه لكل معنى اسم ، ولكل مصطلح لفظ ، ولكنهم سيجدونه أقرب إلى المعاجم المنشورة فى الاقتصار على المواد القديمة ، والنفور من الألفاظ الجديدة ، فإذا نشر معه أو عقبه المعجم المقترح انفسحت التهم عن مجمعنا الخالد ، وانحسرت الشكوك عن عمله العظيم .

ولحضراتكم بعد ذلك النظر الأعلى والرأى الموفق ؟

أنباء وآراء

جاءنا من فضيلة الأستاذ الشيخ محمد حسين شمس الدين
من علماء البازورية بلبنان كتاب يقول فيه :

فى الوقت الذى يشذ فيه بعض المسلمين ، ويتعامى عن نور مبادىء الدين الإسلامى ، وقدسية قانونه ، وصلاحيته للحياة الإنسانية المثلى فى جميع المرافق ومختلف الأطوار .

فى هذا الوقت ذاته ، نرى فى الغرب علماءً كباراً وفلاسفة كثيرين يعلنون بين فينة وأخرى تأييدهم للدين الإسلامى ، وضرورة التمسك بأهدابه القيمة ، لأنهم وجدوا فيه خير ضمانة للمجتمعات البشرية من العبث والفوضى والفساد ، وأكبر وسيلة لاستتباب الأمن والحرية والسلام . فهذا الفيلسوف لامرتين يقول : (... فأى رجل - لعمركم - قيس بجميع المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الإنسانية أعظم من محمد) وهذا المستر دى فنبرت الانجليزى يقول : (فإن الشك فى بعثة محمد إنما هو شكٌ فى القدرة الإلهية التى تشمل الكائنات جمعاء) وهذا أرنست رينان العلامة الشهير يقول : (... أما الأمة العربية التى أكرمها الله ورفع شأنها باصطفاء عبده الأكرم من بين أشرف أشرافها ليكون خاتم النبيين ، فقد جعل آلة تحمل شريعته التى ستدوم مادامت الأفلاك ، إذ لا نبى بعده ، ولا دين بعد هذا الدين .

على أن هنالك من الفلاسفة من تنبأ للقانون الإسلامى بالانتشار فى العالم أجمع لأنه أصلح القوانين ، وأضمنها نجاحا ، وأحسنها ملاءمة لكل الأزمنة والأمكنة .

فقد قال الأب لامانس : (إن القرآن لم يدخل العرب فى الإسلام فحسب ،

بل أدخل معظم الشعوب ، وإن ظلاله لينبسط يوماً فيوما على أفريقيا وآسيا ، بينما المبشرون لغيره ينظرون ولا يستطيعون شيئا) وقال عبد الرحمن روسلر الألمانى يصف حيرة شبابه واضطرابه فى ألمانيا ما نصه : (فنرى الشباب فى شك وريب ، وعامة الناس بين أمرين ، إما أن يرجعوا إلى الآراء والتقاليد المهجورة التى تمجها طباعهم ولا يعتقدونها أو يبتعدوا عنها ، وليس باستطاعة هؤلاء إيجاد نظريات جديدة موافقة لمقتضيات العصر الحاضر إلا أن يتوسلوا بالنظم والقوانين الإسلامية .

وقال الكاتب الفيلسوف برنارد شو : (لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامى ، لسبب حيويته المدهشة ، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائزٌ أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل جيل فى الناس ، ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوروبا غداً ، بل قد بدأ يكون مقبولا لديها منذ اليوم) .

ولقد أدرك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال (كارليل) و (جون) و (جيبون) القيمة الذاتية لدين محمد صلى الله عليه وسلم ، وهكذا وجد تحولٌ حسن فى موقف أوروبا فى القرن الراهن ، تقدمت فى هذا السبيل كثيراً ، فبدأت تعشق عقيدة محمد ، وفى القرن التالى ذهبت إلى أبعد من ذلك ، فاعترفت بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها ، فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى ، وفى الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومى ومن أهل أوروبا قد دخلوا فى دين محمد حتى ليمكن أن يقال إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ .

استعرضت بعض شهادات فلاسفة الغرب المخلصين الذين أدركوا أن لا مناص عن التمسك بأهداب الدين الإسلامى ما دام يكفل لهم حياة هادئة ملؤها النور والخير والجمال ، راجياً من وراء ذلك أن يتفهم شبابنا المثقف جوهر الدين ، ويطمئن باللباب ، ويعزف عن بهرجة المظاهر الخداعة ، وعن الأساليب الملتوية التى لا تجدى نفعا ، والله الموفق ؟

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية « الطوائف الإسلامية » الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادىء الاسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهـــرس



رئيس التحرير : محمد محمد المدنى   مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشاً مصرياً

وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

مطبعة احمد على مخيمر ٤٧١٩٣٥



تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة السادسة
العدد الثالث

ذو القعدة ١٣٧٣ هـ
يوليو ١٩٥٤ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
" قرآن كريم "

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

كنت كتبتُ مقالا فى أحد أجزاء « رسالة الإسلام » عنوانه (لولا القدماء) *
فاستقبله كثير من أهل العلم بالترحيب ، ولا سيما أخواننا أهل الأزهر ، كأنهم
وجدوا فيه دفاعا حاراً عن هؤلاء الأولين الذين أفنوا حياتهم ، وبذلوا أكرم
جهودهم ، حتى ورَّثونا هذا التراث الثمين فى مختلف العلوم وثمرات الأفكار ،
وكنت معتزما أن أعود إلى هذا الموضوع كرة أخرى لأضيف إليه جديداً حدثتنى
به نفسى ، توفية له ، ووفاء لقراء « رسالة الإسلام » الذين يحبونها ، ويتتبعون
ما ينشر على صفحاتها فى دقة بالغة ، واهتمام شديد ، ولعل فى هذه الكلمة الموجزة
تحقيقاً لما اعتزمت :

* * *

والكلام يرجع إلى نقطتين :

أولاهما : أننا مع اعترافنا بعظمة القدماء ، وبما بذلوا من جهود صادقة
مثابرة فى سبيل خدمة العلم والدين والنصح للأمة والأئمة ، يجب أن نذكر دائماً
أن الإسلام دعوة تقدمية لا يصلح معها أن نحصر همنا فيما وراءنا ، وأن نَشغل
أكبر جانب من اتجاهنا وتفكيرنا فيما كان قبلنا ، وأن نجعل هذه العهود الماضية
كأنها مُثُلنا ، ومبلغ آمالنا ، وغاية ما يمكننا أن نصل اليه من عظمة فى العلم
والعمل ، وأن يشغلنا استحسان ما فعلوا عن أن نفعل ، وإكبارُ ما بذلوا عن
أن نبذل .

(*) صحيفة ١٨٦ من المجلد الثانى .

إن هذا التفكير الملحّ فى ما ضينا ، له أثر يجب أن نحذره وألا ندعه يفسد علينا حاضرنا ، فهو ليس تفكيراً حافزاً باعثاً منشطاً فى كل حال كما ألفنا أن نصفه فى أحاديثنا وخطبنا وما نكتبه عن الذكريات التاريخية ، والمناسبات القومية ، وإنما هو فى واقع أمره دواء منوِّم مخدر يخدعنا عن أنفسنا إذا تعاطيناه بإفراط ، واسترحنا إلى ما يحدثه من « تسكين ، وقتى لآلامنا ، وإرضاء وهمى لخيلائنا .

إن الذين يعيشون على الماضى فحسب هم العَجَزَة وأهل الضعف والقصور ، إنهم لا يجدون فى حاضرهم ما يبررون به استحقاقهم للبقاء فى الحياة ، والانتساب إلى البشرية العاملة المثمرة التى ما خلقت إلا للإصلاح والتعمير ، والابتكار والتثمير ، فهم يجترّون مفاخر من الماضى فعلها آباؤهم وأجدادهم ، ولو أنهم كانوا هم الذين فعلوها لما كان لهم أن يظلوا متعلقين بها ، حرصاء على ذكرها والإصغاء إلى حديثها ، كما يصغى الشيخ الهَرِم إلى ذكريات شبابه ، ويسْبح فى خيال فُتُوَّته يوم كان وكان .

إن الإسلام لا يرضى بهذا للمسلمين ، فهو لم يرضه لأهل الكتاب الذين كانوا يتباهوْن بتاريخهم ، ويلوكون بألسنتهم مفاخر السابقين من الأنبياء والمرسلين ، ويحاولون أن ينتسبوا إليهم بالأقوال لا بالأفعال ، إذ يقول القرآن الكريم : « تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » فالشأن فى الكتاب الحق الذى يهدى للتى هى أقوم ، إنما هو لعمل العامل ، وكسْب الكاسب ، أما التشدُّق بما كان ، والتشبث بما خلا ، والغيبوبة فيما غاب ، فتلك تَعِلات الضعفاء ، ومعاذير العاجزين ، وأساليب الفارين الناكصين .

* * *

والنقطة الثانية ذات صلة وثيقة بهذه النقطة الأولى ، فلا ينبغى أن يفوتنا أن العلم فى تطور ، وأن الفكر الإنسانى فى تحوّل ، وأن العالم كل يوم فى استقبال جديد من النظريات والعمليات والمذاهب العقلية والاجتماعية ، فما كان يشغل

الماضين لا ينبغى أن يكون كله شغلا لنا بغثه وسمينه ، ولكن علينا أن نختار ونغربل ونصفى ونُعنَى عناية كاملة جادة بما ينفع ولا يضر ، ونضرب صفحاً عما يضر ولا ينفع ، وعما لا ضرر فيه ولا نفع ، بذلك نستطيع أن نتخفف ثم نتطلع إلى آفاق من العلم جديدة احتكرها الناس فى الغرب من دوننا ، وأفادوا منها سيادة وقوة حيث غبنا عنها .

إن القرآن الكريم يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ويقول : « وقل رب زدنى علما » ومن هاتين الآيتين نستنبط أن الله تعالى يرشدنا إلى الناموس الطبيعى للأفكار والعقول والمعارف ، أو بعبارة أخرى إلى سنة من سننه الكونية ، هى أن العلم دائماً فى تقلب ، ولا يمكن أن يقف عند حد ، إذ هو قابل للزيادة ، والرسول نفسه ، وهو مَنْ هو فى علمه ، مكلف بأن يتطلع دائما إلى الازدياد من العلم ، وإلى أن يجعله من أعز آماله ومطالبه التى يتوجه فيها بالدعاء إلى ربه .

هكذا ينظر القرآن إلى العلم ، وهكذا يوحى إلى المؤمنين أن يطلبوه ويحرصوا على التجديد منه ، وعلى التجديد فيه ، وألا يكونوا أسرى تقليد ، وسجناء جمود ، ولكنّ كثيراً منا معاشر المسلمين نسى هذا أو تناساه كيلا يكلف نفسه شططا ، ولا يحملها عنتا ولا رهقا ، فما زالت جامعة كالأزهر تدرس مذهب « اللاأدرية » الذين يُشكون فى أنفسهم ، ثم يشكون فى شكهم . فأين المذاهب الحديثة التى تملأ أقطار الأرض الآن ، ولا تجد من يرد عادِيَها ، ولا من يرشد غاوِيَها ؟ وأين دراسة الشبه التى توجه إلى الشريعة والفقه فى أوربا وأمريكا ، والتى يغزو بها الصهيونيون وأعداء الإسلام والطامعون فى بلاده ؛ عقولَ المحدَثين من للشباب ، ويصوروننا بها أمة بدائية أو متخلفة ، فيقولون : دينهم يبيح كذا ، ويرضى بكذا ويعارض فى كذا ... الخ .

ثم ما زال الأزهر يدرس نظام شركة الوجوه ، وشركة العنان ، ولا يعرف شيئاً عن شركات التوصية والضمان .

وما زال يدرس « التدبير » و « التعمير » ولا يعرف نظام التأمين على الأشياء أو على الحياة ، وإذا سألت عن حكم ذلك لم تجد قولا شافياً ، ولا بياناً فى ذلك كافياً ، وإنما هى « سطحيات » تلقى ارتجالا ، وتُحمَل على الفقه حَملا .

وما زال كثير من طلاب هذه الجامعة وعلمائها ، يحسبون بعض الطوائف المنقرضة على بعض الطوائف الحاضرة ، فإذا رأوا فى كتاب قديم نِحْلةً مضافة إلى مذهب من المذاهب أخذوا بها كلَّ من تسمى باسمه دون تفرقة بين فريق وفريق ، وهذا لعمرى قصور فى البحث وتقصير ، ولا أجد لهذا مثلا إلا أنه تُدرَّس « الجغرافيا » الحاضرة من مثل كتاب « معجم البلدان » وقد تغيرت البلاد ومن عليها ، وتقلبت أحداث الزمان مئات المرات بعد « معجم البلدان » .

* * *

لا شك أن الأولين كانوا مصابيح دجى ، وأعلام هُدًى ، ولا شك أنهم أدَّوا أمانة العلم حق الأداء ، وأن فى أعناقنا لهم مِنناً عظمى لا ينكرها إلا الجاحدون ، ولا شك أننا فى كثير من العلوم والقواعد والنظريات ما زلنا عالة عليهم ، ولكن لا يجمل بنا مع ذلك أن نقول : ماترك الأول للآخر شيئا ، ولكن نقول : جزاهم الله عنا خيراً ، وكم ترك الأول للآخر ، والله المستعان ؟



تفسير القرآن الكريم

سورة المائدة

— ٨ —

آيات التفسير ـ مراعاة حق الفطرة بالنهى عن تحريم الطيبات ـ عمارة الكون تقتضى خلق الإنسان روحياً مادياً معاً ـ الفطرة تأبى ما ينافيها ـ نزوع أهل الأديان السابقة إلى مقاومة الفطرة : الرهبانية ابتداع من المسيحيين ـ خطر المادية المتحللة ـ توسط الاسلام ـ سبب نزول آيات التفسير ـ إعطاء النفس حقها المشروع لاينافى تقوى الله ـ حرمان النفس من الطيبات بقصد تهذيبها استظهار وتزيد على الله ـ توسط الإسلام أصل إصلاحى عظيم الأثر فى البشر ـ (شبه لدعاة التزهد والتقشف : سير الصالحين والراشدين . أثر الترف فى إفساد الأمم . حملة القرآن على أهل الترف) ـ (الجواب عن هذه الشبه . الولاة قادة وقدوة . الأمم تدعى إلى التقشف فى بعض ظروفها كعلاج واستعداد ـ القرآن إنما حمل على المسرفين فى ترفهم) ـ أحكام الحلف ومناسبة ذكرها فى هذا الموضع ـ حكمة الإسلام فى تشريع الكفارات لمن تورط باليمين أو الخطأ أو الالتزام ـ الإسلام يؤثر فعل الخير والبر على التمسك باليمين المنافية لهما ـ التفرقة بين اللغو وما عقدت عليه العزائم ـ الكفارات من أعظم أبواب البر ـ وجوب حفظ الأيمان وما يوحى به الأمر بذلك .

آيات التفسير :

نستعين الله تعالى ونتابع الكلام على الآيات الكريمة التى جاءت فى سورة « المائدة » مُصدَّرة بالنداء الإلهى للمؤمنين ، وقد انتهى ما أردناه من الكلام على تسع من هذه الآيات ، وهذا هو النداء العاشر :

قال الله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان . فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » .

* * *

مراعاة حق الفطرة بالنهى عن تحريم الطيبات :

هذا أحد العقود التى جاءت بها السورة ، وأمرت فى أولها بالوفاء بها ، وموضوعه مبدأ من أهم المبادىء الإسلامية التى جعل الله المسلمين بها أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس ، ذلك المبدأ هو مراعاة حق الفطرة الإنسانية ، والنهى عن سلوك السبيل التى سلكها أهل الأديان السابقة ، أو بعض الفلاسفة ، من تعذيب النفس وحرمانها من الأخذ بما يلائم الفطرة ، ويحقق المتاع الجسمى الطبيعى ، إيثاراً لتهذيبها ، وميلا إلى تقوية الجانب الروحى فيها ، فالقرآن الكريم يبطل هذا فى قوة وحزم ، وينهى المؤمنين عنه فى عقد يجعله فى سورة « العقود » ويصف ما أحله للناس بأنه طيبات ، إيحاءً لهم بأن إحلاله إنما كان لطيبه ، وطيبه يدل على خلوّه مما يؤذى النفس مادياً أو معنوياً ، واشتماله على ما يفيدها فى كليهما ، ثم يشعرهم إشعاراً قوياً — حين ينهاهم عن الاعتداء ، وينفى حب الله للمعتدين — بأن فى هذا خروجا من الانسان عن حده ، وتجاوزاً لدائرة فطرته وإنسانيته ، وتمرداً على الألوهية ذات الدقة فى التشريع ، والحكمة فى التحليل والتحريم ، ثم يأمرهم أمراً صريحاً بالأكل مما رزقهم الله من الطيبات ، غير مكتف بفهم ذلك من النهى السابق ، ويؤكد هذا كله بأمرهم بتقوى الله الذى هم به مؤمنون ، مشيراً لهم بهذا إلى أن ذلك من مقتضيات الإيمان ، ثم يلحق ذلك ببيان السبيل التى بها

يتخلص من الزم نفسه بتحريم شيء مما أحله الله ، مبيناً حكم اليمين وحكم الكفارة مستوفياً بذلك أمر هذه الالتزامات فى مختلف أحوالها .

عمارة الكون تقتضى خلق الإنسان روحياً مادياً معاً :

اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الإنسان مركبا من روح وجسم ، حتى يكون صالحا للماديات والمعنويات ، ولم يجعله كالملائكة روحانيا صرفا ، لأن عمارة هذا الكوكب الذى نعيش عليه تقتضى هذا اللون من الخلق المزدوج الطبيعة ، تقتضى « المادية » لأن الكون مشحون بالمادة ، فلو كان سكانه روحانيين لما انتفعوا بها ، ولما التفتوا إليها ، ولظلت معطلة ساذجة يتفاعل بعضها تفاعلا يؤدى به إلى الفناء ، وبعضها تفاعلا يؤدى به إلى التوالد الساذج الذى لا تلبث ثمراته أن تلتحق بأصوله فتهمل وتعطل فلا يتحقق المقصود من إثارة الأرض وعمارتها ، وتقتضى مع ذلك « الروحية » لأن سكان هذا الكوكب لو كانوا ماديين صرفا ، ولم تكن لهم « معنويات » يدركونها ويقصدون إليها ويتمتعون بها كما يتمتعون بالمادة لكان قصاراهم أن يكونوا كالحيوان الأعجم ، أو كالوحوش فى الغاب ، ولما أدركوا الخالق ، وعرفوا حقه ، وتوجهوا إليه بالعبادة ، ولما كانت الحياة إلا ظلمات مادية لا يتخللها أى ضوء من أضواء العقل والروح التى هى من غير شك سر الإنسانية وقوامها .

الفطرة تأبى ما ينافيها :

خلق الإنسان ـ لهذه الحكمة البالغة ـ على هذا النحو الجامع بين المادية والروحية ، فكان لابد له من الاعتراف بحقوق فطرته وميوله وعواطفه ، لابد من الاعتراف بأنه إنسان يشتهى أن يأكل ويشرب ويلبس ويتزوج ويجتمع ويغدو ويروح ويسافر ويقيم ، ولابد من الاعتراف بحقه فى ألا يقف من هذه الأشياء عند حد الضرورة ، فلا يأتيها إلا بقدر ، ولا يزاولها إلا فى حدود ضيقة ، فإنه بحكم بشريته طموح نزاع إلى المعرفة والتوسع وإلى أن يكشف الأسرار ، ويعرف الأسباب ، وينتقل من معلوم إلى مجهول ، ويركب الأخطار ، ويتعرض

للمغامرات ، كل هذا من طبعه ومما فطر عليه ، فلا يمكن أن يُلزم بما ينافر هذا الطبع ، ويجافى هذه الفطرة ، لا يمكن أن يلزم بالقبوع فى كهف أو مغارة أو جبل من الجبال ، لا يأكل إلا من أعشابها ، ولا يشرب إلا ما يشتفه من رمالها ، أو يلتقطه من نداها أو مطرها ، لا يمكن أن يُكبَّل نشاطه الإنسانى ، وتقيد إمكانياته البشرية ، واستعداداته الطبيعية بقيد ينافيها ويبطلها ويذهب بالغاية المقصودة منها ، لا يمكن أن يقال له « جع » وقد خلقتْ له معدة وأمعاء وجهاز كامل يقتضى أن يأكل ، ولا يمكن أن يقال له « اكتف بالضرورى من الغذاء » وقد خُلقتْ غدده وأجهزته الهضمية وما يتصل بتقويمه وبنيته خلقاً يستدعى أن يتوسع فى ذلك ، وأن يترفه أحيانا ، وأن يتمتع متاعا حسنا يَشْرَح به صدراً ويقَر به عينا ، ويعرف معه نعمة الله عليه ، ولا يمكن أن يقال له : انقطع عن الاجتماع ، وأنت مدنى بالطبع ، ولا اهجر النساء ، وأنت جزء من نوع ، لا يكمل ذَكره إلا بأنثاه ، ولا أنثاه إلا بذكره ... وهكذا فالفطرة تأبى كل ما ينافيها ، وهى الباقية فى الإنسان الراسخة فيه ، وكل ما سواها فهو طارىء عليها ، متأثر بها ، لا يستطيع أن يزيلها ، ولا يقوى على أن يحيلها .

نزوع أهل الأديان السابقة إلى مقاومة الفطرة :

نزع أهل الأديان السابقة إلى الخروج بالإنسان عن هذا النطاق الذى ضربته عليه الفطرة « فطرة الله التى فطر الناس عليها » فكان منهم من آثر الجانب الروحى ورمى إلى فك أسر الإنسان من قيود المادة ، وانتزاعه من العواطف والميول والنزعات والشهوات التى ركبت فيه ، وكانت طباعا لازمة له ، ومن هنا كان التزهد والتبتل والترهب والتخلى والتقشف ، ومكابدة الحرمان فى المأكل والمشرب والملبس والشهوة الجنسية .

الرهبانية ابتداع من المسيحيين :

وإذا قلت فى هذا المقام : نزع أهل الأديان السابقة ، فإنى أريد أن يفهم القارىء من هذا أن الأديان السابقة نفسها لم تكن تفرض على الناس ابتـــداء

أن يكونوا متبتلين رهبانيين ، وإنما كانوا هم أنفسهم يبتدعون ذلك نزولا على معان فلسفية نبتت فى أذهان بعضهم ، ظناً منهم أنهم بذلك يرفعون من قيمة الإنسان ، ويقوّون من صلته بعالم السمو والكمال ، وما دروا أنهم بذلك يصادمون فطرة الله ، ويغفلون عما فى هذه الفطرة نفسها من حكمة ، حيث تعين المادةُ أبلغ العون على إدراك المعانى الروحية ، وتقوّى بأساليبها المختلفة ، ومن حيث يشعر الإنسان أو لا يشعر ، رغبة الإنسان فى التعلق بالمعنويات ، والنزوع إلى السموّ بها واكتناه لذاتها وعرفان أسرارها ، وفى القرآن الكريم إشارة إلى ذلك حيث يقول الله عز وجل « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها » . قال المفسرون ، معناه : أحدثوها وجاءوا بها من عند أنفسهم ، وما فرضناها نحن عليهم ، والاستثناء فى قوله عز وجل « إلا ابتغاء رضوان الله » منقطع ، والمعنى : ولكنهم ابتغوا رضوان الله بتلك الرهبانية فلم يرعوها حق رعايتها ، والرهبانية المشار إليها هى ما حملوا أنفسهم عليه من المشاق فى الامتناع من المطعم والمشرب والملبس والنكاح ، والتعبد فى الجبال ، فهذه الآية مفيدة للمعنى الذى ذكرناه من أن الله تعالى لم يشرع هذه الرهبانية فى دين الذين ترهبوا ، وإنما هم الذين أحدثوها ، وأن إحداثهم إياها كان فلسفة منهم ترمى إلى غاية هى فى نفسها شريفة ، وهى ابتغاء رضوان الله ، ولكن الوسائل لا تقبل إلا إذا كانت مشروعة غير مناهضة لمبادىء الفطرة القويمة ، كما تفيد أن هؤلاء الذين ابتدعوها لم يرعوها حق رعايتها ، وعندى أن ذلك لأنهم ـ بحكم بشريتهم ـ لم يطيقوها ولم يقدروا على التزامها ، وهذا شأن كل التزام ينافى الطبيعة ، ويخالف الفطرة ، وإن السر أعظم السر فى خلود الشريعة الإسلامية لفى إتيانها على حكم الفطر ، وعدم منافرتها للطبائع الإنسانية .

وفى ذلك عبرة يجب أن ينتفع بها واضعو القوانين ، ومنظمو النظم ، فإنما ينزل الناس على حكمها راضين ، ويستمرون على احترامها فى السر والعلن ، إذا كانت تنظيما للفطرة ، وتحقيقاً للمصلحة ، أما إذا كانت تجافى طبائع الناس ، وتناهض

سنن الحياة ، ولا تعترف بواقع الفطر ، فإنها مقضىّ عليها بالزوال مهما دعمتها القوة ، وأيدها السلطان .

خطر المادية المتحللة :

وكما نزعت طائفة من أهل الأديان إلى هذا الجانب ، وهم غالباً من أتباع المسيحية ، نزعت طائفة أخرى إلى الجانب المادى وهم غالبا من أتباع اليهودية ، ولا نطيل فى تتبع مذهبهم المادى ، فهو معروف وله أنصاره الذين يريدون للإنسان حياة مطلقة من كل قيد ، غير مقيدة بأى نظام ، تستبيح كل شىء ما دام فى قدرة الإنسان أن يفعله ، وما دام يحقق له شهواته فى أوسع نطاق ، ويمكنه من أن ينفق كل لحظة من لحظات حياته فى صورتها الواقعية أو الوجودية كما يقولون ، وحسبنا أن جميع أرباب العقول لا يرون فى هذا المذهب إلا هوساً وجنونا ، بل خطراً داهما لو تعرض له العالم لهبت عليه ريح الفناء .

توسط الإسلام :

والإسلام دين الفطرة والتوسط ، فهو لا يرضى بأن يكون أمر الإنسان معلقاً بهذا الجانب أو ذاك ، لا يرضى بأن يتركه فى ظلمة المادية غارقا فى شهواته ولذته ، غير مستمسك بما يرتفع به ويسمو على الحيوان المشارك له فى ذلك ، ولا يرضى بأن يكله إلى هذه الرهبانية الزاهدة فى الحياة ، الهاربة من العمل والسعى ، المحاولة تعطيل سنة الله فى الخلق ، ولكنه يطلب إلى الناس أن يكونوا وسطا بين هؤلاء وهؤلاء ، وهذا هو الاعتدال الذى ذكره القرآن الكريم فى غير موضع بعبارات محكمة سارت مسير الأمثال ، وأفصحت عن مبدأ الاتزان والقسط فى كل شىء أحسن إفصاح : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » . « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » . « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » .

ومما جاء على مبدأ التوسط ، والاعتراف بالفطرة والواقع أن الاسلام

اعترف بالحرب كضرورة بشرية « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ولكنه مع هذا نهى عن الاعتداء بها أو فيها ، وحث على الإنصاف والعدل حتى مع البغض والشنآن « فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » . « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » .

ومما جاء على هذا المبدأ أيضاً مبدأ التوسط آية التفسير التى نحن الآن بصددها « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . . . الخ .

* * *

سبب نزول آيات التفسير :

ذكروا فى سبب نزول هذه الآيات روايات كثيرة لا تختلف معانيها كثيرا ، وكلها تفيد أن الإسلام يأبى للناس أن يقصدوا إلى ما كان يقصد إليه أهل التبتل والرهبانية ، ويريدهم على أن يأخذوا بحظ بشريتهم من الحياة والمادة فى قصد واعتدال .

ونحن نسوق بعض هذه الروايات على شهرتها وكثرة ذكرها فى كتب التفسير والحديث ، تسهيلا وتقريبا وتكميلا ، وليكتفىَ بها من شاء .

فمن ذلك ما خرجه مسلم عن أنس أن نفراً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله فى السر ، فقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أنام على الفراش ـ فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فحمد الله وأثنى عليه فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ؟ لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وخرّجه البخارى عن أنس أيضا ولفظه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها

فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ! قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وخرّج الإمام أحمد في مسنده عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سَرِيَّة من سراياه ، قال : فمر رجل بغار فيه شيء من الماء فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار فيقوته ما كان فيه من ماء ، ويصيب ما حوله من البقل ، ويتخلى من الدنيا ، قال : لو أني أتيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك ، فإن أذن لي فعلت ، وإلا لم أفعل ؛ فأتاه فقال : يا نبي الله إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل ؛ فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا . قال : فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة ، والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاة ستين سنة » (١) .

وهناك روايات كثيرة غير هذه .

إعطاء النفس حقها المشروع لا ينافي تقوى الله :

ويؤخذ مما روينا أن النبي صلى الله عليه وسلم أرشد الرهط الثلاثة إلى أن نهيه عن التبتل والانقطاع ، وأمره بتوفية النفس حقها من حظوظ الحياة في اعتدال وما شرحه من سنته في المداولة بين ذلك وبين العبادات ـ كل ذلك لا يتنافى مع التقوى والخشية من الله ، فإنه صلى الله عليه وسلم أتقاهم وأخشاهم ، ومع ذلك لا يفعل ما يفعلون ولا يرضى به سنة لأمته .

---

(١) الغدوة المرة من الغدو ، وهو سير أول النهار ، نقيض الروحة التي هي المرة من الرواح .

حرمان النفس من الطيبات بقصد
تهذيبها استظهار وتزيد على الله :

وفى ذلك إشارة إلى معنى رفيع ، هو أن التقوى والخشية فى واقعهما الصحيح تستدعيان الإخلاص فى تنفيذ ما أمر به الله أو نهى عنه ، وأن إضافة شىء إلى ذلك تحقيقاً لهوى نفس - ولو كان هوى فى مظهر دينى أو زهداً فى متاع ابتغاء رضوان الله - إنما هو تزيد غير مقبول ، وخروج على سنة المشرّع ، وكأنه استظهار على الله جل علاه ، لأن فاعل ذلك كأنه يقول لربه : لقد شرعت لى التمتع بالحلال ، والأكل من الطيبات ، وتناول ما تقتضيه بشريتى ، وما يصلح عليه جسمى ، وتقوى به نفسى ، ولكنى لا أرى ذلك كافياً يا ربى ، فأطلبُ ما هو فوقه زيادة فى ابتغاء رضوانك ، فأجوع ، وأعرى ، وأتبتل ، وأنقطع ... الخ ، ولا شك أن هذا اعتداء وخروج على سنة الشريعة ، ولذلك عد الأمر فى قوله تعالى : « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا » للوجوب لا للإباحة ، إذ هو تصريح بأن النهى الوارد فى الآية السابقة « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » لا يتحقق الامتثال فيه إلا بالانتفاع بالطيبات فعلا ، والخروج عملا من مظهر الممتنع عنها بالتزام وإيثار للحرمان .

ومما يساعد على فهم هذا ما ذيلت به الآية من قوله تعالى : « واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » وفى ذلك يقول العلامة الطبرسى صاحب تفسير مجمع البيان : « هذا استدعاء إلى التقوى بألطف الوجوه ، وتقديره : أيها المؤمنون بالله لا تضيعوا إيمانكم بالتقصير فى التقوى ، فتكون عليكم الحسرة العظمى واتقوا فى تحريم ما أحل الله لكم ، وفى جميع معاصيه مَن به تؤمنون وهو الله تعالى ، وفى هاتين الآيتين دلالة على كراهة التخلى والتفرد والتوحش والخروج عما عليه الجمهور فى التأهل وطلب الولد ، وعمارة الأرض ، وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأكل الدجاج والفالوذج ، وكان يعجبه الحلواء والعسل ، وقال : إن المؤمن حلو يحب الحلاوة ، وقال : إن فى بطن المؤمن زاوية لا يملؤها إلا الحلواء . وروى أن الحسن كان يأكل الفالوذج ، فدخل عليه فرقد السبخى ، فقال : يا فرقد ما تقول

فى هذا فقال فرقد لا آكله ولا أحب أكله ، فأقبل الحسن على غيره كالمتعجب ، وقال : لعاب النحل بلباب البر مع سمن البقر هل يعيبه مسلم !

ويقول الطبرى فى هذا أيضاً : « لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شىء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح إذا خاف على نفسه بإحلال ذلك بها بعض العنت والمشقة ، ولذلك رد النبى صلى الله عليه وسلم التبتل على ابن مظعون ، فثبت أنه لا فضل فى ترك شىء مما أحله الله لعباده ، وأن الفضل والبر إنما هو فى فعل ما ندب عباده إليه ، وعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنه لأمته ، واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون ، إذ كان خير الهدْى هدْى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا كان كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشَّعر والصوف على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله ، وآثر أكل الخشن من الطعام ، وترك اللحم وغيره حذَراً من عارض الحاجة إلى النساء ... فإن ظن ظانٌّ أن الخير فى غير الذى قلنا لما فى لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس ، وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة فقد ظن خطأ ، وذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها ، ولا شىء أضر للجسم من المطاعم الرديئة لأنها مفسدة لعقله ، ومضعفة لأدواته التى جعلها الله سبباً إلى طاعته ، وقد جاء رجل إلى الحسن البصرى ؛ فقال : إن لى جاراً لا يأكل الفالوذج ، فقال : ولم ؟ قال : يقول لا يؤدى شكره ؛ فقال الحسن : أفيشرب الماء البارد ؟ فقال : نعم ، فقال : إن جارك جاهل ، فإن نعمة الله عليه فى الماء البارد أكثر من نعمته عليه فى الفالوذج » .

* * *

توسط الإسلام أصل إصلاحى عظيم الأثر فى البشر :

هذا أصل من أصول الإسلام الإصلاحية ، وبه ضمن الله لأمة الإسلام صفات الحياة والتدرج فى مراقى الحضارة والمدنية ، والسعى إلى الانتفاع بكل ما فى هذا الكون من منافع سخرها الله للإنسان فى رقابة من تقوى الله وخشيته

يتحقق بهـا الاعتدال وعدم الإسراف فى اتباع الشهوات ، وعبادة المـادة ، والاشتغال بها إلى درجة الفناء فيها ، وبهذا كانت الأمة الإسلامية أمة وسطا ، وصلحت لأن تكون شهيدة على الناس ، أى أن تكون مقاييسها هى المقاييس الصحيحة ، وسنتها هى السنن القويمة ، وذلك أن الأمم إذا صلحت واستقامت واعتدلت كانت نموذجا لغيرها من الأمم فى أفعالها وأقوالها ، وما يعد صلاحا وما يعد فساداً ، واليوم ، وقد تأثر الناس بالقوة والمـال والعزة والمنعة ، أصبحت الدول الغربية سواء فى أوربا أو فى أمريكا هى الدول التى يحتكم إليها فى المقاييس والصلاح والفساد ، والعدل والظلم ، فكأنهم هم الشهداء على الناس ، وما ذلك إلا بأن المسلمين تنحوا عن مركزهم العالمى الذى بوأهم إياه دينهم فى سالف الزمان .

ولقد كان لهذا الأصل الإسلامى فضل على الإنسانية عظيم ، لأنه لفتها عما أراد أن يجره إليها أهل الرهبنة والانقطاع ، وسلك بها سبيل العمل والنشاط والسعى الدائب لعمارة الكون ، وكشف ما أودعه الله من أسرار فى الأرض والجو والسماء .

ولو أن الإسلام صادم العرب بتقرير ميله إلى الرهبنة والتزهد وطلب إليهم أن يأخذوا أنفسهم بالحرمان والتعذيب وتحريم الطيبات ، لما استطاع أن يمد رواقه على العالم ، ولكان قصاراه أن يربى من هؤلاء العرب جماعة يخيّم عليها الكسل ، ويعوّقها الضعف والتراخى عن كل عمل ، جماعة لا يقوم بهم حكم ولا عدل ولا علم ولا اختراع ولا إنشاء ولا حرية ، جماعة لا تنتفع بهم الإنسانية فى قليل ولا كثير ، ولم يكن يطول بهم الزمن حتى ينقرضوا ويبيدوا ويصبحوا أثراً بعد عين ، وخبراً يذكر فى القصص وما يتسلى به الناس .

ففضل الإسلام اذن بهذا الأصل عظيم ، فقد غرس فى العالم غراسه ، واقتلع ما كان قد نبت فى الناس من بذور الرهبانية والتخلى ، ومن هنا تخلت المسيحية عن ميراثهـا الذى كان ثقلا عليها ، وآصاراً وأغلالا فى أعناقها ، فخرجوا بأنفسهم يبتغون الحياة ، ولم يبق فيهم إلا هذا النوع المعروف بالأديرة ، وهو أشبه بملاجىء

يلجأ إليها العاجزون ، ويفر إليها الهاربون من الكفاح ، ولا يحفظه الآن إلا ما رُصِد عليه فى قديم الزمان من الأموال والثمرات ، وما أشبهه بالتكايا التى كان ينقطع فيها فريق من المسلمين ساروا وراء من كانوا قبلهم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى دخلوا هذه الخرائب التى لا تُصلح إنساناً فى مادته ولا فى روحه ، وإنما هى مغاور وكهوف للإنسان المستأنس ، وقبور للأحياء الأموات .

وهكذا كان المسلمون فى أولهم دعاة عمل وسعى وجد ونشاط ، فسار المسيحيون وراءهم وأخذوا فى العمليات بأصولهم وقواعدهم ، وكان المسلمون فى آخرهم أهل تقليد واقتباس من الذين كانوا من قبل يوجهونهم ويقودونهم إلى الصلاح والحياة الصحيحة .

* * *

شبه لدعاة التزهد والتقشف :

سير الصالحين والراشدين . أثر الترف فى إفساد الأمم . حملة القرآن على أهل الترف .

قد يتساءل بعض الناس فى هذا المقام عما ورد فى التاريخ من أخبار الولاة الصالحين ، والأئمة الراشدين الذين كان شعارهم الزهد والتقشف ومشاركة الرعية فى لأوائها وبأسائها وضرائها ؛ وبالتالى يتساءلون عما عسى أن يدعو إليه قادة الأمم وموجهوها فى كثير من الظروف من دعوة التقشف والتخفف واتجاه أفراد الأمة ولو كانوا من أغنيائها وقادريها إلى التخلى عن مظاهر الترف وكثير من المباحات والطيبات ، حتى تستغنى بما لديها ولا تقع تحت ضغط أعدائها والمتربصين بها .

قد يتساءل عن ذلك بعض الناس ، وقد يذكرون أن الأمم المترفة الناعمة التى ركنت إلى بُلهنِيَة العيش ، واستلانت متاع الحياة ، قد استرخت وأصيبت بالضعف والكسل ، وكلّت عن مكابدة الصعاب والمشاق حتى استولى عليها أعداؤها ، أو أدركها الهزال فعاشت عيشة لا خير فيها ، ولا سمو ولا كمال .

قد يتساءلون عن ذلك ، ويذكرون فيه آيات من الكتاب الكريم من مثل قوله تعالى : « أمرنا مترفيها » . « إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » « ارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم » . « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » . إلى غير ذلك .

الجواب عن هذه الشبه :

الولاة قادة وقدوة . الأمم تدعى إلى التقشف فى بعض ظروفها كعلاج واستعداد . القرآن إنما حمل على المسرفين فى ترفهم :

والجواب عن هذه الأسئلة سهل ، فأما أخبار الولاة الصالحين والأئمة الراشدين الذين كانوا يأخذون أنفسهم بالتقشف ، فإنما كان ذلك منهم مشاركة لأوساط الناس ، وقدوة للفقراء وذوى الحاجة من الأمة ، وإن من حسن السياسة ، ومما يجلب محبة الرعية وطاعتها أن يكون الراعى زاهداً غير متكالب على المتاع ، ولا متناول منه ما يعجز عنه الأوساط من رعيته ، وهؤلاء كانوا قادة للأمة يأخذون من أموالها ما يكفل لهم معاشهم ، ويغنيهم عن الصفق فى الأسواق ، فكان لهم من بيت المال مثل ما لغيرهم من أمثالهم لا يزيدون ولا ينقصون ، ولم يكن لكثير منهم مال خاص يمكنه من الانفاق عن سعة ، والله سبحانه وتعالى يقول : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » هذا ولم يروَ عن أحد منهم أنه ترهب أو اعتزل الحياة ، أو جانب النساء ، فكل ما فى الأمر هو الفرار من زهرة المال والترف الذى من شأنه ألا يصل إليه جميع أفراد الرعية ، وأن يحملهم على التطلع والتساؤل والمطالبة بمثله فهذا مقام آخر غير مقام الحرمان والتبتل والخروج من حياة العمل والجد بالانقطاع عن الدنيا ، وتحريم ما أحل الله قولا أو فعلا ، وشتان بين المقامين .

وأما أمر الأمم وما قد تدعو إليه ظروفها من ملابسة بعض المشاق ، وترك بعض المتاع ، والتخلى عن بعض ما أحل الله من الطيبات ، فهذا من قبيل العلاج الذى تحتاج إليه الأمة فى بعض الأحيان ، ويترتب عليه صلاح أمرها فى بقائها

أو فى توفير أسباب قوتها ومنعتها ، ومثله كمثل المريض الذى توصف له الحمية عن بعض ما يحل له وهو صحيح ، فليس ذلك مما نحن فيه ، وقد عرفنا فى حياتنا الحاضرة أمماً توقف صلاحها على هذه الخطة فقام أفرادها بتنفيذها وتطبيقها على أنفسهم وأهليهم ومناهجهم فى الحياة حتى كان شعبها كله كأنه فرق متضامنة متعاونة فى جيش واحد له خطة واحدة ، وهدف واحد .

وهذان أيضا مقامان مختلفان شتان ما بينهما .

أما الأمم المترفة التى ضربها الله للناس مثلا ، وأنبأنا أن ترفها كان سبب هلاكها وفنائها وعذاب الله الذى حق عليها ، فإنما هى الأمم التى انغمست فى النعيم انغماساً كلياً ، ولم ترع جانب الروح ، فهى الأمم المادية التى لم تقف ماديتها عند حد ، أمم الشهوات والفناء فيها ، والانحلال بها ، والاسلام ليست دعوته إلى المادية دعوة إلى الاباحية والإسراف والخروج عن الحد ، ولكنه يدعو إلى التوسط بين مطالب الجسم ومطالب الروح « وكان بين ذلك قواما » .

* * *

أحكام الحلف ومناسبة ذكرها فى هذا الموضع :

اتصل بهذا النداء الإلهى الذى وضع للمؤمنين أساس معرفة حق الفطرة ، والنزول على مقتضياته ـ اتصل بهذا النداء بيان لأحكام الأيمان التى يحلفها الناس ويلزمون أنفسهم بها أمورا فى حياتهم ، وهو اتصال مناسب من جهة المعنى ، فإن الذين نُهوا عن تحريم ما أحل الله ، وأُمروا بتناول ما أباحه من الطعام ، كانوا قد التزموا ذلك ، وكان لبعضهم أيمان على التزامه ، وقد ورد فى بعض الروايات وهى ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : لما نزلت « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » فى القوم الذين كانوا حرموا النساء واللحم على أنفسهم ؛ قالوا يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التى حلفناها عليها ، فأنزل الله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » .

فلذلك الارتباط بين تحريم الناس على أنفسهم ما أحله الله لهم ، وبيان أسلوبه

التخلص من هذا التحريم ، ذكرت أحكام الأيمان والكفارة ، ومباحث الأيمان والكفارة مبسوطة فى كتب الفقه ، وفيها تفصيلات كثيرة للعلماء ، وحسبنا أن نذكر هنا هذه المسائل :

حكمة الإسلام فى تشريع الكفارات لمن تورط باليمين أو الخطأ أو الالتزام :

إن الإسلام يقف فى هـــذه المسألة أيضا - كدأبه فى جميع تشريعاته - موقفاً ملائماً للفطرة ، ذلك أن الإنسان قد يتأثر فى وقت من الأوقات بدافع من حماسته وانفعاله فى حال الرضا أو الغضب ، فتصدر منه يمين حاسمة يلتزم بها أمراً من الأمور ، ثم تهدأ حماسته ، ويزول انفعاله ، ويعود إلى حالته الطبيعية ، فربما تبين له شططه أو ارتكابه ما يخالف البر والخير بإقدامه على هذه اليمين ، فلو فرضنا أن التشريع الإلهى كان ملزماً له بما التزم ، مضيقا عليه فيه ، لا سبيل إلى انفكاكه منه ؛ فلا شك أن ذلك يكون سببا فى عنت كبير ، ومشقة بالغة ، لا يطيقها عادة ، ويظل المرء آسفاً على ما بدر منه ، فإن التزم ما ألزم نفسه إياه فى صدق وإخلاص عملا بدينه ، وخوفا من ربه ، فإن ذلك هو المشقة اللازمة التى لا تطاق ، وإن تساهل بدافع من نفسه ، متحللا من يمينه دون أن يكون التحلل مشروعا ؛ فإنه حينئذ يكون رافضاً لدينه ، خارجا عليه ، معذب النفس والضمير بذلك دائماً وإن اجترأ عليه ، وتوقح فيه ، فلم يكن بد إذن من أن يوجد مخلص تشريعى لهذا المتورط ، ومن أن يفتح له باب الرجوع عما تورط فيه ، تمشيا مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، والرحمة التى جعلت من أسس التشريع وكلاهما يقتضى التخفيف والتخليص من المآزق والمضايق .

لهذا كان من محاسن الإسلام شرع الكفارات فى الأخطاء والأيمان والالتزامات التى تنافى الطبيعة ، وتجافى ما فطر عليه الناس ، فللأيمان كفارة ، ولقتل النفس خطأ كفارة ، وللظهار كفارة ... إلى غير ذلك ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم «قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم».

الإسلام يؤثر فعل الخير والبر على التمسك باليمين المنافية لهما :

ويتصل بهذا المعنى أن الإسلام لا يكتفى بأن يبيح للمرء أن يتحلل من التزامه بما لا خير فيه حين يرى ذلك ، بل يوجب عليه هذا ويأمره به على أن يكفر يمينه ، وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه « إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فائت الذى هو خير وكفر عن يمينك » وفى لفظ « فكفر عن يمينك وائت الذى هو خير » وقد جاء هذا الحديث بروايات كثيرة غير هاتين ، وفى بعضها تقديم التكفير ، وفى البعض الآخر تقديم فعل ما هو الخير على التكفير ، وقد استدل بذلك على جواز الأمرين .

فالإسلام لا يحب أن يعوّق الخير أبداً ، ولا يرضى بأن يكبل الناس بأى قيد يحول بينهم وبين الصلاح والإصلاح ، ويتجاوز فى هذا عن عقدة اليمين وعن كونه عهداً بين صاحبه وبين الله جل جلاله ، وهذه نظرة سامية للخير والمصلحة ، وتشريع سديد من شأنه أن يفتح المجال أمام العاملين المصلحين .

التفرقة بين اللغو وما عقدت عليه العزائم :

ثم إن الإسلام لم يعتد فى الأيمان باللغو ، وإنما اعتد بما عقدت عليه العزائم ، وقد اختلفوا فى اللغو تبعاً لما جاء تفسيراً له فى الروايات ، فمنهم من قال : هو تحريم ما أحله الله لك كما جاء فى الآية السابقة ، فعليك أن ترجع عنه ولا كفارة عليك ، ومنهم من قال : اللغو مثل أن يتبايع الرجلان فيقول أحدهما : والله لا أشترى منك إلا بكذا ، ويقول الثانى والله لا أبيعك إلا بكذا ، ثم يقبل كل منهما بغير ما حلف عليه ، وقيل : هو الحلف فى الغضب ، وقيل : هو فى النسيان ، وقيل : هو الأيمان التى يجرى بها اللسان فى الكلام دون قصد ، كأن تقول لصاحبك : لا والله . بلى والله ، أو لضيفك : والله لتأكلن هذه ، أو لتتقدمن علىّ .. الخ

أما الأيمان المعقودة فهى التى تقال مقصودة مصمماً عليها فى روية وفكر ، فهذه هى التى تجب فيها الكفارة .

ولا شك أن هذه التفرقة فيها رحمة عظيمة ، وفيها « واقعية » كما يقولون ، أو نزول على مقتضى الفطرة كما بينا .

الكفارات من أعظم أبواب البر :

ولقد جعل الإسلام الكفارة فى اليمين وفى غيرها بابا من أبواب البر والخير والإحسان إلى المجتمع ، فهى دائرة بين إطعام الفقير أو كسوته ، وبين اعتاق الرقبة ، وبين الصوم ، فالأول ترفيه عن الفقراء والمساكين ، والثانى منٌّ بالحرية على نفس كانت مستعبدة ، والثالث تهذيب وتطهير من شأنه أن يصلح النفوس ويقربها من الفضيلة .

ولا شك أن أبواب الكفارات وأسبابها التى تجب فيها كثيرة متكررة ، فكم من الناس يحلفون كل يوم ، وكم من الناس يخطئون كل يوم ؟ فلو أن الناس عنوا حقا بدينهم ، ونفذوا أحكامه فى الأيمان والكفارات ؛ لوجد المجتمع ألوانا من البر والخير تنهال من كل صوب .

وجوب حفظ الأيمان وما يوحى به الأمر بذلك :

وقد نهانا الله جلت حكمته - مع تحقيقه لهذه المصالح بتشريع الكفارة ، وتيسير الخروج من مضايق الأيمان - عن اتخاذ الأيمان ديدنا لنا ، وأن نقتحم حماها مجترئين عليها فقال جل شأنه فى هذه السورة « واحفظوا أيمانكم » ، وقال فى سورة البقرة « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » .

وحفظ الأيمان يقتضى منا ألا نبذلها إلا حيث تكون الحال تقتضيها اقتضاء شديدا كأن توجه إلينا اليمين فى حق ، أو فى دفع باطل أو نحو ذلك ، فإن الأيمان الشرعية فى الإسلام إنما تكون بالله عز وجل ، فإذا قال القائل : أقسم بالله فهى كلمة خطيرة لا يجوز له الإقدام عليها إلا إذا كان واثقاً مما سيأتى بعدها ، جازما بأنه يقرر الحقيقة فى إجمالها أو تفصيلها ، وأنه لا يخفى غير ما يظهر ، ولا يتلاعب بألفاظه ، ولا يتخذ منها دريئة له ، وإذا تصور المؤمن عظمة الله وجلاله وإحاطته بكل شىء من أحواله ومقاصده وأقواله ، فإنه لا يتجرأ على اقتحام هذا الحمى إلا

إذا كان على ثقة من نفسه ، وعلى بينة من أمره ، ولذلك روى عن بعض الصالحين أنه كان يقف أمام أحد القضاة طالباً حقه من مغتصب لا بينة له عليه ، فوجه إليه القاضى اليمين ، فلما سمع هذا التوجيه أصفر وجهه واضطرب اضطرابا شديداً مع علمه الصدق فى نفسه ، وأنه على الحق ، ثم لم يلبث أن فاضت عيناه بالدمع ، فقيل له : ألست محقاً ، فما يبكيك ، ولم تضطرب هذا الاضطراب ؟ فقال : ما بكيت اضطرابا من باطلى ، ولكنى استحييت أن أجعل الله عرضة ليمينى لعرض من أعراض الدنيا وقد سمعت قوله عز وجل « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » وأشهدكم أنى وهبت خصمى حقى إيثاراً لربى !

نعم إن هذه القصة المؤثرة ليست هى المقياس التشريعى فى قبول توجيه الأيمان أو عدم قبوله ، ومن حق من يشعر بأنه على الحق أن يستوفى باليمين حقه حين تُوجَّه إليه ، ولا يكون بذلك مضيعاً يمينه ، أو جاعلا الله عرضة فيها ، ولكنى إنما سقتها لأبين مدى الرهبة التى يشعر بها المؤمن القوى حين توجه إليه يمين باسم الله ، فأين هذا ممن يجترىء كاذباً على اليمين ، فيقتحم هذا الحمى وهو يعلم أنه حمى الله القوى العزيز؟ ولولا أن الشعر خيال ، وأن الشعراء « يقولون مالايفعلون » كما قال الله عز وجل ، لحسبت أن الله سوف لا يغفر لابن الرومى قوله :

وإنى لذو حلف كاذب ... إذا ما اضطررت وفى الحال ضيق
وما فى اليمين على مُخْـرَجٍ ... بدافع بالله ما لا يطيـق !

ولكنى أحسبها دعابة من دعاباته ، غفر الله له .

ثم أقول : كما أن الله تعالى يأمرنا بحفظ اليمين فى ألا نقدم عليها إلا واثقين مطمئنين ، كذلك يقتضى هذا الأمر بلفظه أن نحفظها إذا حلفنا ، فلا نضيعها ، ولا نحنث فيها إلا لغاية يعلم الله من قلوبنا أنها غاية صحيحة مبررة للتحلل من هذا العقد ، وذلك هو المعبر عنه فى الحديث الشريف بقوله صلى الله عليه وسلم : « فرأى غيرها خيراً منها » فالمؤمن يزن الأمر بميزان الحق لا بميزان الهوى والرغبة فلا يقدم على الحنث إلا إذا ظن أن الخير فيما سيفعل ، والحقيقة أنه فى هذه الحالة

لا يسمى حانثا إلا باعتبار الصورة والظاهر وما يجب عليه من الكفارة ، وإلا فهو فى الحقيقة التى تبدو من تأمل الحكم مطالب بأن يؤثر الخير ، وألا يصرفه عنه يمين حلفها كما قررنا من قبل . وفعل المرء ما هو واجب عليه تحنث لا حنث ، والكفارة كأنها تطهير له ، لأنه أقدم على الحلف قبل أن يتدبر موقفه ويعلم ما هو الخير ، فلعله كان لو تدبر لم يحلف ولم يعرض يمينه لأن تضيع .

هذا ما يوحى به قوله تعالى : « واحفظوا أيمانكم إذا حلفتم » واندراج المعنى الثانى فى لفظ الآية واضح حيث طلبت منا أن نحفظ أيماننا إذا حلفنا ، أى إذا وقعت منا اليمين فعلا فعلينا أن نحفظها من الحنث ، وحفظها كما قررنا بألا نلغيها إلا ونحن على بصيرة من أن الخير فى إلغائها ثم نكفر عنها ، أما اندراج المعنى الأول فى هذا اللفظ ، فتوجيهه أن نفهم « إذا حلفتم » على معنى يعم : إذا أردتم الحلف ، على حد : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا » يعنى إذا أردتم القيام الى الصلاة . وعلى هذا يكون التعبير شاملا كأنه قيل : احفظوا أيمانكم ابتداء وانتهاء ، حين تقدمون عليها ، فلا تقدموا إلا حافظين لها ، وحين تحلفونها فعلا ؛ فلا تضيعوها .

* * *

هذا هو النداء العاشر من النداءات الإلهية للمؤمنين فى سورة المائدة ، فلننظر كيف حفظ الله جل جلاله بهذا التشريع الحكيم جميع تلك المصالح الحيوية ، موفقا بينها أتم توفيق ، ولنعلم أن هذا ما بدا لنا الآن ، وهو قليل من كثير ، ولكن الجهد محدود ، وسبحان من قال عن كتابه الكريم ، وفى كتابه الكريم : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » . « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » ؟

دعائم القوّة فى الأمم

لحضرة الأستاذ الجليل محمد على علوبه

رئيس جماعة التقريب

استمعت ذات ليلة إلى حديث ممتع كان يتحدث به الأستاذ الجليل محمد على علوبه رئيس هذه الجماعة ، وسيادته متحدث من الطراز الأول ، يستولى على قلوب سامعيه بلفظه المرتب ، وأسلوبه المهذب ، ومعارفه الواسعة التى وعاها قلبٌ شيخ إذا ذكرت التجارب، شابّ إذا تُحُدِّيَتْ الصعاب والعواقب ، وكان يلقى حديثه بنبرات تنبىء عن صدق الإحساس ، وقوة الإيمان ، وعمق الإخلاص ، فأثر ذلك فى نفسى وفى نفوس سائر السامعين تأثيراً حملنى على أن أحاول تسجيل ما وعاه ذهنى من هذا الحديث لقراء ﴿ رسالة الإسلام ﴾ وقد عرضت على سيادته ما كتبت فأقره وأذن بنشره : [رئيس التحرير]

* * *

قال ـ حفظه الله ـ بعد أن بين حالة الأمة الإسلامية الآن ، وما يرجوه شعوبها فى مختلف بلادها من نهضة تعيد مجد الإسلام ، وتجعل لأهله مكانتهم المرموقة فى العالم الحاضر :

ثلاثة أشياء أعتقد اعتقاداً لا يخالجنى فيه شك أنها هى الأساس المتين الذى تقوم عليه عظمة الأمم ، والدرع الحصين الذى يقى هذه العظمة من أن تمس فضلا عن أن تصاب ، تلكم الثلاثة هى : الخلق ، والعلم ، والعمل .

فأما الخلق فلا أريد به فضيلة بعينها ، وإنما أريد هذا المنبع النفسى الذى لا يصدر عنه إلا الفضيلة فى شتى صورها ، ومختلف ألوانها ، أريد هذه القوة الخفية التى تجعل الإنسان رقيباً على نفسه بنفسه ، يسائلها إن فعلتْ لمَ فَعلتْ ، وإن تركتْ لمَ تَركتْ ، ثم ينظر إلى فعلها وتركها نظر المحايد الذى لا يهمه أن يشهد لها أو عليها ، لأنه لا يرمى إلا إلى الخير ، ولا يبغى إلا الإصلاح - إذا وجدت هذه القوة فى الإنسان فهو بخير ، بل هو الخير كله ، إنها ينبوع الأخلاق الفاضلة جميعاً ، عنها ينبع الصبر إذا اقتضته الحياة أن يصبر ، وعنها تنبع الثورة إذا اقتضته الحياة أن يثور ، وعنها يأتى الحياء ، وعنها تأتى الجرأة ، وبها يخلص العامل فى عمله ، والأستاذ فى علمه ، والطالب فى درسه ، والزارع فى حقله ، والجندى فى جيشه ، والحاكم فى ديوانه ، والمحكوم فى مختلف ألوانه ، وبها تحل المشكلات ، وتنفرج الأزمات ، وتكثر الثمرات ، وترقى الجماعات ، وتكثر العوامل المفضية بالأمة إلى السعادة ، وتقل العوامل المؤدية بها إلى الشقاء .

يختلف التعبير عن هذا المعنى ، فمن الناس من يسميه « الضمير الحى » ومنهم من يسميه « الشعور بالواجب » ومنهم من يقول هو « تقدير الفرد لمسئوليته أمام الجماعة » وقد يرد الحديث عنه فى الدين بأنه « التقوى » أو « الإخلاص » أو « النفس اللوامة » . . . الخ . والمعنى فى كل ذلك هو المعنى ، والأثر فى صلاح الحياة واستقامتها هو الأثر .

وقد يكون من العسير أن تربى الأمة كلها على هذا النمط العالى ، ثم يكون من البعيد أن تنهض الأمم إذا كان هذا شرطاً من شروط نهوضها ، أو أساساً من أسس بنائها ، ولكن من يقول أنه يجب أن تكون كلها كذلك ؟ فيكفى أن يشيع ذلك فيها ، وأن يعمل ولاة الأمر على ألا يوسدوا الأعمال - ولا سيما التوجيهية منها - إلا لهذا الطراز من المواطنين الصالحين .

إن سر النهوض فى الأمم الناهضة ، وسر النجاح فى الأمم الناجحة ، يرجع فى الكثير الغالب إلى توافر هذا العنصر فى الأمة ، وإلى حسن الاختيار فيمن توسد إليهم الأمور ، دون تأثر إلا بالصالح العام .

* * *

وأما العلم فلا أريد به مجرد معرفة القواعد والمسائل والنظريات ، وإنما أريد مع هذا علماً تطبيقياً عملياً ننشىء به المصانع والمعامل ، وننتج به الآلات والأدوات ، ونسخره فى تيسير الحياة ، وتذليل صعابها ، ونقوى به أنفسنا ، ونكشف به أمراضنا ، وندرس وسائل علاجها ، ونبتكر لها إذا أعوزنا أن نجد العلاج فيما بين أيدينا ، ونسابق به الأمم فى مضمار الحضارة البشرية سباقا يشعرون معه أننا أعضاء عاملون فى الكتلة الإنسانية ، ولسنا عالة عليهم ، ننتفع بعلمهم ، ونتأثر أبلغ التأثر بآثارهم ، وتمتلىء حياتنا فى بيوتنا ومصانعنا وسائر مواطن نشاطنا بثمرات أفكارهم ، ونحن مع ذلك نرجو أن يحترمونا أو يقدرونا أو لا يفكروا فى استعمارنا ، واستغلال ما لم نستطع استغلاله فى بلادنا ، كما هى سنة القوة مع الضعف ، والمعرفة مع الجهل .

إن الخلق بدون العلم لاينفع ، ولكن العلم فى الأمة الفاضلة يدرأ عنها فيحفظ عليها أن تغزى فى أخلاقها ، والفضيلة فى الأمة العالمة توجه علمها إلى الخير والإصلاح وتعصمها من أن تتخذ منه أداة للهدم والتخريب ، والظلم وهضم الحقوق ، وابتغاء العلو والفساد فى الأرض بالطغيان والجبروت .

لقد كنا ـ معاشر المسلمين ـ قادة فى العلم والاختراع واستنباط ماينفع الناس ويمكث فى الأرض ، وكان الناس لنا فى ذلك تبعاً حيناً من الدهر ، أما الآن فقد انعكست الآية ، وصار القادة تابعين ، والتابعون قادة ، فمتى نعود إلى تبوء مكانتنا ، أو متى ـ على الأقل ـ نشارك أهل العلم فى علمهم ، فنحملهم على احترامنا ، ونجاريهم فى أهم ميادين الحياة ، ونؤدى للإنسانية ضريبة إنسانيتنا ؟ .

بقى الكلام عن العمل ، والشعوب لاتصاب بما هو أضر عليها من الكسل ، إن الكسل إذا خيم على أمة أصابها بالانحلال المؤدى إلى الهلاك ، إنه هو سل الشعوب ، وميكروبها الفتاك ، ونحن معاشر الشرقيين يكثر فينا المتبطلون حتى بين العاملين ، وأقول المتبطلون لأؤدى معنى انصرافهم عن الأعمال بإرادتهم ، أو تخففهم منها عن قصد إيثاراً للكسل ، وهذا الداء متفش فينا ، حتى العاملون منا يحبونه ويركنون إليه كلما اطمأنوا إلى خلوهم ممن يراقبهم أو يحثهم ، فالموظفون عددهم كبير ، وإنتاجهم قليل ، ولا تكاد تجد مشغولا بعمل صدْر يومه يفكر فيه أو فى سواه بعد انفلاته من دائرة شغله ، ولا تكاد تجد لشبابنا مسلاة فى بيوتهم تعود بالخير عليهم وعلى أمتهم ، والمقاهى عامرة بروادها يقطعون فيها ساعات من النهار والليل فى لعب النرد أو الورق أو التندر على الناس ، وتلاميذنا منصرفون عن دروسهم إلى ما ليس من شأنهم ، والنساء فى البيوت مضيعات لأثمن أوقاتهن فى الاجتماعات والأحاديث ، معتمدات على الخدم والمربيات فى كثير من الأحيان ، وهكذا ، قوى معطلة أو مبعثرة لا يعرف لها قيمتها ، ولا نعمل على الانتفاع بها وتوجيهها فيما يعود على الأمة بالخير ، ونتركها تُوَلد بيننا كثيراً من عوامل الضعف ، وتخلق فى مجتمعنا ألوان المشكلات ، وأصناف الأزمات .

لقد قرأت فى بعض المجلات الأجنبية أن كبيراً من أهل أميركا زار أوربا ، وطاف كثيراً من مصانعها ومواطن نشاطها ، فلم يرقه منهم ماسماه تراخياً فى العمل ، وبطأ فى الإنتاج ، وقال : إننا معشر الأمريكيين لو سرنا فى العمل على طريقة البطء والكسل التى يسير عليها الأوربيون لاختلت بلادنا ، واضطربت أحوالنا .

ترى ماذا كان يقول هذا الأمريكى لو طوّف فى بلاد الشرق ؟

* * *

ألا إن الأخلاق قوة ، والعلم قوة ، والعمل قوة ، ولن تقوم أمة إلا إذا اجتمعت لها هذه القوى الثلاث متضافرة ، تسوس بها نفسها ، وتعامل على ضوئها شعوب الأرض أجمعين ؟

بحث عن الدَّولة العبَّاسيَّة

لحضرة صاحب المعالى السيد محمد رضا الشبيبى
وزير المعارف السابق بالعراق

— ٣ —

العباسيون الأول :

أبو العباس السفاح :

بويع أول الخلفاء العباسيين أبو العباس السفاح ، فكانت بيعة اجماعيـة ، أجمع عليها أهل بيته وأنصارهم ، وبهـذا الإجماع امتازت بيعته على بيعة غيره ممن جاء بعده أو خلفه فى هذا المنصب ، أى أن عصر السفاح امتاز بعدم ظهور منافس له أو ثائر عليه ، ومع أن أخاه وخلفه من بعده المنصور أكبر منه سناً إلا أنه كان فى مقدمة من بايعه .

لم يحدث فى خـلافة السفاح حدث على أهل بيته أو أبناء عمومته ، خـلافا لما وقع فى خلافة المنصور ؛ لأن السفاح كان معنياً باستئصال الأمويين فى هذا الدور ، وهو دور التأسيس والبناء .

بطش العباسيون الأول بطشة جبارة ببنى أمية ، قتلوهم أينما وجدوا ، حتى توارى عن الأنظار كل متصل بنسب إلى بنى أمية ، بيد أن كثيراً من أهل الشام حاضرهم وباديهم ، وكثيراً من عرب الجزيرة وديار بـكر ، وهم من ربيعة ومضر وتغلب وبكر بن وائل ، ظلوا ناقين على الهاشميين أو العباسيين ؛ لأسباب شتى ، وهم يستظلون بظل الراية العباسية ، بل أجهد العباسيين بعد ذلك استئصال شأفة

كثير من الناقين عليهم فى حواضر الشام والجزيرة وبواديها ، فانطوى هؤلاء على كثير من الغل وفساد النيات .

أصبح هؤلاء الناقون عونا لكل ثائر على العباسيين ، ولو لم يكن ذلك الثائر من بنى أمية فكثرت الفتن فى الشام والجزيرة ، وفى ديار بكر وربيعة ، وفى ديار مضر ، وتعدد خروج الخوارج فى هذه البلاد ، ولا يخلو تأريخ بلد قديم غلب أهله على أمرهم من محاولة للثورة والانتقاض على الغالب ، فقد ثار الحجاز وثار العراق وثار غيرهما من الأقطار على حكم بنى أمية ، فلماذا لا تثور الشام ؟ ولماذا لا تثور الجزيرة على حكم بنى العباس ؟ وقد تعددت الفرص السانحة لمناهضة الدولة الجديدة ومناهضة خلفائها ، ولم تعدم هذه الفرص من ينتهزها من ذوى المطامع والأغراض البعيده ، وفى البلاد المذكورة - وهى الجزيرة والشام - بقية باقية من أنصار بنى أمية ومن مواليهم الضالعين معهم ، ولنا أن نقول : أن القطر الشامى وما إليه قد استحال بسبب سخط الساخطين ، وبسبب وجود عدد لا يستهان به من موالى الأمويين وأنصارهم إلى بيئة صالحة للخروج على بنى العباس ، وللدعوة إلى مناهضتهم وخصومتهم من أية ناحية جاءت هذه الخصومة .

أبو جعفر المنصور :

وما أن وافى السفاح أجله ليخلفه أخوه الأكبر أبو جعفر المنصور حتى كشرت الفتن عن أنيابها ، وحتى توالت القلاقل فى دولته ، ولكنه - أى المنصور - واجهها بما عرف عنه من صرامة وفطنة ودهاء ، وقد تخلص - بموجب خطة رسمها - من خصومه واحداً بعد آخر ، تخلص من عمه عبد الله بن على الثائر عليه بأبى مسلم الخراسانى صاحب الدولة ، ثم تخلص من أبى مسلم كما تخلص من زعماء آخرين توسم فى بقائهم خطرا على دولته ، وخلع ابن أخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد - وكان السفاح عهد إليه من بعد المنصور - وعيسى هو الذى حارب له الأخوين محمداً وإبراهيم من أبناء الإمام الحسن ، فظفر بهما ، فكوفىء بخلعة من قبل المنصور ، وعهد بولاية عهده إلى ولده المهدى ، ثم إلى عيسى بن موسى

هذا ، والأقربون أولى بالمعروف ، فكان من يبايعه يقبل يده ويد المهدى ثم يمسح على يد عيسى ولا يقبلها ، نقل ذلك ابن تغرى بردى وأعقبه بقوله : « أن البلاء والرياء قديمان » ثم إن المهدى خلع ابن عمه المذكور من ولاية العهد وعقدها لولده الهادى ، وكانت أول ثورة على المنصور ثورة الأمير عبد الله ابن على عم الخليفة .

عبد الله بن على :

يعد عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس بين أنبه الأمراء العباسيين . وأبوه على - وهو الذى انتشر الخلفاء العباسيون من نسله - من أوائل الهاشميين الذين رشحوا للخلافة بعد أن نضجت فكرة الثورة على الأمويين ، وإحلال الهاشميين محلهم فى هذا الشأن ، وقد أعقب أكثر من عشرين ولداً ذكرا ، من أشهرهم : عبد الله هذا ، وأخواه محمد وصالح أبناء على ، وكان لكثير من أولاده شأن فى تأريخ الدولتين الأموية والعباسية ، إلا أن الخلافة العباسية كانت من نصيب أولاد محمد بن على وهو أكبر من أخيه عبد الله ، ولم يبايع بالخلافة أحد من ولد عبد الله بن على المذكور ، ثم هو الأمير الذى ندبه السفاح لقتال مروان الجعدى فظفر به وبغيره من أمراء بنى مروان فى واقعة الزاب الآنف ذكرها ، وعلى يده انقرضت دولتهم ، ومن ثم استخلص الشام ومصر ، وكان ساعده الأيمن فى ذلك أخاه صالح بن على الذى جهزه السفاح على طريق السمارة فطارد مروان وفلول الجيش الأموى إلى مصر وقتله فى (أبى صير) (١) ، وهو - أعنى عبد الله بن على - بعد ذلك عم السفاح ، لذلك كان يحدث نفسه بالخلافة ، بل كان يرى أنه أحق العباسيين بعد السفاح بأن يكون خليفة ، أحق من المنصور وأحق من سائر أمراء بنى العباس ، وكان يظن أن ابن أخيه - أى السفاح - لا يعدوه فى الوصية بولاية عهده لأنه نائبه فى الجهاد وقيادة الجيوش وغزو الروم ، ولكن السفاح عهد فى مرض موته بولاية العهد إلى أخيه المنصور ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى ،

(١) انظر حياة الحيوان للدميرى (١ / ٦٢) .

وما أن علم عبد الله بن على ببيعة المنصور فى العراق ، وكان ـ كما قلنا ـ يتحين الفرص للطالبة بحقه فى الخلافة ، حتى جاهر بالدعوة إلى نفسه وعدل بجيشه إلى العراق ، ولكن خانه الحظ وأخفق فى الوصول إلى بغيته ، وانتهت حياة بطل الزاب بالموت فى سجن ابن أخيه المنصور بعد هزيمته فى واقعة « نصيبين » (١) على يد أبى مسلم الخراسانى ، هكذا أخفق عبد الله بن على فى الوصول إلى غايته المنشودة ، ومرد إخفاقه فيما نراه إلى قصر نظره وافتقاره إلى شىء كثير من الدربة والحنكة السياسية وكان دون أخيه محمد بن على ربان الدعوة العباسية فى كل شىء . كان دونه فى عقله الراجح ، وكان دونه فى حزمه وخبرته الواسعة ، وقد ارتكب فى دعوته إلى نفسه أغلاطاً فظيعة ، فإنه أمر بقتل عدد كبير من الخراسانيين كانوا فى جيشه لتوهمه ميلهم إلى أبى مسلم الذى ندب لقتاله ، وهم أيضاً أن يفتك ببعض القحاطبة وهم من أشهر القواد فى جيشه ، وكان جل جيشه الباقى مؤلفاً من أهل الشام الذين غلبوا على أمرهم فى واقعة الزاب ، ولا بد لنا من القول : أن المنصور اضطرب الاضطراب كله فى بدء هذه الحركة التى قام بها عمه حتى أنه هم بالخروج إلى مناجزته بنفسه ، وكان لا يرى من بعده أهلا للقيام بحرب عبد الله إلا أبا مسلم الخراسانى ، ولذلك قال له : « ليس لهذا الأمر إلا أنا أو أنت » فامتثل أبو مسلم أمر المنصور فى قمع هذه الثورة ، ولم تقمع إلا بعد أن مضت عليها أشهر غير قليلة ، وهى أول حرب تقع فى صدر الخلافة العباسية بين أهل خراسان بقيادة أبى مسلم وأهل الشام فى الجزيرة بقيادة عبد الله بن على المذكور .

---

(١) تجد تفصيل هذه الوقائع التى وقعت بين أبى مسلم الخراسانى وبين عبد الله بن على عم المنصور فى تاريخ الطبرى [٩ / ١٥٦ / ١٥٩] ومروج الذهب [٢/١٩٧ ـ ١٩٨] فى المطبعة الأزهرية ص ١٦٧ . والكامل [٥/٢٢٠ ، ٢٢٢] وقد ترجم الخطيب البغدادى لعبد الله بن على هذا فى تأريخ بغداد [١٠ / ٨ ـ ٩] وانظر أيضاً (ص ٥٣) من الجزء المذكور . وتجد كيفية حبس عبد الله وقتل أصحابه بعد وصولهم إلى المنصور فى الكامل [٥ / ٢٣٦] وتجد طرفا من أحوال عبد الله بن على هذا فى كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى [٨٥ ـ ٨٦ ، ١٠٣ ، ١٣٠ ـ ١٣٢] .

دور الطالبيين :

ومن أهم الأحداث فى خلافة المنصور ، إن لم يكن أهمها ، تلك الثورات التى قام بها فريق من زعماء الطالبيين . وقد بدأت فى خلافة المنصور ، ولم يكن لها أثر فى أيام السفاح ، بل لم يحدث فى خلافته حدث على الطالبيين ، كما لم يحدث من الطالبيين حدث عليه . وقد أقضت هذه الأحداث مضاجع الخلفاء العباسيين الأولين خصوصاً وهم يعلمون أن النفوس فى كثير من الأقطار إلى خصومهم أميل ، وأن الرأى العام فيها يجنح إلى تفضيل آل أبى طالب على بنى العباس ، وكان المنصور يعرف أن لآل أبى طالب مكانة مكينة فى نفوس الجمهور لايحلم بها أكثر العباسيين فكان يخشى ـ لذلك ـ جانبهم ، ومطالبتهم بحقوقهم التى يعضدهم كثير من الناس فى المطالبة بها ، ومن هنا جاء حقد المنصور على الطالبيين ، وقتل من قتل منهم من ساداتهم وأشياخهم الثائرين وعاملهم بقسوة منقطعة النظير . جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ما نصه : « وفى سنة ١٤٥ كان خروج الأخوين محمد وإبراهيم ابنى عبد الله ابن حسن بن الحسن بن على ، فظفر بهما المنصور فقتلهما وجماعة كثيرة من أهل البيت ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وكان المنصور أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين ، وكانوا قبل ذلك شيئاً واحدا » (١) . وقال أيضاً : « وممن أفتى بجواز الخروج مع محمد على المنصور مالك بن أنس ، وقيل له : إن فى أعناقنا بيعة المنصور فقال : إنما بايعتم مكرهين ، وليس على مكره يمين » .

كانت ثورات الطالبيين مصدر قلق للطبقة الأولى من خلفاء بنى العباس ، وقد ألحقت بهم ما ألحقت من الأضرار البليغة بالأرواح والأموال ، وقد حاول قوم من المحدثين المعنيين بالتأريخ أن يعدوا ثورات الطالبيين المتوالية على أبناء عمومتهم من بنى العباس من جملة العوامل الفعالة فى زوال الدولة العباسية ، وفى هذا الرأى ما فيه من التكلف والمبالغة ؛ لأن أخطر تلك الأحداث والبثوق التى انبثقت من ناحية الطالبيين إنما وقعت فى صدر الدولة العباسية وفى خلافة خلفائها الأول

---

(١) تاريخ الخلفاء (١٠٢) .

كالمنصور والمهدى والهادى وآخرين من القوم ، وقد تمكن العباسيون الأولون من قمعها بشيء غير قليل من الغدر والقسوة والغلظة المتناهية على بنى العمومة المذكورين ، على أننا نرى أن شيوخ هذين البيتين من طالبيين وعباسيين عاشوا فى صفاء تام فى معظم عصور الدولة العباسية الأخيرة ، وهى العصور التى منيت فيها الدولة المذكورة بالضعف الشديد . وفى هذه العصور أحدث منصب نقابة الطالبيين ، وهو من المناصب الجليلة ، وقد تولاه كثير من أشياخ الطالبيين ووجوه العلويين فى العصور العباسية المذكورة ، لذلك لايصح القول اطلاقا بوجود علاقة أكيدة أو صلة مباشرة بين الثورات الطالبيـــة المشار إليها ، وبين انحلال الدولة العباسية .

وقد خصص أبوالفرج الأصفهانى الشطر الأكبر من كتابه المسمى : « مقاتل الطالبيين » بذكر زعماء آل أبى طالب الذين قتلوا فى عصور الدولة العباسية عصراً عصرا ، وقد ابتدأ بمن قتل منهم فى خلافة المنصور الذى بز جميع العباسيين فى ذلك ، وقد حفلت عصورهم بهذه الأحداث إذا استثنينا عدداً قليلا من خلفائهم كالسفاح والأمين والواثق بن المعتصم والمنتصر مالوا إلى محاسنة الطالبيين ، وكان المتوكل شديد الوطأة على آل أبى طالب . قال أبو الفرج الأصفهانى : « بلغ منهم ما لم يبلغ أحد من الخلفاء قبله إلى أن قتل ، فعطف عليهم ابنه المنتصر . كان يرى مخالفة أبيه المتوكل ، ويظهر ذلك العطف على أهل البيت ، فلم يجر عليهم مكروه فى خلافته » .

كانت غلطة المتوكل فى هذا الباب من الأسباب التى استحل بها ولده المنتصر هدر دمه كما هو معروف (١) وكان المتوكل يكره كل عباسى قبله ظهر منه شيء

---

(١) أنظر عن الفرق بين سيرة المتوكل وسيرة ابنه المنتصر فى هذا الشأن مقاتل الطالبين (٥٩٧ / ٥٩٩ ، ٦٢٦) من طبعة القاهرة ، ومروج الذهب (٢ / ٢٨٤) ، وتأريخ الأمم والملوك للطبرى (١١ / ٨١) ، والكامل لابن الأثير (٧ / ٢٠ ، ٣٩) ، وتجد أخبار خروج الطالبيين والعلويين على العباسيين فى الكامل (٥ / ٢٤٣ ـ ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧١) . وقد عنى غير واحد من المؤرخين بأخبار الطالبيين والعلويين الثائرين وتاريخ مقاتلهم ومن أشهرهم فى ذلك الطبرى والمسعودى وابن الطقطقى صاحب الآداب السلطانية .

من الميل إلى آل أبي طالب ، وقد روى بعض المؤرخين أن الفقهاء أشاروا على المنتصر بقتل أبيه بعد أن حكى لهم عنه أموراً قبيحة (١) .

ومن الخلفاء العباسيين الذين اقترن تاريخهم بشدة الوطأة على الطالبيين - كما جاء فى كتاب المقاتل - المهدى والهادى والرشيد والمأمون والمستعين والمعتز والمهتدى . وهكذا إلى خلافة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠) ، وحسبك أن مصارع الطالبيين فى عصور الخلافة العباسية استوعبت جل كتاب المقاتل على ضخامة حجم الكتاب المذكور .

هذا ويحسن بالمؤرخ فى هذا المكان الالمام بتأريخ هذا الخلاف أو النزاع بين أعيان هذين البيتين الهاشميين ، والوقوف على علله وأسبابه ، وذلك على الصورة الآتية :

أصل الدعوة وصبغتها العامة :

كانت الدعوة إلى انتزاع السلطان من بنى أمية هاشمية عامة فى أصلها ، شارك فيها الهاشميون : الطالبيون منهم والعباسيون ، وكانت الجمعيات السرية القائمة بها فى أواخر عصور الدولة الاموية تتألف من وجوه العلويين والعباسيين ، وممن حضرها السفاح والمنصور ، وكانت الدعوة تبث أو تعلن بشكل يتناول الهاشميين جميعاً ، أى أن الدعوة كانت تعلن بالإضافة إلى (آل محمد أو أهل البيت) . وقد بويع من بويع من وجوه الفاطميين بالخلافة سراً ، بايعه العباسيون أنفسهم ومنهم السفاح والمنصور ، فكانت الدعوة الهاشمية المذكورة فى أخريات عصور الدولة الأموية على جانب عظيم من التنظيم والقوة . وقد امتاز الدعاة الهاشميون بدهائهم وخبرتهم (٢) الواسعة .

اتجه الدعاة فى أول الأمر بعد سير أحوال بنى العباس والمقارنة بينهم وبين

---

(١) أنظر رواية ابن الأثير فى الكامل (٧ / ٤٣ - ٤٤) .

(٢) يرجع فى ما يتعلق بكفاية رجال الدعوة إلى الآداب السلطانية لابن الطقطقى (١١١ - ١١٢) ط الرحمانية فى القاهرة .

الطالبين إلى تفضيل الطالبيين ، ولكن سادات أهل البيت من الطالبيين كانوا على جانب كبير من الورع فلم يعبأوا بالأمر ، وقد رفض بعضهم مقترحات الدعاة بشأن البيعة ، وكان الأمويون على وشك الاستفادة من انقسام الهاشميين لولا أن الدعوة نمت نمواً هائلا وسرت مسرى النار فى الهشيم ، وذلك لملاءمة البيئة لها ، وهى بيئة مشبعة بالسخط والثورة النفسية على سياسة الأمويين ، وهكذا كانت الدولة من نصيب بنى العباس (١) .

هذا على أن بعض المؤرخين ، وأكثرهم من الفرنجة المستشرقين يغمزون العلويين بالعجز عن انتهاز الفرص ، وأن العباسيين فاقوهم بالحزم والمضاء وبعد النظر فى هذه الناحية .

والواقع أن الطالبيين أكرهوا على الثورة فى كثير من الأحيان لشدة طلب العباسيين لهم ، إلى أن صارت الثورة على حكم العباسيين شعاراً لهم كما كانت من قبل على حكم الأمويين . وقد انتهز بعض الطالبيين والعلويين طغيان الموالى والأتراك فى الدولة العباسية واضطراب الأمور فيها بعد ذلك فقاموا بثورات عدة ، وحاولوا الاستقلال بجزء من البلاد الخاضعة للدولة العباسية ، وقد نجح بعض زعمائهم فى إنشاء دولة لهم بطبرستان ، وهى الدولة الزيدية العلوية ، عاشت أكثر من مئة سنة (٢) .

المهدى ـ الهادى ـ الخيزران :

أربت الفترة الواقعة بين موت المنصور وبيعة حفيده هارون الرشيد على عشر سنوات قليلا . بويع خلالها المهدى والهادى ، وتعتبر هذه الفترة ـ على

---

(١) يرجع إلى الآداب السلطانية عن اتجاه الدعوة وكيف أعرض عنها الطالبيون وكيف بويع العباسيون ، وانظر عن انتقال الأمر إلى أوائل بنى العباس من أبناء عمومتهم المصدر المذكور [١١٩ ــ ١٢٠] .

(٢) تجد أخبار هذه الدولة فى التاريخ الكامل [٧ / ٤٩ ــ ٥١] . وانظر أيضاً مادة طبرستان فى معجم البلدان .

الأكثر - امتداداً لخلافة السفاح والمنصور إذا استثنينا عناية المهدى بفتح بعض الطرق العامة ، وتوسيع عاصمته بغداد حتى ازدهرت فيها الصناعة والتجارة ، وعنى المهدى فيما عنى بنظام البريد فى المملكة (١) ، وكان شديداً فى مؤاخذة المتظاهرين بالمذاهب الشاذة ، كما كان أبوه يعيبه بالإسراف والتبذير ، وينسب ذلك إلى ضعفه وحداثته واستيلاء أعوانه عليه ، ومما لاشك فيه أن المهدى كان مغلوباً على أمره لزوجته الخيزران ، إذ كانت تدخل أنفها فى كثير من الأمور العامة ، إلى أن حجر عليها ابنها الهادى بعد وفاة أبيه .

كانت الخيزران خائفة على نفسها من ابنها الهادى ، شاعرة بأنه يحاول الفتك بها ، فإنها رأت فى نفسها الكفاية للمساهمة فى إدارة شؤون الدولة ، وقد كثرت الغاشية وازدحمت المواكب على بابها بعد موت زوجها المهدى ، ومرد ذلك على الأكثر إلى حداثة سن ابنها الهادى ، إذ بويع بالخلافة وعمره نيف وعشرون سنة ، فأرادت مشاركته فى سلطانه ، وحاولت غلبته على أموره ، وكانت صلة رجال الدولة بها وصلتها بهم حديث المحافل فى البلاد ، كما كان الهادى يطوى نفسه على كثير من الأشجان والآلام من أجل ذلك ، فهو معروف بشدة الغيرة على حرمه ، ولكن هذا الخليفة الشاب سرعان ما تنكر لأمه ، بل ثار عليها ثورة صاخبة ، وخاطبها بعبارات جارحة فاضت على لسانه وكلها عذل وتقريع وتهديد ووعيد ، ومن أجل ذلك - على مايقول فريق من المؤرخين - سعت أمه فى الفتك به قبل فتكه بها . وذلك فى مستهل السنة الثانية من خلافته (٢) .

هارون الرشيد :

بلغت بغداد ، بل بلغت الدولة العباسية أوج عظمتها وحضارتها فى عهد الرشيد ،

---

(١) أنظر عن عنايته بنظام البريد تاريخ الخلفاء للسيوطى (١٠٧) .

(٢) أنظر عن قصة الخيزران وعلاقتها بموت الهادى وتضارب أقوال المؤرخين فى ذلك تاريخ الطبرى [١٠ / ٣٣ - ٣٤] والمروج [٢ / ١٨٤] والكامل [٦/ ٤٠ - ٤١] وقد روى المؤرخون المذكورون نص خطاب الهادى لأمه الخيزران الذى أحفظها عليه .

وهو عهد امتاز بالرخاء والرفاه والغنى واليسار ، حتى ضربت بذلك الأمثال وحتى وضعت فى ترف العباسيين وبذخ أعيـــان دولتهم قصص معروفة بعضها من نسج الخيال .

كان هارون الرشيد ـ كجده المنصور ـ من أبعد العباسيين نظراً وأثقبهم فكراً خبيراً بنزعات الشعوب والأقطار الداخلة فى حكم بنى العباس مطلعاً على معظم ما يجرى فى البلاد المذكورة إذا استثنينا أغلاطاً سياسية وقعت له ـ كما سترى ذلك ـ .

معسكر الرقة

قواعد حربية للعباسيين :

كان الخطر ماثلا أمام الرشيد والفتنة واقعة لامحالة من ناحية البلاد المأهولة بعدد غير قليل من أنصار الأمويين والقبائل الموالية لهم ، وفى مقدمة تلك البلاد : ديار بكر وربيعة فى الشرق والشمال ، وديار الشام فى الغرب ، بل كان الرشيد يعرف من ينسج غزل هذه الفتن من بنى العباس الموتورين أنفسهم فضلا عن غيرهم ، ولذلك فكر المنصور وفكر بنوه وأحفاده ـ وفى مقدمتم الرشيد ـ فى اتخاذ قاعدة عسكرية كبرى تكون على مقربة من الشام أو متوسطة بينها وبين الجزيرة ، ومن هذه القاعدة يشرف بنو العباس على ما يجرى فى البلاد الواقعة شرقى الفرات وغربيه ، فاختار الرشيد « الرقة » (١) وزاد فى أبنيتها التى بناها المنصور وأكثر من الإقامة فيها .

وصف المؤرخون طيب هواء « الرقة » و « الرافقة » كما لو كان طيب الهواء وعذوبة الماء فيهما علة العلل فى انتقال الرشيد إليها . مع أن الرقة لم تكن إلا قاعدة من جملة قواعدهم العسكرية تشحن بالمقاتلة لدرء الأخطار التى قد تنجم من الغرب أو الشرق ، ولولا ذلك ما فارق العباسيون عاصمة ملكهم بغداد (٢) .

---

(١) تجد سبب اقامة الرشيد فى الرقة فى الكامل [٦/٧٦ ـ ٧٧] .

(٢) أنظر عن الرافقة والرقة وعناية المنصور والرشيد بهاتين الحاضرتين معجم البلدان [٢/٧٣٤ ـ ٧٣٥] ط « لا يبسك » وانظر الكامل لابن الأثير [٦/٧٦ ـ ٧٧] .

حنين العباسيين إلى بغداد :

كانت أغراض العباسيين العسكرية ـ كما قلنا ـ تفرض عليهم الصدود عن بغداد والإكثار من الإقامة فى الرقة ، كما فعل المنصور وهارون الرشيد وغيرهما من خلفاء بنى العباس ، وقد أشار الرشيد نفسه إلى هذا الموقع العسكرى الممتاز الذى انفردت الرقة وتميزت به على بغداد ، وذلك لما اجتاز بغداد وعبر جسرها فى طريقه من الرى إلى الرقة رأساً دون أن يقيم فى العاصمة ، وذلك سنة ١٨٩ ، فقال ما هذا نصه : « إنى لأطوى مدينة ما وضع بشرق ولا غرب مدينة أيمن ولا أيسر منها ، وإنها لدار مملكة بنى العباس ما بقوا وحافظوا عليها . ما رأى أحد من آبائى سوء ولا نكبة فيها . ولنعم الدار هى ، ولكن أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى والحب لشجرة اللعنة مع ما فيها من المارقة والمتلصصة ومخيفى السبل ، ولولا ذلك ما فارقت بغداد » (١) ، من هذه الجملة يتجلى رأى العباسيين فى فضل بغداد وحنينهم إلى الإقامة فيها ، وحسرتهم على مفارقتها ، لولا ما يعنيهم من الإشراف عن كثب على ما يجرى فى بلاد الشام أو ما يجرى فى ديار الجزيرة شرقى الفرات ، والاهتمام بقمع الفتن الناجمة من هناك ، فما أن مات أبو العباس السفاح سنة ١٣٦ حتى طلعت الفتن بعضها فى أثر بعض من تلك الأقطار طبقاً لما توقعها الرشيد .

الفتن تترى :

وها هى الأحداث تترى على عدوتى الفرات الأعلى وما وراءهما شرقا وغربا بحيث لم يخل منها عصر من عصور العباسيين الأول بعد السفاح ، فمن خلع إلى خلاف فى أيام أبى جعفر المنصور إلى فتن عادت جذعة بين القيسية واليمانية فى الشام ، ومن مؤامرات لخلع الرشيد ، إلى قتال دام بين الأبناء المجندين من العجم وبين قبائل العرب ، إلى أحداث أخرى تدل على أن هؤلاء الخلفاء الأول من بنى العباس كانوا على صواب فى تخوفهم من القلاقل الناجمة عن تلك الأصقاع ، وفى استعدادهم لمواجهتها ؟

(١) انظر رواية ابن الأثير لهذه الكلمة فى الكامل [٦ / ٧٧] .

بين الفقهاء والشعراء

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

يقول جار الله الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » ذكر الوادى والهيوم فيه ، تمثيل لذهابهم فى كل شعب من القول ، واعتسافهم ، وقلة مبالاتهم بالغلو فى المنطق ، ومجاوزة حد القصد فيه ، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحهم على حاتم ؛ وأن يبهتوا البرئ ، ويفسقوا التقى ، وعن الفرزدق أن سليمان ابن عبد الملك سمع قوله :

فبِتنَ بجانبيّ مُصَرعاتٍ وبتّ أفضّ أغلاق الختام

فقال : قد وجب عليك الحد . فقال : يأمير المؤمنين ، قد درأ الله عنى الحد بقوله : « وأنهم يقولون ما لا يفعلون » اه .

وفى أثناء هذه المحاورة القصيرة بين الخليفة والشاعر تنطوى النسبة بين الشعر والفقه بمعناه الأعم ؛ فموضوع الفقه الحقائق الواقعة من حيث ما يعرض لها من الحل والحرمة ، والصحة والفساد ، والثواب والعقاب إلى آخره ؛ وموضوع الشعر ، الصور التى يزورها الخيال ، لما يحيط بالشاعر من مظاهر الحياة ، وما يجول فى خاطره من مشاعر وأحاسيس ؛ فالفقيه واقعى ، والشاعر خيالى ، والنسبة بين الواقع والخيال هى النسبة بين المتضادين ، ومن هنا اتسعت مسافة الخلف بين الشعراء والفقهاء ، وتنكر بعضهم لبعض ؛ ومضى فى نبز ما كان ضعيف

الخيال من الشعر ، أنه شعر فقيه ! وحملوا ذلك على جميع أشعار الفقهاء والنحاة ، والبلغاء وأصحاب القواعد فى كل علم وفن .

وربما ندرت أبيات من الشعر لبعض الفقهاء ، فحملها النقاد على الشذوذ ، الذى لا تسلم منه قاعدة ، وربما أسىء به الظن من أجلها ؛ كما وقع لعروة بن أذينة ، أحد فقهاء المدينة وعبادها ، وكان من أرق الناس تشبيها ، فقد وقفت عليه امرأة فقالت له : أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح ، وأنت القائل :

إذا وجدتُ أوار الحب فى كبدى ... أقبلت نحو سقاء الماء أبترد
هـذا بَرَدت ببرد الماء ظاهره ... فمن لنار على الأحشاء تتقِد ؟!

والله ما قال هذا رجل صالح !

ونحن إذا قرأنا له أيضاً قوله :

قالت ـ وأبثثتُها وجدى وبحت به ـ ... قد كنت عندى تحت السر فاستتر
ألست تبصر من حولى ؟ فقلت لها : ... غطى هواك وما ألقى ، على بصرى

وافقنا هذه المرأة ، على صدق العاطفة ، ورقة الخيال فى هذا الشعر ؛ وإن خالفناها فى إساءة الظن بصاحبه ، تهدياً برد أستاذنا الفرزدق العظيم على سليمان ابن عبد الملك آنفا !.

والحق أن للفقهاء فى جميع عصور الأدب الإسلامى كثيراً من روائع الشعر ، وبدائع التوشيح ، فى أغراض الشعر جميعا حتى الفكاهة ، ولكن الأعم الأغلب منه ينخَلّ فى مداخله ، ويتراءى من خصاصه ، الروح العلمى ؛ فكان الحكم منوطا بهذا الأعم الغالب . وإلا ؛ فمن هو هذا الناقد الذى يجرؤ أن يجحد قوة الشعر ، فى قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة فى الغزل :

كتمتَ الهوى حتى أضر بك الكتم ... ولامك أقـــوام ، ولومهم ظلم
ونم عليك الكاشحون ، وقبل ذا ... عليك الهوى قد نم ، لو نفع النمّ
فيامن لنفس لا تموت فينقضى ... عناها ولا تحيا حياة لها طعم
تجنبت إتيان الحبيب تأثما ... ألا إن هجران الحبيب هو الأثم ؛

ومن ذا الذى لا تستخفه الفكاهة ، فى قول ابن الأزرق ، قاضى الجماعة بغرناطة ، من قصيدة طويلة : (١)

أفدى صديقاً كان لى بنفسه يسعدنى
فتارة أنصحه وتارة ينصحنى
وتارة ألعنه وتارة يلعننى
وربما أصفعه وربما يصفعنى
أستغفر الله فهذا الـ قول لا يعجبنى
يا ليتنى لم أره وليته لم يرنى
كأنى، ولست أدرى الـ آن : ما كأننى
والله ما التشبيه عند شاعر بهين .. الخ

والقصيدة نقيض بالفكاهة الصارخة ، ولكنى أوردت منها ، ما لا يخدش وقار رسالة الإسلام : مجلة الفقهاء » .

* * *

وقد تلاقى الشعراء الفقهاء ، فى أنهما كانا من الأسناد التى قامت عليها الخلافة الإسلامية ، منذ أن صارت ملكا ، والتى قامت عليها الحكومات الإسلامية فى شتّى مظاهرها ، ومختلف أوطانها ؛ فالشعراء للدعاية ، وإذاعة فضائل الدولة القائمة ، والمنافحة عنها ، والإشادة بذكر أمرائها وعمالها ، وتعداد مآثرهم فى البلاد ، وأياديهم على الشعب ، وجهادهم لأعدائها فى الخارج والداخل ، وسهرهم على مصالح الرعية ، وحياطة الدولة ، الخ الخ .

والفقهاء ، لأقامة ميزان العدل بين الناس ، وإرشاد الخلق إلى الحق ، فى العبادات والمعاملات ، والحقوق والواجبات ، وحراسة الدين ، من أن تتعدى حدوده ، أو يستباح حماه .

(١) قاضى الجماعة = قاضى القضاة .

وكان طبيعياً أن يتلاقيا ـ بعد ذلك ـ فى أنهما كليهما لم يكونا بمنزلة سواء فى مواقفهم من الدولة ؛ بل كان من الشعراء من يتصل بحكومته على أساس من الإخلاص لها ، والرغبة فى بقائها ، والمعاونة الصادقة فى خدمتها ؛ ومن يتصل بها على أساس من المنفعة الشخصية ، والنفاق السياسى ؛ ومن يتصل بها اتصال المكره المدارى ، حرصاً على الحياة ، وإبقاء على النفس . ومن وراء أولئك آخرون تمردوا على الدولة ، واتخذوا مواقف أخرى ، محافظة على مبدأ ، أو تشيعاً لبعض الأحزاب ، أو غضبا للحرمان من الوظائف أو المناصب ؛ أو غير ذلك مما يغضب ويثير .

وعلى أمثال هذه البواعث تقوم صلات الفقهاء بالدولة أيضا ، فمنهم العامل فى ذات الله ؛ ومنهم العامل للهوى والشهوات الدنيا .

وقد سجل التاريخ صفحات بِياضا لكثير من أحرار الفقهاء ، تعتبر بحق من مفاخر الإسلام على وجه الزمان .

يقول الطبرى : لما دخل الوليد بن عبد الملك المدينة فى حجته سنة ٩١ ، غدا إلى المسجد ينظر إلى بنائه ، فأخرج الناس منه فما ترك فيه أحد ، وبقى سعيد ابن المسيِّب ، ما يجترىء أحد من الحرس أن يخرجه ، وما عليه إلا ربطتان ما تساويان إلا خمسة دراهم ؛ فى مصلاه ؛ فقيل له : لو قمت . قال : والله لا أقوم حتى يأتى الوقت الذى كنت أقوم فيه ! قيل : فلو سلمت على أمير المؤمنين ؛ قال : والله لا أقوم إليه ! . قال عمر بن عبد العزيز : فجعلت أعدل بالوليد فى ناحية المسجد ، رجاء أن لا يرى سعيداً حتى يقوم ؛ فحانت من الوليد نظرة إلى القبلة ، فقال : من ذلك الجالس ، أهو الشيخ سعيد بن المسيب ؟ فجعل عمر يقول : نعم يا أمير المؤمنين ؛ ومن حاله ، ومن حاله ؛ ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك ؛ وهو ضعيف البصر . قال الوليد : قد علمت حاله ؛ ونحن نأتيه فنسلم عليه . فدار فى المسجد حتى وقف على القبر ؛ ثم أقبل حتى وقف على سعيد ، فقال : كيف أنت

أيها الشيخ ؟ فوالله ما تحرك سعيد ولا قام ؛ فقال : بخير والحمد لله ، فكيف أمير المؤمنين ؟ وكيف حاله ؟ فقال الوليد : خير ، والحمد لله ؛ فانصرف وهو يقول لعمر : هذا بقية الناس ! (١)

ولا أذكر أئمة المذاهب ، وبلاءهم فى ذات الله مما هو متعالم مشهور، ولكنى أنزل إلى من دونهم ، فأذكر أبا يوسف صاحب أبى حنيفة ، ويحي بن يحي الليثى صاحب مالك ، وعاقل الأندلسى ؛ فقد ترفع أولهما عن أن يلى القضاء على أن لا يعين قاض فى الشرق إلا برأيه ؛ كما امتنع الآخر عن القضاء على أن لا يعين فى الأندلس قاض إلا برأيه .

ولقد طغى سلطان الفقهاء فى الشرق والغرب أحيانا على كل سلطان سواه ؛ وموقف الحنابلة فى الشرق مشهور ، ووقعة الرَّبض ، أشهر المواقع الداخلية فى الأندلس الإسلامية ، كانت بين الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وبين الفقهاء ؛ فقد انحرف الحكم عن سنن آبائه ، فانهمك فى اللذات ، وعاقر الخمر جهارا ، فتألب عليه الفقهاء بزعامة يحي الليثى ، وحرضوا الناس على نبذ طاعته ، وأوعزوا إلى المؤذنين أن يعرضوا به على المآذن ؛ فثار به أهل الربض (٢) ؛ ولكنه تغلب عليهم وقبض على اثنين وسبعين كبيراً منهم فصلبهم ، وهدم دورهم ومساجدهم فتفرقوا أيدى سبأ ، بعد أن أعطوه درسا رده إلى رشده ، وأعاده إلى نهج آبائه ، من الاستقامة والسداد .

ويقول أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ، لقاضى الجماعة بقرطبة : منذر ابن سعيد البلوطى : بلغنى أنك توصى باليتامى أوصياء يأكلون أموالهم ؛ قال منذر : نعم ، وينكحون أمهاتهم « باللفظ الغليظ » . قال الناصر : ولمه ؟ قال : لو رخصت لى فى أن أضرب بالسياط ظهر أمثال الشيخ أبى إبراهيم المالكى لأجبرهم على قبول الوصاية ، لحمدت أمرها ؛ ولكن الأمناء يأبونها ، فلا أجد بداً من إسنادها إلى من لم يرضوك .

---

(١) جـ ٨ ص ٨١

(٢) الربض = ما حول المدينة ، ضواحيها .

والشيخ أبو ابراهيم من كبار علماء المالكية فى عهد الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠هـ) يتحدث عنه المقرى فى نفح الطيب فيقول .

روى ابن مفرج أحد تلاميذه ، قال : إنى لعنده فى مسجد أبى عثمان ، ومجلسه حافل بجماعة الطلبة ، إذ دخل عليه خصى ، فوقف وسلم وقال : يا فقيه ، أجب أمير المؤمنين أبقاه الله ، فإن الأمر خرج فيك ، وها هو قاعد ينتظرك ؛ وقد أمرت بإعجالك ، فالله الله ! .

فقال له : سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين ، ولا عجلة . فارجع إليه ، وعرفه ـ وفقه الله ـ عنى ، أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله تعالى ، معى طلاب العلم ، أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم يقيدونه عنى ، وليس يمكننى ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم فى رضا الله وطاعته ، فذلك أوكد من مسيرى إليه الساعة ؛ فإذا انقضى أمر من اجتمع إلى من هؤلاء المحتسبين فى ذات الله ، الساعين لمرضاته ، مشيت إليه إن شاء الله تعالى ، ثم أقبل على شأنه ، ومضى الخصى متضاجراً ، فلم يكن إلا ريثما أدى جوابه ، ثم عاد ، فقال : يا فقيه أنهيت قولك على نصه إلى أمير المؤمنين ـ أبقاه الله ـ فأصغى إليه ، وهو يقول لك : جزاك الله خيراً عن الدين ، وعن أمير المؤمنين ، وجماعة المسلمين ، وأمتعهم بك ! وقد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضى شغلك وتمضى معى . فقال : حسن جميل ، ولكنى أضعف عن المشى إلى باب السُّدة ، ويصعب على ركوب دابة لشيخوختى وضعف أعصابى ؛ فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بفتح باب الصناعة ، لقربه ، كان ذلك أرفق بى ، وأحب أن تعود فتنهى ذلك إليه ، فمضى الخصى ، وعاد بعد قليل ، فقال : يا فقيه قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت ، وأمر بفتح باب الصناعة ، ومنه خرجت إليك ؛ ثم جلس الخصى جانبا ، حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه بأكمل مما جرت به عادته ، غير منزعج ولا قلق .

قال مفرج : فلما انفضضنا عنه قام إلى داره ، فأصلح من شأنه ، ثم مضى إلى الخليفة ؛ ولقد تعمدنا أن نمر بباب الصناعة ، إثر قيامنا عن الشيخ أبى إبراهيم

فوجدناه مفتوحا ، وقد حفه الخدم والأعوان منزعجين ، ما بين كناس وفراش ، متأهبين لانتظار أبى إبراهيم (١) .

* * *

ولقد بقى الاشتغال بالفلسفة والتنجيم محرما فى بلاد الأندلس بأمر الفقهاء إلى أواخر القرن السادس ، إذ اشتغل بها أبو يعقوب بن عبد المؤمن على يد الفيلسوف ابن رشد وأستاذه ابن طفيل .

* * *

وعلى الرغم من أن للشعراء فى النفاق رخصة ، لم تتح للفقهاء ، وهى أن يمدهم الخيال ، وأن أعذب كلامهم أكذبه ؛ فقد أبى الكثير الطيب منهم أن ينزل إلى مستوى الإمعات والأتباع ، ينشدون المنافع ، ويتطلبون مناعم العيش :

هذا الفرزدق يَجْبَهُ عاهل بنى أمية بقوله :

أيحبسنى بين المدينة ، والتى إليها قلوب الناس يهوى منيبها
يقلب رأسا لم يكن رأس سيد وعينا له حولاء باد عيوبها

وهذا عبيد الله بن قيس الرقيات يقول فى صراحة صارخة :

أنا عنكم بنى أمية مزور رٌ ، وأنتم فى نفسى الأعداء
إنّ قتلى بالطف قد أوجعتنى كان منكم لئن قتلتم شفاء !

وهذا دعبل الخزاعى ، يصرخ فى وجه عيهور بنى العباس : المأمون بقوله :

إنى من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الأوهد

* * *

وهذا الشريف الرضى ، يواجه الخليفة العباسى بقوله :

مهلا - أمير المؤمنين - فأننا فى دوحة العلياء لا نتفرق

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٦ طبعة أزهرية .

ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبداً ، كلانا فى المفاخر مُعْـرِق
إلا الخـلافة ميزتك ، فأننى أنا عاطل منها ، وأنت مطوق

* * *

بل هذا السيد توفيق البكرى الشاعر المعاصر رحمه الله ، يفخر على بيت محمد على ، فيقول :

وإنى من البيت الذى تعلمينه أقام عمود الدين لما تأوّدا
وأول هذا الأمر نحن أساته وآخره ، حتى يعود كما بدا

* * *

ورحم الله السيد لطفى المنفلوطى ، أىَّ شجاع فى برديه ، وهو يستقبل الخديو عباس الثانى فى عودته من أوربا ، بقصيدته الرائعة :

قدوم ، ولـكن لا أقول سعيدُ وملك ـ وإن طال المدى ـ سيبيد
تذكرنا أيامكم يوم أنزلت علينا خطوب من جدودك سود

* * *

أما بعد ، فإذا عدَّ الفقهاء على الشعراء كثيراً من الفاسدين ؛ فان الشعراء ليعدون على الفقهاء كثيراً من المـارقين ؛ المدلسين ، الضالين المضلين ؛ على أن فساد الشاعر فساد قاصر ، لا يجاوز شخصه او قرابته الأدنين ؛ فأما فساد الفقيه ، فإنه جسيم الخطر ، شديد الضرر ، على الأخلاق والدين والاجتماع ، لمكان الفقيه من الأخلاق ، والدين ، والاجتماع ؟

الإسلام والدراسات الإسلامية

لحضرة الكاتب الفاضل الدكتور محمد البهى
أستاذ الفلسفة فى كلية اللغة العربية بالأزهر

١ – الإسلام :

نظرة الإسلام إلى الحياة ، هى نظرة مادية روحية :

الإسلام : هو رسالة من رسالات الله إلى خلقه من بنى الإنسان ، جاء بها رسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى إذ كانت رسالة من رسالات الله فلا تختلف فى جوهرها عن رسالات الله التى قام بالدعوة إليها الرسل السابقون عليهم صلوات الله . فهى تدعو جميعها إلى عبادة الله ، وإلى التمسك بالوصايا الخلقية التى تحدد الطريق السليم للانسان فى هذه الحياة .

وعبادة الله معناها الاعتراف بقوة فى هذا الوجود فوق قوة البشر جميعاً ، وأن هذه القوة هى الداعية للخير فى هذه الحياة ، وأن الخير الذى تدعو إليه ليس هو متع الحياة وأطايبها المادية ، بل المعانى الفاضلة والقيم الخالدة : كالمحبة ، والأخوة ، والإحسان ، والتعاون ، والمشاركة فى الوجدان والأحاسيس الإنسانية .

فرسالة الله إذن تقوم على اعتبار أن هناك أساساً معنوياً لهذا الوجود لا يقل عن الأساس المادى المشاهد فيه . والحياة فى نظر الدين لها صفحتان : صفحة محسوسة وهى تلك المتع الظاهرة التى تتصل بمطالب الجسم ، وصفحة أخرى معنوية

وهى التى تتصل بنفس الإنسان أو روحه . والأمور المادية ، والأخرى المعنوية تتكون منها حياة الإنسان ووجوده .

وإذن النظرة المادية الصرفة إلى الوجود والحياة لاتعبر تماما عن الوجود كما هو والحياة كما هى . وكذلك النظرة الروحية المحضة لا تمثل واقع الأمر فى الوجود والحياة .

والإسلام كرسالة من رسالات الله قام على اعتبار الجانب المادى والجانب الروحى للوجود والحياة ، وعالج نفس الوجود ونفس الحياة من زاوية الأساس الذى قام عليه :

فاعترف بالفرد ، وبالأسرة ، وبالأمة والشعب ، وبالعالم الإنسانى .

ا ـ منهجه للفرد بما يحقق الموازنة بين روحه وجسمه :

قوم الفرد لذاته ، واعترف بشخصيته الوجودية . وعن اعترافه بالفرد وبقيمته الذاتية خطّ له الطريق فى الحياة ، وأمنّه فيه من أن ينحرف : فرسم له كيف يقوى صلته بربه ، وكيف يعشق الخير لذاته عن طريق هذه الصلة . لأنه إذا عرف ربه كمصدر للخير ، وللمعانى وللقيم الرفيعة ، أدرك الخير الذى يتمثل فى هذه المعانى والقيم ووقر فى نفسه حبها . وإذا أحب الإنسان الخير لذاته فعل الخير دون أن يترقب جزاء عليه ؛ فعله لنفسه وغيره : من هو قريب منه ، ومن هو بعيد عنه .

وكما رسم له طريق الاتصال بربه ـ رسم له طريق معاملة نفسه ، ومعاملة غيره فى محيطه الضيق أو محيط الإنسانية العام . والحدود التى يعامل نفسه وغيره ، هى ألا يضر نفسه ولا يضر غيره . وهذا يحتمل أن ينفع نفسه ولا يضر غيره ، أو يكتفى بموقف عدم الإيذاء لنفسه وغيره . فإيجابيته فى الحياة : إما أن تتعدى عدم الإضرار والإيذاء إلى إيصال الخير والنفع فى صورةٍ من صوره إلى نفسه وغيره ، أو تقف عند حد عدم الإضرار والإيذاء .

للانسان ملكات واستعدادات فطرية : الإنسان يميل إلى الاطلاع والمعرفة ، ويميل إلى السعي والحركة في الحياة ، ويميـــل إلى حفظ البقاء . فإذا نمى هذه الاستعدادات والميول ، واتجه بها الوجهة الصحيحة في الحياة ، وجنبها الانحراف ـ كان عندئذ خيِّراً نافعاً لنفسه وغيره .

إذا اتجه بميله إلى الاطلاع والمعرفة نحو ما يصور الحقيقة وواقع الأمر كما هو ، وبميله إلى المشاركة الوجدانية إلى ما يعين غيره في صورة القول أو الفعل ؛ في صورة القول المهذب أو القول بالمعروف ، وفي صورة فعل البر به ، ومعاونته بما يحل أزمته أو يدفعه إلى التقدم في حياته الاقتصادية ، وبميله إلى السعي والحركة في الحياة نحو ما يكون منه عاملا منتجا في الحياة لا مخربا أو هداما فيها ، وبميله إلى حفظ البقاء ، نحو بقاء شخصه ونوعه الذي يتمثل أولا في الحرص على أسرته الخاصة بقاء أدبياً قبل البقاء المادي ، بقاءً يعد في جماعته ويعتبر كمثل فيها أو بقاءً يسجله تاريخ قومه أو تاريخ الإنسانية ـ إذا اتجه بميوله هذه الاتجاهات ، فهو إنسان خيِّر لنفسه وغيره .

وإذا اتجه بها اتجاهات أخرى : كأن يتجه بالمعرفة إلى ما يشبع غرائزه لا إلى ما يصقل عقله أو يوقفه على الحقيقة كما هي ، ويتجه بباقي الميول والاستعدادات نحو هذا الاتجاه ـ كان إنسانا ضاراً لا خير فيه لا لنفسه ولا لغيره ؛ كان إنسانا منحرفاً عن خط الاستقامة في السير في الحياة ، وعن خط الهداية الذي يحدده العقل للإنسان المنتج المثمر في الحياة ، والذي ينصح به الإسلام ـ وكل دين سماوي في رسالته الأولى ـ الإنسان المبتغي سعادة نفسه وسعادة غيره .

ميول الإنسان واستعداداته الفطرية يمكن أن يتجه بها الإنسان وجهة مادية محضة ، وعندئذ لا يكون هو الإنسان صاحب العقل والإدراك . ويمكن أن يتجه بها وجهة روحية فقط ، وعندئذ لا يكون الإنسان الذي يعيش في هذه الحياة المزدوجة . ليس واحدٌ من صاحبي هذين الاتجاهين بالإنسان الذي تريده الحياة ، ولا بالإنسان الموَّجه من قبل الإسلام .

الإسلام لا يريد فى توجيهه عكس ما فى طبيعة الإنسان ، ولا مناوأة الحياة الواقعة . وإنما يريد التوفيق بين ما فى طبيعة الإنسان نفسه وواقع الحياة كما هى . ورسالة الله بين خلقه من البشر لا تختلف أبداً عن طبائعهم ، ولا تتعارض كذلك مع حياتهم . إنما هى رسم لمنهج يلائم الأمرين معاً ، يلائم طبيعة الإنسان وحياة البشر . قصد به تجنيب الإنسان الزلل والانحراف عن طبيعته فى حياته .

الإنسان المادى فى نظرته إلى الحياة وفى تنمية استعدادات نفسه الفطرية ، وفى علاقته بالآخرين فى جماعته وفى عالمه ـ انسان لا يسير وفق الطبيعة الإنسانية كما هى ، بل هو إنسان منحرف .

والإنسان الروحى فى فهمه للحياة وفى سلوكه فيها إنسان ارتفع من هذه الحياة وبنى له عشاً فى عالم آخر . وهو ليس ذلك الإنسان الذى أراد الله بتوجيهه إياه أن يسكن هذه الحياة ، ويعمرها ، ويستخدم ما فيها من جوانب مختلفة لمصلحة الإنسانية وخير البشرية عامة .

اذن ، الإنسان المادى الروحى هو إنسان هذه الحياة ، وإذن التوجيه المادى الروحى للإنسان هو التوجيه السليم ، وإذن رسالة الله للإنسان لا بد أن تتضمن هذا اللون من التوجيه ، وإذن استقامة الإنسان نفسه واستقامة جماعته وعالمه يتوقف على التوجيه المزدوج ، على توجيه الإنسان صاحب الروح والبدن ، وصاحب الإدراك العقلى يصعد به إلى ما وراء المادة ، وصاحب الحركة الجسمية التى تقيده بأرض هذه الحياة :

للفرد أن يملك فى الإسلام ، ولكن ليس له أن يطغى بما يملك على غيره . وللفرد أن يفكر كما شاء وحيثما شاء ، ولكن لا يصح أن يلحق تفكيره ضرراً بغيره . للفرد أن يعتقد فيما يشاء وبما يشاء ، ولكن لا يصح أن يفرض ما يعتقد على غيره ، ولا أن يعتقد ما يسىء إلى كرامته كإنسان له منطق وإدراك . للفرد أن يتزوج ، وله بعد أن يتزوج أن يفترق ، ولكن فى زواجه وفى افتراقه يجب أن يكون بعيداً عن الإيذاء المادى والنفسى فى عشرته وفرقته ، يجب أن يكون

جميداً عن الاعتداء فى أية صورة من صوره . للفرد أن يبيع ويشترى ، ويكسب فى بيعه وشرائه ، ولكن يجب ألاّ يكون فى كسبه ما يؤذى غيره عن طريق الغش والخداع ، أو عن طريق الجشع فى الربح ، أو انتهاز فرصة من الفرص .

الابن قريب إلى نفس الوالد ومن نفسه ، ولكن ليس للوالد أو للولد إيذاء الآخر فيما يملك ويقتنى . الزوجة هى العضو الثانى فى الأسرة ، ولكن ليس للزوج بما عليه من حق الانفاق عليها أن يعتدى عليها فى مالها ، أو يؤذيها بنابى القول فى حال فقرها ، وليس لها بثرائها أو بزيادة حظها فى المعرفة أن تدل عليه أو تسخر منه .

للضعيف حقه فى الحياة ، والمنتسب إلى الأقلية حقه فى الحياة كالمنتسب إلى إلى الأكثرية ، وللوضيع حقه فى الحياة كالشريف .

ب ـ منهجه للجماعة بما يحقق العدالة فى الترابط بين الجماعة والأفراد :

وقوّم الإسلام الأسرة على أن لكل عضو من عضويها حقه فيها وعليه واجبه نحوها . أما الواجب فتمليه طبيعة كل عضو منهما : على الرجل أن يسعى لينفق ، وعلى المرأة أن تدبر بيتها وترعى أولادها وشئون زوجها . وأما حق كل منهما قِبَل الآخر فيحدده الهدف من الأسرة : وهو الانسجام والتعاون فى العشرة وفى الحياة . فإذا استحال الانسجام المطلوب إلى خصام دائم سقط حق كل منهما قبل الآخر ، وكانت الفرقة بينهما أولى من بقاء الرباط الظاهرى ، وهو رباط الزوجية المفكك .

ونظم حال كل من عضوى الأسرة بعد الافتراق لمدة معينة ، حتى يستطيع كل منهما تدبير أمر نفسه ، ونظم حال أولادهما بما يصون لهم حنان الأم فى صغرهم ، ويكفل لهم توجيه الأب ـ كربٍ للأسرة ـ بعد اجتيازهم مرحلة الطفولة الأولى ، وبعض الثانية .

أما فى حال بقاء الزوجة والزوج معاً فرعاية الأولاد منهما مضمونة بحنان الأم وتوجيه الوالد معاً ، فى فترات نموهم حتى بلوغهم الرشد .

ونظر إلى الأمة والشعب نظرة مزدوجة : كجماعة وكأفراد ، للجماعة واجبات على الأفراد ، وعليها حقوق لهؤلاء الأفراد . وبالتالى على الأفراد واجبات يؤدونها للجماعة ، ولهم حقوق تعطى لهم من هذه الجماعة ، فعلى الجماعة - وهى الممثلة الآن فى الدولة - أن تهيء للأفراد ، وهم رعاياها ، فرص الحياة المختلفة : فرصة العمل ، فرصة التعليم ، فرصة التداوى والتمريض . ولمن يعجز عن العمل لعاهة مستديمة أو مؤقتة يجب على الدولة أن تكفل له لون الحياة الذى ارتضاه لنفسه قبل عجزه وقعوده بسبب هذا العجز عن العمل ، وكذلك تكفل لمن وجبت عليه نفقة معيشته فى الحياة ، حسبما كان يؤديها ذلك العاجز قبل عجزه .

وللجماعة - وهى الدولة - نظير ذلك أن تتقاضى من الأفراد ضريبة الدم فى الدفاع عنها عند الاعتداء عليها ، وقسطاً معينا من أرباحهم المالية - التجارية أو الزراعية - وقسطا معينا مما اكتسبوه بخبرتهم ، وفنهم ، ومعرفتهم ، فأرباب الخبرة الهندسية والقانونية ورجال العلم والمعرفة وأصحاب الانتاج الفنى كالكتاب الأدباء يجب ألا يحبسوا خبرتهم وعلمهم وفنهم عن مواطنيهم ودولتهم ، وللدولة أن تجندهم وقت الضرورة لدفع الكوارث ، أو لتحقيق مستوى رفيع من العيش صحيا واجتماعيا للمواطنين .

وللأفراد أن يتملكوا ما يشاؤون من ضروب الملكية ، ويستمتعوا بحرية إبداء الرأى وحرية العقيدة ، وليس للدولة أن تتدخل فى ذلك إلا بمقدار مايصون حقوق الغير ، أو الأساس العام للجماعة الذى يتمثل فى نظامها الإسلامى .

وهنا وضع الإسلام نظاما دقيقا لحقوق الجار على جاره ، والقريب البعيد والقريب على قريبه ، وسكان القرية الواحدة على أهلها [زكاة للفطر مثلا] .

وهكذا ابتدأ فى تحديد السلوك والمعاملة : من الفرد نحو نفسه ، ثم منه نحو غيره فى أسرته ، ثم منه نحو غيره من مجاوريه فى السكن ، ثم منه نحو أهل قريته ، ثم منه نحو أهل القرية المجاورة ، ثم منه نحو الدولة العامة وهى جماعته .

وهذا النظام نظام نفسى ومالى : يتمثل فى المشاركات الوجدانية ، فى حالات

الحزن وحالات المسرة ، واللطف فى المعاشرة ، واللين فى المجادلة والمناقشة ، واليسر فى التعامل ... كما يتمثل فى الزكاة والإحسان فى جميع صوره المادية .

ج - منهجه لجماعة نحو جماعة أخرى بما يحقق السلام وتبادل المنافع بينهما :

ونظر إلى صلات الأمم بعضها ببعض على نحو يقوى الروابط فيما بينها ويدعم السلام فى علاقات بعضها ببعض ، ويكفل تبادل المنافع الاقتصادية والعلمية لرفع مستوى شعوبها .

ومن جانب آخر دعا إلى دفع الاعتداء من إحداها على الأخرى ، وإلى المشاركة فى دفع هذا الاعتداء عند ما تطلب الأمة المعتدى عليها المعاونة فى ذلك .

وفى دفع هذا الاعتداء يطلب الإسلام من أفراد الأمة مقاومته كل بما يستطيع وعلى النحو الذى يجيده .

ولا ينظر فى معاونة دفع الاعتداء إلى الاتحاد فى العقيدة ، بل لأمة إسلامية أن تنقذ أمة مسيحية من اعتداء أمة أخرى عليها . لأنه يوجب دفع الاعتداء من حيث هو اعتداء ، أما ممن وقع ؟ وعلى من وقع ؟ فليس هذا وذاك من الأسباب التى تحدد مشروعية وجوب دفعه .

* * *

٢ — الدراسات الإسلامية والعوامل التى تأثرت بها :

رسالة الإسلام هى على نحو ما أوضحنا : الإسلام يبغى استقامة الفرد فى سلوكه ويبغى توجيهه وجهة انتاجية فى الحياة . وذلك عن طريق التوفيق والملاءمة بين حاجات العنصرين الأساسيين فيه ، وهما المادة والروح ، ومحاولة إيجاد وحدة منسجمة بينهما .

ويبغى قوة الجماعة ، ويرى هذه القوة فى تكتلها ، ويرى طريق هذا التكتل

فى ضرورة المبادلة بين حقوق الأفراد وواجباتهم فى هذه الجماعة ، ويرى المظهر الواضح للتكتل فى السير نحو غاية واحدة وهدف واحد فى الحياة .

ويبغى سلام العالم جميعه . ويرى هذا السلام فى دفع الاعتداء فى العالم ، والمساهمة الجماعية فى دفعه ، وفى تبادل المنافع الأدبية والمادية فى علاقات الشعوب بعضها ببعض ، ويرى أن مظهر السلام فى العالم يبدو أيضا فى اتجاه الشعوب إلى التعاون الوثيق من أجل غاية واحدة . هى القربى من « الله » .

والإسلام إذ يحدد غاية العالم بالله ؛ قد حددها بالخير العام للبشرية جميعها : لأنه إذ ينادى بتقوى الله يضمّن ذلك نصح الناس بأن يراقبوا « الله » فى أعمالهم فلا يحكموا الهوى والمنافع الشخصية البحتة فى هذه الأعمال ، ولا يقصدوا إلى الإيذاء والأضرار الخاصة والعامة بأدائها . ومن هنا يكون النداء بتقوى الله هو النداء بالخير العام ، والقربى إلى الله هى القربى عن طريق هذا الخير العام .

كما أنه إذ ينادى بعبادة الله ، وباتخاذ الله الغاية الاخيرة فى الوجود ـ يضمن ذلك توجيه الناس إلى أن اتجاههم فى الحياة يجب أن يكون نحو الخير العام . وكلما ابتعد الإنسان فى صنع الخير وتجاوز به حدود نفسه إلى غيره فى جماعته أو فى جماعات أخرى ؛ كان أدخل فى عبادة الله ، وأقرب إليه .

رسالة الإسلام إذن هى « الوحدة » أو « الانسجام » : فى دائرة الفرد بين قوى النفس المختلفة ، وكذا بين النفس من جهة والجسم من جهة أخرى ، وفى دائرة الجماعة بين إنسان وآخر ، وفى دائرة البشرية بين أمة وأخرى ، ثم بين الشعوب جميعا .

* * *

إذا كانت هذه هى رسالة الإسلام فلِمَ تفرق المسلمون ؟ .

ولِمَ جادل بعضهم بعضاً فى الرأى ؟ .

ولم اختلفوا فى تفسير الإسلام وتعاليمه ؟ .

ولم نشأ عن بعض هذه التفسيرات من المذاهب ما أنكره فريق باسم الإسلام وما صوره هو نفسه فريق آخر بأنه الصورة النقية للإسلام ؟ .

لمَ تبدل - بالاختصار - حال المسلمين ، واتجاه المسلمين فى التفكير، وأصبحوا قوميات وشعوبا ولم يبقوا أمة واحدة ؛ وأصبحت لهم رسالات مذهبية متعددة بدل رسالة دينية عامة واحدة ؟

إن الدراسات التى نشأت حول الإسلام وحول مصدره الأول وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة منذ الدعوة الإسلامية (٦١٠ ميلادية) إلى الآن تأثرت بعدة عوامل ، وكان لهذه العوامل أثرها فى نمو هذه الدراسات وتطورها من جهة ، ثم فى بُعد بعضها عن أن تكون صورة صادقة واضحة للاسلام كما جاء بها القرآن وشرحتها السنة النبوية الصحيحة من جهة أخرى . ثم من جهة ثالثة أحدثت هذه العوامل من ألوان الفرقة والقطيعة بين المسلمين ماجعل منهم فى عهود ضعفهم السياسىّ وركودهم الذهنى شعوباً وجماعات تكاد تتقابل أو تتباين ، بدلا من أن تكون متآخية أو متقاربة فى السير وفى الغاية فى الحياة .

وأهم هذه العوامل - حسب وقوعها التاريخىّ - هى :

العامل الأول : الأحداث السياسية الداخلية الأولى :

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقبل دفنه ، اختلف المسلمون فى المكان الذى يدفن فيه : أيدفن بالمدينة وهى مقر الأنصار ؟ أم يدفن بمكة وهى الموطن الأول للدعوة الإسلامية ، ثم هى مكان المهاجرين ؟ .

ولم يحسم هذا الخلاف بين الفريقين إلا تلاوة ذلك الحديث : (الأنبياء يدفنون حيث يموتون) فتذكره الطرفان .

وبعد دفنه صلى الله عليه وسلم اختلف الفريقان أيضاً : مَنْ يقوم بشئون المسلمين العامة ويخلفه فى التوجيه والقيادة ؟ واتسعت فجوة الخلاف حتى نادت الأنصار بأن يكون منهم أمير ، ونادى المهاجرون بأن يكون منهم أمير كذلك ، وانتهى الأمر بتولية أبى بكر .

ومنذ ذلك اليوم ابتدأت الأنظار تتجه إلى الخلافة ، وإلى عمل الخليفة أو الإمام . وابتدأ الرأى يتشعب حول هذا المركز الخطير والمؤهلات التى يجب أن تتوافر فيمن يشغله كما ابتدأ ينقسم حول تكييف العمل الذى يقوم به شاغله بالفعل .

فهل يشترط فى الخليفة أن يكون من بيت الرسالة ، أم يكفى أن يكون معروفا بالكفاية الذاتية والدينية لتولى هذه الوظيفة ولو لم يكن من بيت الرسالة ومن قبيلة الرسول ؟

ولا يهمنا فى هذا البحث أن نحقق باعث الخلاف فى الرأى سواء حول الامامة العامة ومؤهلاتها ، أو حول تقدير عمل الإمام والحكم عليه - أيرجع إلى الرغبة فى تحرى الحق وحده ومعرفة وجه الصواب ، أم إلى عاطفة من العواطف الشخصية وإن كان الذى يذكر فى كتب التاريخ هنا أن هذا الفريق أو ذاك قصد الحق فى رأيه ، وأنه بخلافه أراد أن يجنّب الجماعة العمل بما يخالف الإسلام . كما يُذكر أيضاً أن كل فريق حاول أن يبرر رأيه من الكتاب والسنة . يستشهد بالنصوص على رأيه ، وقد يحملها حملا على رأيٍ رغب فيه .

إنما الذى يهمنا الآن أن الجماعة الأولى التى كانت واحدة ابتدأت الآن تحت تأثير العنصر القبلى أو العنصر السياسى (حول مسئولية الخلافة العامة) تنقسم إلى أحزاب . لكل حزب رأيه ، ومبررات هذا الرأى من الدين . وأصبح المؤرخ السياسى الثقافى والاجتماعى يسجل لكل من « الخوارج » و « الشيعة » نشاطه فى تاريخ الثقافة الإسلامية كحزبين متقابلين . واتسع الأمر بعد ذلك فى أيام معاوية حتى قام إلى جانب هذين الحزبين فريق المعتزلة ، أصحاب القول بالاختيار وبأن الإنسان مسئول عن عمله وتصرفاته بناء على أنه صاحب إرادة وصاحب حرية فى أعماله ، وفريق أصحاب القول بالجبر الذين ينادون بسلبية الإنسان فى الحياة فيما يُرى له من أعمال ، ويرجعون العمل جميعه فى هذا الوجود صغيره وكبيره إلى الله تعالى .

وفى واقع الأمر قامت هذه الأحزاب جميعها بدور واضح فى شرح تعاليم الإسلام وأصوله ، وتكونت من شروحها عدة مدارس تعتبر متقابلة ومتفاوتة فى وجهات النظر ، وإن تأثرت جميعها بالجانب السياسى السائد فى توجيه الجماعة الإسلامية . ففريق الخوارج له رأيه الخاص فى الحكومة ورياسة الدولة ، والشيعة لهم رأيهم

فى ذلك ، وهو مختلف عن رأى الخوارج ، وحزب المعتزلة له رأى فى ذلك يعد وسطا بين رأيى الخوارج والشيعة ثم من وجهة أخرى له رأى فى صلة الفرد بالدولة ، وبسلطان الدولة على الفرد يعتبر مقابلا تمام المقابلة لأصحاب الجبر .

ثم حزب « الجبريين » فى تحديد صلة الفرد بالدولة وبرئيسها ، يرى عكس ما يراه حزب « المعتزلة » . وهكذا أصبح فى الثقافة الإسلامية للشيعة فقه ، ولأهل السنة فقه ، وللمتأولة تفسيرٌ للقرآن ، ولأهل التفويض والنص تفسير آخر . وهكذا تمكن التوجيه السياسى ، وإدارة دفة الحكم فى الجماعة الإسلامية ، وأوحى باختلاف الجماعة الإسلامية إلى أحزاب يتميز رأى بعضها عن بعض فى كثير من المسائل والمشكلات .

ولهذا جعلنا الأحداث الداخلية والعنصر السياسى عاملا من العوامل التى تأثرت بها الدراسات الإسلامية من جهة ، وجعلت بعض آرائها ربما لا تمثل الاسلام تمام التمثيل من جهة أخرى . وربما يرجع عدم تمثيل بعض هذه الآراء للاسلام تماما - إلى أن الرأى كان يتبلور أولا عند رجال الحزب تحت تأثير الحدث السياسى ، ثم تحصل محاولة انتزاعه من أصول الاسلام ، أو تبريره من وجهة نظر الاسلام بعد ذلك . والوضع الطبيعى فى تفسير تعاليم الاسلام هو العكس .

العامل الثانى : الثقافة الأجنبية القديمة :

دخلت الثقافة الأجنبية القديمة الجماعة الاسلامية ، وقد تكون بعض الأحزاب فيها ودخلت : إما عن طريق اختلاط حملة هذه الثقافة بالمسلمين ومجادلتهم إياهم فى مسائل كانت تعرض للبحث ، أو عن طريق النقل والترجمة . وكانت هذه الثقافة فكرية ميتافيزيكية ، أو رياضية ، أو طبيعية ، أو نزعات دينية صوفية ، وغير صوفية ، وسماوية ، ووثنية ، وغربية وشرقية : اغريقية وهندية وفارسية .

والجماعة الانسانية طالما كانت متماسكة ومتحدة ، لاينزع أفرادها إلى الدخيل من الثقافة والعادات ، على أن لهذا الدخل قيمة إيجابية فى حياتهم ، بجانب ثقافة الجماعة الخاصة ، وعاداتها التى تغلبت عليها . لأن تماسك الجماعة وتكتلها يكون

فى واقع الأمر عن طريق اعتزاز أفرادها بمقومات هذه الجماعة . ومقومات أية جماعة إنسانية تتمثل فى دينها ، ولغتها ، وعاداتها ، وخصائصها فى حياتها ، وفهمها للوجود الخاص والوجود العام .

فإذا انقسمت الجماعة إلى شيع وتحولت إلى أحزاب ، وإذا اشتبكت شيعها وأحزابها فى جدل عقلى ، وتخاصمت فى الرأى - أصبحت المقومات الأساسية للجماعة فى المحل الثانى بعد آراء الأحزاب والشيع ، وأصبحت هذه المقومات بالتالى وسيلة لا غاية . تتخذ منها الأحزاب مادة للبرهنة على صلاحية الآراء الحزبية وإذا احتلت الآراء الحزبية الوضع الأول فى الجماعة بعد انقسامها وتحزبها ، ووضعت المقومات الأساسية للجماعة فى الوضع الثانى، بعد هذه الآراء واستُغلّت لتدعيمها - فإن الدخيل من الثقافات الأجنبية قد ينظر إليه فى هذه الجماعة على أنه السبيل الذى يستعان به ، والمصدر الذى تستوحى منه الحجة والبرهان لترجيح رأى لحزب على رأى آخر لحزب آخر . أى تصل منزلته إلى الدخيل المحبوب ، أو الدخيل المرجّى .

وهذه الحال للجماعة الإنسانية بشقيها بالنسبة للثقافة الأجنبية لم تتخلف عن الجماعة الإسلامية فى وحدتها ، وبعد انقسامها : فعند ما كانت وحدتها حقيقة واقعة كان يسيطر عليها الإباء إزاء « الدخيل » على العموم ، وعند ما استحالت إلى جماعات ، وتحول الرأى فيها ، إلى مذاهب أو مدارس - طلبت « الدخيل » وجدت فى الملاءمة بين ما هو خاص بها وما يحمله هذا الدخيل .

وإذن : إذا قيل الآن أن العصر العباسى كان المسرح الزمنى لدور الثقافة الدخيلة ، فمعنى ذلك أن الجماعة الإسلامية وصلت عن طريق انقسامها إلى شيع وأحزاب فى هذا العصر إلى الحال التى لا بد منها لكل جماعة إزاء كل دخيل ، وهى حال القبول أو التعاون مع هذا الدخيل ، إن لم يكن حال الاستنجاد به ، أو الدفاع عنه .

وهنا فى العصر العباسى برزت الثقافة الأجنبية القديمة من أغريقية وفارسية

وهندية كعامل مؤثر فى الدراسات الإسلامية أو كعامل موجه فيها ، ولم تقف هذه الثقافة على هامش الحياة فى الجماعة الإسلامية ، ولم تحتك فقط بالجوانب غير الرئيسية فيها وإنما اتصلت بالموجِّه الأصيل فيها وهو القرآن الكريم وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام . وإذن فقد اتصلت بالأساس الذى دارت وتدور حوله الدراسات الإسلامية ، وعن هذا الاتصال رأينا اتجاهات لم تكن معهودة من قبل فى الجماعة الإسلامية : رأينا اتجاه الفلاسفة ، واتجاه المتصوفة ، واتجاه أهل الباطن ، واتجاه أرباب الظاهر ، بجانب اتجاه المتكلمين على اختلاف فرقهم ، والفقهاء على تعدد مدارسهم .

ورأينا الإسلام فى جانب الله يفسر فى ضوء المدرسة الأرسطية الإغريقية مرة ، وفى ضوء الزرادشتية والمانوية الفارسية مرة أخرى ، وفى ضوء البرهمية الهندية مرة ثالثة ، وأحيانا فى ضوء الوثنية المصرية القديمة مشتبكة مع بعض المدارس الفلسفية الإغريقية مرة رابعه . . . وهكذا .

ورأينا فريقاً من علماء المسلمين لا يسايرون الرأى العام الإسلامى إلى وقتهم فى فهم تعاليم الإسلام ، ويميلون إلى شرح غريب فيه : مفاده أن الإسلام له باطن وظاهر ، وأن ظاهره لعامة المسلمين وباطنه لخاصتهم ، وهم العلماء ـ يعنون أنفسهم ـ وبناء على هذا الشرح فرسالة الإسلام متفاوتة بين العامة والخاصة ، وهذا وضع يختلف تماما عن وضع الإسلام على عهد صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام : إذ كان الأمى والمتعلم سواء ، وأهل الحضر كسكان البادية ، والإعرابى البعيد عن التفقة كالفقيه من « الصحابة » عليهم رضوان الله فى التكليف بالإسلام والعمل بتعاليمه .

ورأينا القرآن يفسر مرة برأى أرباب « وحدة الوجود » من المتصوفة كما قد يفسر برأى الطبيعيين من فلاسفة الإغريق فى أصل العالم والأفلاك وعقولها ، كما قد يُخرَّج كثير من آيه على أنها نمط من التمثيل أو على أنها ضرب من ضروب المجاز والمبالغة فى الوصف .

ألوان من الحزبية المذهبية ، والمدرسية ، والعقلية برزت فى العصر العباسى على أثر دخول الثقافات الأجنبية فى الجماعة الاسلامية ، وشتاتٌ مختلف من التراث العقلى والدينى القديم اختلط بالتعاليم الاسلامية الأصيلة ، وأفهامٌ متعددة - وربما متضاربة - لرسالة الاسلام فى الحياة الانسانية - أصبحت فى الجماعة الاسلامية حقائق واقعة كنتيجة لدخول الثقافة الأجنبية فيها ، وسيطرتها على فريق من المشتغلين بالمعرفة من علماء المسلمين .

ذات الله أصبحت مشكلة تختلف فيها الأفهام ، وتحتك فيها العقول عن طريق الجدل والحجة ، بعد أن كانت واضحة للمسلم الأول .

وعلاقة الإنسان بالله أصبحت مشكلة ينقسم فيها الرأى إلى التقابل والتضاد ، بعد أن كان المؤمن السابق يميز بين مجال نفسه ومجال خالقه فى يسر ووضوح .

والرياسة العامة للمسلمين أصبحت مشكلة بدورها ، ولا يخضع الرأى فيها للدين وحده ، أو للمنطق وحاجات الجماعة معه ، بعد أن كان الاتجاه فى العمل إلى الله وفى سبيل الله .

والزهد فى السلوك العملى أصبح مشكلة فنية بعد أن كان مسلكه بيِّن المعالم والحدود .

والقرآن نفسه - وهو رسالة الله ، ومن الله وحده ، ولله خالصا - أصبح يُجذب فى تفسيره إلى معرفة الإنسان التى اتسمت باسم الفلسفة ، أو إلى تصورات الإنسان فى الكون التى آلت إليه عن طريق الاعتقادات السابقة فى شعوب الآريين أو الساميين ، أو الحاميين . وهكذا أضحى الاسلام مشاكل ، وأضحت حلولها وقفاً على الجدل النظرى .

والشهرستانى - وهو فى مقدمة المؤرخين للحياة الثقافية على عهد العباسيين - يؤرخ لعشرات من الفرق الاسلامية وغير الاسلامية ، ولعشرات من الملل والنحل التى بقى طابعها الاصيل عالقاً بها ، ولعشرات من المذاهب الفكرية والبصيرية التى

تنتمى فى أصلها إلى بعض تعاليم الاسلام ، أو التى هى من أصل أجنبى عنها ، ويذكر ذلك كله على أنه العناصر التى تكونت منها صورة الحياة الثقافية فى وقته ، وهو القرن السادس الهجرى ، أو الثالث عشر الميلادى .

نمو مطرد فى التراث الثقافى الاسلامى ، وتنوع متزايد فى الاتجاهات فى الحياة الثقافية للجماعة الاسلامية ، وتعقيد متواصل لحلول المشاكل ، وإغراق فى الجدل النظرى حول شرح هذه المشاكل ، وتفتيت مستمر لوحدة الجماعة ، ونفرة واضحة فى الخصومة بين أحزابها وشيعها .

كل ذلك يرسم لنا الخطوط العامة التى تميزت بها الجماعة الاسلامية بعد دخول الثقافة الأجنبية فيها واشتباكها مع الثقافة الأصيلة والتوجيه الأصيل فيها ، وهى ثقافة الاسلام ، وتوجيه كتاب الله .

وأتت ـ بعد أن وضحت هذه الصورة فى الجماعة الاسلامية وأصبحت طابعاً لها ـ فترة طويلة يردد فيها العقل النظرى لعلماء المسلمين هذه المذاهب والاتجاهات السابقة ، ويخاصم فيها هؤلاء العلماء بعضهم بعضا ، غير ملتزمين فى بعض الأحيان طريق الجدل العلمى فى الخصومة العلمية ، ويبرّر فيها العقل العملى للمسلمين شعائر وعادات قد تباين منهج المسلمين الأول فى سلوكهم ومعاملاتهم .

وقد ارتفع فى هذا المجال صوت باحث عد غريباً عن أصوات البقية الباقية ، هو صوت ابن تيمية فى آخر القرن السادس الهجرى أو فى القرن الثانى عشر الميلادى.

ارتفع هذا الصوت بالثورة على الوضع القائم للمعرفة فى وقته ، وعلى الأسلوب الذى تعالج به ، وعلى طريقة التفكير ، وندد بمذاهب التوجيه المختلفة التى كانت معروفة على عهده ، وأوضح آثارها السلبية على الإسلام نفسه ، وعلى الجماعة الاسلامية ، وربط بينها وبين حال الذلة والضعف التى آل إليها المسلمون فى ذلك الوقت ، ورسم طريق الخلاص من هذه الحال بوجوب الرجوع إلى طريقة السلف ـ وهم الجماعة الأولى ـ فى فهم الاسلام . وهذه الطريقة هى الأخذ بالقرآن على نحو ما أخذ به السلف فى وقتهم ، والحيطة فى تقبل الأحاديث ، وتضييق

دائرة الرأى والقيـاس فى الأحكام الفقهية ، والوقوف عن التأويل وكثرته فى معرفة الله ، والإيمـان - بدلا عنه - بمـا ورد فى هـذا الشأن على نحو ما كان عليه السابقون .

ورأى أن هـذا العلاج سيرد الجماعة الاسلامية إلى وحدتها ، وتمـاسكها ، وسيحفظ للإسلام قوة الإيمـان به فى نفوس المنتسبين إليه .

ولكن هذا الصوت الذى صاح به ابن تيمية جلب عليه التعذيب فى السجن إلى أن مات فيه ، كما أوجد ثورة عقلية أخرى عليه وعلى مذهبه من أتباع المذاهب التى سادت فى وقته والتى وصفنا أمرها سابقا .

وعندئذ استمر الحال على هـذا النحو إلى أن جاء القرن التاسع عشر واتصل الغرب صاحب الحضارة الصناعيـة المـادية بالشرق صاحب الثروات الثلاث : صاحب الثروة الأرضية بمـا فى جوفها أو ينبت على ظهرها ، وصاحب الثروة البشرية التى تتمثل فى قوة النسل فيه ، وصاحب الثروة الروحيـة التى يصورها القرآن الكريم ، والتى تتركز فى وحدة الألوهية ، وفى وحدة البشرية ، وتساوى الناس فيها بتساويهم فى الحقوق والواجبات ، ووحدة الفرد فى ذاته وأمام غيره فى جماعته بالاعتراف بحرماته وبإيجابيته فيها ، وفى وحدة المسلمين وتكافئهم فى هذه الوحدة بمقاومة الولاية عليهم لأجنبى عنهم فى دينهم .

العامل الثالث : الاستعمار الغربى فى القرن التاسع عشر :

اتصل الغرب صاحب القوة الصناعية بالشرق صاحب الثروة المـادية اتصال المستعمر المستغل ؛ المستغل لكل مصادر هذه الثروة ، واضطر أن يتصل به كذلك اتصال الموجه الذى ادعى لنفسه رسالة إنسانية فيه . كى يستطيع فى ظل ذلك أن يحصل على أكبر قسط من المنفعة المـادية فى جو نفسى للشعوب الشرقيـة تظلله الطمأنينة ، وربمـا الاستحسان من قادة هذه الشعوب لتصرف المستعمرين .

وليست الفجوة بين الغرب والشرق فى أن الأول يحمل قوة الصناعة الحديثة ، وأن الثانى فقير منها وفى حاجة إليها ، بل الفجوة الكبرى بينهما كانت فى أن الغرب

نهض فى تفكيره ، وتخلص من المظاهر التى سادت التوجيه هناك فى القرون الوسطى ، وهى تشبه إلى حد كبير تلك الأخرى التى سيطرت على تفكير المسلمين فى القرن السادس الهجرى ، أو القرن الثالث عشر الميلادى : وهى تعدد فى مدارس التوجيه ، وخصومة عنيفة بين أصحاب هذه المدارس ، وجدل نظرى لا يتصل بواقع الحياة ، يسيطر على البحث والعمل العقلى ، ودوران للفكر فى حلقة مفرغة من الآراء ، وترديد فى غير ملل لأفكار لا توصل صراحة إلى ماضٍ معين ، ولا تعالج أمراً من أمور الحاضر .

فالنهضة الأوربية ميزت الغرب عن الشرق ، وجعلت العقل الغربى يعالج الطبيعة فى واقعها وفى تطور خصائصها ، ومكنته من أن يستخدمها ويسخرها لخدمته ورفاهيته .

وأغراه بحثه الطبيعى ، وأغرته النتائج التى وصل إليها فى بحثه فى الطبيعة إلى أن يزيد فى قيمة الحضارة المادية ، وعلى حساب القيم المعنوية والروحية . وجدت مذاهب فى السلوك الإنسانى - كالميكيافيلية ، ومذهب المنفعة - نتيجة لهذا التفضيل ، ودفعت بالرجل الغربى إلى اقتناص المنفعة المادية بأية وسيلة ، وفى أى مكان ، وعلى أية صورة : فالغاية فى نظره تبرر الوسيلة ، والحياة ليست إلا انتهازاً للفرص . وما وراء ذلك من معانى الحرمات ، والانسانية ، وحقوق الغير من الناس والأوطان ، وأمثالها يضعها تقديره الخاص للأشياء فى المنزلة الثانية .

امتاز الغرب عن الشرق بالبحث الطبيعى ، بينما وقف بحث الشرق فى دائرة النظر المحض ، وتغيّر مقياس الرجل الغربى فى الحياة ، فأصبح أساسه المنفعة الواقعية ، بينما بقى الرجل الشرقى يحلق فى جو من المثالية ، والمثالية الخيالية .

هذا الفارق بين الغرب والشرق ، هيأ للغرب أن ينتفع بالشرق ، وأعد الإنسان الشرقى لتسهيل مهمة الغربى فى وطنه . فواقعية الغرب مكنته من الانتفاع ، ومثالية الشرق أو وقوفه فى دائرة النظر بعيداً عن الواقع جعلته متساهلا أو متسامحاً أو غاضا النظر عما يجرى فى واقعه ، لأنه لا يحفل بواقعه هذا إلا قليلا تحت تأثير تفكيره النظرى .

ولكن هذا الفرق فى التفكير بين الغرب والشرق لا يمكّن الغرب من الانتفاع بالشرق طويلا ، ما دامت هناك قوة ثالثة كامنة فى الشرق وهى القوة الروحية ، أو القوة الاسلامية ، بجانب القوتين الآخريين ، وهما القوة المادية الممثلة فى الامكانيات العديدة من بترول ومعادن النحاس والقصدير وغيرها ، ومحصولات الزراعة من مطاط وقطن وأرز وغيرها ، والقوة الأخرى البشرية الممثلة فى وفرة النسل وكثافة السكان .

واذن ليكن من منهاج الغرب الطويل المدى فى استغلال الشرق واستعماره العمل على « خلخلة » القوة الروحية فى الشعوب الشرقية وذلك بالوسائل الآتية :

١ — تمكين الرسالات التبشيرية ، لا على أنها تبسط تعاليم المسيح عليه السلام فى الأوساط المسيحية أو بين القبائل الوثنية ، أو حتى على بعض مسامع المسلمين ، بل على أنها تثير الشكوك فى العقيدة الاسلامية بين المسلمين وبالأخص بين الطبقات التى لم تنل حظاً فى التوجيه الاسلامى الصحيح .

واتخذت هذه الرسالات من بعض مدارس الأوروبيين ومؤسساتهم الثقافية فى الشرق مجالا لنشاطها ، وتسترت فى ذلك وراء مسميات عامة محبوبة : كالتعليم ، والتربية ، والتثقيف . وحصنت نشاطها هذا بامتيازات حصلت عليها فى صورة معاهدات ، كما حصل فى مصر وبلاد الشرق الأدنى ، أو بخفارة مسلحة كما كان الحال فى إندونيسيا والملايو من بلاد الشرق الأقصى الاسلامى ، أو كما هو واقع الآن فى شمال أفريقيا ، والمستعمرات الأوربية الأفريقية .

٢ — العمل على زيادة الفجوة بين بعض المذاهب الاسلامية وبعض ، كإذكاء العداوة بين الشيعيين والسنيين : فالأحداث التى كانت تقع بين الفريقين فى الشرق الأوسط لا ترجع إلى تباين المذهبين ، بل إلى الخطأ فى أفهام أتباعهما ، وإلا فكتاب الشيعة هو كتاب السنة ، ورسول السنة هو رسول الشيعة .

وهذا الخطر يحدث أو يثار كلما شعر المستعمر الأوربى بوعيٍ إسلامى عام ، أو بوعيٍ قومى محلى فى الرقعة التى يستغلها .

٣ — خلق جو من العداء والخصومة بين قديم الشرق فى ثقافته وبين الجديد من تفكير الغرب . والوسيلة إلى هذه الخصومة أمر ميسر . إذ يكفى الإقناع العام فى النظرة إلى تراث الشرق الثقافى الذى وصل إلى ما وصفنا نظرة هينة تنطوى على معنى الاستخفاف بالنسبة إلى ثقافة الغرب الجديدة - أن تكون هذه الثقافة الغربية الجديدة فى صحبة حضارة الغرب الصناعية . فمخترع السيارة ، والطائرة ، واللاسلكى ، والراديو تبدو ثقافته الفكرية التى يحملها أرجح فى الوزن أمام الرأى العام من تلك الثقافة التى يحملها الشرقى ويدور فى فلكها دون رعاية لواقع حياته ودون أن يصفيها حتى تدفعه دفعاً إيجابياً ليلائم بين ماضيه وحاضره ، وليعيش فى غده وهو على اتصال بأمسه .

وأضحت الثقافة الغربية بكل مافيها من توجيه أمراً مرغوباً فيه فى بلاد الشرق الاسلامى ، وأصبحت الثقافة الشرقية الاسلامية حتى الأصيلة منها أمراً لا تلتزمه العقلية الشرقية فى توجيهها ، وربما لا تطيل الدفاع عنه ، وربما تسهب فى تنقيصه .

٤ — العمل على إيجاد مذاهب جديدة فى الجماعة الاسلامية تحمل طابعاً إسلامياً ، ويقوم بالدعوة إليها علماء ينتسبون لجماعة المسلمين ، وتبشر بمبادىء جديدة يرضى عنها المستعمر أو يحميها كذلك ، لأنها تمكن له من استعمار واستغلال قوى الشرق الاسلامى لفترات طويلة .

وقد قام بالفعل فى ظل الاستعمار البريطانى فى الهند مذهب يدعو لنفسه ويدعى أنه من مذاهب المسلمين - وهو القاديانية - وينادى مع ذلك بصحة تولى الأجنبى عن الاسلام ولاية المسلمين العامة ، على معنى أنه يجب على المسلمين طاعته وأن يوكل إليه تقدير المصالح المرسلة بين المسلمين وكافة شئون الولاية العامة ، حتى إعلان الحرب بين من ولى عليهم من المسلمين وبين جماعة مسلمة أخرى . كما ينادى بإلغاء فريضة « الجهاد » بدعوى أن أمر الاسلام قد استقر فلا داعى بعد هذا لفرض الجهاد . مع أن مشروعية الجهاد أصالة لدفع الاعتداء على المسلمين على أية جماعة منهم فى أى موطن كانت ، والاعتداء ليس أمراً موقوتاً حتى يوقت الجهاد ،

بل هو فطرى فى الانسان وفى الجماعة الانسانية ، وإذن فرض الجهاد كوسيلة لرده أمر مستمر .

هذه الوسائل التى استعان بها المستعمر الغربى لخلخلة القوة الروحية فى الشرق الاسلامى لا بد أن توجد حولها جدلا ، أخذاً ورداً ، ولا بد أن يخلق الجدل حولها اتجاهات أخرى فى فهم الاسلام وتعاليمه ، وفى تفسير القرآن الكريم وسنة رسوله الصحيحة . وربما يكون بعض هذه الاتجاهات ضربا من ضروب التحريف أو الانحراف عن الفهم الصحيح لرسالة الإسلام .

فتشكيك المبشرين فى العقيدة الاسلامية كان له صدى فى مجال الفهم والتفهم للإسلام ، والعمل على زيادة الفجوة بين بعض المذاهب الاسلامية القائمة وبعض كان له دافعون ومدافعون باسم الاسلام والتعاليم الاسلامية .

وإيجاد جو من التوتر بين قديم الشرق وحديث الغرب فى الثقافة لا بد أن يوحى بنوع من التعصب العقلى بين فريقين متقابلين ، أحدهما للقديم والآخر للجديد ، وربما يأتى بفريق ثالث يحدد مهمته بالتوفيق بين الطرفين . وفى كل هذا لا يقوم التعصب العقلى لدى كل من الفريقين المتقابلين ، ولا يقوم التوفيق كذلك عند الفريق الثالث إلا على ادعاء نمط من الصلة بالاسلام وأخذ الحجة منه .

وقيام بعض المذاهب الاسلامية التى يعارض بعض ما تنادى به بعض الأمور المقررة فى الاسلام لا يمر دون أن يثير مناقشة عقلية له أو ضده ، تزداد بمرور الزمن ، ويتسع نطاقها كلما دخل دائرة النقاش جديد من التابعين أو المعارضين .

وإذن العامل الثالث وهو الاستعمار الغربى ساهم مساهمة فعالة فى نمو الدراسات الاسلامية كما ساهم فى تعقيد بعض المشاكل الدينية وفى زيادة الفرقة بين المسلمين ، وفى إحداث بعض الاتجاهات التى قد تتعارض معارضة واضحة مع الاسلام ، ومن الأسف أنها تضم إلى مذاهب المسلمين .

ومن جهة أخرى هذا الاستعمار الغربى أوحى بحركة إيجابية فكرية فى الشرق الاسلامى ، وكان نفسه لهذا عاملا من عوامل النهضة الاسلامية الحديثة . وإذا كان النصف الأول من القرن التاسع عشر المسرح الزمنى لقوة الاستعمار الغربى فى الشرق الاسلامى ، فإن النصف الثانى منه شهد مولد الحركات والنهضات القومية فى هذا الشرق ، كصدًى وردّ فعل لهذا الاستعمار .

واستهدفت هذه الحركات عكس ما استهدفه الاستعمار فى الشعوب الاسلامية : استهدفت جمع الكلمة للمسلمين عن طريق الرجوع بهم إلى الاسلام فى عهده الأول ، وإلى طريقة السلف فى فهم القرآن والتعاليم الاسلامية ، كما استهدفت الاستخفاف بالتقليد للمذاهب القائمة والتعصب لها ، وأوضحت كغاية أخيرة لها معالمَ الشخصية الاسلامية وحدودها التى تتمثل فى استقلالها ووجوب الحرص على هذا الاستقلال : فاستقلالها كدولة يوجب فرض الجهاد والقيام به على جميع أفرادها ، واستقلالها كعلماء وموجهين يوجب على العلماء والموجهين الاجتهاد فى فهم الاسلام بما يلائم أحداث العصر وحاجاته ، ونبذ التقليد الطيِّع للمذاهب القائمة على أنها اتجاهات لا تقبل التعديل .

وقد راعى هذه الحركات فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد إقبال .

وهذه الحركات بدورها أوحت بمعارضين لها من علماء المسلمين ، وأرجعوا معارضتهم إياها إلى سند من الاسلام ، كما حاولوا أن يشرحوه بما يلائم رغبتهم الخاصة فى المعارضة ، وأصبح جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى نظرهم منحرفين عن الطريق السليم فى فهم الاسلام بما يدعوان إليه من جواز « الاجتهاد » ونبذ التقليد .

ولم تزل النهضة الفكرية الاسلامية تسير فى طريقها الذى عبّد لها أولا ، وإن كان الآن بخطوات فسيحة عن ذى قبل ، ولم تزل معارضة الأسس التى قامت عليها موجودة وإن كانت فى صورة من اليأس أو الهزال .

العامل الرابع : الثقافات الغربية المعاصرة من المذاهب الاجتماعية والاقتصادية :

والاستعمار الغربى وإن خلف الصورة السابقة فى الدراسات الاسلامية ، فإنه من جهة أخرى زاد اتصال الشرق الاسلامى بالغرب . ولعل زيادة الاتصال هذه كانت إحدى نتائجه المباشرة ، لأن الشرق لم يتصل بالغرب اتصال المتكافئين ، وإنما اتصال التلميذ بالمعلم ، واتصال صاحب الحاجة بالمانح ، وهذه الظاهرة حتما من خلق الاستعمار ومن طبيعته ، فالمستعمر سيد والشعوب المستعمرة رعاياه .

وزيادة اتصال الغرب بالشرق مكنت للشرق بوسيلة وبأخرى أن يقف على ثقافة الغرب المعاصرة . وعلى الأخص مايعد منها فى منزلة الموجه للحياة الغربية الحاضرة وقف الشرق على مذاهب الديمقراطية ، والشيوعية ، والفاشية ، والرأسمالية ، والاشتراكية من تلك المذاهب التى تقود الدول الحديثة اليوم فى مجال الصراع الدولى . كما وقف على آثار هذه المذاهب فى السلوك العملى للأفراد والجماعات .

وإذا وصلت هذه الاتجاهات إلى الشرق الاسلامى لا تصل إليه وتعيش على هامش الحياة الفكرية فيه . لأن حملتها إما من أرباب الأقلام فيه ، أو أصحاب رسالة توجيهية فى الجامعات والمعاهد العليا ، أو أصحاب رغبة فى ممارسة فن الحكم فى بلاد هذا الشرق الإسلامى .

وإذن سيكون لها احتكاك بالتراث الشرقى الاسلامى الموروث ، وإذن سيثار حولها ـ لها أو ضدها ـ نقاش عقلىّ ، وإذن ستتلمّس المناقشة من إفهام الإسلام عوناً لتأييدها أو معارضتها ، وأخيراً سيخلق احتكاك الثقافة الغربية الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة نوعا من الدراسة الاسلامية . وسيضيف اتجاها أو آخر إلى الاتجاهات العديدة التى أشرنا إليها والتى تكونت منها الدراسات الاسلامية . وقد يكون من بين هـــذه الاتجاهات ما يتعارض مع مبادىء الاسلام معارضة واضحة .

* * *

إن الاسلام فى أصله مجموعة من النظم والتعاليم لإيجاد حياة إنسانية فاضلة مبتدئة من الفرد إلى العالم الكبير . وليست هى الدراسة والآراء والحلول التى جاءت بها الأحداث السياسية الداخلية ، ولا هى التى أتت بها ثقافة الأغريق والفرس والهنود القديمة ، ولا هى التى ساعدها الاستعمار الغربى فى الشرق الاسلامى ، ولا هى المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الحديثة فى العالم الغربى" .

القرآن كتاب الله هو مصدر هذه التعاليم والنظم . وهذا القرآن لا ينشد إلا السلم فى أضيق الحدود وأوسعها ، والاخاء فى البشرية ، والاعتدال فى وزن الحياة وقيمتها .

والتفسير الصحيح لكتاب الله هو مايصدر عن فهم واضح لغاية الله فى كونه . وإذا كان الله مستغنياً عن كونه فغايته فيه لا تعدو الخير لمن أكرمه الله بين كائناته وهو الانسان . والخير إذن هو سبيل القربى إلى الله ، وهو وسيلة النجاح فى هذه الحياة . ليس الخير الصدقة ، « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . صدق الله العظيم ؟

برّ المخالفين في الإسلام

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى

المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

ومن أصرح ما جاء فى القرآن الكريم من بر المخالفين فى الإسلام قوله تعالى فى الآيتين - ٨ ، ٩ - من سورة الممتحنة : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فقد روى فى سبب نزول ذلك أن قتيله بنت عبد العزى قدمت من مكة وهى مشركة إلى المدينة بهدايا إلى بنتها أسماء بنت أبى بكر وزوج الزبير بن العوام ، فلم تقبلها منها ، ولم تأذن لها بالدخول عليها ، فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تدخلها وتقبل منها هديتها وتكرمها وتحسن إليها .

والأكثرون على أن ذلك نزل فى أهل العهد الذين عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على ترك القتال والمظاهرة فى العداوة ، وهم بنو خزاعة ، كانوا عاهدوا الرسول عليه الصلاة والسلام على ألا يقاتلوه ولا يخرجوه ، فأمر بالبر والوفاء لهم إلى مدة أجلهم ، وقيل ان ذلك نزل فى شأن نساء المشركين وصبيانهم ، فلا يصح أن يعاملوا معاملة الرجال القادرين على القتال ، بل يجب الكف عن قتالهم ، ليكون القتال مقصوراً على المقاتلين وحدهم .

وقيل إن ذلك نزل فى المسلمين حين استأمروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقربائهم من المشركين أن يصلوهم ، ولعلهم يعنون أقرباءهم من أسرى بدر أيضا .

ولا شك أن هؤلاء المفسرين يريدون بذكر هذه الأسباب تقييد ما أطلقه القرآن من البر بالمخالفين فى الإسلام ، ففى السبب الأول والثالث يراد تقييده بالنساء والصبيان ونحوهم ، وفى السبب الثانى يراد تقييده بمن له عهد وذمة من الذميين والمعاهدين ، وفى السبب الرابع يراد تقييده بالأسرى الذين لهم أقرباء من المسلمين .

وإنما حملهم على تقييد بر المخالفين بذلك ما ورد من الأمر بقتالهم ، فيجب عندهم أن يقيد من لم ينهنا الله عن بره ومودته بالأصناف السابقة ، حتى لا يكون هناك تعارض بين الأمر والنهى ، ومن المفسرين من يرى ذلك منسوخا بآيات القتال ، لأن عدم النهى عن برهم ومودتهم يخالف الأمر بقتالهم ، ولعله لا يرى بر من سبق من المخالفين فى الإسلام ، من الذميين والمعاهدين والنساء والصبيان والأسرى الذين استكرهوا على القتال ومن إليهم ، بل يرى الخشونة فى معاملتهم ، ويستحسن مواجهتهم بالإساءة فى القول والفعل ، وسيأتى أن هذا على مجافاته لسماحة الإسلام قد أخـــذ به بعض المتشددين فى الدين ، فأساءوا بهذا إلى الإسلام من حيث يريدون الإحسان إليه بتشددهم ، لأن كل شىء يجاوز حده ينقلب إلى ضده .

وإنى أرى أن المفسرين الذين قيدوا بر المخالفين فى الإسلام بمن سبق من الأصناف بنوا مذهبهم فى ذلك على أن المخالفين ينقسمون إلى قسمين : ذميين ومحاربين ، فالذميون لا شىء فى البر إليهم جميعاً ، ولا فرق فى ذلك بين نسائهم وصبيانهم ورجالهم ، والحربيون لا شىء فى البر إلى صبيانهم ونسائهم ، ومن أكره على القتال منهم ، فلا يعاملون معاملة من قاتل وحارب بالفعل .

وقد غفل هؤلاء المفسرون عن قسم ثالث من المخالفين ليس بيننا وبينه حرب ولا عهد ، من الذين لم تبلغهم دعوة الاسلام ، أو بلغتهم دعوته ولكنهم لم يجيبوا ولم يحاربوا ، فهذا القسم تشمله الآية أيضاً ، وليس علينا إلا أن نبلغه دعوة الاسلام ، فإن أجاب فله جزاؤه عند الله ، وإن لم يجب فحسابه على ذلك فى الآخرة

وإذا لم يحاربنا فلا شيء علينا فى أن نعامله معاملة من له ذمة وعهد ، ولا شيء فى أن تشمله آية : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم » لأنه لا إكراه فى الدين ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وإذا كان الاسلام قد جاء بالحرية الدينية قبل أن تتشدق بها أوربا زوراً فى عصرنا ، فإن من شأنها أن ندع لكل إنسان دينه يحاسبه الله عليه فى الآخرة ، ولا يصح أن نخاصمه أو نقاتله فى الدنيا لأنه يخالفنا فى الدين ، بل يجب أن نجذبه الى ديننا بحسن المعاملة ، وأن نتخلق معه بالأخلاق الكريمة ، لأن هذا أدعى الى تحبيبه فى ديننا ، والى تقديره لحسن آثاره فينا ، فيدعوه هذا إلى الإيمان به ، ليهديه إلى الأخلاق الكريمة كما هدانا ، فأصحاب كل دين عنوان عليه ، فإن كانوا عنوانا حسناً عليه كانوا دعاية له ، وإن كانوا عنواناً قبيحاً عليه نفروا الناس منه ، وأخذوا بتنفيرهم منه فى الآخرة ، وربما عذر من نفروهم منه لأنهم لم يبلغوا دعوته تبليغاً صحيحا .

وعلى هذا يجب أن يحمل حديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم » على محمل لا يعارض ما جاء به الاسلام من الحرية الدينية ، وباب التأويل بالتقييد ونحوه باب واسع فى الاسلام فيمكن حمل الناس فى الحديث على أهل مكة ، نظير حمله فى القرآن عليهم فى مثل قوله : « يأيها الناس أعبدوا ربكم » ويكون هذا خاصا بهم ، لأنهم قاتلوا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ، ولأن مكة لها شأن خاص بوقوع الكعبة فيها ، وهى قبلة المسلمين ، فيجب أن تطهر من عبادة الاوثان ، وأن تكون خالصة لدين التوحيد ويمكن أيضاً حمل الناس على العرب خاصة ، لأن الاسلام أراد حملهم على دين واحد ، ليزيل من بينهم أسباب التدابر والتخاصم ، ويجمع بينهم على كلمة التوحيد ، أو لتكون جزيرتهم معقلا للإسلام ، وحصنا حصينا للمسلمين ، وقد أخذ بهذا بعض الفقهاء ، ففرق فى مضمون ذلك الحديث بين مشركى العرب وغيرهم ، وقضى بأن مشركى العرب لا يقبل منهم إلا الاسلام ، وبأن مشركى غيرهم تقبل منهم الجزية كأهل الكتاب .

والاسلام أبر من أن يأخذ الناس بإطلاق ذلك الحديث ، فيقيمها حربا عوانا عليهم ليدخلهم فيه بالسيف ، وهو دين البر والرأفه ، ودين السماحة والحرية ، وقد جعل وسيلته فى الدعوة الحكمة والموعظة الحسنة ، كما قال تعالى فى الآية ١٢٥ من سورة النحل : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » وما كنت لأطيل فى شأن ذلك الحديث لولا أن أخذه على ظاهره ينافى ما جاء به الاسلام من البر بالناس ومن أعظم البر بهم أن يدعى إليه بينهم بالتى هى أحسن ، وألا يكون ظهوره بينهم لإقامة حروب تحملهم على الإيمان به قسراً ، وتقييد الحديث بذلك يجعل الاسلام كما هو فى الحقيقة دين سلام لا دين حرب ، ودين بر بالانسانية ، بمعاملتها فى الدعوة بالوسائل السلمية ، وابتعاده عن الوسائل الحربية إلا عند اضطرارة إليها فى الدفاع عن نفسه .

على أن الاسلام لا يخلو مع المخالفين من أهل الحرب بأخذهم بكثير من البر ، فحين أمر بقتالهم لأنهم قاتلوه حرم الاعتداء عليهم ، كما قال تعالى فى الآية - ١٩٠ - من سورة البقرة : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » فنهى عن الاعتداء فى قتالهم بعدم مراعاة ما يوجبه البر بالإنسانية ، وكان الاسلام بهذا أول من راعى مثل ذلك فى الحرب ، وشرع به أصولا فيها تبعدها عن الحروب الوحشية ، فحرم بهذا ما كان يحصل فيها من المثلة ونحوها من الأمور التى لا تليق بكرامة الانسان ، وكان هذا أساساً لكل ما حصل بعده فيها من التشريعات التى تحقق فيها أمور البر بالانسان بقدر الامكان .

وكذلك حرم المضى فى قتالهم إذا جنحوا للسلم ، فقال تعالى فى الآية - ٦١ - من سورة الأنفال : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » فلم يجعل منها حربا انتقامية يمضى فيها مع شهوة الانتقام ، وهى لا تقف عند حد ، ولا تنتهى إلا بالقضاء على المغلوب ، بل أوجب أن يمضى فيها بقدر الضرورة ، فإذا أدركهم الوهن وجنحوا للسلم وجب وقفها فوراً ، تخفيفا لويلاتها

وبراً بالعدو الذى أدركه الوهن ، لأنا لا نحاربه شهوة فى الحرب ، أو قصداً للانتقام منه ، وإنما نحاربه دفاعا عن النفس ، وحماية للدين ، فإذا كف عن القتال كففنا عنه ، وعاملناه بما ينبغي من البر ، ولم ننتهز فرصة ضعفه لنشفى ماقام بنفوسنا من الحقد عليه ، بل يجب أن يقوم الصفاء مكان الحقد ، وأن يحل السلم محل الحرب لأن الأصل فى الاسلام أن تكون علاقته بالناس علاقة سلمية لا حربيه ، فإذا زالت أسباب العلاقة الحربية وجب أن ترجع علاقته بالناس إلى أصلها ، ولا يصح المضى فى مخالفتها .

وقد يكون من البر بالانسانية فى الحروب تقييد مقابلة الاعتداء بالاعتداء ، بأن يكون بالمثل فى قوله تعالى فى الآية ـ ١٩٤ ـ من سورة البقرة : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » قاتلهم المشركون عام الحديبية فى ذى القعدة ، فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء فى ذى القعدة أيضاً وكراهتهم القتال فيه : هذا الشهر الحرام بذلك الشهر الحرام ، وهتكه بهتكه فلا تبالوا به ، فالحرمات قصاص ، أى أن كل حرمة ـ وهى مايجب المحافظة عليها ـ فيها القصاص فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد عن العمرة ، فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، واعتدوا عليهم بمثل ما اعتدوا به عليكم ، شهراً بشهر فقط ، واتقوا الله فى شأن الانتصار ، واحذروا أن تجاوزوا ما رخص لكم ، ويجوز لنا أن نقيس آلة الحرب على زمن الحرب ، فكما وجب تقييد مقابلة الاعتداء بالاعتداء بالمثل فى الزمن ، يجب تقييد مقابلة الاعتداء بالاعتداء بالمثل فى آلة الحرب ، فإذا اعتدى علينا بالسيف اعتدينا به أيضا ، ولا يصح أن نجاوزه إلى ما هو أشد فتكا ، وإذا سعى العدو فى ابتكار آلات حربية ليقاتلنا بها سعينا فى ابتكار مثلها لندافع بها عن أنفسنا ، فيكون شأننا فى هذا مجاراة غيرنا فى الاستعدادات الحربية ، حتى لا نكون سبباً فى إيقاع الأمم فى المنافسة فى ابتكار آلات الحرب ، وإنفاق أموال الشعوب فى اختراع المدمرات ، بدل إنفاقها فيما يطيب به عيشها ، وتكمل به هناءتها ، كما تفعل الأمم التى تتسابق الآن فى اختراع

آلات التدمير ، حتى وصلت بها إلى ما يهدد العالم بالخراب ، فالإسلام يجعل أمته فى هذا الاستعداد الحربى تابعة لامتبوعة ، لأنه لا يريد إلا السلام والبر بالانسانية على اختلاف أديانها ، فلا يجرى فى الاستعداد الحربى إلا مضطراً ، ولا يكون فيه مبتدئا بل مجاريا ، ولا يستعمل الآلات الحربية الأشد فتكا إلا بعد أن يعتدى عليه بها ، فإذا وصلت إلى حالة تؤدى إلى إشاعة الخراب فى العالم لم يسعه إلا أن يدعو إلى تحريمها ، وإذا سبق بالدعوة إلى تحريمها لم يسعه إلا إجابة هذه الدعوة ، وكيف لا يكون هذا موقف الاسلام من تلك الآلات المدمرة ، وقد روى مالك فى الموطأ عن يحيى بن سعيد أن أبا بكر بعث جيوشا إلى الشام ، فخرج يمشى مع يزيد بن أبى سفيان - وكان يزيد أمير رُبع من تلك الأرباع - فقال : إنى موصيك بعشر خلال : لا تقتل امرأة ، ولا صبيا ، ولا كبيراً هرما ، ولا تقطع شجراً مثمرا ولا تخرب عامرا ، ولا تعقرن شاة ، ولا بعيراً إلا لمأكله ، ولا تعقرن نخلا ولا تحرقه ، ولا تغلل ، ولا تجبن ، وقد أخذ الأوزاعى والليث وأبو ثور بهذه الوصية التى وصى بها أبو بكر يزيد بن أبى سفيان ، فذهبوا إلى عدم جواز التحريق والتخريب فى بلاد الأعداء ، وقد ذهب غيرهم إلى جواز ذلك ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قطع نخل بنى النضير ، وقد ذهب الطبرى إلى أن النهى محمول على القصد لذلك ، بخلاف ما إذا أصابوا ذلك أثناء القتال ، وبهذا قال أكثر أهل العلم .

وإنى أرى بعد هذا كله أنى سقت ما فيه الكفاية لإثبات بر المخالفين فى الإسلام ، من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم مع أولئك المخالفين ، إلى نصوص صريحة من القرآن الكريم ، إلى أحاديث ووصايا من النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعض الخلفاء الراشدين ، فإذا رأينا ما يخالف هذا حكمنا بأنه مخالف لسماحة الإسلام ، ولم نر الأخذ به فى الدين ، لأنه يضر الإسلام ولا يفيده ، وينفر الناس منه ، ويبعدهم عن الإيمان به .

ومن ذلك ماروى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه »

وقد أخذ الجمهور بهذا الحديث، وذهبوا إلى تحريم ابتداء المسلم لليهودى والنصرانى بالسلام، وحمل بعضهم هذا النهى على الكراهة، وخالفهم طائفة منهم ابن عباس فذهبوا إلى جواز ابتدائهم بالسلام، واحتجوا بعموم قوله تعالى: «وقولوا للناس حسنا» وبأحاديث الأمر بإفشاء السلام، لأنها جاءت عامة لا تخصيص فيها والحق فى هذا مع تلك الطائفة التى فيها ابن عباس، وقد كان أدرى بالاسلام وسماحته من أبى هريرة، ولا شك أن من يذهب إلى جواز ابتدائهم بالسلام ولا يأخذ بصدر الحديث فى النهى عن ابتدائهم به، لا يأخذ بآخره وهو . «وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقة» لأنهم إذا دخلوا فى عموم قوله تعالى «وقولوا للناس حسنا» لم يجز الإساءة إليهم بهذا الفعل، لأن إساءة الفعل أشد من إساءة القول، وقد قالت عائشة: دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: السام عليك - والسام الموت - ففهمتها فقلت: عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهلا يا عائشة، إن الله يحب الرفق فى الأمر كله، فقلت يا رسول الله، ألم تسمع ما قالوا. فقال: لقد قلت وعليكم، فإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم لم يرض مثل هذا القول من عائشة، فكيف يرضى إذا قابلنا أحدهم فى طريق أن نضطره الى أضيقة.

ومن ذلك ما يحكونه فى تفسير قوله تعالى فى الآية - ٢٩ - من سورة التوبة «حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» قالوا: إن الجزية تؤخذ منهم على الصغار والذل والهوان، بأن يأتى بها ماشيا غير راكب، ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس، إلى ما قالوه مما لا ينبغى ذكره، والاسلام أكرم من هذا كله، وما أحسن قول بعضهم: معنى الصغار ههنا هو نفس إعطاء الجزية، والحق أنه من صغر ضد كبر وعظم، لا من صغر بمعنى هان وذل، فالمعنى وهم غير متكبرين ولا متعاظمين كما كانوا وهم محاربون، وهذا إنما يفيد نفى التعاظم، ولا يمنع أن يعطوها فى كرامة توافق ما أمرنا به من برهم ؟

علامة الهدى :

عمار بن ياسر

لحضرة الكاتب الكبير السيد صدر الدين شرف الدين

صور — لبنان

الكاتب الكبير السيد صدر الدين شرف الدين الموسوى غنى عن التعريف بما له من بحوث جليلة الشأن ، فى معانيها ومبانيها ، يعرفها له العالم الإسلامى فيجد فيها العالم بغيته ، والأديب أمنيته ، وهذا بحث من بحوثه التى ستكون فصلا من كتاب يشتغل باعداده ، هو « حليف مخزوم » . رئيس التحرير

قد تعجب لكهل انصرف من عقده الرابع أو كاد ، يسلّط عليه من حز الحديد ، ومن لفح النار ، ومن ضغط الماء ، عذاب نكر ، فلا يستخذى للعذاب ، ولا يحفل به ، ولا يباليه ، بل يقبل عليه مرة بعد مرة فى مرات كثيرة ، مطمئناً له ، راضيا به ، لكأن أطراف الأسنّة وألسنة النار ، وضغط الماء أشياء من دغدغات حبيب تثير الرضا لا السخط ، وتدعو إلى الاغتباط لا إلى الحزن ، وتحي الرجاء لا اليأس .

وقد تعجب لشيخ ينصرف من عقده العاشر أو يكاد ، يسلط هو على عدوه من سيفه نارا تشبهها النار ، ومن عزمه حديداً أصلب من الحديد، ومن اندفاعه سيلا أعنف من السيل .

وقد يبطل عجبك من هذا وذاك ، حين تعلم أن هذا الشيخ الفتى المستطيل ، إنما هو ذلك الكهل الشاب المضطهد نفسه ، وأن هذا الإنسان الراسخ فى حاليه ، لم يستقبل الفتنة المنكرة كهلا ، ولم ينزل فيها للعذاب الشديد الغليظ عن بدنه ،

إلا من أجل عقيدة كانت ماتزال طرية الغرس فى نفسه ، وأنه لم يمتشق فى شيخوخته سيفه العاصف المتأجج المرهوب المحبوب إلا من تلك العقيدة ، وقد توطنت فى نفسه وامتدت واستمكنت ، فإذا هى روحه الذى يتنفس ودمه الذى يجرى . وماذا تنتظر من شيخ تُتيِّم كهولته عقيدة نيرة ، وتصبره على العذاب الشديد الغليظ فيها . وهى طرية الغرس لمّا تنتشر عروقها فى أنسجته وشرايينه ، غير أن تنتضيه ذلك السيف العاصف . وقد هبطت جذورها إلى أخمصيه واشتبكت خيوطها فى مشاشه ، وفشت منه فى كل غُدّة ، وفى كل حجيرة ، حتى استحال دمه كله إيمانا وإخلاصا ، وحقاً من الحق الصريح .

لم يكن الكهل الشاب يتلقى حز الحديد ، ولفح النار ، وضغط الماء ، بلحمه ودمه ، وإنما كان يتلقاه بعقيدته وإيمانه ، فإذا لقى جلده : هذا الثوب ، من العذاب الشديد الغليظ أذى وتبريحا ، فقد كانت نفسه ، تلك الروح ، تجد من التضحية لذة وترويحا .

ثم لم يكن الشيخ الفتى يصارع عدوه بساعده وعضله ، وإنما كان يصارعه بدينه ومبدئه ، فليس هو - فى واقعة - جارحة تكل ، ولا سيفاً يفل ، ولا ضربة تنبو ، وإنما هو حقيقة تنصب على زيفها انصباب النور على الظلام يمزقه تمزيقا ، ويمحوه محواً .

فأى عجب بعد هذا فى أن يصبر كهل على فتنة ، أو يثبت على امتحان ، مهما غلا هذا أو تلك فى قسوة ، أو بالغاً فيها ؟ وأى عجب بعده فى أن تشب شيخوخة هذا الكهل وقد تبين لها الحق ، ووضح لها الطريق ؟ وما حاجة الكهل والشيخ معاً إلى أجساد الشبان ، وعضلات الأحداث مما تنتظره لصبر ممتحن أو إقدام مقدام ؟ وما الفتوة ؟ هل هى سن وميعة صبا ؟ هل هى مرحلة معينة من مراحل العمر ؟ الواقع أنها ليست كذلك ، وإنما هى إيمان ، يكبر حظك منها كلما كبر حظك منه ، هى حماسة إيمان تلبس إهاب الكهول والشيوخ ، كما تلبس إهاب الشبان الأحداث ، فتنشىء فى هؤلاء وهؤلاء ماينشىء الشباب الجلد القوى الصبور،

وتحرك منه فى هؤلاء وهؤلاء ، ما تحرك من عزم ونشاط ونفاذ وحيوية وتوقد ومضاء. وكم يافع منطفىء الجذوة كليل الحد تسقطه الفتوة من حسابها وإن أعجبك منظره ، وكم معمَّر متوهج الجمرة مشبوب الهمة تحتضنه الفتوة الأصيلة ، وإن نبا فى العين مظهره .

وكانت الفتوة تزيد فى صاحبنا على نفسها فى غيره زيادة مضاعفة . كان لا يشك هو ، ولا يشك معه عدوه ولا صديقه فى أن لسيفه ميزة ، فإذا أهدت السيوف إلى خصومها ضربا واحداً من الموت ، فان سيفه يهدى إلى خصمه وخصم صديقه ضربين : أيسرهما فناء الجسد ، وأشقهما لعنة الأبد . ثم كانت تضاعف فتوته ميزة أخرى لنفسه كميزة سيفه . كان يعلم هو وعدوه وصديقه لا يجهلان أنه مع الحق سلم أو قتل ، وأن خصمه مع الباطل انتصر أو خُذل ، وأية حماسة أدعى للفتوة من حماسة إيمان تهدى إلى عدوها موتين أحدهما أخزى من الآخر ، وتدخر لصديقها حياتين أخراهما أبقى من الأولى ؟

كهولة حرة برة بكَّرت بكهلها على الاسلام ، قدمته أحد سبعة سابقين أولين ، فنهض بأجسم أعباء الرسالة وأشقها ، نهوض جهاد متصل ، وتضحية صابرة ، وكفاح مر .

وشيخوخة لم تقصر عن كهولتها حرية ولا برا ، قدّمت صاحبها طليعة وفاء لروح الاسلام ، فكان من الآحاد الأول الناهضين بأعباء الرسالة ، نهوض جهاد متصل ، وتضحية صابرة وكفاح مُر ، فما التقت جبهتا صراع إلا كان (علامة هدى) فى إهداهما سبيلا ، وأعدلهما قضية .

كان فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم راية للمؤمنين لم يتفقدها الرسول فى محنة قط ، إلا وجدها رفافة تقتحم الهول على (الشرك) عنيفة به صامدة لعنفه .

ثم ظل بعد النبي راية للمؤمنين لم يتفقدها روح الرسول فى محنه قط إلا وجدها هناك رفافة تقتحم الهول على (الردة) عنيفة بهـا صامدة لعنفها .

قال المحدِّث : هذا كله جعل من (عمار) بن ياسر (علامة هدى) يموت

من يموت إلى جنبه موقناً أنه غاد إلى الجنة ، ويهلك من يهلك إلى جنب عدوه ، موقناً أنه رائح إلى النار .

وكان (عمار) يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاث خلال من جمعهن جمع الأيمان كله : الانفاق من الإقتار ، والإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم » . وكان - ما عاش - هذه الخلال الكريمة نفسها ، فما رأيناه بشراً من البشر ، ولكن رأيناه الأيمان بخلاله الثلاث هذه ، يتحرك بين الناس عطاء وإنصافا وسلاما . هو العطاء والانصاف والسلام محاربا كان أو مسالما .

حليف مخزوم :

أسمر اللون ، عُجنت طينته بمسك ، مديد القامة ولد من عائلة الرماح ، بعيد ما بين منكبيه ، صيغ تجسيداً للمهابة ، أشهل أصلع ، « فى مقدم رأسه شعرات ، وفى قفاه شعرات » - كما قال معاصره القصاص ذو الاداوة .

طويل الصمت كأنما تحدِّثه الملائكة ، سديد الرأى لا يخدع عن الصواب ، راجح العقل « ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما » - كما وصف رسول الله - زكى النفس ، سخى اليد ، هبَّاب للحق ، جرىء به ، لايَـلوى فيه ، ولا يصرف عنه .

ولد فى حى بنى مخزوم من (مكة) سنة ٥٧٠ م أو نحوها ، فقد كان تربا للنبى صلى الله عليه وآله - كما يقول هو - لم يكن أحد أقرب إلى النبى سناً منه ، أما أمه « فسميه » بنت خياط ، وكانت أمة لأبى حذيفة سيد بنى مخزوم ، ولم تكن فى أماء قريش أمة مثلها حرة فى ذكاء القلب ، وصحة العقل ، وملاحة الوجه ، وعفة النفس ، وطهارة الذيل .

وأما أبوه فياسر بن عامر ، عربى عنْسى مذحجى قحطانى يمانى . أقبل من اليمن مع أخويه : مالك والحارث ، يلتمسان أخا رابعا لهم كان قذف به قدر من أقدار الحياة الكثيرة المصطلحة يومذاك على اليمن تفرِّق أهلها ، وتبعثرهم هنا وهناك ، وتنفِّـرهم من وطنهم الذى ألح عليه الجفاف ، وابتلاه فساد الحكم بالقحط والمحن ، والبطالة ونضوب العيش ، فيهاجرون منه أفراداً ، ويهاجرون منه جماعات بحثاً عن الرزق ، وتنقيباً عن العمل .

وكانت مكة مهاجراً تترى إليه الوفود اليمانية منذ تفرقوا أيدى سبأ ، أمتها جرهم الثانية ، وأمتها خزاعة ، وحكمتاها واحدة بعد الأخرى غالبتين على حكمها أهلها من بنى إسماعيل ، حتى استعاده (قصى) بن كلاب (٤٠٠ م) ، واستأنفه مضرياً ، وأمَّ غير جرهم وخزاعة غير مكة من الحجاز ، فعمرت يثرب بالأوس والخزرج ، وأم غير هؤلاء وأولئك غير الحجاز من العراق والشام واليمامة ونجد والعروض منتشرين كالجراد يملأون فراغ الجزيرة العظيمة ، ويزودون هلالها الخصيب بما حملوه من كثافة ، وما نقلوه من ثقافة وأوضاع .

وكانت مكة تمتاز على جميع هذه المهاجر بأنها دار أمن لا يأتيه الخوف من بين يديه ولا من خلفه ، وبأنها دار رخاء لا يدنو إليه الجوع من فوقه ولا من تحته ، ففيها بيت الله ، وعليها سدنته الأسماح المطيبون ، يبذلون لضيوفها الرفد والكرامة من أنفسهم ، ويبسطون العدل فى القضاء من حكومتهم ، فهم آمنون وادعون ، كافلون للأمن والدعة ، لا يروعون ولا يرِّوعون .

فلما يئس الإخوان الثلاثة من العثور على فقيدهم فى مكة ، انحسر عنها مالك والحارث ، واستقر فيها (ياسر) حليفاً لمضيفه أبى حذيفة سيد مخزوم ، يحفظه هذا ، ويحفظ هو لهذا يده عنده ، ويثيب احسانه إليه ، وامتناعه به ، بالوفاء له أكرم الوفاء وأصفاه وأخلصه . وكان أبو حذيفة كأخيه (هشام) من قبل وكأخيه (الوليد) من بعد ، زعيما سمحا كريما رضيا حافظا المعروف ، مثيبا عليه ، وكان حدبا على حليفه العنسى بوجه خاص . رؤوفا به رحيما ، يؤثره بحب يضيفه إلى ما أخذ به نفسه من حلفه ، وربما أضاف إلى هذا أو ذاك شيئاً من احترامه لهذا العنسى الغريب الذى اضطرته الأقدار إلى الاعتصام بغير داره ، ورمته إلى دار يطلب فيها الحماية من غير أهله ، وعسى أن يكون ، بل هو قد كان ، ذا دار منيعة عزيزة ، وذا أهل كرام أشداء ، من أجل هذا حالفه أبو حذيفة ، ثم أحبه ، ثم احترمه ، ولم يخيب ياسر ظن حليفه ، فوفى له ، ثم تصرف بوفائه تصرف العقلاء الأعزاء الذين يلائمون بين أدب الغريب وضعف اللاجىء ، وبين كرامة النفس واستقلال الرأى ، فكان من سلامة سلوكه ومن صفاء معدن حليفه معاً أن عُرف بعد ذلك مخزوميا

له ما للمخزوميين ، وعليه ما عليهم . يطوف بأندية (قريش) ما يطوف حبيبا أثيراً محترما ، لا يثقل على أحد بتكاليف ، ولا يستثقل أحد له ظلا .

وفى ذات يوم فكر أبو حذيفة بحليفه العنسى ، فرآه مستقيما لا تطيش به نزوات الرجال ، ورأى أنه رجل لابد لبيته من مرأة ، ورأى أن الحياء والاقلال يحولان بينه وبين ما يطمح إليه كل رجل من زوج تدبر له المنزل ، وتكشف عنه وحشة الوحدة ، وترزقه خير الأولاد ، فزوجة (سمية) بنت خياط أحب أمائه إليه وأحظاهن عنده وأكرم الاماء جوهراً فى ذاتها وطهارتها . ثم كان من بره بحليفه ، وتَقدْره الدقيق لمشاعره الحرة تحرير أبنائه من (سمية) . لم يسأله ياسر ذلك ، ولكنه هو أحس مابنفس ياسر فرفع عنه بأريحية صناعة إنتاج العبيد والاماء ، وكان أفضل (نقوط) عند ياسر حرية بطن سمية التى وقع منها على كنز ، أى كنز .

أوضاع مكة :

درج الصبى عمار ناضج الصبا ، خامر الطفولة ، يثب إلى النمو وثوبا ، ويسبق الزمن إلى اكتمال الرجولة واستيفاء الذكاء جميعا ، وكأن ما بنفسه من طموح أعانه على القفز ، وألغى عنه ما يفرض على غيره من حكم الزمن ، وانتظار إذنه فى الانتقال من مرحلة إلى مرحلة . ومن دور إلى دور ، ومن هيأة إلى هيأة .

وشب الصبى الكبير . فهو الآن يقرب من العشرين إن لم يكن بلغها بعد ، ذو هَدى ووقار وبر بوالديه ، ورفق بعشرائه ، يعفى الناس من شره ، ويعفيه الناس من شرورهم ، فهو صامت غاديا ، وصامت رائحا ، ذاهب فى الجو من غدوه ورواحه مطرقاً يرفع نفسه عما يدنس غيره من سادة مكة وعبيدها ، وبيضها وأحابيشها ممن أبطرهم الغناء وأفسدهم الرخاء ، ومال بهم الطيش إلى سفه ومجون ، وتشدق ووقوع فى أقوات الناس وأعراضهم .

وحسب الذين تعودوا صمت (عمار) أنه صمت الغريب المستضعف ، يسبغه ويضفيه ، فيحسن إسباغه وإضفاءه أدب فى نفسه ، ووداعة فى طبعه ، ولين فى مزاجه ، وانصراف عما لا يعنيه . أما الذين عاشروه حق المعاشرة ، وبلوا دخائله

حق البلاء ، فكانوا يعلمون أن لصمته مصدراً آخر أعمق من هذه المصادر كلها ، وإن كانت هذه المصادرَ حق تؤثر فيه الصمت ، وتطبعه عليه . أما المصدر الخطير فكان تفكيراً ملحاً من تفكير حنيف - كما كانوا يقولون - أو وعى حر - كما تعودنا أن نقول اليوم - من وعى الأحرار المفكرين ، وكان الوعى فى عهده متململا يبرق إلى الواعين ، ويخامرهم ، ويؤامرهم ، ويحثهم حثاً عنيفا على إعادة النظر بهذه الوثنية المظلمة ، وبهذه العادات الرثة ، وبهذه الأنظمة البالية ، ولكنهم كانوا يخشون الجهر ، ويخافون الظهور ، ولا سيما مستضعف كعمار ، أكبر حجته فى بقائه بمكة حلف أبيه لأبى حذيفة ، وكل قوته أنه منسوب إلى هذا الزعيم من مخزوم ، فما أحراه إذ يضطرب وعيه بعيب للآلهة ، أو نقد للتقاليد أن يتخلى عنه أبو حذيفة ، وما أحراه إذ يتخلى عنه أبو حذيفة أن تمزقه السياط ، أو تتقاذفه الغلمان ، أو تتخطفه الشياطين ، فيذهب من أجل هذا صامتا صمته العميق المفكر ، موادعا سادة قريش موادعة أحلافهم وعبيدهم ، منتظراً مع هذا وذاك رجفة الزلزال التى يحسها فى نفسه ، ويحسها فى نظرائه ، ويحسها فى سير الأحداث .

وكان خلال صمته ينتقد بينه وبين نفسه ، وربما انتقد بينه وبين أبيه مصير مكة فى عهده ، وسوء منقلب سادتها أو أكثرهم ممن أسرفوا على مكة وعلى الناس وعلى أنفسهم ، فارتدوا جبابرة يوشك أن يبدلوا أمن (البيت) خوفا ، ويعيدوا بشاشة الحياة عبوسا ، ويردوا رجاء العيش شدة ، فهؤلاء سفهاء من أمية وجمح وسهم وعدى ، لا تكفيهم أفياؤهم ومرابحهم ، ولا تسد شهواتهم القيان ومن استزلهن الشيطان من نساء الحاضرة حتى يسطوا بتجارة الغرباء ، ويغلبوا الزائرين على بناتهم ، فيبلغوا حاجتهم من الأموال والأعراض بغزو أبشع من غزو البادية وأشنع وأشد استهتارا .

قال لأبيه مرة : ويح هؤلاء السفهاء ، ألا يتقون شر هذه البدع المنكرة فى قدس بلدهم الذى به يحيون ، إن لم يتقوها فى زكاة أنفسهم ، وتقوى ضمائرهم ، ألا ينظرون إذا تسامع بشأنهم الناس من حجاج (البيت) ومصرٍّ فى التجارة ، أن يخلعوهم من (البيت) ويزيلوهم من الحكم ، أو يقاطعوهم إذا لم يستطيعوا

إلى خلعهم وإزالتهم سبيلا ، فيميتوهم فقراً ومذلة وهوانا ؟ ما رأيت طيشاً كطيش هؤلاء السفهاء ! ولا يُرى طيش كطيشهم يفسد على صاحبه آلة العيش بَـلْـه عفة النفس وراحة الضمير !

فقال له ياسر : أراك منـذ اليوم تـكبر على سنك ، وتسمو فوق شأنك ، أتسوق إلى هذا الحديث من نفسك ؟ أم ألقى به اليك ملق أراد بك شراً ؟ .

قال عمار : لم يلق إلىّ بهذا الحديث إلا عينى المبصرة ، وأذنى السامعة ، نقلتاه إلى نفسى ، ثم لم تنقله نفسى إلى أحد قبلك ، ولم تنقله إليك إلا هذه الساعة ، وإن كنت لأعلم أن نفراً من الصعاليك أمثالى ليئنون أنينى ، ويشـكون شـكواى . أترى تقر أعين الناس وتطيب نفوسهم بمـا تنـكر الأعين والأنفس ، من استرقاق الرقيق ، واستضعاف الضعيف ، وامتصاص الجهود باسم آلهة هى أشد رقا من الرقيق ، وأعظم ضعفاً من الضعفاء ؟

فقال له أبوه . قد أعلم ما تعلم يا بنى ، وأوقن بمـا توقن ، وأزيد فاسمى لك نفراً من العبيـد والأحلاف وبعض أبناء البيوت يشوكهم ما يشوكك ، ولـكن أكتم هذا فى نفسك ، ولا تجاوزه إلى أحد ممن فى هذا الوادى ، إن يَذعْ عنك هذا النقد يُـثر عليك وعلى شراً لا نقدر على دفعه ، ولا نقوى على تحمله ، وتعلـّم - يا بنى - أن لهذا (البيت) ربا يحميه ، ويـكشف عنه كل ضر ، أنت لم تـكن يوم (الفيل) فقد كـنت رضيعاً ، وقد كـنت أنا وشهدت يومه فيمن شهده ، ورأيت كما رأى الناس عجبا ، رأيت سيد قريش : عبد المطلب بن هاشم ، يأمر أهل مكة أن يخلـّوا بين (أبرهة) الحبشى وبين (البيت) ولم يكن له ولا لقريش قِبَـل بلقاء جيشه الجرار المنظم ، ورأيته مطمئناً يذيع الطمأنينة فى أهل مكة ، ويعدهم النصر دون قتال ، وكـنت يائساً - ولا أكـتمك - فى مكة مع اليائسين ، شاكا بوعد عبد المطلب مع الشاكين ، ولـكنى رأيت بأم عينى هذه جيش (ابرهة) ممزقا شر تمزيق ، منكلا به شر تنـكيل ، فمـا كاد يوعز الحبشى إلى جيشه بالهجوم ، حتى غام الجو واضطرب ، وأخذه مخاض شديد ، ثم أقبلت من مجاهله سحب من طير صغار تحمل فى مناقيرها وأرجلها حصى صغارا ، ثم ترمى الجيش المعتدى من

حصاها بوباء ، فلا ترمى إحداهن الحصاة الصغيرة على رجل إلا خرقته ونشرت فيه دائين من حصبة وجدَرى ، وما هى غير ساعة حتى انكشف العدو مقطعاً وانتصر (البيت) موفورا ، وجعلت الطير مشكورة ، ونزلت السماء تغسل بقايا الوباء . ومنذ ذلك اليوم تعلمت أشياء نافعة كثيرة ، تعلمت الإيمان برب البيت الذى يعبده عبد المطلب ، لا بهؤلاء الأرباب الذين تعبدهم عامة قريش ، وتعلمت أن إيمـان المؤمن المستضعف أقوى من قوة الظالم المتعجرف . وتعلمت ألا أزيد بانتصارى للحق على طاقتى ، ولا أعدو فيه طورى ، نازلا عن قيادته لأصحاب القيادة وأكفائهـا ، كما نزل عبد المطلب لربه عن حماية (البيت) فيما أعجزه من حمايته ، دع هذا الأمر - يا بنى - لأصحابه ، فأنت بالقياس إلى هؤلاء السفهاء أضعف من عبد المطلب بالقياس إلى جيش ابرهة ، وبنو عبد المطلب فى حرصهم على قداسة (البيت) وأمن بلدهم وقدرتهم على الأخـذ بأعراف هؤلاء السفهاء ، حيث لاتقاس إلا بأحد غلمانهم ، فدع لهم أو لواحد منهم أن يتحدث بهذا الأمر ويفشيه بين الناس ، فانه إن يفعل لايجد أحد فى مكة إليه سبيلا ، وعساه إن فعل أن يبلغ من تأديب هؤلاء السفهاء ما يرضيك ويرضينى ويرضيه ، وسواء أبلغ من تأديبهم الحاجة أم لم يبلغها ، فهو من حاليه فى حصن من الأذى ، وفى قمة من طاعة الناس لأمره ، وأصغائهم إلى قوله ، أما نحن - يا بنى - فليس لنا من الأمر غير الرضوخ والصبر ، فان أبينا سلخوا جلودنا كما تسلخ الشياه ، ثم لا ينتطح فى محنتنا عنزان ، وليتنا إذ نسلخ نبلغ الحاجة من تعميم الخير ، وإفشاء العدل ، إذن يكون ثمننا مغريا ، ولكننا لن نجد إذ نحدّث الناس بهذه الأمور غير الاستخفاف والسخرية ولن نجد إذ نضحى غير اللوم والتقريع من جزاء . ألا تعلم يابنى أن التحدث بأمور العـامة فى نظام كنظامنا الحاضر وقف على الأقوياء من السادة والقادة والأشراف والنبلاء ، وأنه محرم علينا نحن الضعفاء من الأرقاء والحلفاء والصعاليك والدهماء . وآخر ما أوصيك به أمران : أن تؤمن برب هذا (البيت) من إله عبد المطلب لا آلهة قومه . وأن تثق بهؤلاء النفر من هاشم ، فهم - فيما رأيت وبلوت - أصحاب الخير فى هذا الوادى ، وعسى أن يكون لهم شأن فى شكايتك هذه هم بالغوه فى هذه الأيام .

بهذا تحدثني نفسي حديثا أستيقنه جملة ، وأجهله تفصيلا ، وما أدري ما يأخذني من تربك : (الصادق الأمين) كلما رأيته . إن له طلعة لحتها تضمن بُشر عام وخصبه ، وقد كان جده عبد المطلب يتوسم به أعظم الخير ، وينتظر أن يكون له شأن من شئون السماء .

قال عمار لأبيه : لست أعدولك رأيا ، ولا أخالف لك أمراً ، ولكني رأيتك تخضع الهاشميين إلى إله غير آلهة قريش ، فما هو هذا الإله ؟ وما مكانه ؟ وماذا عساه أن يكون ؟ ولماذا لا يظهرونه كما يظهر الآخرون آلهتهم . ؟

قال ياسر لابنه : أنا لا أعرف إله الهاشميين معرفة كاملة ، ولكني أدرت فيهم وفي قومهم ما يمكن أن أدير من عقلي ، فوجدت لهؤلاء رأيا جميلا في الله ، ورأيا جميلا في الحياة ليس لقومهم مثلها : وليس إله عبد المطلب إلها مصنوعا لا يَنصر إلا أن يُنصر ، ولا يعطي إلا أن يُعطى ، بل هو إله صانع ينصر ولا يستنصر ، ويعطي ولا يستعطي ، ألم تر إلى ما حدثتك به من أمر (ابرهة) وجيشه ؟ ألم تر إلى تلك الطير الضئيلة التي لا نعرف مثلها في النسور ، وإلى حصواتها الصغار التي لا نعرف مثلها في الصخور ، كيف أهلكت جيشاً لم تثبت له اليمن ؟ ذلك كله مظهر من مظاهر القدرة في إله عبد المطلب . فأين منه آلهة الناس مما يصنعون من تماثيل ودُمى عمى صم بكم لا تعقل ، ولا تدفع عن نفسها شراً ان أردناها بِشرّ ، وإله مثل إله عبد المطلب - يا بني - خليق أن يكبر على طاقتنا ، فلا يخضع إلى تصرفنا كي ننقله أو نحمله أو نعبث به كلما شئنا ، كيف شئنا .

قال عمار : لست أعني بإظهاره تجسيده ، ولا تمثيله ، ولا نقله من عليائه إلى مصاف هذه الأحجار الصم العمى البكم ، فليكن إظهاره بإظهار أمره وإفشاء سره وإعلان قدرته .

قال ياسر : لكل أجل كتاب - يابني - لا يسبقه ولا يتأخر عنه ، وكيف يتأتى لعارفي هذا الإله العظيم إظهار أمره قبل تحرير الناس من سيطرة الخرافة ، وقيد العادة ، وعبادة الذات ، وسحر الوهم ، وهذه كلها جنود مجندة ، لا تكاد

تحس المتحرر حتى تأخذ عليه الافاق ، وتسد عليه الطرق ، وقد رأيت عبد المطلب برغم ذلك يتأتى الفرصة ، ويسعى فى مَهَل إلى خدمة ربه دون أن يحفظ قومه أو يريبهم فيفاجئَهم شيئاً فشيئا بسنن وتنظيمات تعدهم لما يسميه (الحنيفية) من دين جده إبراهيم ، ومن حكمته - فى تأتيه الفرصة وتحينها - أنه بدأ بنفسه ، فاجتنب الخمر على أنها رجس ، ولم يحرج قومه بحملهم على اجتنابها ، مكتفياً بهذه السلبية التى تقبح عادة من عاداتهم ، وتسفه حلما من أحلامهم ، وتنزل من عقول عقلائهم منزل القدوة ، ثم فارقهم فى حقيقة دينهم كله بسلبية أخرى دون إكراه ، وذهب إلى غار (حراء) يتحنث وينسك معتزلا آلهتهم متوجهاً إلى إلهه بصومه وعبادته ، مكتفياً أيضاً بسلبية تحقر الأوثان تحقيراً غير مباشر ، وتشنع على الوثنية والوثنيين تشنيعا دوّى فى صدور الأحناف ، ثم تجاوز حقل الدين إلى حقل الحياة بثورة أخرى على شكل آخر ، فأهان (أسافا ونائلة) إلهى النحر والأضحيات ، بحفره عندهما بئر زمزم ، وقده تكلف بهذه الثورة بعض الجهد ، واحتمل بعض المشقة ، ولكنه انتصر ، وأعلن من نصره هذا نصرين عظيمين ، على الخرافة والتقاليد ، انتصر على (أساف ونائلة) باستخفافه بهما ، وإعلانه ضعف خطرهما وانتصر على عجز الإنسان باكتشافه ماء زمزم : هذه البئر التى لا تنزف أبدا ولا تذم . ثم كانت له آيات أحدثت فى سور القوم المسحور كثيراً من الصدوع ، وفتحت به كثيراً من الثغر ، فى جهاد صادق كان يصرع الأوهام فى هذا البلد شيئاً بعد شيء ، ويؤلب عليها أهله والأقرب من عشيرته وصديقه ، فإذا جاء اليوم الخطير وجد طريقه ممهدا .

قال عمار : ولماذا لم ينصره - يا أبت - ربه نصراً حاسما بآية كطير أبابيل ، وما باله يؤتيه النصر شيئا بعد شيء كالمدين المطول لا تطيب نفسه بالوفاء جملة ، فيسدد دينه أقساطا .

قال ياسر : هذه مسألة قد يكون على أقل من الجواب عليها : وقد يكون عند أبى طالب حلها أو بعض حلها ، ولكنى أظن رب عبد المطلب ربما فى قدرته الهائلة غنيا فى ذاته ، وإنه فى قدرته الهائلة رب رؤوف حليم غير ذى انتقام ،

فهو فى غناه الذاتى قادر على الإمهال ، نشيط على الصبر ، كالدائن السمح يسدى بالإدانة أيادى عدة لا يداً واحدة : يداً فى الدين ، ويداً فى أرباح الدَّين ، ويداً ثالثة فى إمهال المدين حتى يدركه يسار النفس ويسار المال ، وهو فى غناه الذاتى بعد هذا كله حيث لا يضره غى الناس ، ولا ينفعه رشدهم ، فسيان عنده علموا أو جهلوا ، وسيان عنده سفهوا أو عقلوا ، وسيان عنده شقوا أو سعدوا ، لا يناله من أحوالهم كلها ربح ولا خسارة ، وإنما يريد لهم ما يريد من خير ، ويأبى لهم ما يأبى من شر ، ثم لا يليق بغناه الذاتى فقر التدخل بأحوالهم على نحو الجبر ، لذلك لا يكرههم على الفضيلة إكراها ، وإنما يخيرهم ، ويخلى بينهم وبين ما يشاؤن من فضيلة أو رذيلة ، فى أناة من لا يخيفه الفوت ، ولا يعجزه الطلب .

وهو من رأفته ، بمكان الألوهة ؛ ينظر منه إلى أعدائه نظره الى أصدقائه ، كلهم عباده ، وكلهم عياله ، وكلهم حرى عنده أن يحي ويعيش ويسعد ، لا يأتى التفاوت فى هذه الأمور من قبله ، وإنما يأتى من قبلهم ، صدره ليس ضيقا كصدورنا - يابنى - بالحقد ، حرجا بالحسد ، فواراً بالنقمة ، بل هو صدره الر - الفسيح الخافق بالحب والرحمة والغفران ، فلو قد عجل على المخطئين بالنقمة ، وأغلق فى وجوه العاصين أبواب التوبة ، لم يكن حالذاك إلها ، وإنما كان ملكا جباراً تعروه الخطيئة ، ثم يجب عليه القصاص ، ثم إذا فعل ما تتمناه أنت من معاجلة الناس قل لى : من يبقى من البشر على وجه البسيطة ؟ وإذا أخلى البسيطة من الناس ، قل : من ذا الذى يعرفه بعدهم ؟ وما الفائدة بعد ذلك من الأنظمة والشرائع والقيم ؟ بل ما ذا يبقى للحياة كلها من الغايات والأغراض والأهداف ؟ تعلم - يابنى - أن رب عبد المطلب رب لا أطول من أناته ، ولا أوسع من رحمته ، ولا أغنى من ذاته ، لا يكره بل يخير . ولا يعنف بل يلطف ، ولا يعجل بل يمهل ولا يعسر بل ييسر ، وقلما يظهر من قصاصه ، ثم لا يقتص إلا إذا طفح الكيل ، وإلا إذا توقفت على القصاص حكمة من حكمه البالغة ، أو خيف انقطاع هذا الخيط الضعيف الذى يشد الأرض إلى السماء .

قال عمار لأبيه : لله حرة انكشفت عنك - يا أبتى - ! إننى لأشرب كلامك

هذا كما أشرب الرحيق ، فينتشر فى نشوة سأسأل شاربى الخمر عن دبيبها ، يخيل لى - يا أبه - بعد الذى سمعت أنك لست إنسانا ، وإنما أنت ملك يغرس فىّ ريشا من أجنحته ، بقيت عندى مسألة لا أحب أن يفوتنى علمها .

قال ياسر لابنه : قل وخلاك ذم إن يكن عندى خير فهو لك .

قال عمار : يا أبى رأيتك تعظم من بنى هاشم ما لا تعظم من بنى مخزوم ، وقد أعلم أن بنى هاشم أرفع مكانة ، وأعز نفرا ، ولكن مخزوما حلفاؤك ، وذووا الفضل عندك ، أليس من الوفاء لهم أن تحبس عليهم ميلك .

فقال له أبوه : وصلتك رحم يا بنى . أنا إنما أعظم الحق بمعزل عن هاشم ومخزوم ، ولو حدثتك بحديث القلب والعاطفة لكنت جديراً بالميل إلى أحلافى كما زعمت ، ولكنى أعلم أن ميلى العصبى ككل ميل عصبى ، لايغنى عن الحق شيئا ، ولا يغير منه شيئا ، وقد رأيت بعينى رأسى وعينى يقينى - وهن أربع - أن الفرق بين هاشم وبين عامة قريش ، وأفضلهم مخزوم ، كالفرق بين إله هاشم وبين آلهة قريش . أولئك أرواح برة نشيطة عاملة مدركة ، وهؤلاء تماثيل جامدة ثقيلة بغيضة ، فإذا تحركت لم تأت بخير .

خذ الحق - يابنى - حتى من نفسك ، فورب عبد المطلب لو فارقتنى أنت فيه لفارقتك ، ولكان أعظم برى بك وحبى إياك أن أدخلك عليه ، أو أدخله عليك ما استطعت ، فإن لم أستطع كان أعظم حبى إياك وبرى بك أن أرثى لحالك من بعيد هذا قياس وفائى لمخزوم : أهبها قلبى وأمنع عنها عقلى إلا فى الحق فإن خالفت الحق رجوت لها أن تعرفه ، وهذا أعظم الوفاء .

وبلغا من حوارهما هذا الحد .

قال المحدِّث : وكان حوارهما هذا من حديثهما الصباحى ، وكان صباح (مكة) صباحا قرشياً مترفاً ، تحتشد فيه الأندية ، ويطيب فيه الحديث ، وكان ياسر يتخلف عن نادى بنى مخزوم أحيانا ليجلس إلى ابنه يجاذبه كلاما هو أشبه بالدرس منه بالعبث والمفاكهة اللذين تصرف بهما قريش السأم عن الوقت ، وكان لياسر

من ملاحظته وعقله وتجربته وحكمته اليمانية ما يؤهله أن يقع من ابنه موقع المعلم من التلميذ .

قال المحدث : وقطع عليهما حوارهما ذلك الصباح هتاف هبط عليهما من (أبي قبيس) كما هبط على غيرهما ، وعلى غير بيتهما ، من متحدثة (مكة) وأنديتها ، وقطع من الأحاديث كلها ما قطع من حوارهما ذاك ، وأنصتا فاذا الهتاف يهبط من (أبي قبيس) نقياً صافيا حاراً مثيرا يبعث الروع والروعة جميعاً ، وتابعاه بكل حسهما ، وبما اقشعر من بدنيهما ، فإذا هو يردد هذه الأبيات فى نقاء وصفاء وحرارة وإثارة :

يا للرجال لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الحى والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا أهل (فهر) وبين الحجْر والحَجر
هل منصف من بنى (سهم) فمرتجع ما غيبوا ؟ أم ضلال مال معتمر

قال عمار : أرأيت - يا أبتِ - إلى ما حدثتك عنه من سفه هؤلاء ؟ لقد بلغت الشكوى منهم رؤوس الجبال :

فقال ياسر : ما شككت - يا بنى - أن طفولتك تنفتح عن شباب رشيد ، ولكن احفظ عنى ما أمرتك به فى صدر حديثى آنفا ، وانهض الآن فاقتص لنا أثر هذا الخبر ، ما خطب هذا الهاتف يصايح (مكة) بهذه الشكوى المرة ؟ وما عسى (مكة) أن ترد على هذا المظلوم من مظلمته الصارخة ؟

ولما عاد ياسر قال لأبيه : لم يخطىء علمك ببنى هاشم من صلاحهم شيئا . كان الهاتف رجلا من (زبيد) أقبل إلى الحاضرة ببضاعة ثمينة ابتاعها منه أبو عمرو العاص بن وائل السهمى ، فآواها إلى بيته ولما يدفع ثمنها لأخى زبيد ، ثم غيّب وجهه ، ويطلبه الزبيدى فيعجزه الطلب ، ويبتغى متاعه فيمتنع عليه المتاع ، ويلتمس بنى سهم يشكو اليهم أخاهم فلا يجد وجوها ، بل يجد أقفية ، ويبلى فى طلب حقه بلاء حسنا ، فيطوف على أندية قريش من ظهراء (سهم) فلا يجد غير اعتصاب على الاغتصاب ، وغير ممالأة على الغزو المجرم ، وغير عفو من الجميع عن العاص

يشترى منه عفواً عن مثلها يأتيها حرب بن أمية ، وأبىّ بن خلف وغيرهما من فُتّاك مكة وعصابتها . وانتهى آخر الأمر إلى (أبى قبيس) يشكو أمره إلى قريش مجتمعة ، بعد أن شكا إلى أكثرها متفرقة ، راجياً أن يكون لشكواه المعلنة شأن وتأثير ، ويرسله ـ كما سمعنا ـ صوتا يهوى من العلياء كما ينزل الصوت من السماء .

قال عمار متابعاً : ولقد جهدت أن أحس وقع هذا الصوت العادل ، وأرى إلى أثره المرجو فى هذا الحرم من وطن السلام ، فلم أجد غير قفر يبسط ظله الصحراوى على كل مكان إلا واحة تنشز فتهتز للنداء اهتزاز نجدة وأريحية وإيمان .

قال ياسر : لعلك انقلبت عن نادى الزبير بن عبد المطلب ؟

فقال عمار : ما أعلمك بهؤلاء النفر يا أبته ؟ وقد تركته يتحرك فى اتجاه حلف يضع حداً لهذه المهازل ، لكأنك تنظر إليه بما حدثتنى عن رجل الانقلاب وصاحب الساعة .

قال ياسر : ما ظننته هو بالذات ، وما أظنه صاحب الساعة التى أعنى ، وإن كان لمن معدانها وأسبابها . ومالك تعجل ولكل أجل كتاب ؟

قال المحدِّث : وولع الصبى بعد ذلك ولوعه الهائم بالعدل ، وأولعه العدل بالهاشميين ذلك الولوع الهائم أيضاً . وكان بكر اهتماماته اهتمامه بنتائج صفقه الزبيدى .

غدا على أبيه مرة عادياً ، وقص عليه قبل أن يلفظ أنفاسه النبأ التالى :

أثمر مسعى الزبير بن عبد المطلب ، فاجتمع له مؤتمر عقده فى دار عبد الله ابن جدعان التيمى ، وألفه من بنى هاشم وبنى أسد وبنى زهرة وبنى تيم ، وحضر معهم تربى (الصادق الأمين) فتماسحوا بأكفهم ، وتحالفوا ليكونُنّ مع المظلوم حتى يؤدوا له حقه ، ما بَلَّ بحر صوفة ، فلا يظلم بمكة غريب ولا قريب ، ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يردوا له مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم ، وتحالفوا على التأسى فى المعاش ، والتساهم بالمال أيضا . وقد أسمى الزبير حزبه هذا (حلف الفضول) . وكانت أولى ثمراته انقاذ حق الزبيدى من فرعون بنى سهم .

وأقبل على أبيه ذات يوم يقص عليه : دخل السوق تاجر من بنى بارق فباع

بضاعته من أبيّ بن خلف الجمحي ، وهو ـ كما تعلم ـ مطول سيء المخالطة ، فاضطر البارقي لرفع أمره إلى حلف الفضول ، ويقول له الزبير : أخبر أُبيّا أنك أبلغتنا شكواك ثم عد إلينا إذا لم يخرج إليك حقك . فأتاه فأخبره فأخرج إليه حقه .

وقص عليه مرة فقال : قدم خثعمي إلى مكة تاجراً ، ومعه بنت اسمها (القتول) وهي أوضأ فتاة ، وأصبح نساء العالمين ، ويراها نبيه بن الحجاج السهمي فيرى منها ما يبهره ، ويُطير نفسه حولها فيؤالي أن يطبق عليها وينزعها من يد أبيها . ويقتحم عليها وجه أبيها وصدره ، ثم يتركه بعدها خزيان أسفا ، يقلّب في أثرها طرف خاسر حائر خائر ، ويقال له ـ وهو سادر ـ : عليك بحلف الفضول ، وكأنما أدركه الفرج ، فينشط ويعود من حلف الفضول ومعه رسل الزبير إلى نبيه يأمرونه بإخراج الفتاة إلى أبيها ، فيناشدهم نبيه أن يمتعوه بها سواد ليلة ، فيقولون له : قبحك الله ما أجهلك ! والله ولا شخب لقحة . أخرجها وإلا . فيخرجها صاغراً ، وتخرج مكرّمة .

ويقول ياسر لابنه : كان عبد المطلب قبل (الفضول) وكانت رسله تحل هذه المشكلات ، أغرى حرب بني أمية أحد رجاله باغتيال ثري مستضعف ، واغتيل المسكين فاحتاز حرب تركته ، ورفعت القضية إلى عبد المطلب ، فأعاد سيد قريش التركة إلى الورثة ، وغرم حرباً دية القتيل مائة ناقة .

ثم تمر الأيام آخذاً بعضها برقاب بعض ، وعمار يغدو على أبيه من أطرافها ويمسي بخبر من هذه الأخبار ، وبفكرة من هذه الفكر ، لا يمل هو ، ولا يمل أبوه ؛ ولعل أباه أعرف منه بهذه الأخبار وهذه الأفكار ، ولكنه يصغي إليه إصغاء المشجع ، ويعلق على أخباره تعليق المربي ، وكان بعد كل إصغاء ، وبعد كل تعليق يأمره بالتحفظ ، ويوصيه أن يحفظ ما يأمره به ، وكان الصبي يختم كل قصة وكل فكرة بقوله : لله أبوك يا أبتي . لم يخطيء علمك ببني هاشم من صلاحهم شيئا ؟

من بحوث مجمع اللغة العربية [(١)]

معجم ألفاظ القرآن الكريم

— ١٣ —

ر ض و

رضى

رضى يرضى رضا ورضوانا ومرضاة فهو راض ورضى ورض : ضد سخط .

ولهذا الفعل فى القرآن استعمالات عدة بحسب تعديه :

١ — فتارة يأتى بدون مفعول أو جار ومجرور . وهذا الاستعمال يأتى على ضربين :

(ا) ضرب يكون فيه الفعل أو ما اشتق منه للدلالة على قيام حالة الرضا فى نفس فاعله بدون إرادة المفعول ، مثل : « فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » ٥٨ / التوبة . « قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى » ٨٤/طه . « ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » ١٣٠/طه « ولسوف يعطيك ربك فترضى » ٥ / الضحى . « وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية » ٩ / الغاشية . « ارجعى إلى ربك راضية » ٢٨ / الفجر .

(ب) وضرب يكون فيه المفعول محذوفا ولكن على نية الذكر ، مثل : « فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء » ٢٨٢ / البقرة . أى ممن ترضونه .

---

(١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد رئيس المجمع .

« إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » ٢٦ / النجم . أى ويرضاه ، « وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول » ١٠٨ / النساء .

٢ — وتارة يأتى متعديا بنفسه مثل « ورضيت لكم الإسلام دينا » ٣/المائدة ومعناه : اخترت ، « وأن أعمل صالحاً ترضاه » ١٩ / النمل ، ١٥ / الأحقاف ، وكذلك فى ١٤٤ / البقرة ، ٢٤ / التوبة ، ٧ / الزمر ، ٥٩/ الحج ، ١١٣/ الأنعام .

٣ — وتارة يتعدى بالباء مثل : « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » ٣٨ / النساء ، « أنكم رضيتم بالقعود أول مرة » ٨٣ / التوبة ، ٨٧ / التوبة ، ٩٣ / التوبة ، ٧ / يونس ، ٥١ / الأحزاب .

٤ — وتارة يتعدى بعن مثل « رضى الله عنهم ورضوا عنه » ١١٩/ المائدة ، « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى » ١٢٠ / البقرة ، وكذلك ١٠٠ / التوبة ، ١٠٩ / طه ، ١٨ / الفتح ، ٢٢ / المجادلة ، ٨ / البينة ، ٩٦ / التوبة .

وقد ورد اسم الفاعل منه على حقيقته فى « لسعيها راضية » ٩ / الغاشية ، « ارجعى إلى ربك راضية مرضية » ٢٨ / الفجر .

أو بمعنى اسم المفعول مثل « فهو فى عيشه راضية » ٧ / القارعة ، ٢١ /الحاقة ، أى : مرضية أو ذات رضا .

وقد وردت منه الصفة المشبهة فى موضع واحد وهو : « واجعله رب رضيا » ٦ / مريم ، أى : مرضياً أو كثير الرضا .

وقد ورد اسم المفعول فى « وكان عند ربه مرضيا » ٥٥ / مريم « ارجعى إلى ربك راضية مرضية » ٢٨ / الفجر .

وقد ورد المصدر على صيغة رضوان فى ثلاثة عشر موضعاً منها « وأزواج مطهرة ورضوان من الله » ١٥ / آل عمران ، « ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه » ٢٨ / محمد ، وكذلك فى ١٦٢ ، ١٧٤ ، آل عمران ، ٢١ ، ٧٢ ، ١٠٩ / التوبة . ٢٠ ، ٢٧ / الحديد ، ٢ / المائدة ، ٢٩ / الفتح ، ٨ / الحشر ١٦ / المائدة .

وقد ورد المصدر أيضاً على صيغة « مرضاة » فى أربعة مواضع فى « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » ٢٠٧/البقرة . وكذلك فى ٢٦٥/البقرة ، ١١٤ / النساء ، ١ / التحريم ، ١ / الممتحنة .

أرضى — أرضاه : جعله يرضى ، ومنه : « يحلفون لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه » ٦٢ / التوبة ، ٨ / التوبة .

تراضى — تراضى يتراضى تراضياً : اتفق مع آخر على شىء يرضى كلا منهما ، ومنه : فلا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » ٢٤ / النساء ، ٢٣٢ / البقرة ، « إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » ٢٩ / النساء ، ٢٣٣ / البقرة .

ارتضى — ارتضى الشىء يرتضيه ارتضاء : رضيه ، ومنه : « وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم » ٥٥ / النور ، وكذلك فى ٢٨ / الأنبياء ، ٢٧ / الجن .

ر ط ب

رطب — رَطَبَ ورطُبَ يرطَب ويرطُب رُطوبة ورَطابة : ندى ورخص ضد يبس ، فهو رَطْب ، ومنه فى موضع واحد : « ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » ٥٩ الأنعام .

والرطب : نضيج البُسر قبل أن يتمر أو هو البسر إذا انهضم فلانَ وَحَلا اسم جمع واحدته رطبة ، وليس هو جمع تكسير لها ، وعلامة جمعية فعل الذى له واحد على فعلة ، أى لا يستعمل إلا مؤنثا ، نص على ذلك سيبويه ، فرطب عندهم اسم جنس لقولهم : هذا رطب وأكلت رطباً طيباً .

وجمع الرطب : أرطاب ورطاب ورطب الرطب ورطب وأرطب : حان أوان رطبه .

وقد ورد الرطب فى موضع واحد : « وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا » ٢٥ / مريم .

ر ع ب

رعب — رعب يرعب رعباً ورعبا : انقطع من امتلاء قلبه بالخوف . لازم : فهو رعيب ورعب ، وأصل الرعب من رعب الحوض إذا امتلأ بالماء ، ورعب السيل الوادى ملأه لازم ومتعد .

رعبه يرعبه رعباً ورعباً : أفزعه متعد .

ورعبه ترعيباً وترعابا فرعب رعبا .

وقد ورد منه المصدر فى خمسة مواضع : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله » ١٥١ / آل عمران ، « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعبا » ١٨ / الكهف ، وكذلك فى ١٢ / الأنفال ، ٢٦ / الأحزاب ، ٢ / الحشر .

ر ع د

رعد — رعدت السماء ترعد وترعد رعداً ورعوداً ، وأرعدت : صوتت للأمطار ، وقد كشف العلم الحديث بالكهرباء عن السر فى هذا الصوت .

وأرعد فلان فارتعد وترعدد : أصابته الرعدة وانتفض جسمه ، وكأن رعد السماء مأخوذ من هذا ، لأنها إذا أرعدت رجفت لها النواحى والقلوب .

وقد ورد الرعد فى موضعين من القرآن : « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق » ١٩ / البقرة ، « ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » ١٣ / الرعد .

ر ع ى

رعى — (١) رعى الشىء يرعاه رعيا ورعاية : حفظه وحاطه .

ورعى النجوم رعياً : راقبها ومنه « فما رعوها حق رعايتها » ٢٧ / الحديد : أى فما حفظوها وحاطوها حق حفظها وحياطتها ، « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » ٨ / المؤمنون و ٣٢ / المعارج : أى حافظون .

مرعى (ب) ورعت الماشية ترعى رعيا : أكلت الرعى وهو الكلأ ، والمرعى : الرعى ومنه « والذى أخرج المرعى » ٤ / الأعلى . « أخرج منها ماءها ومرعاها » ٣١ / النازعات .

(ج) ورعى الراعى الماشية رعيا ورعاية : سامها وسرحها وراقبها وحاطها وحفظها ومنه « كلوا وارعوا أنعامكم » ٥٤ / طه .

وجمع الراعى رعاة ورعيان ورعاء .

رعاء ومنه « لا نسقى حتى يصدر الرعاء » ٢٣ / القصص .

راعنا راعى الشىء يراعيه مراعاة ورعاء : حفظه وترقبه وناظره وراقبه وتأمل فعله ونظر الام يصير ولاحظه ونظر إليه ، ومن الأخير « لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » ١٠٤ / البقرة ، « ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم » ٤٦ / النساء .

وقد ذكر فى تفسير « راعنا » والنهى عن خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام بها أن اليهود كانوا يقولونها له ويريدون بها معنى قبيحا فى العبرية يوافق لفظه لفظها العربى ومعنى اللفظ بالعبرى (اسمع - لا سمعت) .

وقيل أرادوا به لفظا عربيا هو منادى من الرعونة ، وكأنهم كانوا يقولون يا راعن . وزيدت الألف لمد الصوت .

وقد ذكر الفراء أن أصل المنادى أن يكون بين صوتين فيازيد أصله يا زيدا ثم اكتفى بيا ونوى الألف .

ر غ ب

رغب (ا) رغب الشىء يرغب رغبا ورغبا ورغابة : اتسع ، ورجل رغيب الجوف وحوض رغيب : واسع الجوف والرغاب الأرض اللينة التى تأخذ الماء الكثير .

فأصل الرغب السعة فى الشىء .

(ب) ورغب فى الشىء وإليه ورغبه يرغب رغبا ورغبة ورغبا ورغبى :

اتسعت إرادته إياه وحرص عليه ومنه « وترغبون أن تنكحوهن » ١٢٧ / النساء « وإلى ربك فارغب » ٨ / الشرح : أى فاضرع واحرص بالسؤال . « إنا إلى الله راغبون » ٥٩ / التوبة ، « إنا إلى ربنا راغبون » ٣٢ / القلم ، أى ضارعون راجون العفو طالبون الخير ، وإلى لانتهاء الرغبة أو لتضمن الفعل معنى الرجوع « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا » ٩٠/ الأنبياء : أى رجاء وخوفا .

(ج) ورغب عن الشيء : زهد فيه وصرف رغبته عنه وترفع عنه ومنه « ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه » ١٣٠ / البقرة « قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم » ٤٦ / مريم .

(د) ورغب بنفسه عن الشيء : صانها عنه وصرفها ، وكرهه لها وترفع عنه ومنه « ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » ١٢٠/ التوبة : أى لا يصرفوها عن موارد نفسه الكريمة ولا يصونوها عما لم يصن نفسه عنه .

ر غ د

رغد العيش يرغد رغادة ، ورغد يرغد رغدا : اتسع ولان وطاب فهو رغد ورغيد . رغد

ومنه « وكلا منها رغدا حيث شئتما » ٣٥ / البقرة ، « فكلوا منها حيث شئتم رغدا » ٥٨ / البقرة ، « يأتيها رزقها رغدا » ١١٢ / النحل .

ر غ م

رغم الشيء يرغمه ورغمه يرغمه رغما : كرهه .

والرغم : التراب والذل والقيء .

ورغم أنفه : لصق بالرغم : أى التراب .

وأرغمه : ألصق أنفه بالرغام وأسخطه وأذله .

وراغم الناس : نابذهم وهجرهم وغاضبهم وساخطهم ، والمراغم : المذهب مراغم

والهرب ومنه «ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة» ١٠٠ / النساء : أى متحولا ومهاجراً ومتزحزحا عما يكره ومتسعاً عما يكون فيه من ضيق المضلين والكافرين ، وقيل : طريقاً يراغم بسلوكه قومه أى يفارقهم على رغمهم ، أو متسعاً يصل فيه المهاجر إلى ما يكون سببا لرغم أنف قومه الذين هجرهم .

ر ف ت

رفات

رفت الشىء يرفته رفتا : فتته ودقه .

والرفات : الحطام من كل شىء .

ورفت العظم يرفت رفتا : صار رفاتا ، ومنه «قالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا» ٤٩ / الإسراء ، ٩٨ / الإسراء .

ر ف ث

رفث

رفث يرفث رفثا ورفث رفثا ورفث وأرفث : أفحش فى القول وأفصح بما يكنى عنه ، أو أفحش فى شأن النساء خاصة من الجماع والمغازلة والتقبيل .

وقد ورد فى موضعين : «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم» ١٨٧/البقرة ، والمراد به هنا الجماع . «فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج» ١٩٧ / البقرة ، يحتمل هنا القول والجماع .

وعدى فى الآية الأولى بإلى لتضمنه معنى الإفضاء .

ر ف د

رفده يرفده رفداً وأرفدى : أعطاه وأعانه من رفد الحائط دعمه ، والرفد اسم منه ، وهو العطية والصلة والعون ومنه :

«واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود» ٩٩ / هود :

أى بئس العون المعان والمخصوص بالذم محذوف ، أى رفدهم ، والمراد به اللعنة وتسميتها عونا من باب التهكم ، وأما كونها معانا فلأنها أرفدت فى الآخرة بلعنة أخرى .

مرفود وأسند اسم المفعول إلى الرفد على الإسناد المجازى نحو جد جده وجنون مجنون

ر ف ف

رف الشجر يرف رفا ورفيفا : انتشرت أغصانه .

ورف الطير نشر جناحيه ، ورف فرخه يرفه إذا نشر جناحيه متفقداً له

ورف النبات : نعم وحسن . ورف : ارتفع .

رفرف والرفرف : اسم جنس أو اسم جمع واحده رفرفة ، ومنه : « متكئين على رفرف خضر » ٧٦ / الرحمن ، وفسرت بالأنسجة الخضر التى تتخذ منها المحابس التى تطرح على ظهر الفراش للنوم عليه ، وقيل هى البسط ، وقيل هى الوسائد ، وقيل هى الفرش المرتفعة ، وقيل ما تدلى من الأسرة من غالى الثياب ، وقيل ضرب من الثياب مشبهة بالرياض ، وقيل هى رياض الجنة ، من رف النبت إذا نعم وحسن .

ويقال الرفرف لكل ثوب عريض ، وللرقيق من ثياب الديباج ، ولأطراف الفسطاط والخباء الواقعة على الأرض .

قال شيخى و لكن قال شيخى

اضطررنا إلى تأجيل بعض المواد الهامة ، وفى مقدمتها « قال شيخى » و « لكن قال شيخى » وإنهما لدينا ولدى قرائنا لمن الطراز الأول فى الأدب القائم على العلم والفكرة ، وإلى اللقاء فى العدد المقبل إن شاء الله .

أنباء وآراء

استعداد العقلية الألمانية لتقبل الاسلام :

موضوع له أهميته الكبرى فى العالم الإسلامى ، وله صلته الوثيقة بشعب عظيم من شعوب العالم الغربى ؛ تحدث فيه إلى مجلة « الدعوة » الغراء فضيلة العلامة الجليل الأستاذ الشيخ محمد تقى القمى ؛ السكرتير العام لجماعة التقريب ، وقد نشرت « الدعوة » هذا الحديث فى عددها الأخير .

و ﴿ رسالة الإسلام ﴾ ترى حقاً عليها أن تسجل هذا الحديث لما تضمنه من الآراء السديدة ، والنظرات الموفقة ، ولكنها تعتذر فى الوقت نفسه عن نشر ما قدمت به « الدعوة » الغراء لهذا الحديث ، التزاما لما أخذت به نفسها من عدم نشر ما يزجى إلى أحد أفراد أسرتها من ثناء .

وهذا هو الحديث :

الدعوة الإسلامية فى أوربا :

س : هل وجدتم فى المجتمع الألمانى استعداداً لقبول الفكرة الإسلامية ؟ وهل هناك دعوة منظمة للتبشير بالإسلام ؟ .

ج : فى أعقاب أى حرب من الحروب تظهر عادة فى الشعوب المتحاربة نزعات تدفع الناس إلى طرح الأفكار القديمة ، وتهيئهم لتقبل بعض أفكار جديدة ولعل هذا هو سبب ظهور تيارات فكرية مختلفة فى العقلية الألمانية لم يكن لها وجود من قبل . . . فألمانيا الآن قسمان : القسم الشرقى وتهيمن عليه روسيا ، والقسم الغربى ويحتله الحلفاء الآن احتلالا خفيفاً ويهدده الغزو الروسى مستقبلا ، وهذا القسم الغربى هو الذى زرته أخيراً وقد لاحظت أن القلق يسود جوه . . .

والقلق يدفع النـاس إلى الرجوع إلى الله والالتجاء إليه ، ويخلق فيهم استعداداً لتقبل كثير من الموجات الروحية ، وهـذه فرصة ذهبية ثمينة لعرض الفكرة الإسلامية التى تعيد إلى النفوس البشرية الثقة والاطمئنان . . . وألمانيا أنسب مكان تسير فيه الفكرة الإسلامية بنجاح نظراً لما بين أهليها وبين اليهود من جفـوة تفوت على هؤلاء — أى اليهود — فرصـة وضع العراقيل فى طريق أية فكرة صالحة .

ثم إن البساطة الموجودة فى الاسلام تناسب تماما العقلية الألمانية ، وفلسفة الإسلام تناسب روح الألمان ، كما ان آدابهم متأثرة بكثير من آراء الشرق .

فالجو مناسب والنفوس مستعدة ، ولكن ـ للأسف ـ لم تقم أية هيئة إسلامية بواجبها نحو التعريف بالاسلام ـ وهو أقل الواجبات ـ حتى يمكن محو الأراجيف المنتشرة عن الاسلام ، والقضاء على كل فكرة سيئة عنه تعلق بأذهان الألمان وغيرهم من الشعوب الأوربية .

وهناك نفر أسلموا بفضل جهود بعض المسلمين الشخصيـة ، ونود أن نعين هذا النفر على حمل عبء الدعوة الاسلامية ونشرها بين أبناء وطنهم .

وأنا شخصياً ، فى اتصالاتى هنـاك لاحظت استعداد الألمـان لتقبل الفكرة الاسلامية الصحيحة ، مما جعلنى استبشر خيرا . . . غير أنى أقرر أن المجتمع الألمانى ليس فيه أى دعوة منظمة للتعريف بالاسلام .

وسائل النجاح :

س : كيف تنجح الدعاية للإسلام بين الألمـان ؟

ج : ضمـان النجاح أن تكون الدعاية مناسبة لعصرهم وبيئتهم ومنطقهم ، لأن أسلوباً يناسب أقصى بلاد آسيا لا يناسب مطلقاً أرقى البلاد الأوربية . ومن الواجب أن ندرس تفكيرهم . ونتعرف الأساليب المؤثرة فيهم ونزود بها الدعاة قبل أن نوجههم إلى تلك البلاد .

مسجد باريس :

س : سمعنا أنكم لم ترتاحوا للوضع الذى عليه مسجد باريس ، فما السبب ؟

ج : هذا صحيح ... لأن المسجد فى الاسلام مهمته تبليغ الدعوة ، فإذا أصبح متحفاً كالمتاحف ، يزوره الزائر فلا يسمع من رائده سوى وصفه لسجاده الكاشانى ، وهندسته العربية ، وصناعة منبره ، وطلاء جدره . ثم لا يسمع شيئا عن العقيدة الاسلامية فإنه لا يؤدى رسالته . لقد زرت هذا المسجد فى رحلتى الأخيرة مرتين ، وفى كل مرة كنت أجد جمعاً من السياح من مختلف بلاد العالم ، وكلهم يحب الاستطلاع . وكان رائدنا ـ وهو من خدم المسجد ويلبس طربوشا ـ يسرد على مسامعنا ما ذكرت ، ثم يختم كلامه بهذه الجملة العجيبة : « وهذا المكان تقام فيه صلوات المحمديين » .

وظننت فى المرة الأولى أن المصادفة وحدها أجرت على لسانه ذاك الحديث ، ولكنى فى الزورة الثانية سمعت منه نفس الكلام ونفس الخاتمة ، فاعترضت عليه باللغة العربية فألفيته لا يعرفها ، فخاطبته بالفرنسية وأفهمته أن واجبه التحدث إلى هؤلاء السياح عن بعض نواحى الاسلام ، أو على الأقل إعطاؤهم فكرة عن الصلاة التى ذكر أنها تقام فيه .

هذا ما جعلنى ألفت نظر القائمين على أمر المسجد إلى أنه ليس متحفاً ، وإنما هو مركز رسالة يتحتم أداؤها ، ولكنى لم أجد فيهم سميعا فصممت على العمل من جانبى لإكمال هذا النقص بأية طريقة .

وبهذه المناسبة أذكر أن الجالية الاسلامية فى همبورج بألمانيا أعدت مشروعا لبناء مسجد فيها يتكلف مئات الألوف ، وراجعونى فى هذا الأمر فنصحتهم بوجوب الاهتمام بإقامة مسجد ينشر الدعوة الاسلامية ويعرف بالاسلام هناك لا أن يكون مبنى شكليا لا روح فيه . وقد أيد رأيى هذا ما رأيته من تقصير فى مسجد باريس ، ونرجو أن يكون فى اتصالنا بهم ما يساعد على تحقيق هذا الأمل .

س : هل تقومون بنشاط فى ألمانيا بعد ما كونتم رأيا عن المجتمع هناك ؟ .

ج : لقد بدأت اتصالاتى بخصوص هذا الأمر إثر رجوعى من السفر ،

وآمل أن يحالفنا النجاح ، وأرجو إعفائى من شرح خططنا الآن ، فهى ما تزال اقتراحات لم يبت بعد فى شأنها .

* * *

تلخيص البيان فى مجازات القرآن :

نقرأ فى كتب التاريخ والتراجم أسماء مؤلفات فى موضوعات شتى لمشاهير العلماء والأدباء القدامى . ومن المعروف أن قسما كبيراً من هذه المؤلفات قد أبادته الحوادث ، وحالت بيننا وبين أروع ما أنتجه الفكر العربى فى عصر التمدن الإسلامى .

وكان يظن أن من جملة ما فُقِد كتاب « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » للشريف الرضى(١) ولكن تبين أخيراً أن إحدى المكتبات القديمة فى إيران تحتفظ بنسخة منه ، ويرجع تاريخها إلى القرن الخامس الهجرى ، ومن حسن الصدف أن تقع هذه النسخة فى يد السيد الجليل محمد المشكوة ، فسعى جاهداً لنشر الكتاب ، فطبع ألف نسخة بالصورة الفوتغرافية ، فجاءت النسخ كما هى فى الأصل ، واشترط الناشر أن توزع النسخ مجانا على من يستحقها ، ورجا من تصل إلى يده نسخة ، وأراد بيعها أن يدفع ثمنها لمن لا يكون كذابا ، ولا تاركا للصلاة .

إن قارىء هذا الكتاب ليزداد اعتقاداً بمرونة اللغة العربية ، ومطاوعتها فى تقلب الأساليب وتعدد أنواعها ، وما يتفرع على مفرداتها ، وأنها تكافىء حياة أهلها مهما كثرت أغراض هذه الحياة . إن ألفاظ كل لغة محدودة . أما المعانى فهى كالحياة لا تكاد تتناهى ، ولكن اللغة الحية تنمو وتسير مع التطور . وتشايع كل جديد ، وكتاب مجازات القرآن يقيم الدليل على أن اللغة العربية لغة نامية بما فيها من ثروة الأوضاع ، وروائع الأسرار . وننقل طرفا يسيراً من الكتاب إلى القراء ليعرفهم عن نفسه بنفسه .

---

(١) هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم ابن الإمام موسى الكاظم عليه السلام ؛ أخو الشريف المرتضى ـ توفى سنة ٤٠٦ هـ .

قال المؤلف فى تفسير الآية ١٩ / الجن « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبدا » : اللبد هنا كناية عن الجماعات المتكاثرة التى تظاهرت على النبى صلى الله عليه وسلم ، واجتمعوا عليه متألبين ، فكانوا عليه كلبد الشعر ، وهى طرائقه وقطعه التى يركب بعضها بعضاً ، واحدتها لبدة ، ومنه قيل لبدة الأسد ، وهى الشعر المتراكم على منكبيه ، وهذا أبلغ ما شبهت به الجموع المتعاضدة ، والأحزاب المتألفة .

وقال فى تفسير الآية ٤٣ / الرعد « أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها » : المراد بنقص الأرض موت كرامها ، وتكون الأطراف هنا جمع طِرف بكسر الطاء ، لا طرف بالفتح ، والطِرف هو الشىء الكريم ، ومنه سمى الفرس طرفا إذا كان كريما .

وقال فى تفسير الآية ٤٨/سبأ « قل جاء الحق ، وما يبدىء الباطل وما يعيد » : الإبداء والإعادة يكونان فى القول وفى الفعل ، أما فى الفعل فقوله سبحانه : وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وأما فى القول فقولهم سكت فلان فلم يبدِ ولم يعد ، والإبداء الحال الأولى ، والإعادة الحال الأخرى ، وهاتان الصفتان لا يوصف بهما الباطل إلا على طريق الاتساع ، والمراد أن الحق قوىَ وظهر ، والباطل ضعف واستتر ، ولم يبق له بقية يقوى بها .

وقال عند تفسير الآية ٧٦ / الكهف « فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض » : إن الإرادة على حقيقتها لا تصح على الجماد ، والمعنى يكاد أن ينقض ، لأنه لما ظهرت فيه أمارات الانقضاض من ميل بعد انتصاب ، واضطراب بعد ثبات ، حسن أن يطلق عليه إرادة الوقوع على طريقة الاتساع ، ويأتى فى كلامهم كاد بمعنى أراد ، وأراد بمعنى كاد ، وجاء فى القرآن « كذلك كدنا ليوسف » أى أردنا ليوسف ، وقوله سبحانه « إن الساعة آتية أكاد أخفيها » : معناه على أحد الأقوال أريد أخفيها .

وقال عند تفسير الآية ١٠٧/الإسراء « وقرآنا فرّقناه لتقرأه على الناس » :

معنى فرقناه بيناه للناس بنصوع مصباحه ، وشدوخ أوضاحه حتى صار كفرق الرأس فى وضوح مخطه ، أو كفرق الصبح فى بيان منبلجه .

وقال عند تفسير الآية ٤٤ / يوسف « قالوا أضغاث أحلام » : هذه أبلغ استعارة ، وأحسن عبارة ، لأن أحد الأضغاث ضغث ، وهو الخليط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض ، فشبه سبحانه اختلاط الأحلام باختلاط الحشيش المجموع من أصناف كثيرة .

وقال عند تفسير الآية ٦ / المزمل « إن ناشئة الليل هى أشد وطأ » : المراد بناشئة الليل ما ينشأ فعله أى يبتدأ به من عمل الليل ، ومعنى أشد وطأ فى قول بعضهم : أشد مواطأة ، وهو مصدر يقال واطأه مواطأة ووطاء أى يوطىء فيها السمعُ القلب ، واللسانُ العمل ، لقلة الشواغل العارضة ، واللوافت الصارفة ، ولأن البال فيه أجمع ، والقلب أفرغ .

نكتفى بهذا المقدار ، وفيه الدلالة الوافية على أن فى لغة القرآن العظيم أسراراً جمة كأسرار الطبيعة لا يحصيها العد ، ولو قيض الله سبحانه لها أذهانا ثاقبة ، وقرائح نافذة كما هيأ للطبيعة عقولا نيرة لتغير فهم اللغة العربية ، كما تغير فهم الكون ، لو أتاح لهذه اللغة من يكشف عن كنوزها ودقائقها لظهر للأجيال أن لغة القرآن من أغنى اللغات وأغزرها مادة ، وأنها لا تضيق عن معنى الحضارة وأشيائها ، وإن بلغت أرقى أحوالها ، وأعلى درجاتها ؟

محمد جواد مغنية

* * *

أمة واحدة :

هذا هو عنوان مقال جيد كتبه الأستاذ العلامة الشيخ عبد الله القلقيلى ، وهو من علماء السنة الأعلام فى مجلة (العرفان) الغراء ، بين فيه أن الخلاف أمر يكاد يكون طبيعياً ، وأنه لاينبغى أن يفضى بالمسلمين إلى أن يكونوا طرائق قددا لأن العبرة بالأصول الدينية وهى متفق عليها ، وكان مما ختم به هذا المقال قوله :

« أهل السنة إنما هم شيعة فى إجلال أهل البيت وتعظيمهم ومعرفة حقهم ،

وهم فى صلاتهم يصلون عليهم ، وعلى منابرهم يسألون الرضا عنهم ، وينعتونهم بأفضل النعوت .

والشيعة سنة فى الأخذ بما صح عندهم عن الرسول قولا وفعلا وعملا ، وهم فى صلاتهم وزكاتهم وصومهم وحجهم يجرون على ما رأوا أنه سنة .

ومساجد الفريقين واحدة ، لا يرى أحدهم أن الصلاة فى مسجد الآخر باطلة حتى من بناه من يعد من أساطين الخلاف ... الخ » .

ونحن نحيي هذا الروح - ولا نستغربه - فى الأستاذ الفاضل وفى العرفان الغراء .

* * *

عالم جليل يلقى ربه :

نعت الصحف ودور الإذاعة إلى العالم الإسلامى عالماً جليلا من أكرم علماء الإسلام ، وأعظمهم نشاطاً فى خدمة الدين والعلم ، هو المرحوم المبرور العلامة الحجة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، عضو جماعة التقريب بالمراسلة ، وصاحب التآليف المشهورة ، والبحوث الجيدة التى كان لقراء « رسالة الإسلام » حظ فى الاطلاع عليها .

ولقد كان للراحل الكريم صفات فضل ، ليس المقام الآن بمتسع لتفصيلها ، ولعل من أبرز صفاته أنه كان عالما مقداما ، يشرع سنان قلمه فى الدعوة إلى الله غير هياب ولا وجل ، و « يكشف الغطاء » عن كثير من الحقائق العلمية التى يتهيب الخوض فيها من يؤثرون السلامة وإرضاء العامة ، وربما كان هذا من أهم الأسباب التى أدت إلى نجاح مؤلفاته ، وحرص الناس من كل طائفة على قراءتها واستطلاع رأيه فى موضوعاتها ، وفى مقدمة هذه المؤلفات كتابه الشهير « أصل الشيعة وأصولها » الذى طبع مراراً ، ونشر فى مختلف البلاد الإسلامية .

ورسالة الإسلام تعزى الأمة فى فقد هذا الحبر الجليل ، وتسأل الله تعالى أن يعوض المسلمين عن فقده خيراً ، وأن يجزيه عن جهاده فى سبيل الله جزاء المؤمنين الصادقين ، و « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

---

١ — نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ — ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، وألا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ — ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتى هى أحسن، وألا يجرحوا شعور غيرهم، حتى يمهدوا لهم سبيل الاطلاع على مايكتبون، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للمودة بينهم وبين إخوانهم.

٤ — من المعروف أن « سياسة الحكم والحكام » كثيراً ما تدخلت قديماً فى الشئون الدينية ، فافسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتا لأقدامهم ، وأنهم سخّروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكام وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة .

* * *

وعلى الجملة ، نرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا ـ العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب ـ نشر المبادىء الاسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج ـ السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهـــرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى   مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشا مصريا

وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ١ ليرة إنجليزية

مطبعة احمد على مخيمر ت ٤٧١٩٣



تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة السادسة
العدد الرابع

صفر ١٣٧٤ هـ
أكتوبر ١٩٥٤ م

إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

"قرآن كريم"

بسم الله الرحمن الرحيم



آية كريمة من كتاب الله عز وجل فى سورة الشورى ، ترسم المنهج الراشد الذى يجب على كل داع إلى الخير والإصلاح أن ينتهجه ، بها خاطب الله رسوله الكريم يوم كانت دعوته ناشئة يناهضها الشرك المستأصل فى قبائل العرب ، والحسد الكامن فى طوائف الذين أورثوا الكتاب ، فكانت الصراط السوى للسالكين ، والأسوة الحسنة للمقتفين .

تلك هى قوله تعالى : « فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، وإليه المصير » .

عشر جمل فى آية واحدة ، هنّ جماع الخطة الراشدة ، لمن دعا إلى الإصلاح ، وأراد الفلاح .

فقوله تعالى : « فلذلك فادع » الإشارة فيه للدين الواحد الذى أنزلته السماء على الأرض فى حقب التاريخ المختلفة ، منذ عهد الرسول الأول نوح ، إلى عهد خاتم النبيين والمرسلين محمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ذلك الدين الواحد هو الإسلام ، وما كان لله دين قط غير الإسلام « إن الدين عند الله الإسلام » « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » وما كانت التوراة إلا تفصيلا لبعض أحكام هذا الدين يناسب وقتها « يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » ، وما كان عيسى إلا مصدقا لما بين يديه من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعده اسمه أحمد ، وما كانت الدعوة التى « وصى بها إبراهيم

بنيه ويعقوب ، إلا دعوة الإسلام « يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، وآيات القرآن الكريم تدل على ذلك أوضح دلالة ، ولذلك يقول الله عز وجل فيما تشير إليه آية الشورى ، مخاطبا الرسول الأخير وأمته : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .

فالإسلام ليس هو « الوحـــدة » بين المتبعين لمحمد فحسب ، وإنما هو « الوحدة » التى تجمع ـ وإن أُنكرتْ ـ بين المتبعين حقاً لرسل الله أجمعين ، هو كلمة الله ، تلقاها نوح ، ثم تلقاها مَنْ جاء بعده رسولا بعد رسول ، ثم تلقاها محمد ، ثم تلقاها عنه الأئمة الراشدون ، والعلماء الصادقون ، فما كان ينبغى أن تسمى هذه الدعوة فى حقب التاريخ كلها إلا بما سماها الله به ، أى « بالإسلام » ، وما ينبغى أن تنسينا نسبتها إلى رسلها أو أقوامهم ، حيث قيل « المسيحية » أو « الموسوية » أو « اليهودية » أو « المحمدية » ـ ما ينبغى أن ينسينا هذا ـ أنها هى « الإسلام » ثم ما ينبغى أن ينسينا هذا تلك الأسماء الطائفية التى اتخذناها ، فنحن « المسلمون » قبل أن يتسمى فريق منا « بالحنفية » أو « الشافعية » أو « الزيدية » أو « الإمامية » الخ .

ذلك ما تدل عليه الإشارة المقدمة المقرونة بفاء السببية فى قوله تعالى : « فلذلك فادع » ، وما ينبغى أن يكون لنا ـ معاشر المسلمين ـ هدف إلا هذا الهدف نرمى إليه ، ونحث عليه ، ونقنع به العالمين .

وإذا عرف الإنسان الهدف الذى يرمى إليه استراح ، وكان عليه أن يعرف الوسائل المحققة له ليأخذ بها ، وهذه الوسائل منها ما هو إيجابى عملى يتعين على صاحب الدعوة أن يضطلع به ويعمله غير متهاون فيه ، وهذا ما يأمر به الله عز وجل فى قوله : « واستقم كما أمرت » فإن أول ما يساور المدعوِّين إلى مبدأ من المبادىء أن ينظروا إلى مسلك الداعين إليه ، وسيرتهم فى حياتهم ، فإن رأوا خيرا أقبلوا عليهم ، واستمعوا إليهم ، وكانوا أقرب إلى طاعتهم ، وإن كانت الأخرى ؛ انصرفوا عنهم ، واعتقدوا أنهم كاذبون فيما يقولون ، أو هم به متجرون .

ومنها ما هو سلبي يراد به التحصن من الباطل ، ومقاومة إغرائه بإهماله ، وذلك ماينهى عنه الله عز وجل بقوله « ولا تتبع أهواءهم » فالمصلح لو اتبع الأهواء متهاونا أو متأولا أو مجاملا : اضطرب عليه أمره ، وطمع فيه خصمه ، وساورت الشكوك قلوبَ أصحابه ، فلن تكون له بعد ذلك قوة ، ولن تقوم لدعوته قائمة .

ومنها مايراد به إنصاف العقول ، وإدخال الطمأنينة على القلوب ، فإن الداعى يجب أن يعلم أن دعوته ستعرض على عقول الناس ، فإن رأوها حقاً استراحت عقولهم ، ثم هم سينظرون إليها من زاوية حياتهم وما به يطمئنون على مستقبلهم ، فقد يكون الشيء حقاً فى ذاته ، ولكنه يجد المنكرين له ، لأنهم ترقبوا أن يكون رسوخه فيهم وبالا عليهم ، أو وسيلة إلى ظلمهم واهتضام حقوقهم ، فهم يرفضونه ، وإن آمنت به قلوبهم ، استجابة لمصالحهم ، وتلبية لعواطفهم ، ولذلك أمر الله رسوله بأن يقول للناس جميعاً « آمنت بما أنزل الله من كتاب » ليطمئنهم إلى أنه ليس « بِدْعاً من الرسل » وإنما هو داع إلى ما دعوا إليه ، مؤمن بما آمنوا به : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله » وأمره عقب ذلك بأن يبين لهم فى عبارة حاسمة أنه أمر ليعدل بينهم ، فلا يمكن أن يكون اختلافه وإياهم فى العقيدة سبباً فى ظلمهم ، أو سبيلا إلى اهتضام حقوقهم ، وانظر ـ أيها القارىء ـ إلى قوله تعالى « وأمرت لأعدل بينكم » حيث أتى بحرف اللام فى قوله « لأعدل » ولم يقل « بأن أعدل » فانى أحسب أن السر فى هذا التعبير هو أن يدركوا أنه مأمور من ربه بأن يسلك كل السبل ، ويتوسل بكل الوسائل ليحقق العدل بينهم : يَعْلم ليصل بالعلم إلى تحقيق العدل ، يَقْوَى ليصل بالقوة إلى تحقيق العدل ، يجتنب العصبية فى نظره وفى حكمه ، يحلم ، يصبر ، يتسامح أحيانا ، كل هذا يفعله لخصمه كما يفعله لصديقه ، فكأن المأمورَ به فى قوله « أمرت » حُذف ليعم جميع الوسائل التى بها يحقق العدل ، واكتُفى بذكر الغاية التى يجب الوصول إليها فى قوله : « لأعدل » .

هذه هي الخطة التي رسمها القرآن الكريم لصاحب أعظم دعوة عرفتها الإنسانية ، ولها سرٌّ يتمثل فيما جاءت به الآية بعد ذلك من إفهام المختلفين بأنه لا داعي للاختلاف ، ولا مصلحة لأحد الفريقين فيه ، فكل منهما مسئول عما يذهب إليه من حق أو باطل ، محاسب عليه حين يرجع إلى ربه « الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

وفي غير هذا الموضع من القرآن يرشد الله رسوله إلى هذه الخطة الحكيمة أيضاً :
« فإن حاجوك فقل أسلمتُ وجهي لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ »
وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون » .
« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » .
« فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر » .

فإذا كانت هذه هي خطةَ الإسلام مع من عاندوا الإسلام وكابروا فيه من ذوي الحجج الداحضة ، والقلوب الغلف ، فكيف يسوغ للمسلمين فيما بينهم أن يقوم فيهم ناعِبٌ لا همَّ له إلا أن يُقطع أواصرهم ، ويحل خناصرهم ، ويجعلهم أعداء يتربص بعضهم ببعض ، ويكيد بعضهم لبعض ؟ !

وإذا كان الله جل جلاله يرسم الخطة الراشدة لحمل العالمين على الإسلام ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، والصفح الجميل ، وأخذ العفو ، والأمر بالعرف ، والإعراض عن الجاهلين ، حتى تتقارب القلوب ، وتتفاهم العقول ، ويظهر الحق في جو من الصفاء والهدوء ؛ فما بالنا لا نسلك هذه السبيل فيما بيننا ، فيحترم بعضنا بعضا ، ويعذر بعضنا بعضا ، ويتفاهم على قضايانا ذوو الأحلام الراجحة ، ويكف عن الإيقاع بيننا ذوو الأقلام الجامحة ؟

أما والله لتلك دعوة التقريب ، وإنها لدعوة الحق ، وإن الله لهو الحق المبين « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

محمد محمد المدني

تفسير القرآن الكريم

سورة المائدة

— ٩ —

النداء الحادى عشر ــ الصلة بينه وبين النداء الذى قبله ــ « وسطية » الإسلام ــ عرض إجمالى لما جاء فى آيات هذا النداء ــ الخمر : معانى المادة التى اشتقت منها فى اللغة ــ اللغة والشريعة على أن كل مسكر خمر ــ نقد القرطبى للكوفيين فى قصرها على المتخذ من العنب ــ رأى « الإمامية » ــ الميسر : معانى المادة التى اشتق منها فى اللغة ــ كل قمار ميسر ــ أنواع القمار المستحدثة من الميسر ــ الأنصاب والأزلام ــ معنى كون هذه الأشياء « رجساً » و « من عمل الشيطان » ــ تدرج التشريع القرآنى فى تحريم الخمر والميسر وبيان الحكمة فى هذا التدرج ــ استطراد توحى به الآية لفائدة التقريب ــ أسلوب القرآن فى الجمع بين مخاطبة العقول ومناشدة العواطف ــ مثالان لهذا الأسلوب فى شرحهما فوائد ــ نفى الجناح عن المؤمنين فيما طعموا : سبب نزول هذه الآية فيما رواه الجمهور وغيرهم ــ ترجيح رأى أهل البيت فى معنى الآية وأدلة هذا الترجيح ــ فائدة التكرار الوارد فى الآية .

النداء الحادى عشر :

انتهينا فى العدد الماضى من الكلام على النداء العاشر من النداءات التى نادى الله بها المؤمنين فى سورة « المائدة » واليوم نستعين الله تعالى ونتكلم على النداء الحادى عشر من هذه النداءات ، وهو قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة

والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ، ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين » .

الصلة بين هذا النداء والذى قبله :

كان موضوع النداء السابق على هذا ، هو نهىَ المؤمنين عن تحريم طيبات ما أحل الله لهم ، وأمرهم بأن يأكلوا مما رزقهم حلالا طيبا متقين الله ، غير متحرجين من النعيم ، ولا مائلين إلى التزهد والترهب اللذين ظهرت بوادرهما فى محيطهم ، وهموا بأن يلابسوا بعض صورهما ، وغير متحرجين من أيمان كانوا قد حلفوها بالتزام هذا التزهد والترهب ، فإن الله قد فرض للمؤمنين تحلة أيمانهم ، وجعل لهم مخرجا بالكفارة حين يرون أن أيمانهم كانت فى غير مصلحة خاصة أو عامة يرضاها الله .

هذا هو النداء السابق ، وقد صدَر عن مبدأ من مبادىء هذه الشريعة السمحة هو مراعاة حق الفطرة ، وحياطة هذا الحق مما يصادمه أو لا يتفق معه ، ولعمرى إن فى هذا لوفاءً للإنسانية ، وإبقاء على عوامل نمو البشر ، وعلى الخصائص التى خصهم الله بها ، بل على الأسس التى هى قوام الحياة ، وبدونها لا تكون حياة .

« وسَطية » الإسلام :

وآيات اليوم فى موضوع مقابل لهذه الإباحة للطيبات ، والأمر بأخذ الحظ منها ، وعدم التحرج فيها ، إنها فى موضوع يحقق « الوَسَطية » الإسلامية ، ونعنى بها جعل الإسلام متبعيه أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس ، ومعايير ومقاييس لما هو خير ونفع ورشاد ، وما هو شر وضرر وفساد ، فالله تعالى كما يبيح الطيبات لأنها طيبات ، ويأمر الناس بأخذ الحظ منها تلبية لدواعى فطرتهم ، ينهى كذلك عن الخبائث ، ويحذر الناس من أن يقارفوها ، أو يفسدوا حياتهم

الخاصة والعامة بها ، لا تحكما بالتحليل والتحريم دون مبرر ، ولا رعاية لحسب لحق الألوهية فى الأمر والنهى ، والإباحة والحظر ، ولكن مجاراة لمنطق هذه الشريعة ، فإن الذى يحل الشىء لما فيه من طيب ونفع ، لا بد أن يحرم ما هو ضار وخبيث ، سواء أكان ضرره وخبثه يرجعان إلى الفرد ، أو إلى المجتمع ، وهذه هى « الوسطية » الإسلامية فى الإباحة والحظر ، فلا إباحة مطلقة لكل ما فى هذا الوجود ، تجعل الإنسان بهيمياً مادياً ، ولا إسراف فى الحظر والمنع يكون به الإنسان محروماً من تذوق لذة العيش ، أو قاصراً عن القيام بما أريد له من عمارة هذا الكون ، ولكن بين هذا وذاك ، إباحة مطلقة للطيبات ، لم يلاحظ فيها إلا أنها طيبات ، وتحريم مطلق للخبائث ، لم يلاحظ فيه إلا أنها خبائث .

وإذن فالصلة بين هذا النداء والذى قبله واضحة ، لأنهما طرفان منهما تتولد أو تتحقق الوسطية الإسلامية ، التى ما كانت إلا صدى للفطرية البشرية .

عرض إجمالى لما جاء فى آيات هذا النداء :

وقد جاء هذا النداء فى أربع آيات :

الأولى : حصر لأمر الخمر والميسر والأنصاب والأزلام - وهى عناصر الشر ومحيطاته وجوامعه - فى كونها رجساً من عمل الشيطان ، وقد ذيلت بالأمر الصريح باجتناب هذا الرجس رجاء الفلاح .

والثانية : بيانٌ فيه شىء من التفصيل للمفاسد التى يبتغيها الشيطان حين يزين للناس أمر هذه الأشياء من إيقاع العداوة والبغضاء بينهم ، ومن صدهم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، وقد ذيلت بجملة استفهامية قوية الدلالة على طلب الكف عن هذه الموبقات .

والآية الثالثة : قد تضمنت أمراً بإطاعة الله وإطاعة الرسول ، لاشك أن المقام يقتضيه فى هذا الموقف تأكيداً للنهى ، وحثا على تقبله والخضوع له ، كما تضمنت تحذيراً مطلقاً غير واقع على محذَّر منه معين ، ليُفهم أن الخطر جسيم ،

وأن ما ينبغى أن يحذر منه فى هذا الشأن كثير ، وقد ذيلت بتهديد عظيم لهم إذا تولوا عن طاعة الله وطاعة رسوله أو تهاونوا فلم يحذروا ، وهو فى معنى تحميلهم المسئولية كاملة بعد أن جاءهم الرسول بالبلاغ المبين ، كأنه يقول : لا شأن لرسولنا بعد ذلك ، ولا تقصير فى حقكم ، فان لم تنتهوا فاحملوا وحدكم إثم الإصرار ، ومضار الاستكبار ، وعاقبة هذا الفساد المبير ، والشر المستطير ، فليس على رسولنا إلا البلاغ والبيان ، وقد جاءكم بالبلاغ والبيان .

أما الآية الرابعة : وهى آخر الآيات التى جاءت فى هذا النداء ؛ فهى فى مقصدها وما تقرره ، شبيهة بالآية الثالثة التى هى آخر الآيات فى النداء السابق : كلتاهما تستل من قلوب المؤمنين ما لعله ساورهم من المخاوف على مافرط منهم ، أو ما عسى أن يفرط منهم ، مخالفاً للحكم الذى تقرر ، فالتى هناك تنفى مخاوف الذين أقسموا على أنفسهم أن يكونوا زاهدين مترهبين ، ومخاوف كل من مال ميلهم ، أو أخذ نفسه بما أخذوا به نفوسهم ، وذلك بالتصريح بعدم المؤاخذة باللغو ، وتشريع الكفارة فى الحنث ، والتى هنا تنفى مخاوف الذين تناولوا شيئاً من هذه الأشياء المحرمة من قبل ، وفى حكمهم كل مقترف غير عامد جهل ففعل ، ثم عرف فكف ، ورائده التقوى والإيمان والإحسان ، لا يبتغى مجونا ولا عبثا ، ولا يتخذ أمر الله هزوا ولا لعبا (١) وقد ذيلت الآية هناك ببيان أن القصد الإلهى من أخذ الناس بهذه الأحكام وتشريعها متسمة بالرحمة والرفق ، هو أن يشكر الناس ربهم « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » ، وذيلت الآية هنا بتقرير أن الله يحب المحسنين ، وهو فى معنى ما تقدم ، لأن الحب يفضى إلى رحمة المحبوب ، ورحمة المحبوب تقتضى عدم مؤاخذته بما عسى أن يكون قد فرط

(١) وذلك على رأى الجمهور فى بيان سبب نزول هذه الآية واتصالها بتحريم الخمر حيث أثيرت أسئلة عن الذين ماتوا من المسلمين وقد شربوها قبل تحريمها ، فنزلت هذه الآية ، ولنا فى هذا بحث سيأتى فى هذا المقال رجحنا به فى هذه المسألة رأى أهل البيت عليهم السلام لأن الدليل معهم .

منه غير عامد ولا مُصر ، أو بما عسى أن يفرط منه من ذلك ، وتلك المعاملة من الحبيب لمحبوبه تقتضى الشكر وعرفان الجميل .

وهكذا يتبين أن المعانى متجانسة ، آخذ بعضها برقاب بعض ، يمهد أولها لآخرها ، ويؤكد آخرها ما جاء فى أولها ، وكلها ترمى إلى خير المؤمنين ، ومدّهم بالتشريع الملائم لفطرهم ، المتمشى مع مقتضيات حياتهم ، الذى يحقق لهم السعادة ، ويبعثهم على تذوق النعمة ، فيشكروا ربهم الذى أسداها إليهم ، ويسرها لهم .

* * *

بعد هذا البيان الإجمالى لما تضمنه هذا النداء ، وللصلة التى بينه وبين ما سبقه من النهى عن تحريم الطيبات ؛ نعرض بشىء من التفصيل لموضوع آيات اليوم ، فنقول وبالله التوفيق :

الآية الأولى تحدثت عن أربعة أشياء : الخمر ، والميسر ، والأنصاب ، والأزلام فذكرت أنها رجس من عمل الشيطان ، وأمرتنا باجتناب هذا الرجس أو هذا العمل ، لعلنا نفلح . فعلينا أن نعرف هذه الأشياء : ما هى ؟ وأن نعرف معنى كونها رجساً من عمل الشيطان ، وأن ننظر فى دلالة الكلام على التحريم ، ثم فى علاقة هذا التحريم بما يرجى لنا من فلاح :

الخمر : معانى المادة التى اشتقت منها اللغة :

فأما الخمر ، فاشتقاقها من مادة (خمر) ومن تتبع هذه المادة فى اللغة وجدها تدور بين معان متقاربة :

منها : الستر ، يقال خمَره يخمُره خمرا أى ستره ، وكل شىء غطى شيئا ، فقد خمَرَه أى ستره ، ومنه خِمار المرأة ، ومنه « خمِّروا آنيتكم » أى غطوها .

ومنها : الكتمان ، يقولون : خمَر الشهادةَ إذا كتمها .

ويقولون : خمَر فلانا أى استحيى منه ، وخَمِر عنه أى توارى واستتر .

ويقولون : خامره فى البيع مثلا أى خاتله ، وخامر الشىءُ الشىءَ أى خالطه ، وقد خامره الداء أى داخله .

اللغة والشريعة على أن كل مسكر خمر :

ولذلك سمى المسكر خَمْراً لأنه يستر العقل ويخامره ويَخْتِله ، غير أن بعض اللغويين كابن سِيدَه فسر الخمر بأنه عصير العنب إذا أسكر ، وذلك نقلا عن صاحب العين ، فظن بعض الناس أن الخمر لا تطلق فى اللغة إلا على هذا وهو خلاف الواقع ، فإن اختيار المادة واطلاقها على الشراب المذهب للعقل ، دليل على أنه نُظِر فيها إلى ذلك ، وأنه لم يُرَد تخصيص شراب معين بالاسم ، ويقول صاحب القاموس : الخمر ما أسكر من عصير العنب أو عام كالخمرة ، وقد يذكر ، والعموم أصح ، لأنها حرمت وما بالمدينة خمر عنب ، وما كان شرابهم إلا البسر والتمر ، سميت خمراً لأنها تخمر العقل وتستره ... الخ » وقد ذهب إلى هذا أيضاً من اللغويين الجوهرى ، وأبو نصر القشيرى ، وأبو حنيفة الدينورى .

نقد القرطبي للكوفيين فى قصرها على المتخذ من العنب :

ويقول القرطبي فى الرد على القائلين بأن الخمر إنما هى عصير العنب « الأحاديث الواردة عن أنس وغيره على صحتها وكثرتها تبطل مذهب الكوفيين القائلين بان الخمر لا يكون إلا من العنب ، وما كان من غيره لا يسمى خمراً ولا يتناوله اسم الخمر ، وهو قول مخالف للغة العرب وللسنة الصحيحة وللصحابة ، لأنهم لما نزل تحريم الخمر فهموا من الأمر بالاجتناب تحريم كل ما يسكر ، ولم يفرقوا بين ما يتخذ من العنب وبين ما يتخذ من غيره ، بل سوَّوْا بينهما وحرموا كل ما يسكر نوعه ولم يتوقفوا ولم يستفصلوا ولم يشكل عليهم شيء من ذلك ، بل بادروا إلى إتلاف ما كان من غير عصير العنب ، وهم أهل اللسان ، وبلغتهم نزل القرآن ، فلو كان عندهم تردد لتوقفوا عن الإراقة حتى يستفصلوا ويتحققوا التحريم ، وقد أخرج أحمد فى مسنده عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من الحنطة خمر ، ومن الشعير خمر ، ومن التمر خمر ، ومن الزبيب خمر ، ومن العسل خمر » اهـ

رأى « الإمامية » :

وقال الطبرسى فى تفسيره « مجمع البيان » بعد أن أرجع لفظ الخمر إلى معناها

الذى تفيده المادة فى اللغة » وهى كل شراب مسكر مخالط للعقل مغط عليه ، وما أسكر كثيره فقليله خمر ، هذا هو الظاهر فى روايات أصحابنا » يريد الإمامية ، راجع تفسيره عند قوله تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر » فى سورة البقرة - وقال عند تفسيره لقوله تعالى « إنما الخمر والميسر» فى سورة المائدة « مرّ معناهما فى سورة البقرة ، قال ابن عباس : يريد بالخمر جميع الأشربة التى تسكر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الخمر من تسع ، من التِّبع - وهو العسل - ومن العنب ، ومن الزبيب ، ومن التمر ، ومن الحنطة ، ومن الذرة ، ومن الشعير والسلت » .

الميسر : معانى المادة التى اشتق منها فى اللغة :

وأما الميسر فاشتقاقه من يسَرَ الشيء ييسِر يَسْرا ، والمادة متنوعة المعانى كمادة « خمر » وهى مثلها أيضاً فى تقارب معانيها ، فتارة تفيد معنى السهولة ، وتارة تفيد معنى الوجوب ، وتارة تدل على الجَزْر ، فالياسر الجازر ، والميسر الجزور ، وتارة تفيد معنى التجزئة ، فكل ما جزأته فقد يسرته ، ولهذه المعانى كلها شواهدها فى الشعر وكلام العرب ، وقد استعمل لذلك فى معنى القمار ، والقمار فيه هذه المعانى التى تعرفها اللغة العربية فى مادة يسر ، فإذا نظرت إلى معنى الوجوب ، فكل من اللاعبين المقامرين ييسر شيئاً أى يوجبه ، وهو ما يحق له أو لصاحبه بمقتضى المقامرة ، وإذا نظرت إلى معنى السهولة ، فكل منهما يكسب المال سهلا يسيراً ، وهما يكسبانه الفقراء سهلا إذ يوزعان لحم جزور الميسر عليهم وإذا نظرت إلى معنى التجزئة وجدته ، إذ كانوا يجزئون لحم هذا الجزور فيقسمونه أو يقتسمونه - وهكذا .

كل قمار ميسر :

وكل ما من شأنه أن يكون فيه مخاطرة واحتمال للربح والخسارة عن طريق المياسرة والمقامرة فهو حرام ، وقد ورد فى ذلك آثار وأحاديث ونقولٌ عن الأئمة والعلماء .

فمن ذلك ماروى عن الإمام على كرم الله وجهه من أنه قال : الشطرنج من الميسر ، رواه ابن أبى حاتم عن أبيـه بسنده المتصل عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على .

وروى عن عطاء ومجاهد وطاوس أنهم قالوا كل شىء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز، وعن راشدبن سعد ، وضمرة بن حبيب مثل ذلك وقالا : حتى الكعاب والجوز والبيض التى تلعب بهـا الصبيان .

وفى صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيب الأسلمى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لعب بالنردشير فكأنمـا صبغ يده فى لحم خنزير ودمه » .

وفى موطأ مالك ومسـند أحمد وسنى أبى داود وابن ماجـه عن أبى موسى الأشعرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله » . . . إلى غير ذلك .

أنواع القمار المستحدثة من الميسر :

ومن هذا يتبين أن كل أنواع القمار المستحدثة داخلة فى معنى الميسر ، فالمراهنة على سباق الخيل ميسر ، ولعب الورق ميسر ، ولعب « الطـاولة » ميسر ، و« اليانصيب » ميسر ، ولا عبرة بأن القصد من اليانصيب ونحوه تمويل المشروعات الخيرية أو النافعة ، فقد كان هذا مما يقصده اللاعبون فى الجاهلية ، وكانوا يوزعون لحوم الجزر على الفقراء ، أو يقربونها للأوثان ، والإسلام ينظر إلى وسيلة الشىء كما ينظر إلى غايته فهو حريص على صحة الوسائل حرصه على صحة المقاصد .

الأنصاب والأزلام :

وأما الأنصاب فأصلها الأحجار تنصب أى تقـام لغرض كأن تتخذ علامة تنصب ليهتدى بها القوم ، والواحد نصيب ، ونَـصَـب ، وكما يقال فى الجمع أنصاب يقال نُـصب ، والله تعالى يقول : « كأنهم إلى نصب يوفضون » قرىء بفتح النون والصاد ، وقرىء بضمهما .

وكان للعرب أحجار ينصبونها ، ليست هى الأصنام ، لأن الأصنام كانت

مصورة ومنقوشة ، وهذه ليست كذلك ، وإنما كانوا يذبحون عليها ، ويقربون قرباتهم بتشريح لحمها ونشره فوقها ، وتلطيخها بدمائهم .

وأما الأزلام فهى القِداح جمع زلم ـ بفتحتين ، أو بضم ففتح ـ : كان للعرب فى الجاهلية قطع من الخشب على هيئة السهام التى لاريش فيها ، يستقسمون بها ، أى يستعلمونها ويستخبرونها ما قسم لهم ، وهى ثلاثة : أحدها مكتوب عليه : « أمرنى ربى » والثانى مكتوب عليه : « نهانى ربى » ، والثالث غفل ليس عليه شىء ، فإذا أراد أحدهم سفراً أو زواجاً أو بيعا أو شراء أو غير ذلك من شئونه أجال هذه الأزلام ، فإن خرج له الزلم المكتوب عليه « أمرنى ربى » مضى لما أراد ، وإن خرج له المكتوب عليه « نهانى ربى » أمسك عن ذلك ولم يمض فيه ، وإن خرج الذى لا كتابة عليه أعاد الاستقسام .

وقيل فى الأزلام غير ذلك ، ولكنه لا يخرج عن هذا المعنى فى الاعتماد على ترجيح القطع الخشبية التى تُزْلم وتُسَوَّى ويستنبئها الشخص فيما يفعل أو يترك .

هذه معانى الأشياء الأربعة التى جاءت فى الآية .

* * *

معنى كون هذه الأشياء « رجسا » و « من عمل الشيطان » :

وقد وصف الله هذه الأشياء بوصفين ، أحدهما أنها رجس ، والآخر أنها من عمل الشيطان .

فأما الرجس فهو مايستقذره العقلاء حسا أو معنى ، فالميتة رجس ، والعَذرة رجس ، والكفر رجس ، والنفاق رجس . . . الخ ، وقد يسمى الغضب الإلهى رجسا ، والعذاب رجسا ، وفى القرآن الكريم : « فأعرضوا عنهم إنهم رجس » « وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم » « قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب » « ومن يرد الله أن يضله يجعل صدره ضيقا حرَجا كأنما يصعد فى السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون » « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » « فاجتنبوا الرجس من الأوثان »

وكل هذه المواضع يبدو فيها أن المراد بالرجس الرجس المعنوى ، وفى القرآن الكريم موضع واحد أطلق فيه الرجس على ما يبدو أنه رجس حسى ، وذلك قوله تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس » على إعادة الضمير فى قوله « فإنه رجس » إلى جميع ما تقدم ذكره فى الآية .

ومن هذا يتبين أن الرجس معنوى وحسى ، وأن أكثر ما عبر عنه فى القرآن الكريم بالرجس أشياء لا يبدو فيها الرجس الحسى ، ولهذا حمل الرجس فى آية الخمر على القذر المعنوى لا الحسى ، ورد بذلك قول من استدل به على أن الخمر نجسة العين ، ولا سيما وقد عطف عليها الميسر والأنصاب والأزلام ؛ وهى مسألة خلافية فيها استدلالات أخرى ، وكون الخمر رجسا معنويا ظاهر من آثارها السيئة وما تجره من مضار خاصة وعامة ، وهو ما أشارت إليه الآيات فيما بعد بنوع من التفصيل ، وكذلك القول فيما عطف عليها من الأشياء الأخرى ، وهى الميسر والأنصاب والأزلام .

وقوله تعالى : « من عمل الشيطان » بيان وتوضيح لكونها رجسا ، فإن الشيطان يزينها للناس ويوحى إليهم ابتداعها وإنشاءها والافتتان فيها .

تدرج التشريع القرآنى فى تحريم الخمر
والميسر وبيان الحكمة فى هذا التدرج :

بعد ذلك يأتى الأمر الصريح باجتنابها مشفوعا بتعليلين ، أحدهما إجمالى وهو قوله تعالى : « لعلكم تفلحون » ، والآخر تفصيلى ، وهو قوله تعالى : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء » الخ .

ويحسن بنا أن نقف هنا وقفة نتأمل فيها موقف التشريع القرآنى من الخمر والميسر ، وتدرجه حتى انتهى إلى تحريمهما تحريما صريحا بهذه الآية ، منتفعين بما فى ذلك من عبر .

فمن المعروف أن القرآن الكريم لم يحرم الخمر والميسر ابتداء ، ولكن ترك

الناس حتى شعروا بآثارهما السيئة فى المجتمع ، وبما لهما من مفاسد ، وبما ينجم عنهما من شرور ، وكان من آثار هذا أن حدثت حوادث من السكر مثلا خرج فيها الشاربون عن طورهم ، وما يجب عليهم من الوقار ، واحترام ذوى الأقدار فيهم ، وأن صلى بعضهم صلاة فخلط فى قراءته فيها خلطاً شنيعا ، وقد أدت هذه الحوادث إلى أن يتكون فى المسلمين شعور نفسى وإحساس قلبى ، بضرر الخمر والميسر ، وإلى أن يتطلعوا إلى معرفة حكم الله فيهما ، فتمت بذلك حكمة الله تعالى فى أن يأتى التشريع متطلباً والنفوس إليه متطلعة ، والأعناق مشرئبة ، وذلك سر من أسرار بقاء التشريع الإسلامى ورسوخه ، لأن التشريعات التى تُفرض فرضا قبل أن يشعر المجتمع بحاجته إليها ، وقبل أن يدرك المفاسد والشرور التى تعالج بها ، أقول : إن مثل هذه التشريعات تأتى مصادمة للناس ، فتولد فيهم روح المعارضة لها ، والنفرة منها .

وقد ظهر فى المجتمع الإسلامى قبل تحريم الخمر والميسر نزوع إلى هذا التحريم وتطلعَ إليه كثيرٌ من العقلاء ، وجعلوا يسألون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن حكمهما ، وهذا ما تشير إليه أول آية نزلت خاصة فى ذلك وهى قوله تعالى فى سورة البقرة : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » وصف الإثم بأنه كبير ، وعبر عن المنافع بعبارة تشعر بهوانها ، وقلة جدواها ، ولكنه على كل حال لم يصادم الناس بانتزاعهم مما هم به ، أو أكثرهم ، مقتنعون ، بحكم العادة والإلف ، وكأنه يريد منهم أن يدركوا بأنفسهم أن هذه المنافع لا تذكر بجانب الآثار السيئة ، والمضار الكبرى ، وترك لهم الفرصة حتى يتبينوا ذلك ، ويؤمنوا به إيمانا عميقا ، فكان هذا الطور من الأطوار التشريعية بمثابة تمهيد وإعداد ، وقد فهم بعض الناس من هذه الآية تحريم الخمر والميسر فكفوا عنهما ، لأنهم أدركوا أن النفع القليل لا يقام له وزن بجانب الضرر الكبير ، والإثم العظيم ، وذلك لأن كل ما فى الحياة له جانبان : جانب خير ، وجانب شر ، ولا يكاد يوجد شىء هو شر كله ، ولا شىء هو خير كله ،

وإنما العبرة فى كون الشىء خيرا برجحان جانب الخير فيه على جانب الشر ، والعبرة فى كون الشىء شرا برجحان جانب الشر فيه على جانب الخير .

ثم تقدم التشريع خطوة أخرى فى سبيل التحريم جاءت على إثر حادثة الرجل الذى قرأ فى صلاته فخلط ، فنزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » فكانت هذه الآية سبباً فى أن يقلع كثير من المترددين عن الخمر والسكر ، لأنهم نهوا عن قرب الصلاة وهم سكارى ، والصلاة هى العبادة الأولى فى الإسلام ، هى المناجاة للرب جل وعلا فى اليوم خمس مرات ، هى النهر الذى يغتسل فيه الناس كل يوم عدة مرات من أدرانهم كما جاء فى بعض أقوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهى بعد هذا كله فرصة كل مؤمن للاجتماع بالرسول والاقتداء به والانتفاع بما يدعو به لمن صلى معه . إلى غير ذلك ، فكأنه عز عليهم أن يحرموا ذلك كله من أجل الخمر التى تذهب بعقولهم ، وتحول بينهم وبين أعظم غنم فى نظرهم ، فلهذا كف كثير منهم ، وإن كان آخرون اكتفوا بأن يكفوا عنها فى الأوقات التى تمنعهم من أداء الصلوات ، وأن يشربوها فى أوقات أخرى ، فلما تهيأت النفوس تمام التهيؤ ، وكثرت المفاسد والشرور الناجمة عن هذين الأمرين فى المجتمع ، جاء التشريع الحاسم القاطع ، فنزلت هذه الآيات التى نفسرها : « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر . . . » الخ .

قصرهما على وصف الرجس ، بعد أن كان يشير إلى ما هو شائع عندهم من منافعهما الضئيلة ، ثم أمر باجتناب ذلك الذى هو رجس من عمل الشيطان ، بعبارة حاسمة هى قوله « فاجتنبوه » بعد أن كان يشير إلى هذا دون نص عليه ، وكما مهد للحكم بوصف المحكوم عليه بأنه « رجس » و « من عمل الشيطان » اتبعه ببيانين ، أحدهما إجمالى يبين الغرض من التشريع وهو قوله « لعلكم تفلحون » أى إنما شرعنا لكم اجتناب ذلك رجاء أن تفلحوا ، والفلاح لفظ واسع المدلول ، لا يدع شيئاً من أسباب السعادة والطمأنينة والرضا والعافية إلا شمله ، والآخر تفصيلى يوضح به كون هذه الأشياء « من عمل الشيطان » مبرزاً آثارهما السيئة فى المجتمع

بأسلوب قوى مؤثر ، وذلك قوله تعالى « إنما يريد الشيطان » إلى آخر الآية ، حيث ذكر العداوة والبغضاء ، وهما جماع أسباب القلق والاضطراب والشقاء وألوان البلاء ، وذكر الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، فمس بذلك عاطفة الإيمان فى المؤمنين ، وأثار اشمئزازها ، ثم خاطبهم بهذه الجملة الاستفهامية الرائعة فى معناها التى من شأنها أن تهز المؤمنين : « فهل أنتم منتهون ؟ » كأنه يقول لهم : أنا ربكم وخالقكم ، والعالم بما ينفعكم وما يضركم ، وقد أرخيت لكم فى حبل النظر والتأمل ، ولم أنتزعكم من عادتكم انتزاعا ، ولكن أمهلتكم امهالا ، ومهدت لكم تمهيدا ، ثم بينت لكم بيانا ، وأكدت لكم توكيدا ، فهل أنتم بعد هذا كله مستجيبون لى ، متبعون لأمرى ، نازلون على تشريعى ؟ ولذلك وردت الأخبار الصحيحة بأنهم بادروا حينما سمعوا هذه الآية بقولهم : انتهينا انتهينا !

استطراد توحى به الآية لفائدة التقريب :

وأحب أن أستطرد بذكر شىء يتردد فى خاطرى فى هذا الموضع ، قبل أن أنتقل إلى نقطة أخرى : ذلك أن الله سبحانه يخوف المؤمنين تخويفا شديدا حينما يقول لهم « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء » ويجعل ذلك فى مقدمة الأسباب التى دعت إلى تحريم الخمر والميسر ، لأنه أهم هذه الأسباب ، ويشير إلى أنه أسلوب من أساليب الشيطان ، ومن عمله وافتنانه فى الكيد للإنسان ، وأنه أخطر أسباب القلق فى المجتمع ، فليس خطره على الفرد فى نفسه أو ماله أو عقله أو صحته فحسب ، ولكن خطره الأول والأشد على المجتمع ، وهذ مايفيده التعبير بقوله « أن يوقع بينكم » فهذه « البينيّة » يجب أن تظل بمنأى عما يفسدها ، وعن كل بذرة من بذور السوء فى أرضها ، لأن الشارع الحكيم يستهدف ذلك فى تشريعه ، ويعمل عليه فى أحكامه ، ويلفت إليه نظر المؤمنين فى تعليله ، فإذا أردنا أن نعبر عنه بلغة العصر ، فلنا أن نقول إنه من الأحكام الأساسية ، والمبادىء التى يجب أن تراعى فى كل حكم ، وفى كل قانون ، وفى كل معاملة ، وإذا كان الأمر كذلك فكل ما يؤدى إلى إفساد ذات البين فى المسلمين ، فهو حرام حرمة الخمر والميسر ، فلندع جو المسلمين صافيا ، لا نكدره بإثارة الخلافات العقيمة التى

لا تنتج خيراً ، بله الخلافات الخبيثة التي يثيرها الخبثاء ، والتي تلد الشر والإثم والقطيعة وما نهى الله عنه من العداوة والبغضاء ، وهذا ما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث له إذ يقول « إن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول حالقة الشعر ، ولكن أقول حالقة الدين » .

أسلوب القرآن في الجمع بين مخاطبة العقول ومناشدة العواطف :

وبعد هذا البيان الإلهي للخمر والميسر وما لهما في الناس من أثر سيء ، يقرع الله أسماع عباده المؤمنين بهذا التحذير القوي ، فيقول لهم « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » .

وهذه الآية خطاب لعاطفتهم الدينية ، بعد أن خاطب بالآيتين السابقتين عقولهم ، وأوضح لهم الواقع الذي يعرفونه بأنفسهم ، ولا ينكرونه ، وهذا هو أسلوب القرآن دائماً : يجمع بين مخاطبة العقول ، ومخاطبة القلوب ، ويورد الناس دائماً هذين الموردين ليحملهم على الطاعة بإذاقتهم فوائدها العملية المادية ، وفوائدها الروحية المعنوية ، ثم ليجاري المكلفين الذين تختلف أمزجتهم ، فمنهم من ينصت إلى دواعي العاطفة ، ومنهم من يعرض كل قضية على عقله ، ويطلب فيها حكم الواقع السليم دون تأثر بالعاطفة .

ولو ذهبنا نستقريء مواضع التشريع في هذا الكتاب الخالد لوجدنا الجمع بين هاتين الناحيتين من ظواهره الواضحة : يعلل ليقنع ، ثم يناشد ليطاع ، ولا بأس بأن نضرب بعض الأمثلة التي تؤيد ما نقول ، وتوضح السبيل أمام الناظر في هذه الناحية من نواحي عظمة التشريع القرآني .

مثالان لهذا الأسلوب في شرحهما فوائد :

فمن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين ،

ينهاهم الله تعالى عن إتيان النساء زمن المحيض ، فيقرر لهم أولا أنه أذى ، وتحت هذه الكلمة ألوان كثيرة من الضرر ، عرفها الناس قديماً معرفة عملية ، وعرفوها بنفرة الرجل ذى الطبع المستقيم من مس المرأة فى هذه الفترة ، وبنفرة المرأة من المخالطة فيها ، ثم عرفها العلم الحديث بتحديد الأمراض التى تترتب على مخالفة التشريع القرآنى فى هذا الشأن ، فتصيب الرجل ، وتصيب المرأة ، وتصيب ماعسى أن يرزقاه من ولد ، فالأساس فى التشريع إذن هو الرغبة فى وقاية الناس من الضرر ، ولكن الآية تضم إلى ذلك هذه المناشدة العاطفية « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » كأن الله تعالى يقول لهم : إن كنتم تحبون أن أحبكم فتوبوا من ذلك وتطهروا ، ومن ذا الذى لا تهتز عاطفته لهذا النداء العاطفى القوى ، ثم يقول فى الآية التالية « وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله ، واعلموا أنكم ملاقوه ، وبشر المؤمنين » تذكير لهم بأنهم مقبلون على يوم شديد لا بد أن يقدموا فيه لأنفسهم ما يدرأ عنهم شدته من طاعة الله ، والنزول على حكمه ، وأمر لهم بأن يتقوا الله ، ويعلموا أنهم ملاقوه ، ثم تبشير مطلق للمؤمنين ، لا تختص فيه البشرى بشىء ، ولا تقيد بشىء ، ولكن تطلق إطلاقا : « وبشر » فأية مناشدة عاطفية قلبية كهذه المناشدة ؟ .

وقد يدمج القرآن الكريم كلتا الناحيتين إدماجا ، فيخاطب العقل والعاطفة معا كما يبدو فى هذا المثال الذى نشرحه بعض الشرح .

يقول الله تعالى فى تحريم نكاح المشركات ، والإنكاح إلى المشركين : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ، ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » .

لاشك أن أمر النكاح ، واختيار الزوجة أو الزوج أمر له أهميته وخطورته ولا شك أن البيئة الإسلامية بيئة مقتطعة من بيئة العرب المشركين ، وقد كانوا

جميعاً أهل وطن واحد ، وبينهم وشائج قربى ، وصلات معاملة ، وأنواع من الصداقات والتعارف ، فإذا أراد مسلم أن يتزوج ، ووقع اختياره على مشركة ؛ فليس هـذا بعيداً ، وربمـا طغت عليه عوامل الرغبة والحرص على إتمـام هذا الزواج ، فلم يلتفت إلى الناحية الدينية ، فلما حرم الله زواج المشركين والمشركات قرنه بأمرين :

أحدهما : الإشارة إلى أن الاختيار الزوجى لم تقصره الطبيعة على ناحية معينة حتى يشعر الإنسان بأنه إذا لم يفز ببغيته ، ويحقق طلبته من هذا الأفق بالذات فإنها لا تتحقق ، فإن فى أفقه المشارك له فى العقيدة والرأى فرصا للاختيار ، يتحقق بها مطلبه إذا لم يكن يريد التعنت ، فيمكنه أن يجد زوجات مؤمنات ، وأزواجا مؤمنين ، وإذا كان فى جانب المشركين والمشركات شىء من عوامل الإغراء والترجيح أثار فى نفسه الإعجاب ، فليذكر أن الإيمان صفة ترجح بسائر الصفات عند الموازنة ، فلو أن أمة مؤمنة وزنت بامرأة مشركة لـكان لها فى نفس المؤمن رجحان وإيثار ، ولو أن عبداً مؤمناً وزن برجل مشرك لـكان له فى نفس المؤمنة رجحان وإيثار ، والآية بهـذا تعمل على إقناع المـكلفين بالحـكم من جانبين : جانب لفتهم إلى « خيرية » المؤمن ، لأنه آمن وما كان إيمانه إلا لأنه أدرك الحق فهو ذو عقل ، وأنه لم يستكبر على الحق الذى أدركه فهو ذو حكمة ، ولم تصرفه عنه عوامل المنفعة الشخصية ، فهو ذو تضحية ، وذلك مالم يتوافر فى المشرك الذى لم يدرك ، أو أدرك وكابر ، أو بخل بالتضحية ، ولا شك أن الزوج الذى تتحقق له صفات الإدراك والحـكمة والتضحية هو الزوج الأفضل ، وأن الزوج الذى يحرم هـذه الصفات هو الزوج الأدنى ، والجانب الآخر أن الآية بهذا تثير فيهم نخوة الإيمـان ، وتقابل بها نخوة المعاظمة والمـكاثرة والتفاخر بالزوجية والصهر ، ولا شك أنها تصيب من ذلك هدفها ، فالقوم مؤمنون لا يعدلون بإيمانهم شيئاً من أعراض هذه الحياة .

الأمر الثانى : من الأمرين اللذين اقترن بهما تشريع هذا الحـكم : ماوصف الله به المشركين والمشركات فى هذا المقام حيث يقول : « أولئك يدعون إلى النار »

فإنه فى قوة أن يقول : كيف يعرض المؤمن نفسه وما عسى أن يرزقه من بنين وبنات ثمرة لهذا الزواج إلى خطر الارتماء فى أحضان الشرك المفضى إلى النار ؟ وهل مثل ذلك فى نظر العقلاء إلا كمثل امرىء يلقى بنفسه طائعاً مختاراً فى نار حامية يدعوه إليها داع ؟ لاشك أن الحزم هو الابتعاد عن النار ومن يدعو إلى النار ، والتماس الحياة فى كنف آمن غير هذا الكنف .

والآية بهذا أيضاً تخاطب العقل حيث يلتمس الإنسان فى الزواج المجانسة والمؤانسة والأمن والسكن والذرية التى تكون ملائمة له معينة على لأواء الحياة ، وكل هذا إنما يتوفر فى زواج متناسب بين مؤمن ومؤمنة ، لا بين مشركة ومؤمن ولا بين مؤمنة ومشرك ، وهى أيضاً تخاطب العاطفة حيث توازن بين دعوة المشرك إلى النار ، ودعوة الله إلى الجنة والمغفرة .

وإنما أطلنا بعض الإطالة فى هذا لنجلى معنى يجب أن يعرفه أرباب القانون والتشريعات الوضعية ، ليعلموا أن هذا سر من أسرار نجاح التشريع القرآنى وخلوده ، وأن سياسته هى خير سياسة ، وحكمه هو أحسن حكم « ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » ؟ .

بعد هذا نعود إلى ما كنا فيه فنقول : إن الذى جرنا إلى هذا الحديث هو مجىء قوله تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ... » الخ . بعد الآيتين السابقتين اللتين بُين فيهما أوصاف الخمر والميسر وشرورهما ومفاسدهما فى المجتمع ، فهى خطاب لعاطفة المؤمنين بعد مخاطبة عقولهم ، وفيها تحذير لهم ، وإنذار بالتخلى عنهم ، وتركهم لأنفسهم وما اختاروا بعد البلاغ المبين .

نفى الجناح عن المؤمنين فيما طعموا : سبب نزول هذه الآية فيما رواه الجمهور وغيرهم :

جاءت بعد ذلك آية كريمة متصلة بهذا النداء هى قوله تعالى « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين » .

وقد اختلفت الروايات فى سبب نزول هذه الآية ، فمنها ما يقرر أن سبب نزولها هو أن الصحابة لما نزلت آية الخمر السابقة قالوا يا رسول الله : ما تقول فى أخواننا الذين مضوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فأنزل الله هذه الآية هذا هو المروى عن ابن عباس وأنس بن مالك والبراء بن عازب ومجاهد وقتادة والضحاك ، وفى بعض هذه الروايات تنظير لهذا بتحويل القبلة ، حيث قال ناس : يا رسول الله ، إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ، فأنزل الله : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » .

ومن الروايات ما يذكر إن الذين سألوا أو تساءلوا عن ذلك هم اليهود ، لا الصحابة ، روى الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده عن عمرو بن دينار أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : اصطبح ناس الخمر من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله ، ثم قُتِلوا شهداء يومَ أحد ، فقالت اليهود : فقد مات بعض الذين قتلوا وهى فى بطونهم ، فأنزل الله : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا . . » الخ .

ومن الروايات ما يذكر أنها نزلت فى القوم الذين حرموا على أنفسهم اللحوم وسلكوا طريق الترهب كعثمان بن مظعون وغيره ، فبين الله لهم أنه لا جناح فى تناول المباح مع اجتناب المحرمات ، وبذلك تكون هذه الآية مرتبطة بالنداء السابق على هذا كارتباطها بهذا النداء .

وهذا الاختلاف فى سبب النزول لا يضرنا ، فقد علمنا أن له حلا ، وهو أن قول الرواية إن آية كذا نزلت فى كذا ، ليس معناه دائماً أن نزولها كان مباشراً لهذا الذى تذكره ، فقد يكون مراد القائل أنها نزلت شاملة لحكمه ، أى أن الله قد أنزل آية تدل على هذا الحكم أو على جواب هذا السؤال .

ولنا ، على هذا ، أن نفهم أن الصحابة سألوا يريدون الاطمئنان على إخوانهم الذين سبقوهم ، وأن اليهود أيضاً تساءلوا ارجافا على القرآن وعلى المؤمنين ، فلا تنافى بين هذا وذاك ، وأن الآية بعموم حكمها مبينة لمن ترهبوا أن الأمر ليس

أمر اجتناب المباحات إذلالا للنفس ، وإنمـا هو أمر تقوى وإيمـان وإحسان فليس على المؤمنين المتقين المحسنين جناح فيما طعموا من الحلال ، ولا يعتبرون فى شرعة الإسلام ناقصين أو ملومين بأنهم لم يترهبوا ويتزهدوا .

ترجيح رأى أهل البيت فى معنى الآية وأدلة هـذا الترجيح :

والمعنى الأخير هو الثابت عند أهل البيت عليهم السلام ، فهم يفسرون الآية بقولهم : « فيما طعموا » أى من الحلال ، وقد ذكر هذا الرأى الطبرسى فى كتابه (مجمع البيان) وإنى أميل إلى ترجيح ذلك لأسباب :

منها أن التعبير فى الآية جاء بلفظ « فيما طعموا » وهذا اللفظ أقرب فى إفادة معنى الأكل ، ولا يستعمل فى الشرب إلا إذا ضمـّن معنى « ذاق » وقد صرح بذلك صاحب لسان العرب ، فذكر أن طعم بمعنى أكل الطعام ، وأنه إذا جعل بمعنى الذوق ، جاز فيما يؤكل ويشرب ، واستشهد له المفسرون بقول الشاعر :

فإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

النقاخ بالضم : المـاء البارد ، والبرد : النوم . قال الزمخشرى : ألا ترى كيف عطف عليـــه البرد وهو النوم ؟ ويقال : ما ذقت غماضا . ا هـ [راجع تفسير الكشاف عن قوله تعالى فى سورة البقرة « ومن لم يطعمه فإنه منى »] .

ومن هـذا يتبين أن الطعم فى اللغة لا يدل على الشرب ، وإنمـا يدل على الأكل ، وقد يستعمل بمعنى ذوق المشروب ، أى إدراك طعمـه واختباره ، وإذن فالمراد الاتيان بقاعدة عامة إنشائية يعلم بهـا أن أساس الأمر فى الشريعة ، إنمـا هو الإيمـان والتقوى والإحسان كما قلنا ، لا الترهب وتعذيب النفس ، ولو كانت الآية نازلة فى أمر الذين شربوا الخمر قبل تحريمها ، وماتوا وهى فى بطونهم ، لـكان المعنى قاصراً عن ذلك لأن الآية إنمـا بينت حكم من طعم الخمر، والخمر شراب ، فالمعنى ليس على الذين آمنوا جناح فيما ذاقوا أى وضعوا فى مقدمة أفواههم لإدراكه واختباره كما هو الاستعمال اللغوى لطعم بمعنى ذاق ، ولا شك أن هذا معنى غير مراد ، ولم يفهمه أحد من الصحابة وهم عرب فصحاء يفهمون الفصيح من الـكلام .

ومن أسباب الترجيح أنني قد أفهم أن اليهود يرجفون على القرآن بمثل هـذا السؤال فيستشكلون وهم عارفون أن الذين شربوها إنما شربوها قبل تحريمها ، وهذا ما ورد فى بعض الروايات ، ولكنه غريب لم يجىء إلا فى رواية واحدة ، أما الصحابة فكيف يمكن أن يستشكلوا بذلك على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ؟ أفاتهم أن التحريم طارىء ، وأن الله لا يؤاخذ على ما قد سلف ؟ أم حرصوا على إبطال هذا الحكم وتحايلوا بذلك على التخلص من الاعتراف بالتحريم ؟ نعم قد يقال إن الله تعالى لما أخبر عن الخمر والميسر وما عطف عليهما بأنهما رجس من عمل الشيطان ؛ فهموا أن كونها رجسا ، وكونها من عمل الشيطان ثابت لها وإن لم تحرم ، فسألوا عن شأن من ماتوا وهى فى بطونهم ، قد يقال هذا تبريرا لسؤالهم ، ولكنه تبرير ضعيف ، لأنهم يعلمون أن أحداً لا يؤاخذ قبل التكليف ، ولو كان قد تناول الرجس وملأ منه بطنه « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

ومن أسباب الترجيح أيضاً أنه لو كانت هذه الآية استثناء للذين شربوا الخمر قبل تحريمها وماتوا لكان هذا الاستثناء بلفظ قاصر عن إفادته ، لأنه لم يقل : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما كانوا قد طعموا ـ مثلا ، ولا : ليس على الذين آمنوا وسبقوا إلى ربهم جناح فيما طعموا ، ولكن الكلام يبدو عاما لا يراد به جماعة من المؤمنين دون جماعة ، ولا سيما والآية تقول : إذا ما اتقوا ، ولا تقول : لأنهم فعلوا ذلك وقد اتقوا ، وإذا كانت الآية عامة فإنها تثير شبهة فى نفوس بعض الناس قد تحملهم على شربها متأولين بأنهم متقون مؤمنون .. الخ . وقد حدث هـذا فعلا ففهم بعض الناس على عهد عمر ذلك ـ ومنه ما روى أن أناساً شربوا بالشام الخمر ، فقال لهم يزيد بن أبى سفيان : أشربتم الخمر ؟ قالوا نعم بقول الله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » الآية فكتب فيهم إلى عمر بن الخطاب ، فكتب إليه : (إن أتاك كتابى هذا نهارا فلا تنتظر بهم إلى الليل ، وإن أتاك ليلا فلا تنتظر بهم نهارا ، حتى تبعث بهم إلى لئلا يفتنوا عباد الله ، فبعث بهم إلى عمر ، فشاور فيهم الناس ، فقال لعلى ما ترى ؟ قال أرى أنهم قد شرعوا فى دين الله ما لم يأذن الله فيه ، فإن زعموا أنها حلال

فاقتلهم فقد أحلوا ما حرم الله ، وإن زعموا أنها حرام فاجلدوهم ثمانين ثمانين ، فقد افتروا على الله ، وقد اخبرنا الله عز وجل بحد ما يفترى بعضنا على بعض ، فحدهم عمر ثمانين ثمانين) .

هذه الرواية تدلنا على أن عمر وعلياً لم يريا درأ الحد بالشبهة فى التأويل ، ولو كان الأمر أنها نزلت لاستثناء من شربوا الخمر قبل تحريمها وماتوا ، لكان تأويل الشاربين قريبا ، ولما كان يجب قتلهم إذا اعتقدوا حلها لأنهم متأولون تأولا محتملا بفهم العموم من الكلام ، وليس فى الكلام ما يدفع إرادة العموم ، فلم يبق إلا أن عمر وعليا فهما أن الآية ليست فى هذا الشأن ، وإنما هى فى شأن آخر وهو ما رجحناه .

وإذن فمعنى الآية إنشائى عام لاخصوص له ، وجملته : أن العبرة فى دين الله ليست بأن يتحرج المؤمنون من تناول المباحات واللذائذ التى يسرها الله لهم حلالا طيبا ، وإنما العبرة بالإيمان والعمل الصالح والتقوى والإحسان ، فإلى هذه الصفات فليتجه الناس ، لا إلى الترهب ، ولا إلى التزهد ، فإن شأن الذين يتصفون بها أن يضعوا كل شىء فى موضعه ، وأن يتناولوا ما أحل الله لهم تناولا مشروعا ، يعرفون بالإيمان فضل الله فيه ، وبالتقوى تصفيته من كل ما يشوبه ، وابتغاء رضوان الله والمقاصد الصحيحة به ، وبالإحسان عدم الإسراف فيه بما يضر المرء فى نفسه ، أو بما يتبعه تضييق على غيره ، أو تعطيل لمصالح الأمة ومنافعها المتوقفة على الاقتصاد فيه .

وكون عدم الجناح فى تناول المباحات خاصا بأصحاب هذه الصفات؛ علته أنهم الذين من شأنهم أن يضعوا الأمر فى ذلك موضعه دون طغيان ولا انحراف ، أما الكافرون المحرومون من لذة الإيمان والتقوى والإحسان وابتغاء وجه الله والمقاصد الشريفة ، فلا يدركون إلا أنهم يتمتعون « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » .

بقي بعد هذا الكلام على التكرار الذى جاء فى الآية : « اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا » . وقد اختلف فى تعليل ذلك المفسرون ، واضطربوا فى الجمع بينه وبين كون الآية نزلت فى الذين ماتوا وقد شربوا الخمر وأكلوا الميسر ، والذى أفهمه أن هذا التكرار إنما هو للتوكيد على سنة العرب فى توكيد الأمر بإعادته وتكريره مرة بعد مرة ، وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أىّ الناس أحق بحسن صحبتى فقال : أمك ، قال ثم من ، قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أبوك - فهو قد أراد أن يرسخ المعنى فى ذهنه وأن يؤكده له عدة مرات ليعرف منزلة أمه .

ويشبه ذلك ما روى عن على كرم الله وجهه من قوله فى إحدى خطبه : « . . . لقد أفسدتم علىّ رأيى بالعصيان ، وملأتم جوفى غيظاً ، حتى قالت قريش : ابن أبى طالب رجل شجاع ، ولكن لا رأى له فى الحرب . لله درهم ! ومن ذا يكون أعلم بها منى أو أشد لها مراسا ، وقد نشأت بها وما بلغت العشرين ، ولقد نيفت اليوم على الستين ، ولكن . لا رأى لمن لا يطاع ، لا رأى لمن لا يطاع ، لا رأى لمن لا يطاع » .

والشاهد فى تكريره الجملة الأخيرة اقتلاعا لما زعموا من كونه ليس بصاحب رأى فى الحرب ، كما ترمى الاية إلى اقتلاع فكرة الترهب .

فهى تقول لهم : ليس الترهب والتزهد هو الذى يريده الله منكم ، ولكن الإيمان والتقوى وعمل الصالحات ، الإيمان والتقوى ، التقوى والإحسان ، ولا شك أن هذا أسلوب من يريد إقناع متردد أو معتقد خلاف الصواب ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، والحمد لله رب العالمين .

في سبيل الوحدة:

قصة من تجاربنا

لحضرة صاحب السماحة العالم الجليل الأستاذ محمد تقي القمي
السكرتير العام لجماعة التقريب

كل خطوة نحو التكتل تثير منا الاهتمام ، وكل فكرة ترمى إلى الوحدة تحرك فينا الآمل ، وكل محاولة لضم صفوف المسلمين تقع من نفوسنا أحسن موقع ، فطبيعي وهذه حالنا ، أن نستبشر خيراً حين نلحظ اتجاها إلى تحقيق التعارف بين إخوة تخاصموا في الميراث ، وتقاطعوا على الزمن ، وتنكر بعضهم لبعض دهراً طويلا وصارع بعضهم بعضاً صراعا رهيباً ضعضع قوتهم ، وحطم كيانهم ، وجر المذلة والضعة عليهم جميعا .

إن أربعمائة مليون من المسلمين قوة لايستهان بها ، وجمع كلمتهم أمر لايكرهه إلا عدو ولا يخافه إلا طامع ، ولكن تحقيق ذلك بصورة كاملة يحتاج إلى تفكير جدي عميق ، وبحث مستفيض دقيق ، ودراسة شاملة لخريطة العالم الإسلامي ، وإلمام كامل بالأحوال القائمة في كل جزء ، والآراء السائدة في كل صقع ، والنزعات المتباينة في كل قطر ، فإذا أحطنا بكل ذلك علماً ، أمكن أن نجمع المسلمين على منهاج لا تنفر منه طائفة ، ولا تجحده فرقة .

وليس ذلك بعسير إن صحت العزائم وتهيأت النفوس ، لأن المسلمين متفقون في الأصول ، والخلاف بين طوائفهم ومذاهبهم إنما هو في آراء لا تمس العقائد التي يتحتم على المسلم ليكون مسلماً أن يؤمن بها .

ونحن حينما نتكلم عن الطوائف ، إنما نعنى تلك التى تتفق فى الأصول من أهل السنة والشيعة ولا دخل لنا بالطوائف التى لا وجود لها إلا فى كتب الملل والنحل ، أو التى تختلف فى الأصول ، فأتباعها فى نظرنا ليسوا بمسلمين ، وإذا كان هناك غلاة فنحن أول من نحكم بكفرهم .

إن إله المسلمين واحد ، ونبيهم صلى الله عليه وآله وسلم واحد ، وكتابهم ولله الحمد لا يختلف على حرف منه مسلم شيعى ولو فى أقصى الصين ، مع مسلم سنى ولو فى أقصى المغرب . وهم جميعاً يتجهون فى صلواتهم إلى قبلة واحدة ، ويحجون إلى بيت واحد ، ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالغيب والملائكة والنبيين واليوم الآخر ، وغير ذلك من العقائد التى لسنا بصدد حصرها ، ورغم ذلك كله فإن التباعد بينهم - وهم أبناء الدين الواحد ، وأصحاب العقيدة الواحدة - يزيد أحيانا على التباعد بين أبناء دينين مختلفين ، بل يزيد على التباعد بين المؤمنين والملاحدة فى بعض الأحيان .

إنها لمأساة عجيبة أن يعيش ٤٠٠ مليون من المسلمين فى قطيعة وتدابر وهم أبناء ملة واحدة ، وسكان بقاع من الأرض متجاورة إنها لمأساة عجيبة حقاً تدعو كل غيور إلى التفكير الجدّى ، وتدفع كل قادر إلى السعى الحثيث والعمل الدائب لتخليص هذه الأمة المسلمة من التقاطع والتدابر ، ومن الذل والهوان .

من هنا جاءت فكرة التقريب ، وظهرت جماعة التقريب ، لا لتوحيد المذاهب ، ولا لتصرف أى مسلم عن مذهبه ، ولا لتحجر على التفكير ، وإنما جاءت لتذكر المسلمين جميعاً بالنقط الوفاقية عندهم ، وهى كثيرة ، وهى الأصول لحسن الحظ ، ولتوجد التعارف بين الطوائف باطلاع كل طائفة على ما عند سواها فإن رأت الحق بجانب أختها احترمته ، وإن لم تقتنع بما ثبت عند سواها عذرتها فيه .

وكانت هذه الجماعة واقعية لا تتجاهل الخلافات ولا تتغافل عما يصعب علاجه ، ولا تخشى مواجهة الحقائق ، ولا تجامل طائفة على حساب أخرى ، فهذا سبيل من لا يثق بنفسه أو من يشك فى صحة دعوته ولسنا كذلك ولله الحمد .

كنا ولا نزال صرحاء صادقين فى علاج المشاكل ، وكم من مشاكل يحتاج علاجها إلى الصدق والصراحة ، وكان شعارنا التمهل والتروى والتدقيق ، وضرب المثل فى الاعتدال فى القول والهدوء فى النقاش ، ولم يفتنا أن المهمة أدق من إجراء جراحة فى القلب ، ولم ننس قط أن هناك من يثير الخواطر ويؤجج العواطف وأن هناك معوقين يعرقلون السير، وأن بقية من الاستعمار لا تزال جاثمة فى أرضنا تعاكسنا بطرقها الخاصة ، وتغرى بنا نفراً من دعاة الفرقة كشف أمرهم وعرفت حقيقتهم .

كنا ندرك تماما أن المهمة شاقة ، وأن الطريق طويلة ، وليست مفروشة بالورود والرياحين ، بيد أننا توكلنا على الله وحده ، واعتمدنا على عونه سبحانه ، وتجنبنا السياسة حتى لا تجرفنا تياراتها الهوجاء .

وكان من العوامل التى ساعدتنا على النجاح أن الفكرة جاءت فى وقت ضعف فيه شأن الاستعمار ، وخفت وطأة سياسته التى تقوم على قاعدة فرق تسد . وظهرت فيه موجة من الإلحاد تهدد الكثير من البلاد الإسلامية ، فبدأ عقلاء المسلمين يفكرون فى التكتل . وكان من حسن الحظ أن شمل هذا عقلاء المسلمين من مختلف المذاهب والشعوب المسلمة مما تجلت صورته بصفة واضحة من تأليف جماعة التقريب من أعضاء يمثلون تلك المذاهب ، وتلك العقليات النيرة ، أضف إلى ذلك أن انتشار الثقافة يخدم هذا الغرض وييسر فهم الفكرة ، ويساعد الفرد على الاطلاع والبحث بدل الاعتماد على الشائعات والأخذ بأقوال المغرضين .

وهكذا بدأت جماعة التقريب منذ نشأتها تشق طريقها وتلتزم سبيلها وتمد يدها لمن يضمر للأخوة الإسلامية خيرا وللمسلمين وحدة . وتستجيب إذا دعيت إلى مؤتمر أو تبعث برأيها إن فاتها الحضور .

واتفق أن انعقدت فى السنين الأخيرة عدة مؤتمرات متفاوتة فى القوى ، وفى الإمكانيات ، ونظرنا إليها نظرة التأييد لأنها لا تخلو من كونها محاولات لخير المسلمين .

وكان لزاماً علينا أن نفكر ونستقصى ، ونستمع إلى تعليل غيرنا ، لعدم نجاح مؤتمراتنا الماضية فى الوقت التى كانت تنجح فيه المؤتمرات فى غير بلادنا ؟

كان ذلك لزاما علينا لنفيد منه ، ولا نقع فى مستقبل أمرنا فيما وقع فيه مَن قبلنا .

قالوا : ما السبب ؟ .

أهو كثرتها ؟ .

أهو قلة عدد المؤتمرين فيها ؟ .

أهو عدم الدقة فى انتخاب الأشخاص ، فغالباً ما يكون المؤتمرون غير منسجمين لما بينهم من اختلاف فى التفكير ، وتفاوت فى المركز ، وتباين فى التمثيل .

أهو أن تلك المؤتمرات تعودت إصدار قرارات جزافية لم يسبقها البحث والتنظيم ، أو غير عملية لم يراع وقت صدورها إمكان التنفيذ ؟

وقلنا بدورنا : هذه كلها أسباب صحيحة ، ولكن وراءها جميعاً سبباً آخر له تأثيره وله خطره هو الطائفية . . . وقى الله الدعاة إلى الوحـــدة الإسلامية العالمية شرها .

فهناك اختلاف فى الرأى نشأ عنه مذهبان رئيسيان قديمان : مذهب أهل السنة ، ومذهب الشيعة . وهما رغم اتفاقهما فى الأصول ، ورجوع كليهما فى الأحكام إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، إلا أن الاختلاف حول الخلافة والإمامة وكونها بالنص أو بالانتخاب ، وأن فى الكتاب والسنة ما يثبت هذا أو لا ، أوجد تلك الطائفتين .

وكان بالإمكان أن يبقى الخلاف فى دائرته المحدودة ، لولا حكام السوء وجور الظالمين الذين ابتدعوا العنف : العنف فى الكتابة ، والعنف فى الجدل ، والعنف فى التعصب ، ثم التوسل بالاتهام والطعن ، فضلا عن الحروب الدامية ، والفتن العمياء ، هذا مضافا إلى النعرة المفرقة التى جدّت أخيراً ـ وكم كنا فى

غنى عنها ـ تفرق بين مسلم ومسلم فيما كانوا فيه على وفاق من قبل ، كأن رصيدنا من الخلافات لم يكن يكفينا !.

وهـذه كلها تركت فى مجتمعنا رواسب أفقدتنا الثقة فيما بيننا ، وأدت بنا إلى التقاطع فى كل شىء حتى فى الثقافة .

ولو أنك سألت جامعة تدعى أنهـا للمسلمين جميعاً : ماذا يعرفون عن مذاهب المسلمين من غير أهل السنة المعروفة لأجابوك بالشائعات ، ذلك لأنهـا فى الوقت الذى تهتم فيه بدراسة أحوال الإغريق القدامى ، والمذاهب البائدة كاللاأدرية تغفل دراسة أحوال فريق كبير من المسلمين ، وتحجم عن دراسة فقه كفقه الإمام جعفر ابن محمد الصادق ، والإمام زيد بن على بن الحسين ، وهما من هما وأتباعهما يقربون من ربع عدد المسلمين .

هل من الرأى أن يجهل المسلم حال إخوانه ويهتم بغيرهم ؟

هل يصح أن يعنى بالمذاهب غير الإسلامية وهو يهمل بعض المذاهب الإسلامية الصحيحة التى هى جزء من التراث الإسلامى المجيد ؟ وهل الفقه شىء يحارب ؟ وإلى متى تظل الثقافة الإسلامية مجزأة ، وهى خير كفيل لوحدتنا ؟ وكيف يمكن أن تجتمع كلمتنا وفى قلوبنا رواسب ، وفى صـدورنا حرج ، وفى عقولنا ظنون وأوهام .

وكيف يرجى النجاح لمثل هـذه المؤتمرات التى كانوا غالباً ما يجتمعون فيهـا بأجسامهم ويتباعدون بأفكارهم وتنعدم الثقة فيما بينهم .

وكيف نصل إلى تفاهم صحيح ، وكثيراً ما كنا نكتفى بالكلام العام المعسول ، ولا نتصارح خيفة أن نظهر ما يضمره بعضنا لبعض من نفور ؟ .

لقد حدث فى « مؤتمر العلماء الإسلامى » الذى انعقد فى كراتشى حين أريد الأخذ بلون من الصراحة أن ظهرت بوضوح النزعات المختلفة ، ولولا حنكة رئيس المؤتمر لتكهرب الجو أكثر وساءت العاقبة ...

ثم ماذا ؟

ثم أحالوا بالإجماع المسائل الخلافيـة المعروضة عليه إلى جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة لعلاجها ، وهى مطروحة أمامنا ، داخلة فى منهاجنا.

* * *

هذه هى تجاربنا أملتها علينا مع الأسف الوقائع المـاضية ، ودعانا حبنا لأمتنا ، وإخلاصنا لوحدتنا ، أن نهديهـا لإخواننا الذين يحاولون مخلصين أن يصلوا إلى الوحدة الإسلامية ، ولنا أن نقول بعد ذلك فى صراحة وقوة :

إن أية دعوة للتـكتل لا بد لها من تمهيد ، وأى مؤتمر يراد له النجاح لا بد له من أن يهتم فى نفس الوقت بدراسة البلاد الإسلامية والآراء السائدة فى أجزائها ، وإعطاء فـكرة صحيحة لـكل عضو عن مذاهب الآخرين ، والتنبيه على حملة الأقلام أن يقفوا عند حدودهم ، فـلا مهاجمة ولا نبش للماضى ، ولا إثارة لمسائل خلافية من جديد من شأنها أن تهدم ما يبنيه المصلحون .

ولعل من اليسير بعد ما قدمنا أن ندرك أن الذين يتبنون فـكرة المؤتمرات الإسلامية ، والذين تنعقد فى بلادهم هذه المؤتمرات عليهم تبعات جسام فى مقدمتها أن يعملوا على فتح آفاق جديدة للتفـكير الإسـلامى ، تـكون ثمراته أجدى على المسلمين من نبش المـاضى ، وإثارة الأحقاد ، وأن يـكونوا فى ذلك كله جرآء أقوياء ذوى أفق أوسع من التعصب للطائفيـة البغيضة التى تتخذ أحيانا فى بعض البلاد مقياسا للفصل بين الـكفر والإيمـان وهى لم تـكن كذلك فى سالف الزمان .

إن الطائفية التى لا تحس بها بلاد لا طوائف فيها ، تلعب دوراً هاماً فى كثير من بلاد المسلمين ، وكل محاولات لجمع الـكلمة ينبغى أن تتفادى هذا الداء الوبيل ، وجماعة التقريب حين اتجهت إلى هذه الغاية ، إنما وضعت يدها على النقطة الحساسة ، فلو نجحت فى علاجها لنجح المسلمون ؟

تأييد جديد

لإثبات التأثير الإسلامى على الثقافة الأوربية

لحضرة الكاتب الفاضل الدكتور محمود محمد الخضيرى
مراقب الثقافة بوزارة التربية والتعليم

الكشف عن ترجمة أوربية قديمة لكتاب إسلامى فى المعراج ـ الصلة بين هذا الكشف وما سبق من بحوث ومناقشات خاصة بالصلة بين دانتى والإسلام ـ نظرية أسين بلاثيوس ـ مراكز نشر الثقافة الإسلامية فى أوربا فى العصور الوسطى ـ إعجاب العلماء الأوربيين بعلوم المسلمين فى العصور الوسطى وحضارتهم ـ تاريخ ترجمة كتاب المعراج إلى لغات أوربية ثلاث بأمر ألفونس العاشر ـ وصف محتويات الترجمة ـ ترجيح اعتبار هذه الترجمة لكتاب المعراج مصدراً مباشراً لدانتى فى تصويره للآخرة .

كتاب المعراج عنوان لكثير من الكتب التى ألفها المسلمون حول صعود نبيهم إلى السماء ، ومشاهداته فى صحبة جبريل فى العالم الآخر . ولكن واحداً منها أثار الكشف منذ قريب عن ترجمتين له من مخلفات العصور الوسطى كثيرا من الحديث فى محافل الثقافة فى الغرب ، وكثيراً من البحوث الطويلة فى صحفه المخصصه للعلوم والفنون والآداب ، وإحدى هاتين الترجمتين باللغة اللاتينية ، والثانيـة

(*) عاد من أوربا إلى مصر الدكتور محمود الخضيرى مراقب الثقافة بوزارة التربية والتعليم المصرية بعد إنجازه مهمة ثقافية استغرقت عاما كاملا ، واشترك فى تدبيرها وزارة خارجية الفاتيكان ووزارة التربية والتعليم المصرية ، وكان موضوع المهمة هو فحص المخطوطات اللاتينية الخاصة بابن سينا فى مختلف دور الكتب الأوربية ، ويسرنا أن ننشر له هذا المقال عن ناحية من نواحى التأثير الإسلامى على الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى أثارت الكثير من الجدل والاهتمام فى أوربا فى الخمس والثلاثين سنة الأخيرة . وكان آخر مراحل البحث فيها هو الكشف عن ترجمة لكتاب عربى مما يبينه الأستاذ فى مقاله .

بالفرنسية القديمة ، وكلاهما ليس منقولا عن الأصل العربى مباشرة ، بل منقول عن ترجمة أخرى باللغة القشتالية ضاعت مع الأيام ولم يبق منها غير مقتبسات وغير ما نستطيع معرفته عنها من الترجمتين المنقولتين عنها . أما الأصل العربى نفسه وعنوانه كما قلنا « كتاب المعراج » فلم يهتد إليه الباحثون الذين عنوا بهذا الموضوع ، ولعل واحداً من قراء « رسالة الإسلام » يهتدى إلى التعرف به والتحقق منه مستعيناً بما أورده عنه من وصف وإجمال للمحتويات حسب الترجمتين اللاتينية والفرنسية القديمة ، فيسدى بذلك يداً للمشتغلين بالموازنة بين الآداب ، ويتعاون على هذا النحو تعاوناً مثمرا مع العلماء الأوربيين فى دراسة ناحية مشرقة من تاريخ الإنسانية يلتقى فيها الشرق مع الغرب فى النظر فى مصير النفس والإيمان باليوم الآخر .

ويتصل الكشف الحديث عن « كتاب المعراج » ببحوث يرجع تاريخها إلى نحو خمس وثلاثين سنة عندما نشر العالم الأسبانى المشهور آسين بلاثيوس السَّرقُسْطى بمناسبة دخوله فى الأكاديمية الملكية الأسبانية سنة ١٩١٩ كتابا عنوانه : « وصف المسلمين للآخرة فى الكوميديا الإلهية لدانتى » ومعروف أن لقصيدة دانتى فى الثقافة الأوربية المسيحية شأنا عظيما لا يدانيه شأن أى أثر شعرى آخر ، ويسميها الأوربيون باسم « القصيدة المقدسة » وهى تجمع بين جمال الصناعة فى العبارة وروعة التصوير ، وتضمين الحكمة والمعارف على نحو يكاد يحيط بجميع ما حصله الأوربيون منها حتى ذلك الوقت ، وهى تنقسم إلى أقسام أو أناشيد ثلاثة : الأول عنوانه الجحيم ، والثانى عنوانه : الأعراف ، والثالث عنوانه : الفردوس .

وتتلخص نظرية آسين بلاثيوس فى أن دانتى استفاد كثيراً فى قصيدته هذه فيما يختص بوصف الحياة الآخرة من مؤلفات محيي الدين بن عربى ، لا سيما (الفتوحات المكية) إذ يصف فيه منازل النعيم ودرجات الجنة ومواقع العذاب ودركات الجحيم وصفاً يشبهه وصف دانتى إلى حد كبير ، وكذلك من كتاب أبى العلاء المعرى المسمى (رسالة الغفران) إذ يصف فيه أحوال بعض المشهورين بعد الموت ومقامهم فى الدار الآخرة وما هم فيه من نعيم أو عذاب كما استفاد من

مصادر إسلامية كانت فى متناول طلاب العلم فى صقلية وفى طليطلة وأشبيلية . وهو يعتمد فى منهجه فى الغالب على التمثيل وإيراد أوجه التشابه ، ويبين بالتفصيل مدى اتساع التبادل الثقافى بين المسلمين والأوربيين فى المائتين الثانية عشرة والثالثة عشرة بعد الميلاد ، وكيف كان الأوربيون من جميع البلاد يقصدون صقلية حيث ظلت الثقافة الإسلامية مزدهرة فى بلاط ملوكها النورمانديين والجرمانيين ويذهبون أيضاً إلى طليطلة التى ظلت مده طويلة أهم مركز لنقل التراث الإسلامى إلى أوربا فى العصور الوسطى . وكذلك إشبيلية ، وشرح كيف كان بعض الرهبان المسيحيين يعرف العربية ويستفيد بواسطتها من كتب المسلمين حتى ما كان قريب العهد من زمنه بل فى زمنه . وتكلم أيضاً فى مدى تأثر أحبار المسيحية وكبار معلمها لا سيا فى القرن الثالث عشر الميلاد بمفكرى الإسلام ، وكيف بلغ عند بعضهم الإعجاب بفلاسفة المسلمين إلى حد حملهم على تفضيلهم فى العلم على مواطنيهم وأبناء جنسهم ، وكيف دعا بعضهم إلى الإقبال على تعلم اللغة العربية ليتمكنوا من استيعاب علوم المسلمين التى كانت سبباً لتقدمهم إذ ذاك فى مضمار الحضارة وفى انتصاراتهم وسيادتهم . وقد صرح دانتى نفسه فى بعض مؤلفاته بأن فى العالم بلاداً أجمل من وطنه توسكانا ، ومدنا أجمل من مدينته فلورنسه ، وأعما تتكلم لغات أفضل وأنفع من لغات الشعوب اللاتينية . ولعل هذا التصريح وغيره من القرائن ، مما جعل أسين لا يستبعد أن يكون دانتى نفسه قد تعلم العربية .

وفى الواقع إنه يجوز أن يكون دانتى عرف شيئاً من اللغة العربية ، ولكن مما لا شك فيه أنه لم يبلغ فى معرفته بها درجة تمكنه من قراءة كتب صعبة مثل مؤلفات أبى العلاء المعرى ومحيى الدين بن عربى وأمثالهما ممن ذهب أسين إلى أن مؤلفاتهم مصادر لبعض المعارف التى تضمنتها قصيدة دانتى الخالدة ، ولم يصح دليل على أنها فى عهده كانت مترجمة إلى لغة أوربية .

وتناول أسين أيضاً مسألة كبيرة الاهمية ، ولكنه لم يورد لها حلاً ، وكان فى تناوله لهذه المسألة بالبحث أقرب ما يكون إلى إصابة الدليل الصحيح على

المصدر الرئيسى الذى استق منه دانتى الكثير من معلوماته الخاصة بوصف الحياة الآخرة . ذلك أنه فى معرض كلامه عن الصلات الثقافية بين إسبانيا وفلورنسه موطن الشاعر العظيم أشار إلى الأخبار الخاصة بالسفير برونتو لاتينى الذى بعثت به فلورنسة فى سنة ١٢٦٠ ميلادية إلى بلاط الفونس العاشر ملك قشتاله واشبيلية وغيرها من بلاد إسبانيا ، وعاد بعد سفارته إلى وطنه حاملا بعض الكتب المترجمة من العربية فى عهد هذا الملك الملقب بالحكيم .

وقال أسين إنه ربما كان بين ما حمله السفير من كتب إلى فلورنسه ترجمة ما لكتاب عربى يتكلم فى وصف المسلمين للحياة الآخرة . بل إن أسين اقترب إلى سر الموضوع أكثر من ذلك عند ما ذكر اسم كتاب أسبانى قال باحتمال اطلاع دانتى عليه واستفادته منه مباشرة ، ولم يكن يدور بخلده أن هذا الكتاب نفسه يحتوى على معلومات مستمدة من الترجمة القشتالية لكتاب المعراج التى سنتكلم عنها عن قريب .

ومعنى ذلك أن بحث أسين بالرغم مما احتوى عليه من رأى صحيح ومن ثروة هائلة فى المعلومات استحق جمعها إعجاب المؤيدين والمعارضين ظلت أدلته فى حاجة إلى حلقة واحدة ليستقيم قياسه ، ولتصير نظريته سليمة مقبولة عند الجميع ، بعيدة عن كل شك وطعن .

وكان هناك عالمان يعمل كل منهما مستقلا عن الآخر عكفا على البحث عن هذه الحلقة المفقودة حتى عثرا عليها فى صورة ترجمة لاتينية وأخرى فرنسية لكتاب عربى اسمه (كتاب المعراج) وقد صنعت الترجمتان فى عهد ألفونس العاشر نفسه وبأمر منه . وهذان العالمان هما إنريكو شيرولى Cerulli سفير إيطاليا فى طهران فى الوقت الحاضر ، والثانى أسبانى اسمه سنديو Sendino وقد أتما بذلك بحث أسين ووضع كشفهما نهاية لما احتدم من قبل من جدال طويل حول هذا الموضوع تجاوز أحياناً حدود الاعتدال .

وتتلخص قصة هذه الترجمة فى أن ألفونس العاشر الملقب فى الأسبانية بالحكيم

ملك قشتالة وطليطلة وإشبيلية وقرطبة وغيرها من بلاد أسبانيا، التى كان لا يزال يقيم فيها المسلمون إذ ذاك، طلب إلى طبيب يهودى اسمه إبراهيم الحكيم أن ينقل له من العربية إلى القشتالية «كتاب المعراج»، فأتم الترجمة فى سنة ١٢٦٤، ثم طلب الملك أيضاً إلى كاتب إيطالى يعمل فى خدمته اسمه بوناڤنتورا من مدينة سينا أن ينقل الترجمة القشتالية إلى اللغتين اللاتينية والفرنسية القديمة فأنجزهما فى نفس السنة. ويدل هذا الحرص من الملك الحكيم الذى كان فى الوقت نفسه رئيساً للإمبراطورية الرومانية على نقل الكتاب إلى لغات ثلاث فى نفس الوقت على مبلغ تقديره لأهميته ورغبته فى تيسير الاطلاع عليه وإذاعته فيما وراء الحدود الإسبانية فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية وغيرها من البلاد.

ولدينا دليل ظاهر على السبب الذى دعا الملك إلى الاهتمام بالكتاب، وهو ظن على كل حال، ولولا أن هذا الظن نفسه كان من القوة بحيث وجه عالماً كبيراً من قبل وجهة معينة لما أوردناه ذلك أنه يغلب على ظنى أن المترجم اليهودى وكان من المقربين إلى الملك ربما أوهمه أن الكتاب من تأليف النبى محمد نفسه، وفى أوائل النصف الثانى من القرن الميلادى الماضى وقع نظر المستشرق المعروف اشتاينشنيدر M. Steinsc Hneider بين مخطوطات أكسفورد على عنوان كتاب المعراج مرسوما بصورة مشوهة تجمع بين أداء النطق العبرى والتحريف اللاتينى، ورآه فى العنوان نفسه منسوباً إلى محمد، فلم يكلف نفسه مشقة فتح الكتاب والنظر فى مضمونه، ولم يتردد فى أن يقرر أنه ترجمة لسورة «المعارج» من القرآن الكريم، وذلك لأن المستشرقين جروا على نسبة القرآن إلى النبى نفسه.

والواقع أن صاحب الترجمتين اللاتينية والفرنسية القديمة المنقولتين عن الترجمة القشتالية المفقودة يذكر فى مقدمة كل منهما ما تعريبه: «هذا هو الكتاب الذى يسمى بالعربية «المعراج»... صنعه محمد وأعطاه هذا الإسم، وبه يسميه الناس، وهو يشرح صعود محمد الى السماء بطريق المعراج، كما ستسمعون فيما يلى وكيف رأى العجائب التى أطلعه الله عليها كما يقول هو نفسه، وكما يتبين فى الكتاب.

ومعنى ذلك أن نسبة الكتاب الى النبي كانت موضوعة ومؤكدة بوضوح فى نسخ الترجمة التى قرأها الأوربيون فى العصور الوسطى .

وبعد ذلك يذكر المترجم فى كلتا النسختين اللاتينية والفرنسية القديمة أنه نقل كتاب المعراج بأمر الملك ألفونس عن الترجمة الأسبانية التى صنعها إبراهيم الطبيب اليهودى تنفيذاً لأمر الملك نفسه .

ونقرأ بعد هذه المقدمة فهرست الفصول وعددها خمسة وثمانون فصلا ، وهذه نماذج من عناوين الفصول :

الفصل الأول : الكلام فى كيفية مجىء جبريل الى محمد ، وما ذا قال له .

الفصل الثانى : الكلام فى صفة الحيوان الذى أحضره جبريل إلى محمد ليذهب به الى بيت المقدس .

الفصل الثالث : الكلام فى كيف سمع محمد أثناء سيره أصواتاً تناديه ، وماذا قال جبريل عنها .

الفصل الخامس : فى صورة المعراج الذى عرج به محمد إلى السماء .

الفصل التاسع : الكلام فى كيف رأى محمد أحد الملائكة فى صورة ديك وكان نصفه من نار ونصفه الآخر من الثلج ، وماذا كان يصنع .

الفصل العاشر : كيف رأى محمد خازن النار ، وماذا قال لمحمد عن أمته .

الفصل الثانى عشر : الكلام فى كيفية دخول محمد الى السماء الأولى ووصف ما وجد فيها .

الفصل التاسع عشر : الكلام فى السماء الثامنة .

الفصل العشرون : الكلام فى كيفية كلام الله الى محمد وكيف رأى عرش الله .

الفصل الثلاثون : الكلام فى كيف رأى محمد سور الجنة ، وصفة السور وكيف خطا إليه .

الفصل الخامس والأربعون : كيف وجد محمد خازن الجنة ، وما ذا قال له ، وما ذا أراه .

الفصل التاسع والأربعون : الكلام فى كيف تلقى محمد القرآن من الله .

الفصل الخمسون : فى كيف خفف على محمد عدد الصلوات التى فرضها الله .

الفصل الرابع والخمسون : الكلام فى كيف رأى محمد أرض الجحيم الأولى وما كان فيها من أشياء .

الفصل الستون : الكلام فى الأرض السادسة .

الفصل التاسع والستون : الكلام فى كيفية سؤال محمد لجبريل عما إذا كانت السموات والأرضون وسائر المخلوقات تتحدث فيما بينها ، وكيف أجابه جبريل .

الفصل السبعون : الكلام فى كيف يفرق الله نعمه على الخلق .

الفصل السابع والسبعون : الكلام فى الجبال المحيطة بالسراط ، وفى أنهار النار ، وسائر ما يوجد هناك .

الفصل التاسع والسبعون : الكلام فى كيف رأى محمد مختلف ألوان العذاب عما يعانيه المخطئون فى النار .

الفصل الثانى والثمانون : الكلام فى كيف أخبر محمد أهل قريش بجميع ما رأى من أمور وكيف ردوا عليه .

الفصل الخامس والثمانون (وهو الفصل الأخير) : الكلام فى كيف أملى محمد جميع هذه الأمور المذكورة ودونها وكيف جعل منها هذا الكتاب الذى سماه المعراج .

وإذا نظرنا فى بداية الكتاب تبين لنا أن القسم الاول منها لا يمكن أن يصدر عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنها فى الواقع محاكاة لطريقة المؤلفين الأوربيين فى العصور الوسطى ، إذ يخاطب المؤلف الجمهور معرفا بنفسه ، ذاكراً

اسمه واسم أبيه ووطنه ، وما ينتمى إليه من أمة أو جنس . وبذلك فنحن لا نشك فى أن هـذا القسم من وضع المترجم اليهودى ابراهيم الحكيم ، ولـكنه سرعان ما ينتقل إلى وصف مجىء جبريل إلى النبى فيقول على لسانه : (بينما كنت فى دارى بمـكة راقداً فى فراشى بجوار زوجتى أم هانىء .. أتانى جبريل الملك ، وظهر لى فى هذه الصورة ، كان وجهه أبيض من اللبن ، لا تشوبه شائبة ، وشعره أحمر فى حمرة المرجان ، بل أشد حمرة ، وأهداب عينيه طويلة ، وفمه جميل فى صورة حسنة .. الخ جاءنى جبريل فى تلك الصورة ، وقال لى : يا محمد يا رسول الله ، قم واستعد .. واتبعنى لأن الله يريد أن يطلعك على أسرار عجائبه .. الخ) .

وفى النهاية شهادة من أبى بـكر وابن عباس بصدق جميع ما فى الـكتاب من أخبار ، ودعوتهما إلى تصديق كل صغيرة وكبيرة ممـا ورد فيه .

(انتهى كتاب محمد فى الصعود إلى السماء المسمى بالعربية « المعراج ») .

وجاء فى الترجمة الفرنسية ، أن الـكتاب نقـل من الإسبانية إلى الفرنسية فى سنة ١٢٦٤ ميلادية فى شهر مايو .

ونحن نعتقد أن هذا الـكتاب الذى كان له بفضـل نقله إلى اللغات اللاتينية والأسبانية والفرنسية فى العصور الوسطى ، ما كان من تأثير واسع المدى ، عظيم الخطر ، لايزيد على كونه من المؤلفات الشعبية الإسلامية ، ولـكن المترجم اليهودى أضاف إليه قليلا من الزيادات ليجعله مماثلا فى صورته لـكتب عصره . وكان احتفال الأوربيين به راجعاً إلى اعتقادهم أنه من تأليف النبى محمد على نحو ما قرره المترجم . ولـكن دانتى استمد ما فيه من صور رائعة تمت إلى العقيدة الإسلامية بنسب قوى . ولم يعبأ دانتى بتصرف المترجم ، وإنمـا قصد إلى ما فى الرواية والأخبار من عقيدة وهدف وصور فنية ؟

الغُلاة في نظر الشيعة الإمامية

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنية
رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

الغلاة أصناف : منهم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ ، وهو أول من أظهر الغلو ، قال هؤلاء : حل في على جزء إلهي واتحد بجسده ، وبه يعلم الغيب ، وأتى في الغمام ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه ، وينتقل هذا الجزء الإلهي بنوع من التناسخ من إمام إلى إمام .

ومنهم الخطابية أتباع أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي ، قالوا . إن جعفر الصادق هو إله زمانه ، قال الشهرستاني : قد بالغ الصادق في التبرى من أبي الخطاب واللعن عليه .

ومنهم المفوضة قالوا : إن الله خلق الأئمة ، ثم اعتزل تاركا لهم خلق العالم ، وتدبير شئونه .

ومن الغلاة من يدين بثالوث مكوّن من الأب وهو على ، والابن وهو محمد ، وروح القدس وهو سلمان الفارسي . ومن الطريف قول بعضهم : إن يوم الأحد معناه على ، ويوم الاثنين معناه الحسن والحسين .

وقد ذكر الشهرستاني في كتاب الملل والنحل فرقا عدة للغلاة[1]، ولكن هذه الفرق كلها ترجع إلى أن الأئمة آلهة أو أشباه آلهة أو أنصاف آلهة ، وعلى أي الأحوال فإن للغلاة دينهم الخاص ، وهو لا يمت إلى الإسلام بصلة ، وما زال كثير من

---

(١) وهؤلاء الفرق بائدة لا وجود لها الآن إلا في بطون الكتب .

الكتاب ينسب جهلا أو تنكيلا عقيدة الغلاة إلى جميع فرق الشيعة حتى الإمامية مع أن الإمامية قد استدلوا بكتب العقائد والأصول على كفر الغلاة ووجوب البراءة منهم، ومن كل مافيه شائبة الغلو. ومن أدلتهم على نفى المغالاة الآية ٧٧/ المائدة « قل يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » والآية ١٤/الزخرف : « وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين » وقول الإمام على كرم الله وجهه : (هلك فىّ اثنان مبغض قال ، ومحب غال) وقول جعفر الصادق : (وما نحن إلا عبيد الذى خلقنا واصطفانا ، والله مالنا على الله من حجة ، ولا معنا من الله براءة ، وإنا لميتون وموقوفون ومسئولون ، من أحب الغلاة فقد أبغضنا ، ومن أبغضهم فقد أحبنا ، الغلاة كفار والمفوضة مشركون ، لعن الله الغلاة ، ألا كانوا نصارى ألا كانوا قدرية ! ألا كانوا مرجئة ! ألا كانوا حرورية (١)) أى خوارج ، فالإمامية يعتقدون أن الخوارج الذين حاربوا علياً هم أفضل من الغلاة الذين ألهوه وألهوا أبناءه .

وأجمع علماء الإمامية على نجاسة الغلاة ، وعدم جواز تغسيل ودفن موتاهم ، وعلى تحريم إعطائهم الزكاة وعلى أنه لا يحل للغالى أن يتزوج المسلمة ، ولا للمسلم أن يتزوج الغالية مع أن الإمامية أجازوا الزواج بالكتابية ، وأجمعوا أيضا على أن المسلمين يتوارثون وإن اختلفوا بالمذاهب والأصول والعقائد . قالوا : يرث المحق من المسلمين من مبطلهم ، ومبطلهم من محقهم ومبطلهم إلا الغلاة يرث منهم المسلمون وهم لا يرثون من المسلمين (٢)

(١) كتاب بحار الأنوار للعلامة المجلسى المجلد الثالث صفحة ٥١ و ٥٢ طبعة ١٣٠١ هجرية .

(٢) تجد هذه الفتاوى فى باب الطهارة وباب الزكاة وباب الزواج وباب الإرث من كتاب الجواهر وكتاب المسالك وكتاب العروة الوثقى وكتاب وسيلة النجاة الكبرى للسيد أبى الحسن الأصفهانى وغيرها من كتب الفقه للشيعة الإمامية .

أما عقيدة الإمامية بالصحابة ، فيدل عليها قول امامهم الرابع زين العابدين على بن الحسين عليه السلام فى الصحيفة السجادية من دعاء له فى الصلاة على اتباع الرسل . قال :

« اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحابة ، والذين أبلوا البلاء الحسن فى نصره وكانفوه وأسرعوا إلى وفادته ، وسابقوا إلى دعوته ، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته ، وفارقوا الأزواج والأولاد فى إظهار كلمته ، وقاتلوا الآباء والأبناء فى تثبيت نبوته ، وانتصروا به ومن كانوا منطوين على محبته يرجون تجارة لن تبور فى مودته ، والذين هجرتهم العشائر ، إذ تعلقوا بعروته ، وانتفت منهم القرابات إذ سكنوا فى ظل قرابته ، فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لك وفيك ، وأرضهم من رضوانك وبما حاشوا الخلق عليك ، وكانوا مع رسولك دعاة لك وإليك ، واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه ، ومن كثّرتَ فى اعزاز دينك من مظلومهم » ؟

الرابطة الوطنية والرابطة الإسلامية

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى
الأستاذ بكلية اللغة العربية

هـذا الموضوع له صلة وثيقة أيضا بالغرض الذى تسعى إليه جماعة التقريب بين المذاهب ، فإنه إذا ثبت أن الإسـلام ينظر إلى الرابطة الوطنية كما ينظر إلى الرابطة الإسلامية ، فيرعى حق المواطن غير المسلم كما يرعى حق المواطن المسلم ، ويجعل بينهما أخوة وطنية كالأخوة الوطنية بين المواطنين المسلمين ، لا تؤثر فيها المخالفة فى الدين ، ولا يحط من قداستها أن كلا من المسلم وغير المسلم ينظر إلى الآخر نظراً مؤذياً من حيث الثواب والعقاب الأخرويان ، إذا ثبت هذا كانت رابطة المسلم بالمسلم أحق بالرعاية والتقديس ، لأن الخلاف بينهما لا يبلغ درجة الخلاف بين المسلم وغير المسلم ، ولأن كلا منهما لا ينظر إلى الآخر فى الثواب والعقاب الأخرويين مثل النظر السابق ، نعم إن كلا منهما ينظر الى الآخر على أنه عاص آثم بمخالفته له فى المذهب ، ولـكن هذا لا يبلغ ما يبلغ ما بين المسلم وغير المسلم ، فيجب أن يترك أمره الى الاخرة وحدها ، ويجب ألا يكون له أثر فيما بيننا فى هذه الدنيا ، إن لم يجب أن يزول أيضا من نفوسنا ، ليعذر كل منـا الاخر فى هـذه الخلافات المذهبية ، ولا يرى فيها عصيانا ولا إثمـا ، وإنمـا هى خلافات بريئة دعا إليها فتح باب الاجتهاد فى الاسلام ، والمجتهد إن أخطأ فهو معذور ، وان أصاب فهو مأجور .

وقد يظن كثير من الناس أنه ليس فى الإسلام الا رابطة واحدة هى الرابطة الإسلامية ، فلا يكون فيه رابطة أخرى هى رابطة الوطنية ، لأنه لا يعرف حدود

الوطن ، ولا يعرف حدود القومية وما إليها من الحدود ، ولا يعرف العصبية للوطن أو القومية على النحو الذى كان معروفا قديماً بين الناس ، ولا يزال معروفا بينهم فى عصرنا الحديث ، وإنما أتى للقضاء على هذه العصبية ، لتزول فيه كل عصبية إلا عصبية الدين ، وتذهب كل أخوة إلا الأخوة فى الإسلام .

نعم قد يظن كثير من الناس هذا كله ، بل يظن أكثر منه ، فيظن أن الإسلام قد جعل المسلمين بعضهم أولياء بعض ، وجعل غير المسلمين بعضهم أولياء بعض ، فقطع ما بين المسلمين وغير المسلمين ، فلا يكون بينهم رابطة أصلا ، ولا يكون هناك رابطة وطنية تجمع بين المسلمين وغير المسلمين ، ويؤيد هذا بقوله تعالى فى الآيتين - ٧٢ ، ٧٣ - من سورة الأنفال : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجرو ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير ، والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

والحق أن هذا لا يفيد من يظن هذا كله فى شىء ، لأنا إذا حملنا الولاية فى الآيتين على ولاية الإرث كما ذهب إليه بعض المفسرين ، كانت فى موضوع آخر غير موضوعنا ، وهو ولاية المواطن للمواطن ، وإن كان أحدهما مسلما والآخر غير مسلم ، وكذلك الأمر إن حملنا الولاية فى الآية على غير ولاية الإرث ، كما ذهب إليه كثير من المفسرين ، لأن من حملها على الإرث ذهب إلى أنها منسوخة بقوله تعالى بعد الآيتين السابقتين : « وألوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » والحكم بأن ذلك صار منسوخا بآية أخرى مذكورة معه فى غاية البعد ، وهذا إلى أنه لا ضرورة تدعو إلى حمل الولاية على الإرث ، لأن لفظها لا يفيد إلا القرب ، فيمكن حمله على غير الإرث ، وهو كون بعضهم معظماً لبعض ، مهتما بشأنه ، مخصوصاً بمعاونته ومناصرته ، والمقصود أن يكونوا يداً واحدة على الأعداء ،

وأن يكون حب كل واحد لغيره جارياً مجرى حبه لنفسه ، وإذا كان اللفظ محتملا لهذا المعنى كان حمله على الإرث بعيداً عن دلالة اللفظ ، وإنما كان حمل الولاية فى الآيتين على هذا المعنى مثل حملها على الإرث فى عدم المعارضة للولاية بين المواطنين وإن كان أحدهما مسلما والآخر غير مسلم ، لأن الآيتين لم تنزلا فى مثل هذين المواطنين ، وإنما نزلتا فى كفار قريش واليهود الذين اجتمعوا على حرب المسلمين ووالى بعضهم بعضا على عداوتهم ، وكانت الجنسية علة ولاية بعضهم لبعض ، لأنهم لما اشتركوا فى هذه العداوة صارت هذه الجهة موجبة للولاية بينهم ، واقرب بعضهم من بعض ، ولم يكن اشتراكهم فى هذا لأجل اتفاقهم فى الدين ، لأن كل فريق منهم كان فى نهاية الإنكار لدين صاحبه ، وإنما كان لمحض ما وقعوا فيه من الحسد والبغى والعناد ، على أن الآيتين إذا كان فيهما ما يفيد قطع الولايه بين المسلمين وأعدائهم من أولئك المحاربين ، فإن فيها ما يفيد الإبقاء على مايكون من ولاية بينهم وبين غير المحاربين ، وهــذا فى قوله تعالى فى الآية الأولى منهما : « وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » فليس فى هذا ما يمنع من طغيان الرابطة الإسلامية على غيرها فقط ، بل فيه ما يفيد إيثار غير الرابطة الإسلامية عليها فى بعض الحالات ، كما فى هذه الحالة التى آثر فيها بعض المسلمين الإقامة فى مكة على الهجرة إلى المدينة ، وكانت مكة فى ذلك الوقت دار حرب ، فوجبت الهجرة منها إلى المدينة تكثيراً لعدد المسلمين ، وزيادة فى النكاية بأهل مكة ، فكان من أقام بها من المسلمين عاصياً بإقامته فيها ، وقد أوجب الله تعالى على المسلمين فى المدينة أن ينصروهم فى الدين إذا استنصروهم ، واستثنى من هذا أن يكون استنصارهم لهم على قوم من غير المسلمين بينهم وبين أهل المدينة رابطة ميثاق ، وهم أهل ذمة المسلمين ، بأن يكونوا مواطنين لهم أو معاهدين فأوجب عليهم مراعاة ذمتهم وعهدهم ، وآثر مراعاة ذلك على مراعاة الرابطة الإسلامية بينهم وبين مسلمى مكة ، لضعفها بإيثارهم دار الحرب على دار الإسلام ، وقعودهم عن نصرة إخوانهم بالمدينة على أعدائهم بمكة ، فكان من حسن السياسة إيثار الرابطة السياسيه على الرابطة الإسلامية فى هذه الحالة ، لأن مسلمى أهل مكة

يظاهرون أهل الحرب ببقائهم بينهم ، وأهل الذمة يظاهرون المسلمين على أهل الحرب بمعاهدتهم لهم ، وإيثارهم مسالمتهم على حربهم ، وفى هذا تقوية لجانب المسلمين على خصومهم ، فكان موقفهم من الناحية السياسية أحسن من موقف مسلمى مكة ، ومن مزايا الإسلام أنه لا يزن الأمور بميزان الدين فقط ، بل يزنها بميزان الدين وبميزان السياسة وغير هذا من الموازين الإنسانية ، ثم يأخذ فى هذا بحكم المصلحة العامة ، وإن ترتب على هذا ما ترتب فى هذه الحالة من إهمال مراعاة الرابطة الإسلامية ، وهذه مرونة دينية لا يكاد الإنسان يجدها فى غير الإسلام ، ونظر بعيد يمتاز به على غيره من الأديان ، وتوجيه شامل يناسب تشريعه الشامل للناس جميعاً على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، ويلائم حكمه العادل الذى لا يخص بعدله المسلمين وحدهم .

على أن فى إيجابه تعالى على مسلمى أهل المدينة ، نصرة مسلمى أهل مكة ، إذا استنصروهم فى الدين مايفيد فى الغرض الذى تسعى إليه جماعة التقريب بين المذاهب فقد حصل بقعود مسلمى أهل مكة عن نصرة إخوانهم بالمدينة خلاف كبير بين الفريقين ، ولعله أول خلاف حصل بين المسلمين ، ثم طال أمده بينهم ، لأنه ظل من بدء الهجرة من مكة ، إلى السنة الثامنة منها ، وهى السنة التى فتح المسلمون فيها مكة ، وانقطع بها حكم الهجرة منها إلى المدينة ، لأنها صارت بعد فتحها دار إسلام ، فكانت الإقامة بها مثل الإقامة بالمدينة ، ولكن هذا الخلاف حصل فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فوقف به عند حده الذى يجب أن يقف عنده ، وجعله خلافا سياسيا لا دينيا ، فلم يحكم به على المسلمين الذين لم يهاجروا بالخروج من الإسلام ، كما حكم بهذا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فى مثل هذا الخلاف أو أقل منه ، ثم انه لم يتغال فيه بعد هذا حتى يصير الى قطيعة بين الفريقين ، وينتهى الى عداوة دينية أو سياسية ، كما انتهى الخلاف بين المسلمين بعده الى مثل هذه العداوة ، بل بقيت الرابطة الإسلامية بين الفريقين فى الحد السابق ، ووجب على مسلمى أهل المدينة نصرة مسلمى مكة اذا استنصروهم فى الدين الا على قوم بينهم وبينهم ميثاق ، فلم يؤثر الخلاف بين الفريقين فى رابطتهم ، بل

كان مسلمو أهل المدينة ينظرون الى مسلمي مكة بشيء من الرحمة والشفقة ، ويعملون على ضمهم اليهم بكل وسيلة ، الى أن انتهى الخلاف بينهم بفتح مكة .

ويمكننا بعد هذا أن نحكم بأن الإسلام لا ينظر فى سياسته الى الرابطة الإسلامية وحدها ، بل ينظر فيها الى غير الرابطة الإسلامية من الرابطة الوطنية ونحوها ، لأنه يمتاز على غيره من الأديان بأنه لا اكراه فيه على الدين ، فيدخل فى حكمه المسلم وغير المسلم ، ويجتمع فى وطنه الناس على اختلاف أديانهم وأجناسهم ، فيكون وطنه وطناً لهم جميعا .

وقد نشأ الوطن الإسلامى المشترك بين المسلمين وغيرهم بعد هجرتهم من مكة إلى المدينة ، فصارت المدينة بهذه الهجرة وطناً إسلاميا بحكم الكثرة الإسلامية التى ظهرت فيها ، فصار لها الحكم فى أهلها ، وقد كان فيها جالية من اليهود هاجرت إليها قديما قبل المسلمين ، واتخذت الصناعة والتجارة والزراعة حرفة لها ، وعاملت العرب بالربا الفاحش ، حتى ابتزت كثيراً من أرضهم وأموالهم ، ولما طال العهد عليها بين العرب انغمست فى جاهليتهم ، وانقسمت إلى قبائل مثلهم ، فكان منهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، وكان العرب الذين يسكنون بينهم ينقسمون إلى قبيلين كبيرين (الأوس والخزرج) وكان بين القبيلين حروب وخصومات ، فاشتركت تلك القبائل اليهودية فى هذه الحروب ، وانقسموا بها على أنفسهم ، ونسوا ما بينهم من رابطة الجنس والدين ، فدخل بنو قريظة فى حلف الأوس ، ودخل بنو قينقاع وبنو النضير فى حلف الخزرج .

فلم يضق الإسلام بهؤلاء اليهود بعد أن آل أمر هذا الوطن اليه ، وبعد أن صار له الحكم فيه ، ولم ينظر إليهم كعنصر أجنبي دخيل على العرب ، ولم تمتد عينه إلى مالهم من أراض وأموال استغلوا فيها غفلة العرب فى جاهليتهم ، وحصلوا عليها بوسائل غير شريفة من الربا الفاحش وغيره ، لأن الإسلام دين سمح كريم ، لا ينظر إلى ما يثير الأحقاد ، ولا يبحث فيما يزرع الكراهية فى النفوس ، وإنما ينظر إلى ما يزيل الأحقاد ويقتلعها ، ولا يعمل على هذا فيما بين أهله وحدهم ، بل يعمل عليه أيضا فيما بينهم وبين غيرهم ، ليكون دين المحبة والصفح بين الناس ،

لا دين الأحقاد والكراهية بينهم ، ولهذا جاء بدفع السيئة من أعدائه بالحسنة منه ، كما قال تعالى فى الآية - ٣٤ - من سورة فصلت « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

فأراد الاسلام أن يجمع بين هؤلاء المتنافرين من العرب واليهود فى هذا الوطن الجديد ، وقد قبله العرب دينا لهم ، وبقى اليهود على يهوديتهم ، فجمع بينهم فى هذا الوطن الجديد برابطة الوطنية ، ليعيشوا فيه جنبا لجنب إخوانا فى الوطن ، لا يفرقهم ما بينهم من الاختلاف فى الدين والجنس ، لأن الاسلام يرى أن الدين لله يحاسب عليه فى الآخرة ، وأن الوطن لجميع الناس على اختلاف أديانهم ، كما يرى أن الناس كلهم لأب واحد وأم واحدة ، فلا يصح أن تفرق بينهم فوارق من الاختلاف فى الجنس ونحوه ، لأنهم خلقوا ليتعارفوا لا ليتناكروا ، كما قال تعالى فى الآية - ١٣ - من سورة الحجرات : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » وبهذا كان الإسلام أول من أتى الناس بذلك الأصل العظيم : الدين لله ، والوطن لجميع الناس .

وقد توصل الإسلام إلى هذه الغاية العظيمة بإبطال ما كان بين أهل ذلك الوطن قبل الإسلام من معاهدات مفرقة بينهم ، ليعقد بينهم معاهدة جديدة تجعلهم إخوة فى هذا الوطن ، فينسى العرب فيه أنهم عرب ، كما ينسون أنهم أوس وخزرج ، وكذلك ينسى اليهود فيه أنهم يهود ، كما ينسون قبائلهم التى كانت تفرق بينهم .

فعقد بين المهاجرين والأنصار - الأوس والخزرج - واليهود معاهدة جديدة تخالف ما كان بينهم من معاهدات ، وتوافق الغرض الجديد الذى يريده لذلك الوطن ، وكتب بها كتاباً وادع فيه اليهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم وساوى بينهم وبين إخوانهم فى الوطن من المسلمين ، فكانت هذه المعاهدة فتحاً جديداً فى السياسة الدينية ، أقرت حرية العقيدة ، وحرية الرأى ، وحرمة الوطن ، وحرمة النفس ، وحرمة المال ، ولم يحدث مثل هذا قبلها فيا بين أهل الأديان ، بل كل هناك الاضطهاد والظلم ، والتفرقة فى الحقوق بين أهل الوطن ، للاختلاف فى الدين أو الجنس ، فأزال الإسلام هذا كله بعدله ، وقضى عليه بمرونته وسماحته ؟



لحضرة الكاتب الفاضل الاستاذ أحمد محمد بريرى

ما زال قولهمو فى النحو يعجبنى — حتى تعاطوا كلام الترك والروم
فعل فعول ومفعول ومفتعل — هذا لعمرى كلام غير مفهوم

هو بدوى انحدر إلى الكوفة أو البصرة أو بغداد أو غيرها من الحواضر ، فرأى جماعة يتذاكرون النحو واستمع إليهم ، ففهم بل طعم ما يقولون وهضم . فليس عسيراً أن يفقه البدوى إذا أنت قلت له : « ضرب زيد عمرا » جملة تتكون من فعل ماض أى حدث انقضى زمنه ، وفاعل أى محدث لهذا الفعل أو الحدث ومفعول به أى واقع عليه الحدث .. ولن تجد صعوبة فى إفهامه المبتدأ والخبر وسائر المرفوعات والحال والتمييز وسائر المنصوبات والمجرور بالحرف أو بالإضافة إلى آخر الأبواب والتفصيلات ..

أما أن تفهمه أن مفاعل غير فواعل وفواعل غير فعالل ، وأن قال أصلها قول وباع أصلها بيع وأن « قِسِى » على وزن « فلى » فتلك مشاكل ما إلى حلها من سبيل ، أو هذا كلام الترك والروم . وهو - فيما يرى أبو علاثة - كلام غير مفهوم .

قلت : على أنه لو فقه التصريف والأوزان وما إليها لأعجبته .. ولو طالت إقامته فى الحاضرة التى قذفت به بيداءوه إليها لكان حرياً أن يفهم كلام الترك والروم ، هذا الكلام غير المفهوم لديه إذ هو لم يزايل غبار الصحراء بعد .

قال : ولكان حريا أن يفقد كثيراً من سلامة طبعه ومقومات فصاحته ، وما كان كسبه فى علوم اللغة بمعوض خسارته شيئا من فطرته القويمة الغنية عن النحو والصرف . . إن الجاحظ ليتحدث إلينا عن بدوى نزل عليهم ، وأقام معهم وحرص على أن تكون داره فى أحد أطراف البلد حيث تمتد الصحراء ، فهو لم يتعمق فى الحاضرة ، ولم يهجر البادية هجراً تاماً ، ولم يخالط غير الجاحظ وأضرابه من أصحاب اللغة والأدب ، ومع هذا لم يبق ـ من حيث سلامة اللغة ـ هو هو الذى وردهم يوم ورد . . إنه لخير لصاحبنا الذى لم يفقه « فعل فعول » أن يظل هكذا جاهلا كلام الترك والروم . خير له دون شك أن يظل حراً فى لغته ، وليت شعرى ما جدواه من القواعد أو السلاسل والأغلال إلا أن تعوقه وتعوق حركاته الخفيفة الرشيقة ؟ دعه طليقاً ينطق ما قد يبدو خطأ إذا أنت أخضعته لأحكام النحاة ، وإنهم لمضطرون إلى أن يحتالوا فيوائموا بين منطوق أبى علاثة ، وبين قواعدهم ، وإنه لغير مضطر إلى أن يأخذ مقوله بمعيارهم .

قلت : ما أحسب « كتاب النحاة » غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

قال : إنه لكتابك يوم تلقى ربك ـ أو كشف الحساب ـ هذا الذى لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها . فأما « كتاب النحاة » ـ أعنى مجموع كلامهم بما فيه ما لم يصلنا ـ فقد غادر ما شئت من صغيرة وكبيرة ، ألم يمت علم من أعلام النحو وفى قلبه من « حتى » أشياء ؟ إنه ليفتح « الكتاب » فلا يرى أشياء كثيرة تعنيها « حتى » و « حتى » ترغب إليه ـ ملحة الرغبة ـ فى أن يضم إليها متعلقاتها كاملة غير منقوصة ، ولكنه يموت قبل أن يشبع رغبة « حتى » . ألا وإن حروفا أخرى كثيرة لتمسك برقاب البصريين والكوفيين ، ناعية عليهم ، أنهم فرطوا فى ذواتها ، أو قسطوا عليها فأكلوا حقوقها أو منحوها غير مستحق ففرطوا وأفرطوا . فهذه الأسماء الخمسة أو الستة وهى شخوص قائمات بذواتها أو قل دولة مستقلة ، ذات سيادة لا تابعة لسيادة أخرى ، ولكنك ترى أصحاب النحو يعدون على هذه الدولة المستقلة ، ويأبون إلا أن ينزلوها منزلة التوابع فيلحقوها بدولة

« جمع المذكر السالم » إن لجمع المذكر السالم لملحقات أخرى كثيرة ، وإنه لغنى عن الأسماء الخمسة ، بيد أن سيبويه وجماعته يريدون أن يضيفوا إليه جديدا ، وزيادة الخير خير لا يرفضه فرد ولا جماعة . إذن فما ألحق بدولة « جمع المذكر السالم » . « أبون وأخون ... وقال ابن مالك : لو قيل فى حم حمون لم يمتنع ، لكن لا أعلم أنه سمع ، وقال أبو حيان يمتنع لأن القياس يأباه ، وجمع أب وإخوته كذلك شاذ فلا يقاس عليه ... وعن ثعلب أنه يقال فى فم : فمون وفمين ، قال أبو حيان وهو فى غاية الغرابة » .

وهذا الذى لا يمتنع عند ابن مالك ، ولو أنه لم يسمع . كان من الممكن أنه يُسمع ... فلو شاء خلف الأحمر مثلا لقال مطولة نونية وضمنها حمون أو حمين ، ثم نحلها الشنفرى أو تأبط شرا ، ولو أنه فعل لقال ابن مالك : لو قيل حمون لم يمتنع ولقد سمع .

قلت : ها أنتم أولاء تعودون إلى مناقشة الشيخ المستدرك فهو يطالبكم بالنصوص ، أفليس من يحفظ حجة على من لم يحفظ ؟ .

قال : فتلك النصوص أمامنا إن أراد أقوال النحاة ، وما كان لى أن أخفيها أو أشكك فى صحة روايتها ، أما إذا أراد بالنصوص الأب والأخ مفردين أو مجموعين جمع تكسير فأمامنا كتاب الله وأحاديث رسوله وكلام العرب وفيها الأب والأخ والآباء والإخوة ، فأما الأبون والأخون فما أقل أن تجدهما ، وإذا وجدتهما ففى نحو « شر بنى الأخينا » مما يتأتى معه إفراد الأخ وإضافة النون للتحلية ، كما هى فى إلياسين أو فى شعر لا يخفى أنه مصنوع . فنحن نعلم أن قريشاً تقول : « آباء وإخوة » ولا تقول « أبون وأخون » إلا ماروى عن أبى طالب واستشهد به النحاة . أفتراه اخترعها ، أم تكلم بغير لغة قومه ؟ وإذا كان فعل فلم لم يقلها إلا مرة واحدة .

إن إلحاق الأسماء الخمسة أو إلحاق بعضها بجمع المذكر قد يكون ، لغة وقد يكون لغيّة ، وقد يكون من أوهام النحاة ، وليس لى أن ألزمك بعض ما يمكن

أن يقال . فتلك قضايا يمتد فيها القول ويدور حتى ليدخل فى دائرة الدجاجة والبيضة أيتهما أسبق وجوداً . وليس لى أن أرغب إلى الشيخ المستدرك فى أن يتخلف عن الصف ، وصف النحاة (الأبين) فهو أخوهم ولا منفعة لى فى شقاق بينهم ، ولكنى آخذ عليهم أن قواعدهم لم تحط باللغة إحاطة كاملة ، وليت شعرى أيكون الكمال من نصيب الإنسان ؟ لقد جد القوم كل الجد ، وفطنوا لكثير مما كان من الجائز ألا يفطنوا له ، على أنه قد فاتهم كثير . خذ مثلا بَابَى (البسط) و (القبض) فلست أشك فى أنهم لم يستنفذوهما ، إنهم عرفوا وعرفونا أن العرب تمد المقصور وتقصر الممدود ، وترخم المنادى ، وتضيف النون تحلية كما تضيف الهاء فى نحو (ماليه) و (سلطانية) إلا أن جميل بن معمر رخم بثينة غير مناد ، وسماها بثينة وبثين وبثنة وبثن . وما أحسب النحاة وضعوا قاعدة لصنيعة هذا . لقد بسطت العرب فزادت فى حروف الإسم والفعل فقالت : لو أن عمراً هم أن يرقودا ، أى يرقد . وسمت الفرقد (فرقودا) .

وليلة خامدة خمودا ، طخياء تغشى الجدى والفرقودا .

وقبضت فقالت : لاه ابن عمك . تريد لله ابن عمك ودرس المنا . تريد درس المنازل . إلى غير ذلك من ظواهر كثيرة مبعثرة هنا وهناك وهى جديرة أن تبحث وتدرس .

ولقد رأيت أحد زملائى فى المجمع اللغوى يبدو الإهمال فى ربطة رقبته . قلت : إنك لتبدو مهملا فى ربطتك هذه . قال : لقد ربطتها على الطريقة الإهمالية وهى آخر ما وصلت إليه الأناقة ، ولو خيل لغير الممتازين المتأنقين أن من يتزى كذلك خارج على قواعد الزى . إنه لإغراق فى الترف لا يعرفه إلا ذووه . ليقل غير المترفين إنه إهمال فلن يضير المترفين أن يقال هذا ، بل هم أنفسهم سموه : (الطريقة الإهمالية) فكذلك البدوى القح يتأنق فى مقوله فتحسبه خرج على قواعد اللغة فى حين أنه بلغ أوج الفصاحة ، لقد تكلم على الطريقة الإهمالية كما يفعل المتأنقون فى هندامهم لا فى كلامهم . ولقد يضيق أصحاب النحو بمثل هذا البدوى الذى يأبى إلا أن يزج بهم فى مأزق . فليجدوا لهم لا له مخرجا .

قلت : أفيجوز لنا ـ وقد تأنقت العرب فى لغتها الى حد إهمال قواعد اللغة ـ أن نحتذيها فنهمل قواعد النحو تأنقا فنرفع الحال مثلا وننصب المجرور ، ونرفع المنصوب ، ونزيد فى حروف الكلمة وننقص منها الى آخر ما يدخل فى باب الإناقة الإهمالية .

قال : على رسلك فأنا لم أزعم أن العرب أهملت قواعد اللغة ، بل زعمت أنك تحسبها خرجت على هذه القواعد . وحسبانك ليس حسبان العرب التى كانت تتكلم فتراعى حفظ النسب ، كما يقضى ميزانها الفطرى دون ما رجوع إلى القواعد التى لم تكن قعدت .. فإذا رأيت كلاما عربياً يجافى قاعدة من قواعد اللغة العربية نحواً أو صرفا أو غيرهما ، فليس معنى هذا أن العربى أخطأ أو شذ ، بل معناه أن القاعدة الموضوعة قصرت فكانت غير جامعة أو مانعة .. على أنه يندر أن يعدم أهل (الفن) طريقة احتيالية تجعل القاعدة جامعة مانعة .

قلت : فكيف أتأنق لغة على الطريقة الإهمالية ؟

قال : إنك تأبى إلا الإهمال غافلا أو متغافلا عن مدلول ضرب الأمثال .. لقد دعا أبوقير الناس إلى مذهبه الموسوم مذهب (اللذة) وهو إنما يعنى الملذات الروحية ، فخالف من بعده خلف آمنوا بمذهب الملذات أو الشهوات الحسية معتبرين أنهم لم يؤمنوا إلا بما آمن به أبو قير من قبل ، فهم أتباعه أو فقهاء مذهبه ...

قلت : لا أحب أن يصرفنا أبو قير عما نحن فيه ، نحن فى اللغة العربية ، وأناقة التعبير .

قال : إن العرب لم تتأنق ولم تعرف الترف اللغوى أو الكماليات إلا بعد أن استنفدت كل الضروريات والمقومات اللغوية ، فكان لكل مدلول دلالة لفظية ، ثم دلائل لفظية كثيرة ، مكنت للعرب أن تتصرف فى تلك الثروة اللغوية البالغة تصرف صاحب الملايين ـ أو صاحب الآلاف المؤلفة إن لم يكن فوق الآلاف عد ـ الذى يريد أن يستمتع ، فلا يفوته لون من ألوان الاستمتاع .. أفترانا نحن عرب هذه الأيام فى مثل هذه الحال .

قلت : بل أرى مدلولات جد كثيرة ليس لها دال لفظى عربى ، فهذه أداة لم تسمها العرب ولم تعرفها ، وتلك آلة تتألف من مئات الأجزاء أو آلافها ، وما عرفت العرب لها كلا ولا جزءا ، وإذا تركنا عالم العلم والصناعة ، فقد نجد فى مملكة الحيوان أو مملكة النبات كثيراً جهلته العرب فلم تسمه .

قال : فأنت إذن فى طور استكمال الضروريات لا فى طور الكماليات والترف الكلامى ، أنت فى طور الله وحده يعلم متى كانت العرب فيه بالقياس إلى لغتها قبل أن تستكمل ، فكل ما يمكن أن يصح صحة علمية هو أن تطور لغة العرب كان بطيئاً وكان فطريا .

قلت : فإن المجمع اللغوى هو الذى يؤدى الآن مؤدى التطور الغريزى .. وقد يستطيع أن ينجز فى أيام معدودات ما لم ينجزه التطور الفطرى إلا فى قرون ودهور .

قال : ليست المسألة يسيرة كما تتصور ، فليس المهم وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعات كما قال حافظ ابراهيم رحمه الله ، وإنما المهم أن يتقبل الناس هذا التنسيق وذاك الوصف .. ولو كان إلىّ وحدى مرجع الأمور لقبلت كل مسمى باسمه الموضوع له فى لغة صانعه ، فكذلك فعلت العرب فيما وردها .. لقد جاءنا من الغرب شىء اسمه (الراديو) فقلنا (مذياع) فلم يستمع إلينا وقالت الناس (راديو) ولو أنه جاء العربَ قبل الإسلام أو فى صدره لقبلت الإسم والمسمى ، وما كانت لتخترع له (المذياع) .

قلت : فأنتم ياسيدى الشيخ مجددون ، بل مبالغون فى التجديد .

قال : إنه لن يضير لغة القرآن أن نضيف إليها جديداً ، وأن ندخل فى حظيرتها (الأتمبيل) و (المونسكل) و (الراديو) و (الراديوم) .

قلت : كما لا يضيرها أن نغفل قواعد النحو والصرف .

قال : هنا يقف حمار الشيخ ، فلست داعية خطأ ، وأنه ليضير لغة القرآن كل الضير أن نغفل قواعدها ، فيخر علينا السقف من فوق ونحن لا نشعر .

جددوا ما شاء لكم التجديد فى حدود ، هى أن تكون لنا جميعاً لغة واحدة : هى لغة القرآن . فأما أن تتكلم أنت اللغة العربية المصرية وأنا اللغة العربية العراقية ، فتلك هى الكارثة أو الهوة ، التى ود عدو القرآن أن نتردى فيها . . إنه قرآن عربى غير ذى عوج . . وأى عوج أعوج من أن تتخذها لغة ذات شعب ، فهذه الشعبة العربية المصرية ، وهاتيك الشعبة العربية الشامية ، وتلك الشعبة العربية الحجازية . . الخ . أوتريدون لها أن تصير إلى ما صارت اليه اللاتينية بالقياس إلى الفرنسية والأسبانية والإيطالية وغيرها من بنات اللاتينية .

قلت : وما حيلتنا إذا قضى التطور هذا القضاء ، أفنستطيع ـ والتطور سنة الله فى خلقه ـ أن نقف فى سبيله ؟

قال : لا أحد يكلف الوقوف فى سبيل التطور ، ولكنه لا يفتعل افتعالا ، وأنتم حين تحاولون وضع لغة عربية مصرية وأخرى شامية وثالثة يمانية ، إنما تصنعون وتفتعلون . فأما التطور الذى هو من صنع الله ، فإنه يتلقى تلقياً اجتماعياً لا فردياً .

لقد ولد منذ نزول القرآن لغات وماتت لغات . وبقيت العربية القرآنية هى هى على كثرة كيد الكائدين وتربص المتربصين أن يعدوها من اللغات الميتات ولكن هيهات هيهات ، لقد مكروا ومكر الله والله خير الماكرين .. اذكر قوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وكن على يقين من إن حفظه يستلزم حفظ لغته ولو كره الكافرون .

قلت : إذا أعجز الكافرين أن يذهبوا بلغة القرآن فإنه لم يعجزهم أن يفرقوا الكلمة ، ويشتتوا الأمة الواحدة أمماً لست أدرى كم تكون فى لغة الإحصاء والإحصائيين .

قال : تعلم أن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون . فلا تهولنك السنون والقرون التى تجاوزها المسلمون وهم فى غفلة ساهون عن قوله تعالى « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » لقد حدثنى شيخى المستتر ـ وهو على بصيرة ـ

أن أمور الأمة الإسلامية قد يغلب الخوف فيها على الرجاء ، إذا لم تتعد نظرتك ظواهر الحال : إلا أن مرسل محمد للناس كافة مبشراً ومنذرا ، لابد محدث أمرا ، فإن الإسلام أكرم عليه سبحانه وتعالى من أن يكون عمره فى الأرض تلك السنوات المعدودات التى فقه فيها المسلمون معنى الوحدة : معبود واحد ، وأمة واحدة هى أمة التوحيد .

قلت : فمن شيخكم المستتر هذا ؟ أو مستتر وجوباً أم جوازا ؟

قال : بل وجوبا ، فهو ألطف من أن يظهر لذوى الجسوم الغليظة .

قلت : أو ما زلتُ فيما ترون غليظ الجسم ؟ ألا فارجعوا البصر فعسى أن أكون غير كثيف ، ولعلى صالح لأن تظهرونى على شيخكم اللطيف ؟

قال : يزعمون أن بشار بن برد كان يشبه أن يكون فيلا حين قال :

إن فى بردى جسما ناحلا   لو توكأت عليه لانهدم

قلت : ولكنى لست شاعرا ، وأعوذ بالله من بشار ومن جماعة النار .

قال : لو شئت لحدثتك عن بشار وعن الطين والنار .

قلت : بل عن شيخكم اللطيف ، والدين الحنيف .

قال : فهذا حديث لا يجىء ذيل كلام ، فإلى جلسة أخرى ؟

لكن قال شيخى

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد الطنطاوى
الأستاذ فى كلية اللغة العربية

إلياس - الياسين :

ستكون دراستنا فى مجلسنا اليوم دائرة حول العلاقة بين هذين الاسمين بعد أن تكرر تعهدى لك بتلبية سؤلك فى جلسات الأموس حتى لا تخال لدىَّ ليًّا وأن وعدى برق خلب .

وعسى أن نهتدى فيه بمعونة الله إلى المرتضى من آراء العلماء فى الصلة بينهما بعد أن أسمعك رأيى المتخالفين ، وأوازن بينهما لتؤثر معى الحق عن بينة فتستريح نفسى ، وقبل التحدث عنها نعرض إلمامة وجيزة فى سيرة الرسول إلياس عليه الصلاة والسلام ، فهذا الرسول من نسل هرون أخى موسى الكليم أرسله الله بعد يوشع فتى موسى عليه الصلاة والسلام إلى قومه من بنى إسرائيل فى بعلبك وما حولها بالشام يدعوهم إلى التوحيد ويفندهم فى دعائهم الصنم ، فنجا الموحدون المخلصون ، وأحضر المعاندون المشركون ، كما قال تعالى حاكياً عنه :

« إذ قال لقومه ألا تتقون ، أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ، الله ربكم ورب آبائكم الأولين ، فكذبوه فإنهم لمحضرون ، إلا عباد الله المخلصين » .

ولقد أوحى الله سبحانه وتعالى بهذه القصة إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه فى مكة المكرمة فى سلك سورة الصافات ، مبتدأة بذكر علم الرسول ومختتمة بالتسليم عليه من الله ، على نمط القصص الثلاث السالفة قبلها : قصة نوح ثم ابراهيم

ثم موسى وهرون ، قال جل من قائل : « ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ... وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين ، وإن من شيعته لإبراهيم ... وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم ، ولقد مننا على موسى وهرون ... وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهرون .

وهذه القصص الثلاث مع الترتيب الزمنى يتجلى فيها التكريم الإلهى للآباء فالأبناء ، سلام على نوح ثم سلام على ابنه ابراهيم ثم سلام على ابنى إبراهيم : موسى وهرون ، وعلى منهاجها ذكرت قصة إلياس بعد هرون ، وفيها التسليم عليه ، كالتسليم على أبيه هرون من قبل ، قال عز من قائل « وان الياس لمن المرسلين ... وتركنا عليه فى الآخرين سلام على الياسين » .

وهنا فى آية الياس عليه الصلاة والسلام مبعث الحديث المقصود لنا بالذات ، غير أنه لا بأس من الإشارة الى أن قصة الياس أردفت بقصتى لوط ويونس عليهما السلام فى السورة ، ولم تختما بالتسليم عليهما ، كما اختتمت الأربع قبلها ، وربما يطول القول اذا حاولت بيان الحكمة لذلك تفصيلا .

غير أنه يدرك السر فى ذلك اجمالا مما تقدم آنفا ، على أن فى ختام السورة الشريفة بالسلام على عامة الرسل سلاما على لوط ويونس ، اذ قال سبحانه وتعالى : « وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » .

والتعميم بالسلام على الرسل بعد تناول سيرهم ذات العبر والعظة تسليم عليهم كافة ، فمما ورد فى القرآن على حد ما ورد هنا تماما ما جاء فى سورة النمل ، فإنه بعد سرد قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط ، قال عز من قائل : « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى » وقد قال المفسرون ان السلام بهذه الصيغة العامة لا يقف عند المذكورين قبله ، بل يراد منه الشمول للرسل الكرام جميعاً عليهم الصلاة والسلام .

ولنعد الى ما نحن بسبيله خيفة أن يتفرع الحديث الى ما يتشعب فيه القول .

الياس - الياسين :

للقراء فى الياس والياسين روايات متخالفة ، ولسنا فى مقام دراسة استيعابية بل فى خلاصة اجمالية تلزمنا أن نقف عند قراءة الأكثر التى يقرأها عامة الناس ، على أن القراءات مع الاختلاف كلاً أو لهجة أو حركة تئول الى هدف واحد فى المعنى ، وذلك تيسير من الله على عباده المؤمنين .

قرأ الأكثر إلياس والياسين بقطع الهمزة فيهما مع كسرها ، فاختلف نظر المفسرين بناء على الاختلاف بين الاسمين فى مستهل قصة هذا الرسول ونهايتها كما رأيت ، فجمهور المفسرين على الاتحاد بين الإسمين ، وأنهما علما شخص لمسمى واحد هو الرسول عليه السلام ، وقلتهم على التغاير بينهما ، وأن الأول هو العلم الشخصى للرسول ، والثانى جمع مذكر سالم لهذا العلم على أحد اعتبارين سيأتى الكلام عليهما ، وهاك تفصيل القولين .

جمهور المفسرين :

ومن أوائلهم ابن جرير الطبرى فى تفسيره الكبير (كتاب جامع البيان فى تفسير القرآن) فإنه بعد بيان أن القراءة السابقة التى اعتمدت مجالا لمثار الرأيين- هى قراءة العامة وأنها أصوب من غيرها من القراءات الأخرى قطع بجزمه إلى تصويب الاتحاد بين الاسمين ناقلا عن غيره الرأى السديد فى الياسين فيقول: (ويقول إنه كان يسمى باسمين إلياس وإلياسين مثل إبراهام وإبراهيم ويستشهد على أن ذلك كذلك بأن جميع ما فى السورة من قوله سلام ، فإنه سلام على النبى الذى ذكر دون آله ، فكذلك الياسين إنما هو سلام على إلياس دون آله . . . ونظير تسمية إلياس بإلياسين قوله ، وشجرة تخرج من طور سيناء ، ثم قال فى موضع آخر وطور سينين وهو موضع وحد سمى بذلك) .

ثم يقول على هـــذا القول ، ويتلمس وجه التغاير بين اللفظين من بعده جار الله الزمخشرى فى كشافه إذ يقول : (وقرىء على الياسين . . . على أنه لغة فى الياس . . . ولعل لزيادة الياء والنون فى السريانية معنى) .

فها أنت ذا تراه اعتبرهما علماً شخصياً ، وترجى فى ذيل عبارته أن تكون

الزيادة لمعنى مع جزمه أنهما لغتان فى العلم مسماهما وحد وإن لم يكشف له عن هذا المعنى بعد .

فقد التقى الطبرى والزمخشرى فى رأى واحد هو الاتحاد بين الاسمين ، وإن كان معتمد الطبرى استعمال العرب من جهة والنظام المتبع فى السورة من السلام دون غيره من جهة أخرى ، وقد اقتفاهما كثير من المفسرين بعدهما ، فيقول أبو السعود عن الياسين : (هو لغة فى إلياس كسيناء وسينين) وقد نقل البيضاوى هذه العبارة بحروفها فعلق عليها الشهاب الخفاجى بما يزيد الموضوع وضوحا لا تجديداً فى معنى ، فقال : وجه الشبه بينهما أن الأول علم غير عربى تلاعبوا به فجعلوه بصيغة الجمع ، أو أن زيادة الياء والنون فى السريانية لمعنى كما فى الكشاف لا فى الوزن ، وإلا لكان حقه أن يقول كميكال وميكائيل ، واختار هذه اللغة على هذا رعاية للفاصلة) .

وقال السيوطى فى الاتقان : (وإلياس بهمزة قطع اسم عبرانى وقد زيد فى آخره ياء ونون فى قوله تعالى : « سلام على إلياسين » كما قالوا فى إدريس إدراسين وقد جمع ملخص مافات كله فى تفسيره روح المعانى خاتمة المفسرين الألوسى فقال : (إن إلياسين لغة فى إلياس ، وكثيراً ما يتصرفون فى الأسماء غير العربية ، وفى الكشاف ولعل لزيادة الياء والنون معنى فى السريانية ، ومن هذا الباب سيناء وسينين ، واختار هذه اللغة هنا رعاية للفواصل) .

ومن عبارة الشهاب بدفع ما عساه ، يقال تعقيبا على دعوى الاتحاد أن الاتفاق بين العلمين فى المدلول لا يقتضى التعبير آخر القصة بالعلم الثانى دون الأول ، فإن مراعاة الفواصل فى القرآن الكريم مما سما به الى أن لا يكون من مقدور البشر .

قلة المفسرين :

وقلتهم يرون التغاير بين الاسمين المذكورين أول القصة وآخرها ، فالأول منهما علم شخصى للرسول عليه الصلاة والسلام ، والثانى منهما جمع مذكر سالم لهذا العلم بزيادة الياء والنون على سنن ما هو متبع فى جمع المذكر السالم .

وفى مقدمتهم الفراء نقل عنه النيسابورى : (قال الفراء أراد به الياس وأتباعه من المؤمنين كقولهم : المهلبون والأشعرون بتخفيف ياء النسبة) .

وكذا رأى أبو العباس المبرد ، فقد ذكر فى الكامل لمناسبة الحديث عن التغليب فى المثنى قال : (وقال آخر :

قدنى من نصر الخبيبين قدى

يريد عبد الله ومصعبا ابنى الزبير ، وإنما أبو خبيب عبد الله ، وقرأ بعض القراء : سلام على إلياسين لجمعهم على لفظ الياس ، ومن ذا قول العرب : المسامعة والمهالبة والمناذرة لجمعهم على اسم الأب) (١) .

يريد أبو العباس أنه جعل كل وحد من عشيرته الأقربين الياس لجمعهم على لفظه ، ثم كرر أبو العباس هذا الحكم مرة أخرى لداع اقتضاه فى باب النسب إلى المضاف ، ودأبه الاستطراد مع الاطناب ، قال : (وقد تنسب الجماعة إلى الواحد على رأى أو دين ، فيكون له مثل نسب الولادة كما قالوا أزرقى لمن كان على رأى ابن الأزرق كما تقول تميمى وقيسى لمن ولده تميم وقيس ، ومن قرأ سلام على إلياسين فإنما يريد الياس عليه السلام ، ومن كان على دينه كما قال :

قدنى من نصر الخبيبين قدى

يريد أبا خبيب ومن معه (٢)

من هذين النصين يتبين لنا أن أبا العباس يجعل إلياسين جمع مذكر سالم ، وإن كانت الجمعية للتغليب مختلفة السبب فيهما ، ففى الأول بتغليب النبى الياس على ذوى قرابته ، وفى الثانى على من اتبعوه فى دعوته فإن ذلك لا دخل له فى أساس الموضوع ، إذ المهم أنه عد إلياسين جمعاً كالجموع الشائعة فى العربية وما أكثر التثنية والجمعية على سبيل التغليب ، وقد نظر اعتبار التغليب فى جمع إلياس جمع مذكر سالم بالتغليب فى الرجز المسوق مع القراءة فى النقلين للتماثل بينهما فى التغليب غير أنه يلاحظ أن التغليب فى رواية الرجز المذكورة أولا فى النص الأول للمثنى ،

(١) الكامل شرح الرغبة ص ١٣٢ — ١٣٣ ج ٢ .
(٢) الكامل شرح الرغبة ص ٤ — ٥ ج ٨ .

وفي روايته الثانية في النص الثاني للجمع ، فالثنية والجمعية فيه على روايتيه مبنيان على التغليب ، والمبرد بصدد بيان التغليب ووقوعه في الأساليب العربية .

والرجز المذكور الذي اعتمد عليه المبرد من أرجوزة قالها حميد الأرقط التيمي الرجاز أحد البخلاء الأربعة ، ثلاثتهم : أبو الأسود الدؤلي والحطيئة وخالد ابن صفوان ، يمدح بها الحجاج بن يوسف الثقفي ويعرض فيها بعبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، يقول فيها قبل الرجز المذكور :

أو تَرِدِي حوض أبي محمد ليس الإمام بالشحيح الملحد
أو يَنْجحر فالجحر شر محكد قدني من نصر الخبيبين قدي(١)

وهو رجز جانف فيه الحق ومالأ به الباطل ، والناس مذ كانوا عبيد الدينار والدرهم ، استذلتهم مطامعهم ، فطالت ألسنتهم ولم يتحرجوا من ثناء على جائر والنيل من أروع طاهر :

وحضرتني بهذه المناسبة حادثة لها مغزاها ومرماها ، هي أن عمران بن حطان السدوسي الخارجي ، وكان رأس القعد من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم ، مر على الفرزدق ، وهو ينشد شعراً يمدح فيه ويقدح متحيفاً على من يثلبه ، آفكا في إطرائه على من يأمل فيه ، فوقف عليه وقال :

أيها المادح العباد ليعطى إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارج فضل المقسم العَوّاد
لا تقل للجواد ما ليس فيه وتسم البخيل باسم الجواد

فبهت الفرزدق وقال : لولا أن الله عز وجل شغل عنا هذا برأيه للقينا منه شراً .

إن الفرزدق وعمران مختلفا الاتجاه والنزعة ، فأبو فراس شاعر الهوى والشهوة ، وأبو سماك شاعر العقيدة المتغالي فيها على دينه وطريقته .

---

(١) أو تردي : خطاب للناقة ، أبو محمد : كنية الحجاج ، الملحد : الظالم في الحرم ، ينجحر : يدخل الجحر ، محكد : ملجأ ، يريد أنه عائذ بالحرم لا يستطيع أن يخرج إلى الحل .

وهنا ينبغى العود إلى المقام الذى كنا فيه فنقول : إن هــذا الرأى السابق للفراء ، فالمبرد اقتصر عليه النسفى ، ولم يزد عليه فقال فى تفسيره شارحا الياسين (أى الياس وقومه المؤمنين كقولهم الخبيبون يعنى أبا خبيب عبد الله بن الزبير وقومه) ـ والذى يحار الناظر فى فهمه اقتصار النسفى على هذا الوجه وقد رده قبله الزمخشرى ـ وهو أصله الذى يجرى فى الوجوه البلاغية على سننه ـ بأسلوب لايدع مجالا لقبوله فى صورة سؤال وجواب ، فكان من اللائق أن يذكر بعد الوجه الذى ارتآه الوجه الآخر الذى قطع به الإمام الزمخشرى ليكون ذلك تجويزاً للاعتبارين عنده مثلا .

لم أفهم السر فى هذا والعلم عند من يعلم السر وأخفى .

تصويب رأى الجهرة :

إن إلياسين هو إلياس ، ولا يصح أن يكون جمعاً له ، لا من ناحية أسلوب السياق فى السورة ، ولا من ناحية الاستعمال العربى ، فهذان أمران :

(١) أسلوب السياق فى قصص المذكورين من الرسل قبل إلياس يقضى بأن السلام المنتهى به قصته عليه لاعلى آله نظير المختوم به قصة كل من نوح ثم إبراهيم ثم موسى وهرون ، وهؤلاء قد أعيد ذكرهم بأعلامهم دون تغيير فيها ، وقد تقدم فى كلام الطبرى ما فيه مقنع ، وقد شفعه بقوله : (فإن ظن ظان أن إلياسين غير إلياس ، فإن فيما حكينا من احتجاج من احتج بأن إلياسين هو إلياس غِنىً عن الزيادة فيه الخ .

(٢) إن اللغة العربية تحتم فى جمع العلم تعريفه بأل ، فكان من اللازم أن يقال : سلام على الإلياسين ، لأن العلم إذا جمع وجب تعريفه بأل بعد الجمعية جبراً لما فاته من العلمية عندها لوجوب تنكيره حينها ، وكذا قالوا : إذا ثنى العلم وجب فى مثناه التعريف بأل لمثل هذا تماما ، قال الزمخشرى : (وكل مثنى أو مجموع من الأعلام فتعريفه باللام إلا نحو أبانين وعمايتين وعرفات وأذرعات ، قال :

فقبلى مات الخالدان كلاهما عميدُ بنى جَحْوان وابن المضلل

وفى حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه هؤلاء المحمدون بالباب) (١) .

ولم يفت الزمخشرى فى كشافه رعاية ما دونه فى مفصله ، فيقول مؤيدا رأيه السابق ، مفنداً الآخر بعد صحة اعتباره على قراءة وصل الهمزة إذ لا مانع منه معها وليس حديثنا معها أما على قراءة قطعها وهى التى نتكلم عنها فلا . مانصه : (فإن قلت فهلا حملت على هذا إلياسين على القطع ، قلت لو كان جمعاً لعرف بالألف واللام) .

ويشاكله أبو السعود فيقول حاكياً بصيغة التمريض لهذا الرأى مع الدفع له بالحرف (وقيل هو جمع له أريد به هو وأتباعه ، كالمهلبين والخبيبين ، وفيه أن العلم إذا جمع يجب تعريفه كالمالين) وهذه عبارة البيضاوى بنصها وفصها ، ونقل أبو حيان فى البحر ما ذكره الزمخشرى ، ويشير الى كل ما سلف الألوسى ، ولا حاجة إلى نقل ما فى كتب المفسرين ، إذ أنها تصمد إلى هدف واحد هو الرأى الصحيح ، ويحلو لى أن أضم إلى مافات مختتما به ما قاله ابن منظور فى اللسان مادة (ليس) ومن قرأ على إلياسين فعلى أنه جعل كل واحد من أولاده أو أعمامه إلياسا فكان يجب على هذا أن يقرأ على الإلياسين .

صفوة القول فى إلياس ـ إلياسين :

إلياس بقطع الهمزة وكسرها علم شخصى اعجمى ، وإلياسين كذلك ، وليس جمعاً لإلياس ، ولا إلياس نفسه بعد قلب فتحته كسرة مع زيادة ياء ونون ، وإنما هو لغة ثانية فى الاسم ، هدانا الله سواء الصراط وألهمنا الصواب .

قلت أحمد إليك الله على ما جلوت من عرفان فى هذا الموضوع ذى الشأن ، وقد أطمعنى النهم العلمى فى التقدم إليك استزادة فى الحديث عن إلياس ، فإنه سمى به جد النبى صلى الله عليه وسلم ، فهل يعد هذا العلم معرباً وتقطع همزته وتكسر كإلياس علم الرسول ، والظن أنه لا يماثله ، ولكنى أتريث حتى تكشف لنا عن حاله .

---

(١) المفصل : باب العلم .

قال ألا تبصرنى يابنى مجهوداً فترفق بى ولا ترهقنى ، فقد تصببت عرقاً ، وليست عندى مُنة تشد من عزمى لأواصل الحديث ، ولكن (هان على الأملس ما لاقى الدبر (١)) ولو أصبحت مسئولا لعز عليك أن تعنت فليس الجواب من الهون كالسؤال .

روى التاريخ أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه كان فى معية النبى صلى الله عليه وسلم عند ما مر على مجلس للعرب لنشر الدعوة الدينية فسألهم أبو بكر عن أنسابهم إذ كان نسابة ، فلما انتهى الحديث الى ما طامن من كبريائهم قام إليه غلام قد بقل وجهه يقال له دغفل بن حنظلة الشيبانى فقال :

إن على سائلنا أن نسأله والعبء لا تعرفه أو تحمله (٢)

فهلم يا بنى الى الصلاة لنريح بها أنفسنا ، وسوف أجيبك غداً عما سألتنيه إن شاء الله .

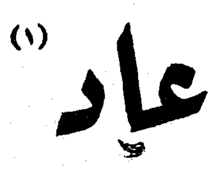
قلت : أما والله إن الرغبة الخالصة للعلم هى التى غطت على بصرى ، فمعذرة معذرة ، والعفو عند كرام الناس مأمول ؟

« للكلام صلة »

---

(١) فى مجمع الأمثال (الهاء) يضرب فى سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه .

(٢) مجمع الأمثال (الهمزة) يضرب لتقدير المسئولية .



عاد (١)

لحضرة الكاتب الكبير السيد صدر الدين شرف الدين

صور — لبنان

مرتين خلق الله (عاداً) .

خلقها يوم أنشأها أول مرة ، أمة ذات أيد وقوة ، وخلقها يوم أفناها عبرة ، يفتح منها للاعتبار كوة .

وجودين أتاح لها من عدمين .

أخرج الأول من فناء الأزل .. من ظلامه ، وأخرج الثانى فناء الأبد .. من ركامه .

فعاشت « عاد » فى أولها عيش حركة .. عيش تلاشى ، وعاشت فى ثانيهما عيش جمود .. عيش خلود .

بقاء فنى ، وفناء بقى .

امتدادات ذوات آفاق وأغوار ، تؤلف هذه الأضداد المتوافقة فى قصة « عاد » التى نفض « القرآن » الكريم الغبار عن أوراقها ، وعلقها فى (كعبة) التاريخ .

عاد فى القرآن :

والحق أن « عاداً » كانت جديرة أن ترتد إلى رحم الأزل لولا عناية القرآن الكريم ، فإذا فلت منها خبر ، لم يؤخذ إلا على أنه أسطورة من تمويه الخيال ،

---

(١) من كتاب جديد مخطوط للكاتب بعنوان « فجرنا العربى » .

وصنع الوضاعين ، ولكن القرآن الكريم جلاها حقيقة تاريخية ثابتة ، ثم أعارها من الاهتمام ما أعاد خلقها كما بدأه أول مرة ، فهي فيه مدار حديث يتكرر بالحاح شديد ، ويظهر بامتنان كلما استخدم التاريخ القديم لتنبيه الطغاة ، في صدد بيان قدرته ، وأخذه بأعراف الأقوياء ، ونواصي الجبابرة ، وقد صور « عاداً » في هذا الصدد قوة من القوة ، في مختلف المظاهر وشتى الأشكال : في بناء الأجسام ، وعنفوانية الانفس ، ونشاط الحياة ، وضخامة الآثار ، وشدة البطاش ، وبعد النفوذ ، وعظمة الثروة ، ولم تكن عنايته أقل ، إن لم تفق ، عنايته بقوم نوح قبلها ، وبثمود وقوم لوط وإبراهيم ، وبفرعون وأهل مدين بعدها ، بل لعله يصورهم أرسخ الأمم القديمة وأشدها شكيمة .

وأقل ما يترتب على هذا التأكيد الملح من أثر ، نفي الزيف عن وجودهم التاريخي (١) ، وحمايته من شكوك التحريف الذي تناول تفاصيل أخبارهم بتصوير أسطوري ، اشتهاه بعض القصاصين مثل كعب الأحبار ليمتع به بعض الملوك ، مثل معاوية ، أو يضلل به الرأي العام وفق سياسة معينة .

وقد تحدث القرآن الكريم عنهم في مواضع كثيرة منه ، تحدث عن عاد في سورة الأعراف ، وفي سورة التوبة ، وفي سورة هود ، وفي سورة إبراهيم ، وفي سور : المؤمنون ، والفرقان ، والشعراء ، والعنكبوت ، والسجدة ، و (ص) والأحقاف ، و (ق) ، والذاريات ، والنجم ، والقمر ، والحاقة ، والفجر .

نعم لم يكن القرآن مؤرخا ، وإنما أوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم من

---

(١) في محنة ابن رشد نسب إليه خصومه كلمة قيل إنها من أسباب نكبته ، وهي أنه قال — وقد شبهت عاصفة بريح عاد —: « وأن وجود عاد ما كان حقاً فكيف سبب هلاكهم » . ويقوى عندي افتراء هذه الكلمة عليه أنه — وهو العالم الفلكي — لا تخفى عليه طبيعة الريح التي يصورها القرآن ، وهي لا تزيد عما تسجله المراصد اليوم من سرعة العواصف التي تقتلع الأشجار ، وتهدم القصور ، وما أظن عصر ابن رشد غريباً عن هذه العواصف ، هذا فضلا عما يصحح ، مفاد الآية من وقوع منازل عاد في مواقع بركانية .

« أنباء الغيب » (١) ونتائج التاريخ ، عبراً تأخـــذ بأعناق قومه إلى الاستقامة والإيمان ، وعاد من تلك الأنباء مثل ما جاء مقصوداً لذاته كى يتخذ منه موضوعا مستقلا ، وإنمـا جاء شاهداً من شواهد الحياة فى معرض التحذير من العصيان ، والإغراء بالطاعة ، أو جاء ـ بعبارة أخرى ـ مشهداً من مشاهد العرض التاريخى فى رواية الحياة .

ومع ذلك فقد توافر حديثه العميق المحمل بالمعانى على إبراز ملامحها ، وتحديد أهم العناصر التى يحتاج إليهـا باحث يريد أن يؤرخ لعاد ، فحدد زمانها ، وحدد مكانها ، ووصف طبيعة أرضها ، وموارد عيشها ، وقوتها وفنها العمرانى ، وثقافتها الزراعية والحيوانية ، ثم صور كارثتها فى ضبط حسابى دقيق .

وإليك صوراً من حديثه عنها كمستندات فى هذه الخطوط الجوهرية من حياتها :

زمانهـا :

« ألم يأتـكم نبأ الذين من قبلـكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله . جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا : انا كفرنا بمـا أرسلتم به . وإنا لفى شك ممـا تدعوننا إليه مريب » سورة ابراهيم .

« وأنه أهلك عاداً الأولى » ـ النجم ـ والأولى : القديمـة خلافاً لوهم القدماء الذين رأوا عاداً ثانية ، إذ ظنوا (الأولى) عدداً . على حين أنها وصف .

« وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لـكم من إله غيره أفـلا تتقون » . « أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منـكم لينذركم ، واذكروا إذ جعلـكم خلفاء من بعـد قوم نوح . وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلـكم تفلحون » الأعراف .

ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفـكات ، أتتهم رسلهم بالبينات » التوبة .

(١) « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر أن العاقبة للمتقين » . سورة هود

مكانها :

« واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ، ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » الأحقاف .

طبيعة أرضها :

أثناء الجدل بين هود وقومه قال « وياقوم استغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا . ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين » هود .

قوتها وفنها العمرانى :

« كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود : ألا تتقون » . « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون » الشعراء .

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد » الفجر .

طغيانها :

« وأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة ، أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون » السجدة .

كارثتها :

« فأرسلنا عليهم ريحاً صرصرا ـ شديدة البرد . أو ذات صرير ـ فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى » السجدة .

« كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ، إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر ـ شديد المرارة أو متتابع ـ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ـ منقلع ـ » القمر .

« فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شىء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين » الأحقاف .

ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ » هود .

مدة الغارة :

« وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية » الحاقة .

صدى أخبارها :

كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى الريح فزع وقال : اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به ، وإذا رأى مخيلة ـ غيمة ـ قام وقعد ، وجاء وذهب ، وتغير لونه ، فيقال له : يا رسول الله مم تخاف ؟ فيقول : أخاف أن تكون كارثة عاد إذ قالوا هذا عارض ممطرنا (١) .

وكانت أشد آية فى جميع القرآن ، وأشق آية نزلت على النبى ـ كما يقول عبد الله بن عباس ـ هذه الآية :

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » هود .

وهى من الآيات الشداد الواردة فى هوامش قصة عاد ، والتعليقات عليها ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حين نزولها : لقد شيبتنى هود والواقعة وأخواتهما (٢) .

المحصول القرآنى :

يخرج الباحث من القرآن : هذا المصدر القدسي الأسمى ، مطمئنا يمشى فى أرض « عاد » على وضح بين عثار التاريخ ، وبيده من القرآن « بوصلة » تدله عبر المحيطات الخبرية على مقر عاد وراء الرمال .

والواقع أنه رسم لها صورة كاملة ، وأن لم يتخذ موقف المؤرخ ، فجاء تمامها على وجه تؤيده مكتشفات العلم الحديث إحدى معجزاته التى جهلها القدماء ، وخرّجوها لجهلهم ـ وهم معذورون ـ تخريجاً أسطورياً لا طبيعياً .

(١) الكشاف ج ٣ ص ٤٤٨ والبداية والنهاية قصة هود .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٢٣٧ .

وقبل أن أقص حكاية عاد مسدودة الثغرات ، أحب أن ألم أطراف صورتها العلمية القرآنية الرائعة ، فى ضوء ما علق بالذاكرة من نتائج الأدلة المادية المستخرجة من النصوص والمقارنات والآثار والبحوث (الجيولوجية) و (البيولوجية) و (الأنتروبولوجية) وما شاكلها من المعارف المتشابكة التى سهلها وقدمها للناس رجال الاختصاص بجهد يقل عنه شكره مهما عظم .

ضجة بابلية :

وقبل البدء يجب الاعتراف بأننى فى منفاى هذا على شاطىء صور من الأبيض المتوسط ، لا أملك من مصادر التاريخ غير (ضوضاء بابلية) من هذيان المؤرخين القدماء ، وتشويشهم فى هذا الموضوع ، وغير ذكريات دراسة تنقذها من العقم ملكة الفكر والتأمل والمناقشة ، أما الأدلة المادية من شواهد العلم الحديث فبعيدة عنى الآن ، إنها فى أدراج لا تألف منفاى المهتم بأخبار المعارك العشائرية فى ظل نظام قيل : أنه ديمقراطى !

ولو كنت إزاء بطل مثل (عوج) ابن عنق ، لهان الأمر ، وسهل الحديث كنت - إذن - أحدثك عن أعاجيبه يوم سخر بالطوفان ، وراح ينقل فوق أمواجه ساقين : قصبتاهما أطول من سارية السفينة ! وكنت - إذن - فى سعة الحرية الأدبية ، استخدم ما تشاء من خيال ، واصطنع ما تشاء من إغراب ، فى أمن من صرامة المهج التاريخى ، ورقابته العلمية .

ولكنى من « عاد » إزاء حقيقة تاريخية يلزمنى المنهج أن أتحدث عنها بأمانة ، وأن أنقلها بواقعها نقلا مؤثراً نافعاً ، باعتبارها جزءاً من ذلك (المركب) المعظم : الإنسان والأرض والحضارة ، إنساننا وأرضنا وحضارتنا .

وأنه لوهم ذلك الرأى الذى يقول بتحرر الحاضر ، كل حاضر فى ماضيه ، فإن الحاضر - فى أصح الأقوال - إنما هو نتيجة من نتائج الماضى الحتمية ، وأن خفيت المقدمات ، أو تماصت على الافهام لخفاء أسباب الربط ، ونحن الآن فى حاضر يأخذ برقبته ماض قديم ، ويشد على خناقه بقبضة قاسية يضاعف قسوتها أنها تمتد إلى عنقه فى ظلام ، ولكى نحرره من قسوتها ، ولا أقول منها ، يجب

أن نستجلى الماضى استجلاء متصلا متسلسلا ، وندرسه على أنه حكايتنا البشرية . . حكاية حياتنا المناضلة فى هذا الكون ، وبهذا نفيد من الماضى إخضاع تجاربه للارتقاء لا لامتاع الأذواق وإرضاء العواطف . واستثارة الإعجاب فقط .

و « عاد » كانت ساقية من نهرنا الكبير ، نعم ودفعها سوء المصير إلى أرض رملية عطشى ، فلم تلبث حتى ابتلعتها ، ولم ينته الأمر ، فقد التقت على رمسها رياح القضاء الهوج ، وبراكين الأعماق الحمر ، هذه تقيؤها ، وتلك تدملها ! .

ترى أتنتهى القصة عند هذا الحد ؟ لقد مضت آلاف السنين على هذا الحادث العجيب ، أفنيأس ؟ إنها حلقة من حياتنا ضاعت ، ولكن لابد من العثور عليها ، إن لم يكن الآن ففى وقت آخر ، وإن لم يكن بيدى فبيد باحث غيرى .

وأكثر ما أستطيع أنا فى هذا المنفى المهتم بتفاهات الإقطاع ، وسخافات العصبيات ، أن استهدى إلى تحديد زمنها بهدى القرآن مستعيناً بحركات المجتمع البشرى الكبرى التى دارت حول الجزيرة فى قلب هلالها الخصيب ، وشواطىء الأبيض المتوسط .

كانت الأمة العربية نائمة فى مهدها . . هذا صحيح ، ولكن الأمم الثائرة على أسوارها عيت بها أحيانا كثيرة ، ومتى استطيع العثور على رأس الخيط ، فى تحديد زمن معروف لهذا الشعب الضائع منا ، فإن لم أستطع فحسبي أن أستفهم .

من هى عاد ! ومتى ظهرت ؟ وأية أرض عمرت ؟ وكيف عمرت ؟ ومن أين جاءت ؟ ما عقيدة عاد ؟ ومن هو « هود » نبيها ؟ وكم عاشت ، وكيف انتهت ؟ ولماذا انقرضت ؟

تلك هى الأسئلة التى تجيب عنها قصة « عاد » التى أنا بصددها ، وليس شىء أسهل من تأليف هذه القصة على من يقتحم (ضجة بابل) ويصاب بعدواها ، أما الذى يخرج منها مالكاً لأمره ، فسيجد فى تأليفها حرجاً من أيسره عناء التوفيق بين متناقضات المصابين بالضجة البابلية ، وليس شىء أهدى إلى المعرفة فى هذا الخضم من التمسك بعرى القرآن ؟

أثر الفلسفة الإغريقية في الفكر الإسلامي

لحضرة الكاتب الفاضل الدكتور محمد البهى
أستاذ الفلسفة فى كلية اللغة العربية

— ١ —

(أ) مما لا شك فيه أن تنظيم الجدل وأسلوب الحجة فى الفكر الإسلامى قد استفاد كثيراً من المنطق الإغريقى الأرسطى .

والفكر العربى ، وإن كان يعرف قبل الاطلاع على المنطق الإغريقى ضرب التمثيل فى الاقناع ـ إلا أنه قد رحب بالتركيب المنطقى الدقيق الذى عرف فى القياس الأرسطى ، وأفسح له المجال فى المناقشة وتبادل الحجة العقلية .

(ب) كما تجاوز به نطاق الجدل فى الحجة إلى تنظيم العلوم العربية ، وتوسيع دائرة الاحتمال العقلى فى بحث أصول الفقه على وجه خاص ، وكتاب (المستصفى) للغزالى مثل واضح لذلك .

وقد كان المنطق الإغريقى بعد أن ترجم إلى اللغة العربية سبباً قوياً لدى العرب فى ترجمتهم بقية أنواع الفلسفة الإغريقية : من إلهية وأخلاقية ، ورياضية وطبيعية .

(ح) والفكر الإسلامى كما انتفع فى صورة إيجابية بالمنطق الإغريقى على النحو المشار إليه ـ انتفع أيضاً بالجانب الرياضى : فاستخدم تعلم الرياضة لتربية الملكات الذهنية وللتدريب العقلى على العموم . ومن ناحية أخرى تأثر بها فى تنظيم العلوم العربية وضبط قواعدها ، وباب الميراث فى الفقه الإسلامى ، وحصر احتمال الدلالات والإمكانيات حصراً عقلياً فى العلوم العربية يشير إلى هذه الظاهرة .

— ٢ —

لكن بقية جوانب الفكر الإغريقى : وهى الإلهيات والأخلاق لم يستطع الفكر الإسلامى أن يتأثر بها بحيث تُعد مقدمات أو لبنات فى بنائه ، أو بحيث تمثل حلقة فى تطوره ، وذلك لأن الفكر المنطقى الأغريقى ، وكذا الجانب الرياضى فيه عند ما ترجما إلى اللغة العربية وجدا ميدانا رحبا خالياً فى تاريخ الفكر الإسلامى فلم يكن للإسلام رأى معين فى هذين الجانبين .

هذا سبب . وهناك سبب آخر هو أن هذين الجانبين كانا جديدين كل الجدة على العقلية العربية لما لها من طابع الدقة والضبط .

أما الجانب الإلهى وكذا الجانب الأخلاقى من الفلسفة الإغريقية ، فبعد ترجمتهما إلى اللغة العربية وجدا أن الاسلام بتعاليمه فى الإلهيات والأخلاق قد سبقهما فى قيادة التوجيه فى الجماعة الاسلامية ، وفى احتلال المكان الأول فى تفكير المسلمين وإيمانهم .

ولهذا وضع العقل الاسلامى هذين الجانبين موضع النظر والأخذ والرد ، وكان مقياس ردهما ودفعهما هو نفس مقياس الأخذ بهما وقبولهما ، كان هذا المقياس هو الدفاع عن الاسلام .

وإذا قيل : إن الفكر الاسلامى قد تأثر بالفلسفة الالهيــــة والأخلاقية الاغريقية ، فذلك على معنى أن هذه الفلسفة قد أثارت عملا عقلياً لدى المسلمين واسع النطاق ، يدور مرة حول قبول هذه الفلسفة ، ومرة أخرى حول رفضها ، فالذين يُعرفون بفلاسفة المسلمين كالفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد دار عملهم العقلى حول التدليل على أن الفلسفة الالهية والأخلاقية الاغريقية توافق تعاليم الاسلام ، ويلائم بعضها بعضاً .

وعلماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة وإن قبلوا بعض مبادىء الإغريق فى ذلك كمبدأ الجوهر الفرد ، ومبدأ الوحدة من كل وجه فى العلة الأولى ، إلا أن صفتهم العقلية كانت تدور حول بيان : أن الفلسفة الإغريقية الإلهية والأخلاقية

تتعارض مع تعاليم الإسلام ، إما من كل وجه أو من بعض الوجوه ، ففكرة قدم العالم ، وفكرة الفيض ، والقول بالطبع فى شأن العلة الأولى ، والقول بأن العلة الأولى مادة رقيقة على نحو قول الرواقيين ، والقول بعدم مسئولية الإنسان أمام الموجود الأول ، والقول بأن الموجود الأول لا يعرف ما يدور فى العالم ، وبالتالى ليس مريداً للشرفية . وأمثال هذه الأقوال كانت محور المعارضة من جانب أو دفع هذه المعارضة من جانب آخر .

لهذا لم يأت المسلمون فى إلهيات الإغريق وأخلاقهم بجديد يعد بناءً واستمراراً فى تطور الفكر الإغريقى ، كما لم يتأثروا بهذا الفكر فى هاتين الناحيتين تأثراً إيجابياً بحيث يصور فى نفسه مرحلة تمد لاحقة لما قبلها ومقدمة لما بعدها .

ولكن مع ذلك يصح أن يقال : أن الفكر الإسلامى الفلسفى عند ما نقل إلى الغرب لم يكن هو نفس الفكر الإغريقى الذى نقل إلى المسلمين أولا ، بل الذى نقل إلى الغرب عن المسلمين ، كما يمثل الفكر الإغريقى يمثل الكفاح العقلى للمسلمين حول مبادىء الفكر الإغريقى فى هذين الجانبين : الإلهى والأخلاقى على وجه أخص . هذا الكفاح الذى طال أمده ، واتسعت رقعته ، واشتركت فيه أجيال متعاقبة من علماء المسلمين فى شرق الدولة الإسلامية ومغربها .

ولهذا لا أعتبر تعليق أمثال جولد زيهر المجرى ، وهارتمان الألمانى ، وكارا دى فو الفرنسى من المستشرقين ، وأخالفهم الرأى فيما يقولونه ، فهم يذهبون إلى أن المسلمين لم يستطيعوا أن يهضموا الفكر الإغريقى ، ولذا لم يكن لهم بناء فى مدارس الإغريق ، ويعللون ذلك بأن العقل العربى يستطيع التقليد والمحاكاة ، ولكنه لا يقدر على البناء .

لا أميل إلى اعتبار هذا التعليق اعتباراً علمياً من جانب أمثال هؤلاء المستشرقين لأن السبب فى أن العقل الإسلامى لم يأت بجديد فى الفكر الإغريقى الإلهى يعد استمراراً فى تطوره ـ يرجع إلى أن فى الفكر الإغريقى القديم ما يعارض تعاليم الإسلام ، ولهذا اتجه العقل الإسلامى بعد أن اطلع على الفكر الإغريقى من أول

الأمر، إما لإبراز هذه المعارضة أو محاولة سترها، وإذن لم يكن السبب هو ضعف العقل الإسلامى عن الانتاج الفكرى ، إذ لو كان العقل الاسلامى ضعيفاً عن الانتاج الذهنى ، لما استطاع الكفاح فى صورة القبول والدفع للمبادىء الاغريقية التى تتعارض مع الاسلام ، ولما استطاع البناء فى جوانب أخرى كالطب والرياضة مثلا .

فهذا الكفاح هو كفاح عقلى وإنتاج عقلى ، ولكنه لا يعد استمراراً لتفكير سبقه ، لأنه لم يقم على أساس التسليم بما سبقه والاعتراف به .

ولهذا لا يصح أن يدعى أيضا أن مرحلة آباء الكنيسة فى القرون الوسطى التى يمثلها توماس الاكوينى وأوغسطين ، تعد فقط ترديداً للفكر الاغريقى ، إذ الذى عمله المسلمون فى إلهيات الاغريق وأخلاقهم يشبه ما عمله مفكرو المسيحية فى القرون الوسطى فى هذين الجانبين .

إن الفلسفه تنشد الحقيقة لأنها ولدت من صراع العقل الانسانى العام ضد الهوى والتحيز ، إن الفلسفة نشأت عن ثورة مفكرى الاغريق ضد اصحاب المعرفة الدينية فى جماعة الاغريق بعد أن سلك هؤلاء فى توجيه المعارف الدينية مسلك الحريص على تحقيق مصلحته الخاصة ، ولكن باسم الله أو باسم العقل العام الذى هو آية الله فى هذه الأرض .

إن الفلسفة لذلك تنكر على المشتغل بها أن يتحيز ، وأن يؤمن مقدما بفكرة معينة فى موضوع يبغى بحثه والحكم عليه ؟

جار الله الزمخشري
وأثره في البلاغة العربية

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ على العمارى

المدرس بالأزهر

ثلاثة من أعلام العلماء نشأوا فى أقليم واحد ، فى ثلاثة عصور متتابعة ، وكان لكل منهم أثره فى علوم البيان ، أولهم الإمام عبد القاهر الجرجانى (النحوى) ، وقد عاش فى القرن الخامس ، والثانى جارالله ، وقد عاش فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس ، وثالثهم أبو يعقوب السكاكى ، وقد شهد جزءاً كبيراً من أواخر القرن السادس ، وجزءاً آخر من أوائل القرن السابع (توفى سنة ٦٢٦ هـ) .

كتب عبد القاهر أبرع ما كتب فى علوم البيان - وإن كان ابن خلدون لم يذكره فيمن دونوا هذه العلوم - وكان طبيعياً أن يتأثر به العالمان بعده لقرب الديار ، ووفرة الرغبة - عندهما - فى الاطلاع والدرس ، فأما السكاكى فقد تأثر بعبد القاهر تأثراً بعيد المدى ، ويظهر ذلك واضحاً لمن يطالع ما كتبا .

ولا يفوت السكاكى أن يشيد بجهود عبد القاهر ، ويثنى عليه ، وأما الزمخشرى فعلى طول ما نظرت فى كتابه لم أهتد فيه إلى رأياً للشيخ الكبير ، ولعل مرجع ذلك إلى قرب العهد ، وسوء حظ الشيخ فى مبدأ الأمر ، فقد جنت عليه إقامته فى بلده ، وعدم مغادرته ، فلم تعرف كتبه إلا بعد حين .

ومع عدم تأثر الزمخشرى بعبد القاهر - فيما ظهر لى - لم يدّع الزمخشرى أنه فى هذه الدقائق البيانية ابن بجدتها ، وإنما كان يحيل على علماء البيان ، ولكن

لا يبعد أنه نظم بعض المعارف البيانية ، واهتدى إلى بعض الجزئيات ، ولا أشك فى أن السكاكى استعان بصنيع الزمخشرى هذا ، واهتدى بنبراسه فى كثير من قواعده التى دونها فى كتابه (المفتاح) ولنضرب لذلك مثلا ، عند قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » يقول : (واعلم أن هذا النوع من الاستئناف يجىء تارة بإعادة اسم ما استؤنف عنه الحديث كقولك ، أحسنت إلى زيد ، زيد حقيق بالإحسان ، وتارة بإعادة صفته كقولك ، أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك ، فيكون الاستئناف بإعادة الصفة أحسن وأبلغ لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه ، وفى اسم الاشارة الذى هو أولئك إيذان بأن ما يرد عقيبه ، فالمذكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التى عددت لهم كما قال حاتم ، ولله صعلوك ، ثم عدد له خصالا فاضلة ، ثم عقب تعديدها بقوله :

فذلك إن يهلك فحسنى ثناؤه وإن عاش لم يقعد ضعيفا مذمما

ومعنى الاستعلاء فى قوله (على هدى) مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه ، وتمسكهم به ، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشىء وركبه ، ونحوه هو على الحق ، وعلى الباطل ، وقد صرحوا بذلك فى قولهم : جعل الغواية مركبا ، وامتطى الجهل ، واقتعد غارب الهوى ، ونكر هدى ليفيد ضربا مبهما ، لا يبلغ كنهه ، ولا يقادر قدره كأنه قيل ، على أى هدى ، كما تقول ، لو أبصرت فلانا لأبصرت رجلا ، وقال الهذلى :

فلا ، وأبى الطير المربة بالضحى على خالد ، لقد وقعت على لحم

وفى تكرير أولئك تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الأثرة بالهدى ، فهى ثابتة لهم بالفلاح ، فجعلت كل واحدة من الأثرتين فى تمييزهم بها عن غيرهم بالمثابة التى لو انفردت كفت مميزة على حيالها .

(فان قلت) لم جاء مع العاطف ؟ وما الفرق بينه وبين قوله : أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ؟ (قلت) : قد اختلف الخبران هنا ، فلذلك دخل العاطف بخلاف الخبرين ثمة فأنهما متفقان ، لأن التسجيل عليهم بالغفلة ،

وتشبيهم بالبهائم شيء واحد ، فكانت الجملة الثانية مقررة لما في الأولى ، فهى من العطف بمعزل ، وهو فصل ، وفائدته الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة ، والتوكيد ، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره ، ومعنى التعريف فى المفلحون الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك عنهم أنهم يفلحون فى الآخرة ، كما إذا بلغك أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو ، فقيل زيد التائب ، أى هو الذى أخبرت بتوبته ، أو على أنهم الذين أن حصلت صفة المفلحين ، وتحققوا ماهم ، وتصوروا بصورتهم الحقيقية فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة ، كما تقول لصاحبك : هل عرفت الأسد ، وما جبل عليه من فرط الاقدام ، إن زيداً هو هو) .

وإنما أطلت بهذا المثل لأدلك أولا على طريقة الزمخشرى فى تدوين اللطائف البلاغية ، ولأضع يدك على موضع القوة والسلامة والخلو من الفضول فى بيانه ، ولأقول لك ثانياً : إنه ذكر فى هذه الجملة نحو سبع جزئيات بيانية ، فارجع إلى كل منها فى كتاب السكاكى فستجد الدليل الواضح على تأثر السكاكى بالزمخشرى وأخذه عنه .

° ° °

علماء البيان ـ ومنهم الزمخشرى ـ متفقون على أنه لابد لمن يتعاطى التفسير من معارف واسعة ، ومتنوعة ، ربما لا تتهيأ إلا لأفراد الناس ، وفى الندرة ، وليس يكفى أن يكون العالم متبحراً فى مادة أو مادتين ليسوغ له أن يخوض فى التأويل . « فالنحوى وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه ، لا يستطيع واحد منهما ولا من كان على شاكلتهما ممن نبغ فى علم واحد ، أن يسلك تلك الطرائق ، ولا أن يغوص على شيء من هذه الحقائق .

ويرى أن أول ما يجب لهذا العمل أن يكون الرجل بارعا فى علمين مختصين بالقرآن ، هما : علم المعانى والبيان ، ثم يأخذ من سائر العلوم بحظ ، وأن يكون حافظاً محققاً ، كثير المطالعات ، ولا بد أن تكون له طبيعة مسترسلة ، وقريحة

مشتعله (قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويرصف ، طالما دفع إلى مضايقه ، ووقع فى مداحضه ومزالقه) .

وإذا كان الزمخشرى قد جعل علمى المعانى والبيان كالأصلين لدراسة كتاب الله فإن هذه اللمحات التى أشار إليها من دقائقه ، وأنه لحق ألا يعرف أسرار الكلام إلا من كان مشتعل القريحة وقادها ، دراكا للمحة ، منتبها للرمزة طالما دفع إلى مضايق الكلام ، ووقع فى مداحضه .

على أن من التفسير نوعا لا يحتاج إلى كل هذا ، وهو التفسير النقلى الذى يعتمد على الآثار المنقوله ، لكن الطريقة التى نهجها جار الله فى التفسير ، وهى طريقة متأخرة ، بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة تحتاج إلى علم غزير ، مع فطرة سليمة ، وهذا ما كان عند الزمخشرى ، ولذلك جاء تفسيره سجلا لكثير من المباحث البيانية ، واللغوية ، والنحوية ، ويرى ابن خلدون أنه مبنى على علم البيان (وهو كله مبنى على هذا الفن وهو أصله) غير أن اعتزال الزمخشرى ، وإتيانه بالحجاج على طريقة أهل العدل والتوحيد جعل مخالفى المعتزلة ينفرون منه بعض النفرة .

وقد أحدث هذا حركة بلاغية واسعة النطاق حول آى الكتاب الكريم ، فقام غير واحد من أهل السنة بتتبع الآيات ، وتبين أن البلاغة إنما تقع فى الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة ، ومن أشهر من كتب فى ذلك شرف الدين الطيبى من أهل توريز من عراق العجم ، وبين أيدينا كتاب الانتصاف لناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير السكندرى ، وقد كانت عنايته متوجهة إلى أن يرد على الزمخشرى فى العقائد ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يمتدحه فيما أتى به من وجوه البلاغة ، ومن ذلك ما كتبه تعليقا على كلام الزمخشرى عند قوله تعالى : « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » قال صاحب الانتصاف : (هذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر لا بالحبر) .

وهى شهادة لها قدرها ، إذ هى من ناظر فى العيوب قبل المحاسن ، وباحث عن العثرات لا عن الحسنات .

كما اختلف علماء البيان فى كلامه ، فتناظروا فى تخريج عباراته ، وفى الانتصار له ، والتعصب عليه ، وذكرت له آراء مستقلة فى كتب البلاغة كانت موضع مناقشات بين العلماء ، ومن أشهر ذلك المناظرة التى وقعت بين السعد والسيد حول اجتماع الاستعارة التمثيلية والتبعية فى كلام الزمخشرى عند قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم » .

والناس فى هذا العصر يطالعوننا بشىء يزعمونه جديداً ، ويؤكدون أن القدماء لم يتنبهوا إليه ؛ يقولون إن قواعد البيان يجب أن تقوم على أصول علم النفس ، ولكن الحقيقة أن القدامى تنبهوا لهذه الملاحظ وصدروا فيما كتبوا عنها ، وكل ما فاتهم أنهم لم يجعلوا هذه الأمور النفسية علما ، وإن كانوا تنبهوا إلى أثرها فى الكلام ، ونكتفى هنا ـ وبهذه المناسبة ـ بمثل واحد من أمثلة كثيرة ، يبين كيف يختلف الأسلوب تبعاً لاختلاف مكان معانى الكلام من النفس ، فيترك تأكيد الحكم المنكر لأن نفس المتكلم لا تساعده على تأكيده ، ويؤكد الحكم المسلم لصدق الرغبة فيه والرواج ، وذلك حيث يقول صاحب الكشاف فى قوله تعالى : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم » ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما لأنهم فى ادعاء حدوث الإيمان منهم لا فى ادعاء أنهم أوحديون فيه ، إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه ، لعدم الباعث والمحرك من العقائد ، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة ، وإما مخاطبة إخوانهم فى الإخبار عن أنفسهم بالثبات على اليهودية فهم فيه على صدق ورغبة ووفور نشاط ، وهو رائج عنهم متقبل منهم ، فكان مظنة للتحقيق ، ومئنة للتوكيد .

وفى هذه النظرات وأمثالها ما يرد على بعض من كتبوا فى البلاغة من المحدثين ، حيث عابوا على المتقدمين أنهم قصروا التوكيد وعدمه على حال المخاطب دون حال المتكلم .

وللزمخشرى جهود أخرى فى خدمة البيان العربى ، منها تلك الجهود التى اشتمل عليها كتابه : « أساس البلاغة » هذا الكتاب ـ لاشك ـ نسيج وحده ، فهو وإن كان كتاب لغة ، لكنك تجد فيه مزايا كثيرة غير لغوية ، فالزمخشرى لم يذكر المواد اللغوية جافة ـ كما يصنع أصحاب المعاجم ـ وإنما كان يذكر معنى الكلمة ، ثم يسوق عبارات مر استعمالاتها من كلامه أو كلام الشعراء والخطباء ، وهو يقول فى ذلك أنه تخير لهذا الكتاب ما وقع فى عبارات المتقدمين ، وانطوى تحت استعمالات المملقين من التراكيب التى تملح وتحسن ، ولا تنقبض عنها الألسن لجريها رَسَلات على الأَسَلات ، ومرورها عذبات على العذبات ، ويتحدث بأنه أطال البحث والتنقيب فى العربية ، وفلى لهذا الكتاب ما فصح من لغاتها ، وملح من بلاغاتها ، وما سمع من الأعراب فى بواديها ، ومن خطباء الحلل فى نواديها ، كما أنه عنى فى كثير من المواد بالفصل بين الحقيقة والمجاز ، وهذا شىء انفرد به عن جميع كتب اللغة ، وإن كان لم يذكر ذلك فى كل المواد ، وإن كان يخلط فى بعض الأحايين بين المجاز والكناية والتشبيه ، مع أن الفوارق بينها واضحة فى كتابه الكشاف .

وكان الباعث له على تأليف هذا الكتاب أن يتخرج عليه جيل لغوى عربى فصيح ، خَضْل النثر ، جزْل الشعر ، يناهض المتقدمين ، ويخاطر المقرمين ، ولا يرى هذه الغاية بعيدة ، ولكنها فى حاجة إلى أشياء أخرى غير مطالعة كتابه ، (فمن حصل على هذه الخصائص ـ التى ذكرها فى كتابه ـ وكان له حظ من الإعراب الذى هو ميزان أوضاع العربية ومقياسها . وأصاب ذروا من علم المعانى ، وحظى برس من علم البيان ، وكانت له قبل ذلك قريحة صحيحة ، وسليقة سليمة) فقد أوفى على الغاية .

ونلاحظ أن جار الله لم يفته فى كل مناسبة يتحدث فيها عن النبوغ فى اللغة ودراستها ، لم يفته أن يشير إلى ضرورة القريحة الوقادة اللماحة ، والسليقة الصحيحة السليمة ، وهى نظرة دقيقة لها مغزاها البعيد .

فى معجم الأدباء أن ولادة الزمخشرى كانت فى سنة ٤٦٧ هـ ، ووفاته كانت سنة ٥٠٨ هـ ، وفى بعض كتب التراجم أن ولادته كانت سنة ٤٩٧ هـ ، وأكاد أجزم بأن الرواية الأولى هى الصواب لأمور :

أولا : أن الزمخشرى فرغ من تأليف كتابه المفصل سنة ٥١٥ هـ ، فيكون معنى هذا أنه ألف هذا الكتاب - وهو (ما هو فى النحو) - وسنه ثمانية عشر عاما .

ثانياً : أنه فرغ من تأليف الكشاف الذى قال أنه بدأ فى تأليفه بعد أن تقدمت به السن فى سنة ٤٢٨ ، فسنه حينئذ ثلاثون سنة ، وهذه ليست بالسن المتقدمة .

ثالثاً : ذكر الزمخشرى أنه بدأ فى تأليف الكشاف ، وقد ناهز العشر التى تسميها العرب دقاقة الرقاب ، فعلى الرواية الأولى تكون هى العقد السابع ، وهو المعقول ، وعلى الرواية الثانية تكون هى العقد الثالث ، وليس ذلك بمقبول .

لذلك أرجح بأن ولادة الزمخشرى كانت على ماورواه صاحب المعجم ، فيكون كحل عينيه بهذه الدنيا قرابة اثنتين وسبعين سنة .

هذا ، وقد فرغ الزمخشرى من تأليف الكشاف فى مكة المكرمة ، فى الحرم الشريف ، ومكث فى تأليفه كما يقول : مقدار مدة خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان يقدر تمامه فى أكثر من ثلاثين سنة .

رحم الله جار الله ، وأجزل له المثوبة ؟

العلوم الدينية
وأسلوب تدريسها عند الشيعة الإمامية

لحضرة الكاتب الأديب السيد محمد صادق نشأت
الأستاذ المنتـــدب بكلية الآداب بجامعة القاهرة

لقد أفاد الإمام السادس عند الشيعة ، جعفر الصادق (ع) الذى ينسب إليه أساس مذهب الشيعة وفقهه وحكمته وكلامه وأصول معتقداته من الصراع بين الأمويين وبنى العباس (وهما فى نظر الشيعة غاصبون للخلافة) ووطد البناء الأساسى لمذهب الشيعة بما كان يلقيه على تلاميذه من دروس وتعاليم لدرجة أن اشتهر هذا المذهب بالمذهب الجعفرى .

وكان بيت جعفر الصادق كالجامعة ، يزدان على الدوام بالعلماء الكبار فى الحديث والتفسير والحكمة والكلام ، فكان يحضر مجلس درسه فى أغلب الأوقات ألفان وفى بعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين ، وقد ألف تلاميذه من جمع الأحاديث والدروس التى كانوا يتلقونها فى مجلسه مجموعة من الكتب تعد بمثابة دائرة معارف للمذهب الشيعى أو الجعفرى ، وقد بلغ عددها فى أيام الإمام الحادى عشر أربعمائة كتاب .

فهشام بن الحكم ، والطاقى ، وزرارة ، وأبو بصير ، ومحمد بن مسلم من نوابغ تلاميذ جعفر الصادق ، وهم فى الحقيقة المرجع الأصلى لفقه المذهب الجعفرى ، أو مذهب الشيعة وحكمته ، وكان خلفاء الإمام جعفر الصادق كذلك يعدون مورداً فياضاً للاستفادة المذهبية والعلمية للشيعة ، إلى أن آل الأمر إلى الإمام الثانى عشر وقد صار العلماء الكبار الأربعة ـ أعنى حسين بن روح ، وعلى بن محمد ابن محمد السمرى ، وعثمان بن سعيد ، ومحمد بن عثمان ـ الذين كان لهم سمة النيابة الخاصة عن الإمام الثانى عشر ـ مرجعاً لعلوم الشيعة ودروسهم أولا ، ومن بعدهم صارت

نيابة الإمام عامة ، فكان يصل إلى مقام النيابة العلماء والمدرسون الذين كان لهم مقام الاجتهاد ، أى الذين يستطيعون أن يستنبطوا حسب قواعد علم الأصول والقواعد الفقهية المذهبية المتعلقة بالعبادات والمعاملات والتعاليم المأثورة عن النبي والأئمة ، ويلقنوها بدورهم لأتباع المذهب .

وأقدم وأكبر هذه الزمرة من العلماء ثلاثة تسموا باسم محمد ، وهم الذين دونوا الكتب الأربعة ، أو (الصحاح الأربعة) عند الشيعة - وهى كالصحاح الستة عند السنة - وذلك طبقاً لأصول الأربعمائة والأحاديث المروية عن الرسول وعن الأئمة عن جدهم وهؤلاء الثلاثة هم :

١ — أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني (المتوفى سنة ٣٢٩ هـ) صاحب كتاب الأصول والفروع الكافية .

٢ — الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن بابويه القمى (المتوفى سنة ٣٨١هـ) مؤلف كتاب : « من لا يحضره الفقيه » .

٣ — أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى المعروف بشيخ الطائفة (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ) الذى ألف كتابى التهذيب والاستبصار .

والكتابان الأخيران مع كتابى الكافى و (من لا يحضره الفقيه) وهى التى دونت بقلم هؤلاء الثلاثة المسمون (أبو جعفر محمد) أهم الكتب الدينية عند الشيعة الإمامية ، وهى فى حكم صحاح المذاهب الأربعة عند أهل السنة .

وكان الشيخ مفيد أبو عبد الله محمد بن النعمان (المتوفى سنة ٤١٣ هـ) والشيخ الطوسى فى طليعة العلماء الذين دونوا فقه الشيعة وأصولهم ، وبعد ذلك ألف المحقق الحلى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ ، وابن أخيه العلامة حسن بن يوسف بن المطهر (٦٤٨ — ٧٢٦ هـ) كتباً كثيرة فى فقه وأصول قواعد الشيعة ، أشهرها تهذيب الأصول ، ونهاية الأصول ، والشرائع والقواعد ، والتذكرة ، والتبصرة ، وقد ألف كتباً كثيرة فى هذا المذهب الشهيد الأول محمد بن المكى الدمشقى المقتول سنة ٧٨٦ هـ ، والشهيد الثانى زين الدين على بن أحمد العاملى المقتول سنة ٩٦٦ هـ .

اللذان ظهرا ببلاد الشام وذهبا شهيدين ضحية لتعصب المخالفين ، وأهم هذه الكتب اللمعة ، والقواعد ، والمذكرة ، وشرح اللمعة . . . وكذلك ظهر فى علوم الفلسفة والعلوم الإلهية علماء مشهورون فى التشيع أعظمهم نصير الدين الطوسى (٥٩٧ - ٦٧٢) العالم الفلكى الرياضى الكبير ، وكان مستشار هولاكو خان المغولى فاتح بغداد ، وكتابه التجريد وشرح الإشارات مستغن عن كل وصف .

هذه الجماعة من العلماء ، وكثير غيرهم من قبيل السيد المرتضى علم الهدى (سنة ٣٥٥ - ٤٢٦ هـ) والذين لم تذكر أسماؤهم فى هذا الموجز ، هم الأشخاص الذين ظهروا فى عهد الحكومات السنية فى إيران والعراق والجهات الأخرى من أواسط القرن الثالث حتى أواخر القرن الثامن الهجرى ، ونشروا علومهم ومعتقداتهم المذهبية التى كانت دائماً معرضة لحملات المخالفين ، واستطاعوا بجهدهم وتضحياتهم أن يخرجوا مؤلفات وآثاراً بارزة فى تقرير المذهب الشيعى وقواعده وأصول تدريسه .

وفى أواخر القرن الثامن الهجرى حيث ظهر الشاه إسماعيل الصفوى وجعل مذهب الشيعة المذهب الرسمى للشعب والمملكة الإيرانية وأسس السلطنة الصفوية ، نشط علماء إيران من الشيعة فى دعوتهم ونشر مذهبهم ، ودونوا المؤلفات وكثيراً من الآثار العلمية النفيسة . ومنذ ذلك التاريخ اتخذ المذهب الشيعى - فضلا عن الناحية الدينية - لوناً جديداً مصطبغاً بالسياسة الإيرانية فى مقابل السياسة العثمانية .

وفى ذلك العهد الذى انتهى بانقراض الأسرة الصفوية ، وغلبة الأفغان سنة ١١١٢ هـ ، ظهر كذلك جماعة من العلماء أمثال المحقق الكركى والشيخ الحر العاملى والمقدس الأردبيلى والشيخ بهاء الدين العاملى وعبد الرازق اللاهيجى ومير داماد وملا صدرا (صدر الدين الشيرازى) ، ولكن أكثر هذه الجماعة نفوذاً وأثيراً الملا محمد تقى ونجله ملا محمد الباقر المعروفان بالمجلسى الأول والمجلسى الثانى .

وقد بقى كذلك الأساس الذى كان قد وضعه الصفوية لترويج مذهب التشيع مع استيلاء الأفغان وهم من أتباع المذهب السنى ، ونادر شاه وهو شيعى يميل

إلى رفع الخلافات ويعمل لأجل ذلك ، وقد عقد مؤتمراً من علماء الفريقين لتلك الفكرة بضعاً وثلاثين سنة ، وقد ظهر فى نفس تلك الأيام ، وفى عهد الزندية والقاجارية علماء كبراء آخرون ما زالت دروس طلاب العلوم الدينية فى الأعتاب المقدسة على أساس تأليفاتهم وكتبهم ، مثل آقا محمد الباقر البهبهانى (١١١٠ - ١٢٠٥ هـ) الملقب بمحقق ومروّج ومجدّد مذهب الشيعة ، وميرزا محمد الاخبارى الاسترابادى المتوفى سنة (١٠٢٣ أو ١٠٢٦) والشيخ محمد بن ابراهيم الكاباسى المتوفى سنة ١٢٦٢ هـ ، والسيد محمد المهدى بحر العلوم البروجردى المتوفى سنة (١١٥٨ - ١٢١٤ هـ) والشيخ محمد حسن الأصفهانى النجفى المتوفى سنة ١٢٦٦ هـ صاحب جواهر الكلام ، وآقا سيد على المتوفى سنة ١٢٢١ هـ صاحب الرياض والشرح الكبير ، وآقا سيد ابراهيم القزوينى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ صاحب ضوابط الأصول والشيخ جعفر النجفى المتوفى سنة ١٢٢٨ هـ صاحب كشف الغطاء ، والسيد محمد الباقر الخونسارى المتوفى سنة ١٣١٣ هـ صاحب كتاب روضات الجنات ، وميرزا أبو القاسم القمى المتوفى سنة ١٢٣١ صاحب القوانين ، والعلامة الحاج ميرزا حسين نورى (١٢٥٤ - ١٣٢٠ هـ) صاحب مستدرك الوسائل ، والحاج ميرزا حسن الشيرازى المتوفى سنة ١٣١٢ ، والشيخ مرتضى الانصارى (١٢١٤ - ١٢٨١) ، صاحب كتاب فرائد الأصول المعروف بالرسائل ، والأخوند ملا محمد كاظم الخراسانى المتوفى سنة (١٢٥٥ - ١٣٢٩) مؤلف كتاب كفاية الأصول ، وهو من أهم الكتب الدراسية لطلاب العلوم الدينية من أكبر علماء الأصول فى القرن الأخير ، وميرزا محمد تقى الشيرازى وسيد محمد كاظم اليزدى ، وكثير أمثالهم من العلماء الأجلاء .

وبناء على السنة الجارية عند هؤلاء العلماء يصل الطلاب إلى درجة الاجتهاد ، أى درجة الأستاذية فى العلوم الدينية بعد استنباط الأحكام الشرعية من الأصول والقواعد الفقهية ، ومن يك منهم أعلم الجميع وأفقههم وأتقاهم وأعدلهم ، يصبح المرجع الأعلى الذى يرجع إليه الشيعة ويقلدونه ، ويقال لمن طبق أحكامهم وفتاواهم الشرعية مقلدون .

والكتب المقررة للتدريس وتعليم طلاب المذهب الشيعى ، هى تلك الكتب التى ألفها العلماء المذكورون آنفا فى أصول الفقه ، والذين يدرسون الكتب المذكورة يفيدون من استخدام قواعدها ، وفى استنباطاتهم الفقهية يحصلون على درجة الاجتهاد ويقال لهم مجتهدون ، ولكن يتحتم عليهم قبل البدء بدراسة هذه الكتب أن يقوموا بدراسات أخرى فى الصرف والنحو والمعانى والبيان واللغة العربية والمنطق والأدب تمهيداً لها .

ومحصلو هذه العلوم يقال لهم الطلبة أو الطلاب ، ولا يشترط سنة محددة للبدء فى التحصيل ، ولكن أغلب المبتدئين يبدأون الدراسة بعد سن البلوغ . ولا يكلف الطلبة بأى نوع من النفقات غير احضار الكتب ، ولا يتقاضى المدرسون منهم أجراً أو يتطلعون إلى شىء آخر، وإن كان الطلاب فقراء ـ وأغلبهم كذلك ـ يمدهم كبراء العلماء مما يصل إليهم من التبرعات ووجوه الخير من المقلدين ، وكلما تقدموا فى تحصيلهم ازدادت هذه المعونة لهم إلى درجة تكفى لسد جميع حاجاتهم من هذا الطريق ، وهى من حيث البساطة والقناعة بمكان .

وزى الطلاب على اختلاف أجناسهم هوعادة الزى العربى المعروف ولا فارق إلا أنهم يلبسون العمائم ، فمن كان منهم من نسل النبى عليه الصلاة والسلام يلبس العمامة الخضراء أو السوداء ، وبقيتهم يلبسون العمائم البيضاء . وأماكن التحصيل أبنية واسعة ممتازة اصطلحوا على تسميتها بالمدارس ، وليست هذه المبانى ملكا خاصا لأحد ، وقد بناها كلها ثراة الشيعة من الإيرانيين فى العتبات المقدسة (مثل كربلاء والنجف والكاظمية وسامرا وقم ومشهد) وطهران وأصفهان وشيراز وتبريز ويزد وغيرها من البلاد من أموالهم الخاصة ، وقد وقفوا عليها الأوقاف لحفظها ومرمتها على أن يصرف ريعها من بعدهم عليها ولا تترك حتى تتهدم بمرور الأيام .

وبهذه المدارس غرف صغيرة على نمط واحد تخصص كل منها لسكنى طالب أو طالبين ، وهذه الغرف التى يسمونها حجرات إما أن يسكنها الطلاب ليل نهار وإما أن يقضوا فيها أوقات النهار للمطالعة وكتابة دروسهم ، ويعودون ليلا إلى بيوتهم الخاصة إذا لم يكونوا غرباء .

وهؤلاء الطلاب يقسمون حسب المعلومات التى يدرسونها إلى ثلاث طبقات :

أولا : طلاب الدراسات التمهيدية :

ثانياً : طلاب السطح أو الدراسات الوسطى .

ثالثاً : طلاب الخارج أو الدراسات العالية .

ويدرس طلاب الدراسات التمهيدية أولا كتاب (جامع المقدمات) الذى يشمل الأمثلة و (صرف مير) والتصريف وغير ذلك ثم يدرسون بعد ذلك كتب الأنموذج والصمدية والألفية والمغنى .

وهذه الكتب كلها تشتمل على الصرف والنحو العربى ، والذين يريدون التبحر فى هذه الموضوعات يتتبعونها فى كتب السيوطى والألفية وشرح الرضى والجامى وكتب النحو الأخرى .

وبعد فراغهم من تلك المرحلة يبدأون بالمنطق فيدرسون كتاب الكبرى الفارسى ، وحاشية ملا عبد الله ، والشمسية فى المنطق ، ثم يشتغلون بدراسة المعاني والبيان ، ويدرسون كتاب المطول للتفتازانى ، وهنا إذا زاد شغف الطلاب بالدراسات الأدبية واللغوية يتابعون الدراسة فى الكتب اللغوية الهامة من قبيل الصحاح والقاموس ومجمع البيان . ويقرأون ضمنا لقصد التوسع فى آداب اللغة العربية مقامات الحريرى ، والمعلقات السبع ، ويرجعون إلى دواوين شعر العرب ، وبدراسة هذه الكتب والمقدمات التمهيدية ينتهى الطالب من هذه المرحلة التمهيدية التى تستغرق فى الغالب أربع سنوات .

ثانياً : طلاب السطح وهم فى حكم طلاب المرحلة الوسطى يدرسون : —

أولا : كتاب المعالم فى الأصول والشرائع فى الفقه ، ثم يقرأون كتابى القوانين فى الأصول ، وشرح اللمعة فى الفقه ، أما فى هذه الأيام فقد صار من المألوف أن يكتفى الطلاب بدراسة كتاب كفاية الأصول لآخوند الخراسانى طلباً للتبحر فى علم الأصول ، والسبب فى تسميتهم بطلاب السطح هو أنهم يتابعون دراستهم على متون الكتب ، أى أن الأستاذ يقرأ أولا قسما من الكتاب ثم يشرح مفاد

العبارات ويفصلها تفصيلا دقيقاً من كل الوجوه ، ويوضح استدلالات صاحب الكتاب ، وإذا كان له أو لشخص آخر رأى خاص أو تعليق يذكره وفى نفس الوقت يفسح المجال للطلاب للرد والنقد والمناقشة حول موضوع الكتاب وتلك الآراء .

ولما كانت كتب السطح كلها استدلالية فإن دراستها والاستفادة منها توسع ذهن الطالب ، وتمنحه مقدرة خاصة لإقامة الدليل أو رد البراهين والدعاوى ، والدراسة فيها كما قدمنا ، ولكن يتفق أحيانا أن لا يكتفى أحد هؤلاء الطلاب بكتب الفقه والأصول ، فيدرس إلى جانبها كتاباً فى الحكمة (الفلسفة) من قبيل منظومة السبزوارى أو التجريد ... للخُواجة نصير الدين الطوسى ، والشفاء لابن سينا ، وأسفار ملاصدرا ، وعلوما فى الهيئة ، وكتب النجوم القديمة والحساب والتفسير والحديث ورجال الحديث وغير ذلك على أساتذة متخصصين فى (الفلسفة) أو يبحث هو بنفسه فى الكتب إذا كانت فلسفية ، وإذا تخصص فى الفلسفة سمى اصطلاحا (حكمى) ومدة مرحلة (السطوح) عادة من ثلاث إلى ست سنوات ، وقد تزيد أحيانا عن ذلك .

ثالثاً : مرحلة التحصيل المسماة (الخارج) مرحلة عالية ، ولا يكون فى هذه المرحلة مع للطلاب كتب وقت الدرس ، بأن يجعل الأستاذ موضوع الدرس إحدى فروع الفقه أو المسائل الأصوليه ، ويتناقشون فى هذا الموضوع بلغة علمية تعتمد على الاصطلاحات الخاصة ، وتبدو عبارات الأستاذ غريبة بالنسبة لمن ليس لهم إلمام بتلك الاصطلاحات ، فلا يفهمون معانى ومفاهيم تلك الاصطلاحات ، وأن يكونوا من أهل تلك اللغة والمثقفين فيها ، وقد يستغرق البحث فى أحد تلك الفروع أو الأبواب عدة شهور أو يطول إلى عام . ومجموعة فقه الشيعة تشمل عدة كتب أو عدة فصول هامة ، أولها كتاب الطهارة وآخرها كتاب الديات وتتضمن فى جملتها العبادات والمعاملات وأحكام المذهب الجعفرى ، وكل واحد من هذه الفصول أيضا شامل لفروع ومسائل هامة كثيرة ، فمثلا يطرح الأستاذ للبحث مسائل فى باب الصلاة صلاة الغريق أو المسافر أو المريض أو أحكام القبلة

وثياب المصلى المغتصبة ، أو أن يتكلم فى باب الحج وشروط الاستطاعة أو فى الصوم والزكاة والقضاء والشهادات ، ويورد على سبيل الاستدلال والحصر العقلى أقوال أو فتاوى العلماء والمجتهدين السابقين أو المعاصرين ، ويأخذ من بينها مع إقامة الدليل بالقول المختار أو برأيه هو .

وفى هذه الحالة يكون الطلاب أحراراً فى أن يتباحثوا فى باب كل موضوع ، ويحكمون بما يرون ويردون رأى الأستاذ أو غيره كلية ، ويدللون على صحة آرائهم وعقائدهم ، وقد يحدث حيناً أن يشتد الجدل حول تفسير حديث أو تأويله أو استنباطه من قاعدة أصولية أو فقهية وتعلو الضوضاء ويصل الأمر إلى حيث يظن من لا دراية له أو المار بهم لأول مرة أن القوم قد احتدموا فى النزاع أو أن بينهم خصومة ، فى حال أن المسألة فى نظرهم عادية للغاية ، وليست أكثر من مجرد بحث علمى !!

والطلاب الذين فى حلقات الدروس الخارجية (العالية) يحضرون عدة سنوات ولهم القدرة على إيراد الاشكال والدفاع والاستدلال وتكون حججهم موضع عناية الأستاذ والطلاب ، ويعرضون على الأستاذ كتاباتهم وتقريراتهم المدونة ساعات الدرس ورسائلهم التى دونوها على أساس الاستدلال فى فروع الفقه المختلفة ، والأصول ويمنحهم الأستاذ بدوره بعد المطالعة والتدقيق شهادة كتابية يقال لها إجازة الاجتهاد ، وعند ما يحصل الطالب على هذه الإجازة يصبح (مجازا) وفى ذلك الوقت يكون قد بلغ مقام الاجتهاد ، وقد صار باصطلاح القوم (مجتهداً) .

والمجتهد الحق فى أن يصنف فى أحكام الدين كتابا يسمى بالرسالة طبقا لاجتهاده أى بحثه واستنباطه أو أن يكتب الحواشى ويصادق على رسائل العلماء السابقين ، ويفتى فى الاختلافات والاشتباهات والإشكالات التى تفرض لأتباع المذهب ، أى المقلدين بمعنى أنه يبدى رأيا وحكما يأخذ به هؤلاء ويعملون بمقتضاه .

أنباء وآراء

مات شيخ الإسلام : عبد المجيد سليم :

في يوم الخميس التاسع من شهر صفر سنة ١٣٧٤ هـ (٧ من أكتوبر سنة ١٩٥٤م) اختار الله إلى جواره عبده الصالح التقي النقي شيخ الإسلام ، وعلم الأعلام ، المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، فانطوى بذلك كتابٌ مشرق الصفحات في التقى والعلم ، والخلق الكريم ، والجهاد الحق في سبيل الله ، والغيرة الصادقة على الإسلام والمسلمين (١) .

كان الفقيد رضي الله عنه مؤمناً حق الإيمان ، صافي النفس ، سليم الفطرة ، قوياً في علمه وخلقه وقلبه وعقله ، داعياً إلى الله بقوله وفعله ، واسع الأفق ، لا يحده من القيود إلا ما قيد الله به المؤمنين من اتباع كتابه ، وأن يحذروا المخالفة عن أمر رسوله ، يعيش لأفكاره ومثله وخدمة دينه وأمته ، لا للمال ، ولا للجاه ، ولا للمناصب ، فكثيراً ما ساومه المال على الواجب فأباه ، وكثيراً ما أعرض في غير ضعف ولا تردد عن مظاهر الجاه ، وكثيراً ما ضحى بالمنصب الكريم ، والسلطان العظيم ، مؤثراً عليهما رضا ربه ، وطمأنينة قلبه .

وكان رضي الله عنه وفياً شديد الوفاء ، كريم الصحبة ، عف اللسان ، قوي الجنان ، لا يخاف في الحق لومة لائم ، وكانت غيرته على الدين والعلم مضرب الأمثال : يزأر في وجوه الظالمين كما يزأر الأسد الهصور ، غير مبال بما يصيبه من بأسهم وطغيانهم ، فإذا رأى فساداً أو شراً ولم يستطع له دفعاً بكى حتى يسمع

(١) للتاريخ : ولد الفقيد في ١٣ من أكتوبر سنة ١٨٨٢ فعمره اثنتان وسبعون سنة إلا ستة أيام .

له نشيج ، وتفيض بالدموع عيناه ، وكان يرى عن إيمان واعتقاد جازم أنه لا صلاح للأمة الإسلامية إلا بأن تتمسك بدينها فى كل شأن من شئون حياتها ، على شريطة أن تتعلم هذا الدين علما واضحاً صافيا لا تشوبه شائبة من جهالة أو تحريف أو سوء إدراك .

وكان رضى الله عنه مؤمنا بفكرة التقريب إيمانا فطريا دفعه إليه سعة أفقه ، وصفاء عقله ، وصحة علمه . وقد جرى طول حياته العلمية فى الإفتاء وغيره على تلقى المذاهب الإسلامية ولو من غير الأربعة المشهورة بالقبول ما دام دليلها لديه واضحا ، وبرهانها راجحاً ، وله توجيهات علمية كان من أثرها أن أخذت لجنة الأحوال الشخصية فى مصر برأى (الإمامية) فى عدة من المسائل الفقهية هى إلى الآن ضمن القانون المعمول به .

وقد ظهر منه رحمه الله هذا الروح القوى حين ألفت جماعة التقريب فإنه احتضنها وجاهد فى سبيلها ، ووجه كثيراً من جهوده إليها ، ولم تلهه أعباء منصبه الجسام فى مشيخة الأزهر عنها ، حتى انه أدلى غداة تولى هذا المنصب للمرة الأولى بحديث حدد فيه أهدافه وقال فيه :

إن مثل المسلمين إذا احتفظوا بخلافاتهم ، وأنصتوا لداعى الفرقة والقطيعه ، كمثل شعب قامت فيه حرب أهلية طاحنة ، فهى تشغل أبناءه ، وتستنفد قواهم ، وتضيع جهودهم ، وتلهيهم عن إصلاح أحوالهم ، وتقويم معوجهم ، وتعين عليهم أعداءهم ، وتكون سبباً دائما فى إثقال كواهلهم بما لا يحتملون من الأعباء ، وفى إلباسهم لباس الذل والخوف والشقاء . . . وإن أحسن ما تطمأ به هذه الحرب الأهلية التى ظلت مستعرة بين المسلمين قرونا طويلة ، هو التفاهم ، وأن يدرك كل شعب ما عند الآخر ، ويومئذ يظهر للجميع أن أمة الإسلام متفاهمة على كل ما يكون به المسلم مسلما ، وأن ما وراء ذلك لا يضر بالدين ، ولا ينبغى أن يكون سببا فى قطع حبل الأخوة والائتلاف ، وسأنظر إن شاء الله تعالى فى كل ما يعين المسلمين على إدراك هذه الحقيقة والعمل بمقتضاها ، وإن رسالة

« جماعة التقريب » فى ذلك ، لتلتق مع رسالة الأزهر ، الذى يرى حقا عليه أن يبصر الأمة الإسلامية بأمرها ، ويرشدها إلى ما يجب أن يقوم عليه شأنهـا من المودة والتراحم والألفة ، وتبادل العلم والمعرفة » (١) .

هذا هو الرجل الذى فقدناه ، وهذا هو روحه القوى ، وعلمه الجلى ، ومن لطف الله فى قضائه ، أن هذا الرجل العظيم لم يمت حتى رأى فكرة التقريب قوية قائمة مستقيمة ، قد تآزر عليها من أهل العلم والرأى من يستطيعون بفضل الله حمل لوائهـا ، وتلبية ندائهـا ، وبذل النفس والنفيس فى سبيلها ، فالحمد لله على قضائه ، والحمد لله على لطفه ، وأحسن الله فى الفقيد عزاء المؤمنين ، وأجزل له عما قدم أجر العاملين و « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

ولقد شعرت جميع الأوساط العلميـة فى مصر والبلاد الإسلامية بالخسارة العظمى فى الفقيد الكريم ، فانهـالت الرسائل والبرقيات على « دار التقريب » وحضر إليها الأفراد والوفود ، وكلهم يعزون فيه ، ويذكرون مآثره ، ويعبرون عن احتسابهم إياه عند الله ، كما كتبت الصحف اليومية والأسبوعية فى تأبينه ، مجمعة على أنه بقية العلماء العاملين المتقين ، وهذه مقتطفات منها :

* * *

قالت الأهرام بتوقيع الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد العسكرى :

طوى الموت صفحة عالم من كبار العلماء ، وفقيه من خيرة الفقهاء المجتهدين الأحرار ، هو المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر الأسبق ، ووكيل جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وقد وقع نعيه فى دوائر العلم والأدب والدين وقعاً أليما ، إذ خسرت البلاد بوفاته مناضلا قوياً ذا طابع خاص يصول ويجول فى مختلف ميادين النضال الفكرى والعقلى ، لا يرهبه تهديد أو وعيد ، ولا يثنيه عن وثابته سلطان حاكم ولا طيش ظالم ، وخسر الأزهر والعالم الإسلامى بصفة خاصة رجلا عبقريا فذا من طراز المجاهدين من الفقهـاء

(١) المجلد الثالث من « رسالة الإسلام » ص ٢٥ .

الذين أضاءت لهم عبقريتهم طريق الحياة وسبل النجاح ، ولم يكن نجاحه فى أية معركة علمية يخوضها يرجع بالغنم إلى شخصه ، وإنما كان يغنم به الإسلام ويظفر من ورائه المسلمون فى مختلف بقاع الأرض .

وقد تلقى الشيخ عبد المجيد سليم عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مبادئه فى الإصلاح ، وأخذ عنه طريقته فى البحث والدرس والتفكير ، وكان الإمام رضوان الله عليه يحبه ويؤثره على غيره من لداته وأقرانه .

وقد شغل فضيلته وظائف التدريس والقضاء والإفتاء ومشيخة الجامع الأزهر ومكث فى الافتاء قرابة عشرين عاما ، وله من الفتاوى ما يربو على خمسة عشر ألفا فيها آلاف من الفتاوى ذات المبادىء ، وقد اتجهت وزارة العدل إلى جمعها وطبعها للانتفاع بما فيها من الآثار العلمية ذات النفع العام ، ولا شك أنها تعد مرجع المفتين والفقهاء والقانونيين مهما تعاقب عليها الزمان .

وركز نشاطه فى السنوات الأخيرة فى الاشتغال بجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وقد جعلت هذه الجماعة من أهدافها أن تتفاهم الطوائف الإسلامية على ما ينفع المسلمين ، وأن تعمل على نسيان الخلاف واستلال الضغائن من بينهم ، وله - رحمه الله - فى هذه الناحية كتابات ورسائل ومراسلات بينه وبين كثير من علماء البلاد الإسلامية ، فلم يقتصر فضله على العلم فى مصر ، ولكنه تجاوز ذلك إلى آفاق الإسلام فى كل الطوائف .

رحمه الله بقدر ما جاهد وقدم لأمته ولدينه من فوائد ونفع ، وعوض الأمم الإسلامية ، والإسلام عن فقد هذا المجاهد العظيم .

* * *

ونشرت الأهرام أيضاً كلمة بتوقيع القانونى الكبير الأستاذ محمد محمود وكيل وزارة العدل ورئيس محكمة استئناف مصر سابقاً ، جاء فيها عن منزلة الفقيد فى لجنة الأحوال الشخصية التى كانت تجمع فطاحل رجال الشريعة والقانون فى مصر .

« ... وقد كان المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم فى هذه اللجنة النجم اللامع ، والكوكب الساطع ، والحركة الدائمة ، إذ كانت تعرض الموضوعات والمسائل على اللجنة بعد سبق بحثها وفحصها ، وعند ذلك يأخذ الراحل الكريم الكلمة فيتولى شرح الموضوعات والمسائل الواحدة بعد الأخرى ، مستعرضاً شتى الآراء ومختلف الصور فى كل مذهب من المذاهب ، مقرراً حكم الشرع فى كل مذهب ، ذاكراً رأى الأئمة والمجتهدين والفقهاء المؤلفين ، متبعاً فى ذلك حكم الشرع ، ومسايراً روح الزمن ، متنقلا من فنن إلى فنن يقطف من أزهارها أبهاها ، ويجنى من ثمارها أحلاها وأشهاها ، وهو فى ذلك كله البحر المتدفق ، والعالم المحقق المدقق ، حتى إذا انتهى من جولته العلمية ، ومحاضرته الفقهية ، قامت اللجنة بالبحث والتمحيص واستنباط الحكم الملائم تمهيداً لإعطائه الصيغة النهائية ، تلك ناحية من نواحى الفقيد العظيم أسردها وأشهد بها ، عليه رحمة الله وطيب الله ثراه .

وجاء فى مجلة « منبر الشرق » بتوقيع فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية السابق :

ثوى علم من أعلام الإسلام ، وانطفأ مصباح طالما استنار به الأنام ، وخسر العالم الإسلامى بفقده نصيراً للحق من أعز النصراء ، وفقيها من أجل الفقهاء ، وتقياً من خيرة الأتقياء ... ثم قال :

أختير للقضاء وقضى به سنين ، ثم للافتاء فمكث شاغلا لمنصبه سبعة عشر عاما أصدر فيها كثيراً من الفتاوى الهامة القيمة ، وكان لا يتقيد فى بعضها بمذهب الحنفية ، ويفتى بما ترجح عنده من المذاهب الأخرى لقوة أدلته وظهور المصلحة فيه ، وكان يتحرى الحق ويأخذ به أنى وجده ، وما كان للهوى فى فتواه سبيل إلى نفسه وسلطان على ضميره .

ثم عين شيخا للأزهر مرتين لم تمكنه الظروف فيهما من تحقيق آماله فى الإصلاح وخدمة الإسلام والمسلمين .

وقد شق عليه كثيراً أن يحال بينه وبين تنفيذ ما يراه إصلاحا جوهريا فى النظم الأزهرية لا يصلح أمر الأزهر إلا به ، ولا يؤتى العلم الأزهرى ثمرته إلا بتقريره .

لن ننسى الشيخ عبد المجيد سليم القاضى النزيه والعالم القدير والفقيه المجتهد ، والصالح التقى ، والأخ الوفى ، والصابر المحتسب الذى أوذى وحورب واضطهد وحرم منه العلم والعلماء فى الأزهر وغيره .

وسيذكر له التاريخ بعد حين مواقف مشهودة ، وشجاعة ، وقوة إيمان ، وصلابة عقيدة ، وليس هو بأول من عصفت به السياسة من أعلام الإسلام .

* * *

وجاء فى مجلة (الدعوه) :

كان رحمه الله ينظر فى آراء العلماء الأولين ، ويستعرض دليل واحد كل منهم ، مترفعا عن التعصب لمذهبه ... فإذا وجد الدليل والحجة فى اى مذهب أخذ به غير مبال بمخالفة مذهبه .

وكان يقرر أن الفقه الإسلامى موسوعة كاملة لكل شئون الحياة ، وأنه لا يعرف مسألة واحدة ليس للأولين فيها رأى ، أو يمكن استنباط الرأى فيها مما قاله الأولون .

وكان تمكنه فى الفقه وسعة أفقه وعدم تعصبه ، هى الدوافع التى جعلت منه الركن الركين لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ... وقد اشتغل عملياً بهذه الفكرة ، واختار عدداً من العلماء لمشاركته ... وقد ترك فيها من المبادىء وحدد لها من الأهداف ما جعلها فكرة واضحة ماضية فى سبيلها بقوة ... وكانت بينه وبين علماء مختلف الطوائف مراسلات ومساجلات فى كثير من المسائل تسودها الرغبة فى إجلاء الحق مع التزام النقاش الهادىء الذى يليق بوقار العلماء ... فهى تذكرنا بما كان يدور بين الليث بن سعد ومالك من مساجلات تعتبر من الصحف الخالدات فى الفقه الإسلامى ... ولفضيلته بحوث فى مجلة « رسالة الإسلام » التى تصدرها دار التقريب ، ولعل الدار تهتم بنشر مساجلاته العلمية مع علماء الطوائف .

ولى عهد اليمن عضو فخرى بالتقريب :

اهتمت « دار التقريب » فى هذا العام بتقوية القسم اليمنى الزيدى فيها ، لتوفر للباحثين فى فقه الزيدية وسائر علومهم ، ما يحتاجون إليه من مراجع تفيدهم ، وتقرب إليهم غاياتهم ، فإن فى المذهب الزيدى علماً عظيما ، وفقها جيدا ، ومن حق المسلمين أن نيسر لهم سبل دراسته ، والإفادة منه .

وقد كان من حسن المصادفة أن زارها فى هذا الشهر حضرة صاحب السمو الأمير البدر ولى عهد المملكة المتوكلية اليمنية ، ولمس هذا الاتجاه ، وأبدى سروره العظيم به ، مما نرجو أن يكون له إن شاء الله أثر طيب ، ومما يذكر أن اليمن ممثلة فى جماعة التقريب منذ تأسيسها .

بين الهيآت العلمية و « دار التقريب » :

(أ) اتصلت المؤسسة العلمية العالمية « اليونسكو » التابعة لهيئة الأمم المتحدة بدار التقريب سائلة : هل يمكنها أن يعتمد على معاونة الدار فى مدها بما تحتاج إليه من المعلومات المتصلة بالطوائف الاسلامية فى الشرق والغرب ، سواء أكانت معلومات إحصائية أو فكرية مذهبية .

وقد أجابت « دار التقريب » بأنها ترحب بكل طلب للمعاونة فى هذا الشأن تتقدم به أية هيئة ، واثقة بأنها تؤدى بذلك طرفا من واجبها العلمى والإسلامى ، وتعمل على تجلية الحقائق فى كل محيط ما وسعها العمل ، كمركز إسلامى عالمى توافرت له أسباب العلم بأحوال الطوائف المتعددة فى مختلف الشعوب الإسلامية .

(ب) كما اتصلت بعض الجامعات العلمية خارج مصر بالدار فى طلب معلومات فى مسائل معينة مما تهتم به « جماعة التقريب » ويكون لها رأى موضوعى فيه .

ولا شك أن « دار التقريب » إذ تتجه إليها الهيئآت العلمية على هذا النحو ، لتشعر شعوراً كاملا بما ينبغى أن تحمله من الأعباء فى سبيل الثقافة الإسلامية وكل ما يعرف بالمسلمين ، وأنها ستقابل هذه الأعباء التى تطرد زيادتها حينا بعد حين بالترحيب وتمام الاستعداد . وبالله التوفيق .

معجم ألفاظ القرآن الكريم

من بحوث مجمع اللغة العربية[1]

– ١٤ –

ر ف ع

رفع

رفع يرفع رفاعة : علا .

ورفعه يرفعه رفعا : أعلاه .

وقد ورد الرفع فى القرآن على معان تتنوع باختلاف المرفوع وترجع جميعها إلى العلو .

١ — فهو تارة يكون على معناه الحسى فى أعلاء الأجسام الموضوعة عن مقرها ، وذلك فى المواضع الآتية :

« ورفع أبويه على العرش » ١٠٠ / يوسف ، « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » ٢ / الرعد ، « رفع سمكها فسواها » ٢٨ / النازعات ، « ورفعنا فوقكم الطور » ٦٣ / البقرة ، ٩٣ / البقرة . « ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم » ١٥٤ / النساء . ويفسر رفع الطور بأن الله قلعه ونتقه فوقهم وأماله عليهم كأنه ظلة حتى ظنوا أنه واقع بهم ، أو بأنه أعلاه وأطاله .

وكذلك الرفع فى ٧/الرحمن ، « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » ١٢٧ / البقرة ، فهو بمعنى الإطالة و ١٨/الغاشية ، « خافضة رافعة » ٣ / الواقعة ،

(١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد رئيس المجمع .

« والسقف المرفوع » ٥ / الطور ، « وفرش مرفوعة » ٣٤ / الواقعة ، « فيها سرر مرفوعة » ١٣ / الغاشية .

٢ — وتارة يكون رفعاً معنويا بإعلاء المنازل وتشريف المقامات وذلك فى « ورفع بعضهم درجات » ٢٥٣/البقرة ، « ورفع بعضهم فوق بعض درجات » ١٦٥ / الأنعام ، ٣٢ / الزخرف ، ١٧٦ / الأعراف ، « ورفعناه مكانا عليا » ٥٧ / مريم ، ٨٣ / الأنعام و ٧٦ / يوسف ، « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » ١٠ / فاطر ، ١١ / المجادلة ، « فى بيوت أذن الله أن ترفع » ٣٦ / النور ، « رفيع الدرجات ذو العرش » ١٥ / غافر ، « فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة » ١٤ / عبس .

٣ — وتارة تحتمل الرفع الحسى والرفعة المعنوية ، مثل : « بل رفعه الله إليه » ١٥٨ / النساء ، « أنى متوفيك ورافعك إلى » ٥٥ / آل عمران . فقد اختلف فى ذلك على ما هو معروف .

٤ — وتارة يكون الرفع بمعنى التنويه مثل « ورفعنا لك ذكرك » ٤/الشرح وهو يرجع إلى المعنى الثانى وهو التشريف .

٥ — وتارة يكون الرفع حسيا مع غير الأجسام كالصوت مثل « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » ٢ / الحجرات ، فإنه إعلاء للصوت من غير قراره المعهود .

ر ف ق

رفق

رفق به وله وعليه يرفق رفقا ورفق يرفق ورفق : لان وسهل ولم يعنف فهو رفيق ورفق فلانا : نفعه ، والمرتع الرفق : السهل المطلب . ومنه سمى الرفيق بمعنى الصاحب ، لأنه يلين لصاحبه ، ويلطف فى المعاشرة ، ومصدره الرفاقة ، وهو وصف يستوى فيه الواحد وغيره ، ومنه : « وحسن أولئك رفيقا » ٦٩ / النساء . وقيل أفرد اكتفاء بالواحد عن الجمع فى باب التمييز لفهم المعنى ، أو لأنه قصد بيان الجنس مع قطع النظر عن الأنواع ، والمرفق كمنبر ما يستعان به من الأمر

ومنه : « ويهيء لكم من أمركم مرفقا » ١٦/ الكهف ، ورفق العمل من باب فعل أحكمه ، ورفق الناقة : شد عضدها : إذا خيف أن تنزع إلى وطنها ، ولعل منه المرفق أو المرفق : وهو موصل الذراع في العضد ، لأنه موضع الربط والأحكام بينهما ، وقالوا سمي بذلك لأنه يرتفق عليه أي يتكأ ، أو لأنه يستعان به ، ومنه : « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق » ٦ / المائدة .

ارتفق ارتفق اتكأ على مرفق يده أو امتلأ أو وقف ثابتاً دائماً ، وقد ورد من هذا : « بئس الشراب وساءت مرتفقا » ٢٩ / الكهف ، وفسر المرتفق في الآية بتفسيرات عدة ، فقيل المرتفق : المتكأ بأن يكون لأهل النار ارتفاق فيها ، أي اتكاء على مرافق أيديهم ، كما يفعله المتحزن المتحسر ، وقيل هو المنزل والمقر وقيل هو موضع الترافق أي ساءت موضعا للترافق والتصاحب ، فهو بمعنى المجتمع .

وكذلك تقال هذه الأوجه في : « نعم الثواب وحسنت مرتفقا » ٣١/الكهف ويكون الحسن طبعاً في مواضع السوء فيما تقدم .

ر ق ب

رقب رقبه يرقبه رقبة ورقبانا ورقوبا ورقابة : حفظه وحرسه وشهده أو انتظره وتوقعه فهو رقيب .

١ — فمن معنى الحفظ والمراعاة هذه المواضع : « إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي » ٩٤ / طه . هذا إذا كانت جملة « ولم ترقب قولي » من مقول القول ، فهي حينئذ معطوفة على « فرقت بين بني إسرائيل » أو كانت حالا من فاعل « فرقت » والمراد بالقول حينئذ قول موسى ، أما إذا كانت الجملة حالا من فاعل (تقول) كان (لم ترقب) بمعنى لم تنظره والقول حينئذ قول هارون ، ومنه أيضا : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة » ٨ / التوبة . « لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة » ١٠ / التوبة . أي لا يراعون ، ومنه : « فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم » ١١٧ / المائدة أي الحفيظ المراقب ، أو المطلع المشاهد وكذلك « إن الله كان على كل شيء رقيبا »

١ / النساء . « وكان الله على كل شيء رقيبا » ٥٢ / الأحزاب . « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ١٨ / ق .

٢ — ومن معنى الانتظار والتوقع « ولم ترقب قولى » ٩٤ / طه على أحد الوجهين ، أى ولم تنتظر أن تسمع قولى ، « إنى معكم رقيب » ٩٣ / هود .

والرقبة : العنق وقيل أعلاه ، وقيل مؤخر أصل العنق ، والجمع رقب ورقاب وأرقب ، ويعبر بالرقبة عن النسمة وجملة الشخص وجعل فى التعارف اسماً للمماليك كما عبر بالرأس وبالظهر عن الركوب ، فقيل فلان يربط كذا رأساً وكذا ظهراً ، والظاهر أن أصل إطلاق الرقبة على العبد أو الأسير ناشيء من أنهم كانوا يربطونهم من رقابهم عند الأسر أو الاسترقاق ، ولذلك ورد فى القرآن فك رقبة أو تحرير رقبة . ولو لم تكن مربوطة مثل « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » ٩٢ / النساء أى تحرير عبد ، « وما أدراك ما العقبة فك رقبة » ١٣ / البلد : أى تخليصها بالاعتاق إذا كان يملكه أو بالمعاونة عليه ، كما فى اعطاء العبيد المكاتبين .

وقد وردت مجموعة فى « والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب » ١٧٧ / البقرة ، « والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب » ٦٠ / التوبة : فى الرقاب : أى للصرف فى فك الرقاب وإعتاقها بأن يعان العبيد المكاتبون بشيء منها ، وقيل بأن يبتاع منها الرقاب فتعتق ، وقيل بأن يفدى الأسارى . وفى « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » ٤ / محمد : مجاز عن القتل سواء بضرب الرقبه أو غيره ، وعبر به إشعاراً بأنه ينبغى أن يكون بضرب الرقبة حيث أمكن وتصويراً له بأشنع صورة ، وتشجيعاً للمؤمنين ببيان أنهم يتمكنون من ذلك فى الحرب .

ترقب ترقب يترقب ترقبا : انتظر وتوقع ورصد ، ومنه « فأصبح فى المدينة خائفا يترقب » ١٨ / القصص ، أى يترصد الأخبار أو يتوقع المكروه من فرعون ، وكذلك « فخرج منها خائفا يترقب » ٢١ / القصص : أى يتوقع لحوق الطالبين .

ارتقب ارتقبه يرتقبه ارتقابا : مثل ترقبه ، ومنه « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين »

١٠ / الدخان ، « فارتقب إنهم مرتقبون » ٥٩ / الدخان ، « وارتقبوا إنى معكم رقيب » ٩٣ / هود ، « فارتقبهم واصطبر » ٢٧ / القمر .

ر ق د

رقد — رقد يرقد رقودا ، ورقاداً ورقدا : نام ليلا أو نهاراً ، أو نام بالليل فقط ، أو نام نوما قليلا مستطابا ، فهو راقد وجمعه رقد ورقود ، ومنه : « وتحسبهم إيقاظا وهم رقود » ١٨ / الكهف .

والمرقد : مصدر ميمى أو اسم مكان ، وقد ورد فى موضع واحد « قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا » ٥٢ / يس ، أى من رقودنا أو من موضع رقودنا .

ر ق ق

رق — رق يرق رقا ورقة : ضد غلظ وثخن ، فهو رقيق ورق وهى رقيقة ورقاقة . والرق بالفتح وبكسر فى لغة قليلة : الجلد الرقيق يكتب فيه ، أو الصحيفة البيضاء ، وجمعه رقوق ، وأصله من الرقة أو من اللمعان ، يقال : ترقرق الشىء إذا لمع . وقد تجوز فيه عما يكتب فيه مطلقا ، وقد ورد فى موضع واحد : وكتاب مسطور فى رق منشور » ٣ / الطور .

ر ق م

رقم — رقم الثوب يرقمه رقما : وشاه ، ورقم الشىء أعلمه بعلامة تميزه عن غيره ، ورقم الكتاب : كتبه أو أعجمه وبينه فهو رقيم ومرقوم ، ومنه : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا » ٩ / الكهف . والرقيم : اسم كلبهم ، أو هو لوح من حجارة كتبت فيه قصة أهل الكهف ، وقد وضع على باب الكهف أو هو لوح من حجارة كتب فيه أسماؤهم وجعل فى سور المدينة ، وقيل لوح من رصاص كتب فيه شأنهم ، ووضع فى تابوت من نحاس فى فم الكهف ، وقيل من ذهب ، وقيل كتاب كان عندهم فيه الشرع الذى تمسكوا به من دين موسى أو دين عيسى ، وفعيل بمعنى مفعول ، وقيل اسم واد دون فلسطين قريب من (أيله)

والكهف فى ذلك الوادى فهو من رقة الوادى ، أى جانبه . وقيل اسم القرية التى خرجوا منها ، ومنه : « وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم » ٩ / المطففين . « وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم » ٢٠ / المطففين . فمرقوم : بين الكتابة أو معلم أو مختوم أو مثبت كالرقم لا يبلى ولا يمحى .

ر ق و

تراقى — الترقوة : العظم المكتنف ثغر النحر عن يمين وشمال ، جمعها تراقى ، وقد ورد الجمع فى : « كلا إذا بلغت التراقى » ٢٦ / القيامة ، أى بلغت الروح أعالى الصدر وحشرجت .

ر ق ى

رقى — (ا) رقى فى السلم ورقيه ورقى إلى الشىء يرقى رقيا ورقيا : علا وصعد ، ومنه . « أو ترقى فى السماء » . « ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه » ٩٣ / الإسراء . « وقيل من راق » ٢٧ / القيامة . أى من لا يرقى ويعرج بروح الميت ، على أحد قولين .

رقى — (ب) رقا المريض يرقيه رقياً ورقياً ورقية : عوذه ونفث فى عوذته ، ومنه : « وقيل من راق » ٢٧ / القيامة : على القول الثانى : أى من يرقيه ويطببه بالقول أو بالفعل لينجيه .

ارتقى — ارتقى الشىء وارتقى إليه وارتقى فى السلم : صعد ، ومنه : « فليرتقوا فى الأسباب » ١٠ / ص ، أى فليصعدوا فى المعارج إلى العرش ، ويدبروا أمر العالم .

ر ك ب

ركب — ركب الدابة يركبها ركوبا : علاها وركب السفينة وركب فيها ، وأصل الركوب كون الإنسان على ظهر الإبل ، ثم استعمل مع غيرها ، ومنه : « حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها » ٧١/ الكهف « فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله » ٦٥/ العنكبوت « لتركبن طبقا عن طبق » ١٩ / الانشقاق ، الركوب هنا بمعنى الملاقاة ، أى لتلاقن

حالا بعد حال ، أو الركوب على حقيقته ، وتجعل الحال مركوبة مجارا ، والمعنى : لتركبن أحوالا بعد أحوال هى طبقات بعضها أرفع من بعض فى الشدة ، وهى الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها ، أو هى طبقات الحياة وتطورها من النطفة ، وما بعدها إلى الموت ، وما بعده من البعث والاستقرار فى إحدى الدارين .

وقد ورد الفعل أيضاً فى ٧٩/ غافر و١٢ / الزخرف و ٨ / النحل و٤٢/ يس و ٤١ و ٤٢ / هود .

والركب : اسم جمع راكب على الصحيح للعشرة فصاعداً ، ومنه : « والركب أسفل منكم » ٤٢ / الأنفال يجوز أن يكون ركب خيل أو ركب إبل ، ويجوز أن يكون الجيش منهما جميعاً ، والمراد به فى الآية العير أو أصحابها أبو سفيان وأصحابه .

والركبان : جمع راكب ، وكان لا يقال إلا لراكبي الإبل فقط ، مثل الراكب والركب ، ثم استعمل مع ركاب غيرها ، وقد ورد فى : « فإن خفتم فرجالا أو ركبانا » ٢٣٩ / البقرة .

والركاب : غلب فى الإبل التى يسار عليها واحدتها راحلة ، ولا واحد لها من لفظها ، وجمعها ركب مثل كتب ، وقد وردت فى : « فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب » ٦ / الحشر :

والركوب : المركوب فعول بمعنى مفعول كحصور وحلوب وقروع . وهو مما لا ينقاس . وقد ورد فى « فمنها ركوبهم ومنها يأكلون » ٧٢ / يس ، أى : فبعضها مركوبهم .

ركب ركب الشىء : وضع بعضه على بعض ومنه « فى أى صورة ما شاء ركبك » ٨ / الانفطار : أى وضع أجزاءك وألف بينها بحيث تبرز الصورة التى يشاؤها .

تراكب وتراكب الشىء : ركب بعضه بعضاً ومنه « نخرج منه حبا متراكبا » ٩٩ / الأنعام . أى بعضه فوق بعض كما فى السنبل .

ر ك د

ركد — ركد الماء والريح والسفينة يركد ركودا : سكن وثبت فى مكانه ، فهو راكد وهي راكدة جمعها رواكد ومنه « أن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » . ٣٣ / الشورى . أى فتظل السفن ساكنة ثابتة فى مكانها .

ر ك ز

ركز — ركز العرق يركز ركزا : اختلج والركز الصوت الخفى ، والحس وخصه بعضهم بالصوت الخفى بدون حرف ولا فم . ومنه « هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً » ٩٨ / مريم . وأصل الركز هو الخفاء ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه فى الأرض ، والركاز للمال المدفون .

ر ك س

أركس — ركس الشيء وأركسه يركسه ركسا : قلبه على رأسه ، أو رد أوله على آخره فهو مركوس وركيس ، وقد ورد فى موضعين « والله أركسهم بما كسبوا » ٨٨/ النساء أى ردهم إلى الكفر ، « كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها » ٩١/ النساء أى قلبوا فيها .

ر ك ض

ركض — ركض الدابة يركضها ركضا : ضرب جنبيها برجله أو هو الضرب بالرجل وتحريكها والدفع واستحثاث الدابة للعدو وركضت الدابة نفسها ، كأن الركض منها مع أن الأصل هو ضرب الراكب مركبها .

ومتى نسب الركض إلى الراكب فهو استحثاث المركوب واعداؤه ، ومنه « إذا هم منها يركضون لا تركضوا » ١٢ ، ١٣/ الأنبياء ، ومتى نسب إلى الماشى فهو وطء الأرض نحو « اركض برجلك » ٤٢/ص ، أى اضرب برجلك الأرض .

أى إذا هم منها يفرون راكضين دوابهم ، لا تفروا ، ويجوز أن يكونوا قد خرجوا راجلين ، وشبهوا فى سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم ، لأنهم يركضون فى الأرض بأرجلهم .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

---

١ — نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد.

٢ — ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها، وألا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها.

٣ — ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتى هى أحسن، وألا يجرحوا شعور غيرهم، حتى يمهدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون، فإن ذلك أولى بهم، وأجدى عليهم، وأحفظ للمودة بينهم وبين إخوانهم.

٤ — من المعروف أن «سياسة الحكم والحكام» كثيراً ما تدخلت قديماً فى الشئون الدينية، فافسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتا لأقدامهم، وأنهم سخّروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض، وقد ذهب الحكام وانقرضوا، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية، تؤثر فى العقول أثرها، وتعمل عملها، فعلينا أن نقدر ذلك، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة.

* * *

وعلى الجملة، نرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار.

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا ـ العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب ـ نشر المبادىء الاسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

جـ ـ السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهـــرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية
تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة
صاحب الامتياز : محمد تقى القمى

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى
الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤
قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشاً مصرياً
وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

مطبعة احمد على مخيمر ت ٤٧١٩٢